تاريخ المصريين ٤٥

الحروب الصليبية

تأليف

وليم الصورى

ترجمة

د. حسن حبشي

الجزء الأول

رئيس مجلس الإدارة

د. سمير سرحان

رئيس التحرير

د. عبد العظيم رمضان

مدير التحرير:

عبد العظيم الشبلي

اهداءات ١٩٩٨

مؤسسة الاهرام للنشر والتوزيع

القاهرة

الحروب الصليبية

(١٠٩٤ ـ ١١٨٤ م)

الجزء الأول

تأليف

وليم الصورى

ترجمة وتقديم

د. حسن حبشى

١٩٩١

هذه ترجمة لكتاب :

A

HISTORY OF DEEDS DONE
BEYOND THE SEA

BY

WILLIAM OF TYRE

TRANSLATED BY

EMILY ATWATER BABCOK

&

A C. KREY

Columbia University Press
1943

تقــديم

يسرني أن أقدم للقارئ هذا العمل العلمي العظيم ، لمؤلف عظيم ، ومترجم عظيم . أما العمل فهو تاريخ الحروب الصـليبية لوليم الصوري ، الذي يعرفه طلاب الدراسات التاريخية كأحد أعظم المصادر في تاريخ هذه الحروب الخالدة ، وكأقدمها أيضا ، فقد رأى النور في صورته الأصلية في القرن السادس عشر الميلادي . وهو يعالج الفترة التي امتدت من عام ١٠٩٤ الى عام ١١٨٤ ، أى على مدى تسعين عاما من عمر مصر والشام ، فضلا عن بعض أقاليم أعالي العراق وآسيا الصغرى . وهذه الفترة والتي تلتها على مدى قرن ونصف آخر من الزمان ، هي التي أخذت تتدفق فيها من غرب أوربا تلك الهجرات الشـعبية المسلحة المتسربلة بمســوح الدين والمتمسحة بالصليب وهي التي عرفت باسم الحملات الصليبيه .

أما مؤلف الكتاب فهو وليم الصوري ، الذي ولد في ١١٣٠ م ، والذي يعـده بعض المؤرخين الأوروبيين واحـدا من أعظم مؤرخي العصـور الوسطى قاطبـة . وقد توفرت له من أدوات الكتـابة التاريخية ما لم يتوفر لغيره ، فالى جانب اتقـانه للغـة اللاتينية والفرنسية واليونانيـة ، والمامه بالعربية ، فقد كان تحت يده من الوثائق ما جعله مبرزا في الكتابة التاريخية وحجة في عصره . وقد شغل من المناصب ما جعله جزءا من الأحداث التي يؤرخ لها ، فقد كان مشرفا على ديوان الرسـائل في بـلاط مملكة بيت المقدس ،

وسفيرا للملك عمورى فى بلاط امانوبل امبراطور بيزنطة ، الى جانب شغله لمراكز دينية تدرج فيها حتى بلغ الذروه فى سلك الكهنوت ، وصار رئيس أساقفة صور ، ومعنى ذلك أنه وصل الى أسمى المناصب غير الحربية فى الدوله بعد الملك ٠

أما المترجم فهو الأستاذ الدكتور حسن حبشى ، أستاذ تاريخ العصور الوسطى ، الذى حصل على درجة الدكتوراه من جامعة لندن . واختير للتدريس فى كلية « ساوث ايلنج » بلندن ، وتدرج فى سلك التدريس الجامعى فى جامعة عين شمس ، مدرسا فأستاذا مساعدا ، فأستاذا لكرسى التاريخ بكليه الآداب ، ولمعرفته باللغه اللاتينية والفرنسيه القديمة ، فقد ترجم العديد من الكتب الى اللغه العربية ، فترجم عن اللاتينية أول وثيقة عن الحروب الصليبيه ، التى سماها بالعربيه « تاريخ الفرنجة وحجاج بيت المقدس » ، ثم أتبعها بترجمة حياه الملك لويس التاسع وحملاته على مصر والشام للمؤرخ الفرنسى جوانفيل ، كما ترجم عن الفرنسة القديمة كتاب «فتح القسطنطينية» على يد الصليبيين لروبرت كلارى٠ كما نشر مخطوطه « مضمار الحقائق وسر الخلائق » لتقى الدين الحموى ، ابن أخى صلاح الدين الأيوبى ، وفيه جزء يتعلق بمعركته فى سبيل استرداد بيت المقدس ٠ ثم ترجم مذكرات « جودفرى فلهاردوان » الفرنسى عن الحملة الصليبية الرابعة

وتعد ترجمة الأستاذ الدكتور حسن حبشى لكتاب « الحروب الصليبية » لوليم الصورى ، التى سوف نصدرها فى أربعة مجلدات ، من أهم الأعمال العلمية التى ينبت بها الأستاذ الدكتور حسن حبشى مكانته العلمية الرفيعة فى بلدنا وفى العالم العربى ، وهى دليل على عظمة هذا الأستاذ الكبير الذى كرس حياته لخدمة علم التاريخ ، وتفرد الى حد كبير بقدر عظيم من الدقة العلمية التى

ترسم للجيل الجديد من مؤرخينا الشبان الطريق السليم والوحيد للوصول الى الأستاذية بمعناها الصحيح .

لذلك لا يسعني الا أن أعرب عن سرور هذه السلسلة من « تاريخ المصريين » بنشر هـــذا العمل العلمي العظيم ، الذي يهم المثقف والعالم المتخصص ويضعه في أكرم مكان من المكتبة العربية.

والله الموفق ،

رئيس التحرير

أ.د. عبد العظيم رمضان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المترجم

يتعلق هذا الكتاب الذى بين يدى القارىء بحقبه من الزمن امتدت من ١٠٩٤ حتى ١١٨٤ أى على طول تسعين عاما من عمر مركزى الثقل فى الشرق الاسلامى وهما مصر والشام ، وينسحب ذلك ــ الى حد ما ــ على بعض أقاليم أعالى العراق وآسيا الصغرى ، وقد شهدت هذه الفترة والتى تليها ــ لمدة قرن آخر ونصف قرن من الزمان ــ جموعا كثيفة وجيوشا جرارة هى فى الواقع هجرات شعوبية أخذت تتدفق ــ على وجه الخصوص ــ من غرب أوروبا ، متسربلة بمسوح الدين ، ومتخذة لها شعارا زائفا هو « انقاذ بيت المقدس من أيدى المارقين » ، ولو صدقت لقالت امتلاكه لنفسها واحتلالها منطقة الشرق الأدنى بأكملها بعد تفريغها من أصحابها الحقيقيين أيا كان دينهم ومذهبهم •

والواقع أنه كانت هنــاك دوافع أعمق من هــذه الشعارات الخادعة ، ذات الرنين الدينى المحرك للشعور الغربى لا سيما بين العــامة ، وكانت هــذه الدوافع تكمن وراء الزحوف التى عرفت بالحملات الصليبية •

أما مؤلف هذا الكتاب فيعرفه المؤرخون منذ عصره حتى اليوم باسم « وليم » ، فان زادوا في التعريف به قالوا « الصوري » ، واذا رحنا نسأله من يكون أبوه فلا نحظى منه ولا ممن ترجموا له وكتبوا عنه ـ وهم كثيرون ـ باجابة ما ، اذ يمسكون عن الرد ولو بشيء يكون مثار حوار وجدل ، وما نعته بالصوري الا نسبة الى المدينة المعروفة باسم صور بالساحل الشامي والتي لها تاريخ ـ وأي تاريخ ـ في العصور المختلفة قديمها وحديثها ، فقد صار مؤرخنا « وليم » رئيس أساقفتها سنة ١١٧٥ أي بعد دخول الصليبيين بلاد الشام بأكثر من ثلاثة أرباع القرن وبعد بضع سنوات قلائل من فتح الصليبيين للمدينة ٠

أصله ونشأته :

اذا كان الناس لم يعرفوا سلسلة نسب « وليم » فانهم لم يعرفوا أيضا سنة مولده بل اختلفوا فيها اختلافا بينا ، فمنهم من عدوها سنة ١١٢٧ وعلى رأس هؤلاء المؤرخ الانجليزي « بيوري » وذلك حين قام بنشر كتاب « ادوارد جيبون » عن « تدهور وسقوط الامبراطورية الرومانية » ، وهو الكتاب العظيم المعدود من عيون التراث الكلاسيكي في الأدب والتاريخ على السواء ٠

وأخر غيرهم سنة مولده فجعلوها سنة ١١٣٠ دون أن يجزموا جزما باتا بتلك السنة ، وذلك أنهم حين يشيرون اليها يرددون في كلامهم عنها ويسبقونها بقولهم « حوالي سنة ١١٣٠ » ، وأيا كان عام مولده فالمتتبع لأحداث عمره التي نعرف جزءا كبيرا منها لا سيما منذ أن قارب سن الشباب يرى أنه عاش في هذه الدنيا أكثر من نصف قرن من الزمان صرف الشطر الأخير منه طالبا للعلم سواء في

مملكه بيت المقـدس اللاتينيه أو في فرنسا وايطـاليا . ومكبا على الدراسات الدينيه ومسرفا على ديوان الرسائل في بلاط مملكة بيت المقدس اللاتينيه وسفيرا للملك عموري الى بلاط « امانويل » امبراطور بيزنطة ، الى جانب شغله لمراكز دينية تدرج فيها حتى بلغ الذروه في سلك الكهنوت المسيحي اذ صار رئيس أساقفة صور ومات وهو يتطلع في حسره لأن يكون بطرك بيت المقدس . ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه • فاذا عرفنا ذلك كله عنه تملكنا العجب من جهـل التاريخ لأسرته جهلا حمل بعض المؤرخين المحدثين على القول بأنه كان من أسرة من عامة الناس في القدس ، ويريد هذا الفريق أن يقول أنها ليست من الفرسان ولا النبلاء ولا الأشراف ، بيد أن ذلك كله لم يمنعه أن يكون في القمة من المؤرخين اذ كتب ما كتب ، وأن يشغل أسمى المناصب غير الحربية في الدولة اللاتينية بعد الملك . وأن يسبق أقرانه في العلم والذكاء والمعرفة وسعه الاطلاع ودراسة أعماق النفس الانســانية سبقا لم يجـاره فيه أحــد من أنداده ومعاصريه •

على أية حال فقد أدى جهل المؤرخين بأسرته الى التضارب البين في أين كان مسقؤه والاختلاف الكبير فيه فقال بعضهم أنه ولد بالقدس بعد أن صارت مملكة صليبية ، ودرج على ثراها فأحبها حبا تمثل في أن جعلها مركز كتاباته التاريخية التي اتسعت مساحتها القلمية ولكنها كانت تصدر عن تلك المدينة المبجلة في التاريخ والموقرة عند جميع الأديان السماوية ، والتي هي عنده واسطة العقد ، لذلك نراه يطيــل في دراستها ويجعلهــا مستهل كتابته التاريخية منــذ أن فتحها المسلمون زمن الخليفة الراشد عمر بن الخطــاب وان كان قد أوجز ايجازا شديدا في عرضه للفترة الممتدة منذ الفتح العربي لها عام ٦١٤ م حتى اغتصبها الصليبيون سنة ١٠٩٩ م •

فاذا أخذنا بالرأى القائل بمولده فى المملكة جاز لنا أن نقول أنه كان من أبناء فلسطين بعد الغزو الصليبى ، وهو قول غير بعيد عن الصحة ، لكن هذا يدفعنا للتساؤل : أكان أبوه هو أيضا من أهلها ؟ ، أم أنه كان وافدا عليها ؟ .. فان كان وافدا فمتى كان ذلك ؟ وكيف كانت هيئة حضوره ؟ وهل كان مجيؤه اليها صحبة الجماعات الطارئة عليها من بلاد الغرب الأوربى ؟ .

وقد ثارت هذه التساؤلات فى أذهان كثيرين ممن ترجموا له وذهبوا فى ذلك الموضوع مذاهب شتى ، فمنهم من رد أباه الى أصل فرنسى ، ومنهم من قال انه ايطالى ، وزعم آخرون أنه انجليزى ، وقال غير هؤلاء وهؤلاء أنه ألمانى ، دون أن يبين أى واحد من هؤلاء علام كان اعتماده فى تقرير نسبه الى هذا القطر أو ذاك .

هذا التضارب الكبير فى تحديد مسقط رأس الأب يرجع الى سكوت الابن « وليم » عن هذا الجانب سكوتا مطلقا ، مما حمل مؤرخيه على أن يختلفوا فى أصله حيث لم يشر هو اليه من قريب أو بعيد ، هذا على الرغم من أنه هو نفسه كان شديد الحرص على أن يرد أكثر القادة والزعماء ورجال الدين وأصحاب الأمر الذين وردت الاشارة اليهم فى كتابه الى مواطنهم الأولى حتى ولو كانوا شرقيين ، مع ذكر أنسابهم فى معظم الأحوال ، لكنه لم يفعل ذلك بأصله هو ذاته ، مما فتح باب الاجتهاد والتكهن واسعا أمام من كتبوا عنه فكان اجتهادهم أقرب الى الحدس والتخمين منه لأن يصل الى أمر مقرر ، وصار هؤلاء المجتهدون شيعا وأحزابا يذهب كل منها فى هذا الموضوع مذهبا يخالف ما يذهب اليه الآخرون ، فردته كل طائفة الى بلد أوربى غير البلد الذى ردته اليه الأخرى ، هذا الى جانب من جعلوا القدس مهبط رأسه .

فاذا استعرضنا آراء هؤلاء الدين يردونه الى اصل أوربى عجرنا معهم عن تحديد ذلك الأصل تماما ، وأول من نطالعهم هم من قالوا أنه المانى الأصل ، عير أن المطالعة الدقيقه لكتاب « وليم » التاريخى هدا تحملنا على استبعاد هذا الرأى ، لأنه حين يعرض لبعض من اشتركوا فى التجريدات الصليبية من التيوتون « الألمان » نراه يندد بهم تنديدا بالغا بسبب سوء مسلكهم وهمجيتهم التى يميط عنها اللثام دون تحرج من جانبه أو رعايه لهم وهم على دينه ومذهبه . كما أنه يشير الى أن بعضهم كانوا لا يتورعون عن الافساد فى بلاد « اخوانهم » المسيحيين الأوربيين ، مدمرين للأرض وهاتكين للعرض وهم فى طريقهم لانقاذ اخوانهم « المسيحيين الشرقيين » ... فلو كان وليم جرمانى التبعة لما تناولهم هذا التناول المر ولأغضى عن بعض مخازيهم أو قلل من حدته عليهم .

ومما يؤكد عدم سريان الدم الألمانى فى عروقه أنه حين يعرض لمن ساهموا من الألمان فى الحملة الثانيه فانه يقدم الدليل – عن غير قصد – على جهله بأكثر المقدمين من وجوههم .

☆☆★
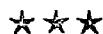
اذا كنا قد استبعدنا أن يكون ألمانيا فهل يمكن أن يكون انجليزيا ؟

هناك لفيف من الناس يعتقدون أنه من هذه الجزيره ، وهم معذورون فى اعتقادهم هذا اذ خلطوا بينه وبين شخص آخر انجلىزى كان يحمل نفس الاسم ، كما أنه صار رئيس أساقفه صور ويدعى أيضا لذلك « بوليم » الصورى ، ولكنه كان غير صاحبنا مؤلف هذا الكتاب ، ويحق لنا – بناء على ما سنقدمه حالا – أن نسميه « بوليم » الصورى « الأول » على حين نسمى مؤلف كتابنا هذا بوليم الصورى

« الثاني » ، ولقد كان هذا الوليم الصوري الأول انجليزيا فتى وكان يشغل وظيفة حارس القبر المقدس في بيت المقدس والقيم عليه ، وكان مؤلفنا يعرفه ويكتب عنه في تاريخه (١) ويثني على أخلاقه ومنهجه في الحياة ثناء عاطرا ، ويقول عنـه بصريح العبـارة أنه « انجليزى المولد » ، ثم يتابع بعد قليل كلامه عنه فيصفه « بسلفنا وسلف جميعنا نحن الذين جئنا من بعده » ، أى في رياسة أسقفية صور التى كان وليمالأول رئيس أساقفتها سنة ١١٧٠ ، لذلك يؤرخ له مؤرخنا وينعته « بسلفنا العظيم صاحب الذكر المجيد » ، ثم يشير الى ذهابه الى روما ليتسلم عصا الرعوية من البابا بعد أن مسحه بطرك القدس بالزيت ٠

هذا هو بعض الخبر عن وليم الأول الصورى ٠

ثم ان مؤلفنا وليم الصورى الثانى (صاحب الكتاب الذى بين يدى القارىء ترجمته العربية الآن) يتابع كلامه عنه مع ايراده لكامل الوثيقة التى كتبها أدريان بابا روما حينذاك لتأييد وليم الصورى الأول والتى يقول فيهـا الجالس على كرسى بطرس بروما موجهـا الخطاب الى بطاركة المشرق وأساقفته ومطارنته : « ٠٠٠ انما نؤمن ايمانا جازما بأن كنيستكم الأم فى صور ستجنى منه (أى من وليم الانجليزى) أحسن الثمار ٠٠٠٠ » ٠

ويكتب نفس البابا خطابا الى « جورموند » بطرك القدس يقول له فيه بشأن هذا الأسقف « ٠٠٠ ايماء الى خطاب محبتكم الأخوية فقد رحبنا بأخينا وليم (الأول) الذى اخترتموه رئيسا لأساقفة الكنيسة فى صور » (٢) ٠

---

(١) الكتاب ١٣ ، الفصل ٢٣ ٠

(٢) نفس الكتاب والفصل ٠

لقد كان هذا الاسم « وليم » ، ونعته « برئيس أساقفة صور » ثم تاريخ هذا الحدث ووقوعه في السبعينات من القرن الثاني عشر دافعا الكثيرين على أن يزلوا زلة تاريخية كبرى ، اذ خلطوا بين الاسمين خلطا يدحضه المتتبع لتاريخ كل منهما ، ولقد زعموا ان وليم الأول « الانجليزى » هو نفسه وليم مؤلف تاريخنا هذا ، فقالوا أن الثانى « انجليزى » الأصل وما هو بانجليزيه ·

وبناء على هذا التصحيح الذى سقناه فان هذه النسبة تسقط عن صاحبنا وليم ، كما أن هذا التصحيح يحملنا على أن نقول مع القائلين بنفى هذا الأصل الانجليزى ، كما أنه يؤيدنا فى هذا النفى ما نراه فى كتابه هذا الذى بين يدى القارىء الآن من تنديده بالانجليز ممثلين فى شخص البابا أدريان الرابع — وهو انجليزى — حيث يصفه وليم بالمرتشى ويتهمه بالمحاباة فى الانتخابات الكنسيه مما يثلم كرامته كرجل دين يفترض فيه أن يكون الحق منهاجه(٣)، وكان هذا الهجوم العنيف من صاحبنا وليم حين آثر هذا البابا « الانجليزى » الأصل أحد مواطنيه وهو الكاهن « رالف » بمنصب ليس من حقه فيقره سنة ١١٥٦ أسقف لبيت لحم ، ويرى وليم أن نجاح رالف هذا فى « تولى شئون هذه الكنيسة العظمة راجع الى عطف مواطنه البابا أدريان الرابع (الانجليزى) » (٤) ·

ولا يعنينا هنا قول وليم فى رالف « الأسقف » ولكن يهمنا تهجمه على رالف « الانجليزى » ، وهذا ما نتبينه أيضا من ثنايا كلامه عن هنرى الأول ملك انجلترا ، ووصفه اياه « بمغتصب العرش المستحوذ عليه بالخديعة » ويشير الى أنه فى سبيل الاحتفاظ بهذا

---

(٣) ك ١٨ ، ف ٨ ·

(٤) ك ، ف ١٧ ·

العرس حسس كل فوى المملكه لدفع أحمه صاحب الحق اسرعى (٥)

نخلص من هدا ومن كثير غيره مما ورد فى الكتاب الدى بين أيدينا الى يهجم مؤلفه على الانجلىز أو على الأقل نقده اللاذع لهم مما يباعد بينه وبين أن نكون له عرق فيهم ، والا كان أخف نقدا فى هجومه عليهم ·

★★★

ودهب آخرون للقول بأنه « فرنسى » الأصل ، معتمدين فى دلك على أنه قلما يرد دكر فرنسا الا ويكون لسان ثناء عليها وتمجيد لها (٦) ، وسيرى المطالع لهذه الترجمة العربيه دلك المديح فى مواضع متعددة منها · وفى رأينا أن هدا المديح هو الدى حمل دائره المعارف الأمريكية (٧) لأن تذكر فى نبذة قصيرة أنه من أبوين فرنسيين ، على أنه يبدو أن هدا الأصل الفرنسى لم يجد استجابه من دائره المعارف البريطانية (٨) فلم تقل به وآثرت السكوت عنه تماما ، ولعليها خافت ان تنزلق فى هوة لبس لها قرار ، ان هى دكرت بالتحديد ما يمكن أن يكون موطنه الأصلى ، ومن قال لا أدرى فقد أفتى ، كما أن الدائرة لم تعتبر فرنسا الا موطن ثقافة له ، وهو قول حق ·

---

(٥) ك ٥ ، ف ١٣ ، وانظر ·

Privite Orton · *The Shoiter Cambridge Medieval* History vol 1, pp 591 et Seq.

(٦) وسنرى فى مقدمتنا هذه أن هدا كان موقفه أيضا ازاء ايطاليا ·

(٧) American *Ency Art* William of Tyre

(٨) *Ency Brit. Art* William of Tyre

على أن ذهابه الى فرنسا كان ـ كما نعرف ـ لمتابعة دراسة القانون ، غير أن هذا لا ينهض دليلا على أنه ذو عرق فرنسي والا صح ان نقول أنه ايطالي ، اذ المعروف أنه ذهب الى ايطاليا هي الأخرى أكثر من مرة ، ولكن كان ذهابه اليها هي الأخرى من أجل دراسة القانون أيضا ، كذلك ذهب الى رومة لحضور مجمع كان منعقدا بها في أكتوبر ١١٧٨ على رأس وفد كهنوتي يضم طائفة من كبار رجال الدين منهم هرقل رئيس أساقفة قيصرية ، الى جانب أساقفة بيت لحم وسميساط وعكا وطرابلس وغيرهم (٩) .

حقيقة أن مطالعة ما كتبه وليم عن ايطاليا يبين معرفته العميقة بها ويرسم لها صورة طيبة في ذهن القارىء ، ثم أنه كان لا يدع فرصة تمر الا ويشير اليها حتى لو لم يكن الموضع موضع حديث مباشر عنها ، ونستدل على ذلك مما قاله حين عرض لهجوم المسلمين على أحد موانىء صقلية ، اذ وجد الفرصة مناسبة للاشارة الى ايطاليا وذكر أنها ملجأ الأمان (١٠) لقوات روجر كونت صقلية ، كما أنه كان كثير الثناء على الجاليات الايطالية ومساعي المدن التجارية الايطالية الحميدة في خدمة الصالح المسيحي ، فيذكر أن طائفة منهم وهم الأمالفيون كانوا قد قدموا التماسا للخليفة الفاطمي يسألونه السماح لهم بقطعة من الأرض في القدس ـ وقت أن كانت القدس تابعة لمصر ـ ليقيموا لهم كنيسة فيها ، ولما كان هؤلاء الأمالفيون « أصدقاء لمصر ويحملون اليها المواد المفيدة » فقد أجابهم الخليفة لما سألوه وكان عطفه عليهم جميلا تمثل في ضخامة ما منحهم اياه ، فشيدوا ديرا عرف بدير مريم المجدلية مما جعل مؤرخنا وليم يثني

---

(٩) ك ٢١ ، ف ٢٦ .

(١٠) ك ١٣ ، ف ٢٢ .

على الأمالفيين ثناء مستطابا ، وانسحب هذا الثناء بالتالى عنده على ايطـــاليا (١١) ٠

لكن هذا كله لا يمكن أن يحملنا على نسبه عائلته الى ايطاليا ٠

★★★

اذا كنا قد رفضنا أن يكون فرنسيا ، ونفينا عنه أن يكون ألمانيا ، وأنكرنا عليه أصلا انجليزيا ودحضنا الرأى القائل بأنه كان ايطاليا ، فلا يسعنا الا أن نقول ــ على الترجيح ــ أنه كان من مواطنى مملكة بيت المقدس بل ومن مواليد القدس ، بل ونضيف الى ذلك أن أباه كان واحدا من اثنين اما أنه ولد هو الآخر بفلسطين ونشأ بها فكانت القدس وطنا له ولولده وليم ، واما أنه كان من آلاف الناس من طبقة العامة الذين وفدوا مع الجيوش الصليبية وساهم فى حروب الفتح ثم شـــاء القدر أن يتخطاه القتل فيمن قتلوا فى معاركها فصار مواطنا عاديا ثم تزوج فأنجب ــ فيمن أنجب ــ مؤرخنا وليم فى سنة ١١٣٠ ، وان قال البعض أنه ولد سنة ١١٢٧ ٠

وسواء أكان مولد وليم الصورى فى هذه السنة أو تلك ــ وان كنا نرجح سنة ١١٣٠ ــ فقد تفتحت عيناه على القدس التى كانت أول أرض مس جلده ترابها ، حتى انه لينعتها فى كثير من المواضع « بوطنى » وقل أن يشير اليها الا فى اجلال وحب ٠

وحبب أوطان الرجال اليهمو مآرب قضاها الشباب هنالكا

وحسبنا أن نقرأ فى تمهيده لتاريخه فى هذا الجزء الأول لنرى كيف سيطر عليه حب القدس ، كما يعزو تأليفه كتابه هذا الى ذلك

---

(١١) ك ١٨ ، ف ٥ ٠

الحب » وأنه استجابة لارادة هذا الوطن ونداءه شرع فى مهمة يأبى الشرف التنحي عنها » (١٢) ويقصد بها وضع تاريخه ·

★★★

اذا لم نكن قد وصلنا الى رأى قاطع فى أبيه : هل كان وافدا على القدس أم انه من أهلها فان رأينا حيـــال الابن أنه كان من مواليد القدس ، لان سنة ١١٣٠ (وحتى ١١٢٧) متأخرة نسبيا فى تاريخ التجريدات الصليبية ، اذ كان قد انسلخ من عمر الزمان منذ مقدم أولاها ثلث قرن ، تضاءلت فيه أعداد الجماعات الأوربية الوافدة ، كما أن المسيحى الأوربى الذى عاش فى فلسطين منذ أول الحملات الصليبية عد نفسه فلسطينيا ، وكان يرفض فى سريرته فى بادىء الأمر بقاء الوافدين الأوربيين ولا يعتبرهم الا حجاجا ، وأما من أقاموا واتخذوها سكنا لهم بدلا من ديارهم فى أوربا فقد عدهم دخلاء متطفلين ، ليس لهم حق فى الاقامة الدائمة بها ، وأن واجبهم ـ اذا فرغوا من حجهم ـ العودة من حيث جاءوا ، لأنهم لم يجيئوا الا حجاجا وزوارا ، فاذا انتهوا من أداء شعائرهم ومناسكهم وجب عليهم العودة الى ديارهم ·

ان ذلك الحب الذى فى نفس مؤرخنا وليم لهذا البلد يجعلنا نرجح أن القدس كانت مهبط رأسه فى أحد عامى ١١٢٧ أو ١١٣٠ ، أو فيما بينهما وان نشأته بالقــدس جعلته يعرف كل نواحيهــا الطوبوغرافية والتاريخيــة ، فهو يذكر وقوعها فى منطقــة جدباء شحيحة بالماء (١٣) كما يعرف أماكنها الأثرية وما تنضح به من

---

(١٢) انظر التمهيد الذى قدمه وليم بين يدى كتابه هذا ·

(١٣) ك ٨ ، ف ١ ، ٤ ، ٧ ·

ذكريات قديمة قد ترجع الى زمن النبى نوح (١٤) ، كما أنه قل ان يشير الى القدس ـ كما قلنا ـ الا بكلمة « وطنى » ، ثم انه يخصص مواضع كثيرة من صفحات كتابه هذا لذكر بطاركتها وما أحاط بكل واحد منهم من ظروف كانت تؤيده أو تعارضه(١٥)٠

هذا هو مجمل القول فى وليم من حيث نسبته الى القدس ٠

★★★

أظهر وليم منذ نعومة أظفاره ميلا كبيرا للدرس والتحصيل ، ولابد أنه التحق ببعض مدارس عصره التى كانت ملحقة بالأديرة والكنائس ، وبعضها بقصر الملك ، وكان تلاميذها بطبيعة الحال وفى الغالب من أبناء الطبقة العليا فى المجتمع اللاتينى الغربى فى الشرق ، ثم تسنى له أن يتم تعليمه فى فرنسا ٠

ويبدو أنه أظهر ولعا متزايدا بدراسة الفقه المسيحى مما جذب اليه أنظار الكبيرين من رجال الكنيسة ورجال الدين ، الذين كان أكثرهم اهتماما به بطرس من أهل برشلونة باسبانيا وسنسميه هنا بطرس الاسبانى أو البرسلونى وكان قيما على الآثار المسيحية والقبر بكنيسة القيامة ، ثم انتهى المطاف أخيرا به لكون رئيس أساقفة صور (١٦) وكان بطرس هذا حقا بوليم راعيا له ، محيطا اياه منذ وقت مبكر برعايته ، مسبغا عليه عطفه ، كما أنه قربه اليه ادراكا منه بمكن أن يكون لهذا الشاب من عد مرموق ان وجد من

---

(١٤) ك ٨ ، ف ١ ٠

(١٥) ك ٩ ، ف ، ١٥ ، ك ١١ ، ف ٤ ، ١٥ ، ك ١٢ ، ف ٦ ، ك ١٣ ، ف ٢٦ ، ك ١٦ ، ف ١٧ ٠

(١٦) الكتاب ١٦ ، ف ١٧ ٠

يأخذ بيده . ويدلنا هذه العناية من جانب بطرس الاسبانى على أنه رأى فيه نبوغا – فى حقل الدراسات الدينية – لم يلحظه بمثل هذه الصورة عند غيره ، لذلك اعتزم أن يكون هو راعيه والآخذ بيده فى طريق التقدم ، فكان له ما اعتزم ، وحفظ وليم له هذه اليد البيضاء عليه وأشاد بتلك المكرمة التى اختصه بها ، ومن هنا تعددت اشاراته اليه بالاجلال فى صفحات عدة من تاريخه ، ثم ان وليم كان يرى نسبته اليه فى ميدان العمل الكنسى شرفا كبيرا له ، وزاد من قدره – بعد حين – أنه كان أحد من تولوا قبله أسقفية صور ولذلك كان كثيرا ما يشير اليه بقوله « سلفنا » ويرى فى ذلك مفخرة له .

وهكذا وجد وليم فى بطرس الرجل العالم الذى يساعده على زيادة حظه من التعلم والبروز فى مجال اللاهوت ، هذا الى جانب أنه كان عونا له فى الاطلاع على أمور كانت من خبايا السياسة فى المملكة .

★★★

كذلك وجد وليم – منذ فجر شبابه – حدبا من رجل آخر من رجال الدين اتفقت نظرته اليه مع نظرة بطرس الاسبانى ، ذلك هو « فولشرز » بطرك القدس ورئيس أساقفة صور أيضا الذى يكثر مؤرخنا من الاشارة اليه والاشادة بفضله عليه (١٧) وقد ساعده فولشرز هذا على أن يكون من بين رجال الكهنوت الذين بعث بهم الى ايطاليا ليتهلوا مزيدا من الثقافة الدينية ، فذهب الى بعض معاهدها الكبرى فى بعثة طالت مدتها حتى بلغت عامين وذلك من عيد فصح ١١٦١ حتى سنة ١١٦٣ ، حيث انكب مؤرخنا فى هذين العامين على

---

(١٧) انظر على سبيل المثال الكتاب ، ١٦ الفصول ١٧ و ١٨ و ١٩ ، والكتاب ١٨ ، الفصل الثالث .

دراســـه القـانون والآداب ، ثم رجع الى المملكة ليعاود نشاطه فى أسقفية صور « رئيس شمامسة لها » (١٨) .

★★★

ولقد اتسع مجال ثقافته بفضل اتصاله المباشر بأماكن تعد من مصادر الثقافه ، زادت من اطلاعه الشـخصى ، ذلك أنه تسنى له الذهاب الى بيزنطه ١١٦٧ موفدا من الملك عمورى سـفيرا له لدى الامبراطور « مانويل » حتى يضمن انضمام القسطنطينية اليه فى مشروعه الضخم لمهاجمه مصر ، وعهد اليه بأن يغريه بتوقيع اتفاقيه بين بيزنطه وبين بيت المقدس ، وانطلق وليم الى وجهته (١٩) ليجد امبراطورها مشغولا فى الحرب من نواحى البلقان ، ولكنه أنجز ما عهد به اليه على أحسن صورة ، وعاد فى خريف ١١٦٨ بمعاهده بين المملكة اللاتينيه والامبراطورية الاغريقية حسب تسمية أهل ذلك الوقت لهـــا (٢٠) ، وقد وقع وليم من نفس الامبراطور مانويل موقعا كريمـــا تجلى فيمـــا أبداه له من ود وما أعده عليه من الهـــدايا .

لم يكن لرحل مثل وليم أن يمضى وقته فى بيزنطه دون عمل لا سيما أن هذه الاقامة طالت حتى بلغت ـ كما يقال ـ ستة أشهر فقضى جزءا منها فى الاتصال برجال الكنيسة اليونانية وان كانوا على غير مذهبه وزاده هذا الاتصال اتقانا للغة اليونانية .

ومن هذا نستطيع القول بأنه كان واحدا ممن يمكن أن يقال

---

(١٨) الكتاب العشرون الفصل الثانى .

(١٩) وليام الكتاب الثانى عشر .

(٢٠) الكتاب ٢٠ ، ف ٤ .

فيهم أنهم من علماء عصره وأعرفهم بالسياسة المحليه والدوليه .
كما يمكن أن يقال ان ذهابه الى القسطنطينية كان كسبا علميا الى
جانب نجاحه الدبلوماسي .

ويتجلى لنا ما كان عليه من علم ومعرفة وثقافه من أنه استطاع
ان يبرىء ساحته عند البابا مما رماه به فردريك رئيس الأساقفه
من تهم ظالمة ، كما استطاع بقوه حجته ودلاقه لسانه ، ووضوح
بيانه أن يعود من عند خليفه بطرس منصورا مبرءا من كل مذمة
ونقيصه .

★★★

وأدرك من حول وليم كفاءته التى لم تغب عن عمورى فعهد اليه
سنة ١١٦٩ بأن يؤلف كتابا عنه يتناول فتره حكمه ، فقبل ذلك
عن طيب خاطر ، وحين شرع فى تدوين هذا التاريخ الذى سماه
Gesta Amalrici regis رأى فجوة لا يعرف عنها شيئا الا التافه
اليسير والنادر الذى تلقفه سماعا من أفواه الناس دون أن يكون
واثقا منه تمام الثقة ، أما هذه الفجوة فكانت خلال غيبته هو ذاته
فى بيزنطة ثم انشغال الملك فى حملته على مصر التى بادر الى القيام
بها غير منتظر عودة سفيره من القسطنطينية (٢١) لذلك رأى وليم
أن الأمانة التاريخية تفرض عليه أن يقف على أخبـــار هذه الفتره
متلقفا اياها من مصادرها الأولى وفى مقدمتها عمورى كشاهد العيان
لها وهو الذى شارك فى رسمها على حين غاب هو عنها ، فلم يبخل
عليه مولاه بما أراده لا سيما وقد توثقت بينهما مودة عميقة رفعت

---

(٢١) لم يخف على مؤرخى الفترة المسلمين الدوافع والضغوط التى كان يتعرض
لها عمورى حتى تعجل الزحف على مصر ، فتناولها ابن الأثير فى كتابه الكامل
وأتابكة الموصل ، وأبو شامة فى الروضتين .

سهما كل حجاب وحمله عمورى على أن يصرح له فى ذات مرة عن مسألة خطيرة جدا كزعيم للنصرانية وحام للصليبية ألا وهى ما يضطرب فى صدره من حالة الشك فى أمر أجمعت عليه جميع الأديان السماوية ويكون أساسا من أسس الايمان ، ألا وهو البعث والنشور بعد الموت ٠

وكانت ثقة الملك فى مؤرخنا عظيمة حتى أنه عهد اليه ـ حتى كلفه بوضع كتاب عن حكمه ـ أن يقوم على تربية ولده وولى عهده بولدوين الرابع الذى لم يجاوز حينذاك التاسعة من عمره ، فأقبل وليم على هذه المهمة بنفس راضية وظل يرعى الغلام فكريا وخلقيا وجسمانيا أربع سنوات متتاليات لم يقصر فيها على بذل ما ينبغى عليه بذله ليصبح الغلام مؤهلا لحكم المملكة ، بل زاد فكان من بين ما درسه له الآداب الكلاسيكية القديمة ، وعلمه هو وغلمان فى مثل عمره من أولاد النبلاء والأشراف ما ينبغى أن يتعلمه هؤلاء من الفروسية وركوب الخيل وألعاب القوى التى تقوى فيهم الصبر على احتمال الآلام ، وانه ليقول عن هذه الفترة « لقد كرست نفسى طول مدة اشرافى على تلميذى الملكى على رعايته وبذلت من أجله غاية جهدى وحاولت تربيته خلقيا وأدبيا » ثم يصف حادثا نجم للصبى ذات يوم وهو يلعب مع أترابه تكشف له عن اصابته بمرض خطير استلزم من أبيه علاجه بسنى الأدوية والمراهم فما أحدث نفعا ثم بعث فى كل ناحية فى طلب أحسن المطببين لكنهم لم يسعفوه فى وقف هذا الداء الذى كان قد استشرى ببلدوين الصغير ، « فقد عرفنا بعدئذ أنه يشكو من ذلك الداء الخطر الذى لا رجاء منه » (٢٢) على حد قوله ويعنى بذلك الجذام ٠

هكذا تولى وليم تربية الصبى بلدوين ٠

---

(٢٢) الكتاب ٢١ ف ١ ٠

على أن الذى يهمنا من فترة قيامه بتثقيف الغلام أنها أتاحت له الفرصة لأن يكون أكثر اتصالا بالعديد من رجال البلاط ونبلاء المملكة ، وساعده هذا الاتصال على زيادة الوقوف على ما يتطلع اليه من المعلومات التى ساعدته فى تآليفه التى سنعرض لها حالا وكان الجزء الهام من بعضها يتعلق بأحداث وقته لذلك كان عمله يتطلب منه الاطلاع على الوثائق والمعاهدات والمراسيم التى صدرت ابان تلك الحقبة ، وكذلك المراسلات التى وردت الى المملكة أو صدرت عنها وكان عند هؤلاء الرجال الذين أتيح له زيادة الاتصال بهم ما يساعده على أداء مهمته على أكمل وجه ٠

★★★

وشغل وليم وظيفة المستشار الملكى التى كان يشغلها قبله « رالف » رئيس أساقفة بيت لحم الذى كانت وفاته فى ابريل ١١٧٤ (٢٣) ، واذ ذاك وقع الاختيار على مؤرخنا ليحل مكانه ، وأنه ليقول فى ذلك « ولكى يكون هناك من يحل موضعه فى وظيفة المراسلات الملكية ، فقد استحاب عمورى لمشورة باروناته وعيننى فى هذا المكان وخلع على وظيفة المستشار » (٢٤) ٠

(٢٣) الكتاب ٢٠ ، ف ٣٠ و ٣١ ٠

(٢٤) الكتاب ٢١ ، ف ٥

مؤلفـاته

لقد خلدت وليم مؤلفاته التى فقد منهـا ما فقد وبقى منهـا ما بقى ، ولولا كتابه الحالى لما عرفناه الا واحدا من كبار رجال الدين لا نذكرهم الا حين نقرأ عنهم في ثنايا الكتب ، أما هو فقد بقي اسمه على ألسنة طلاب الدراسات التاريخية لا سيما فى تاريخ الحروب الصليبيه بفضل هذا الكتاب الذى نترجمه الآن الى العربية ، والذى رأى النور لأول مرة فى صورته الأصلية فى القرن السادس عشر أى بعد أكثر من ثلاثة قرون من وفاة مؤلفه .

ولقد توفرت أدوات التأليف عند وليم من سعة اطلاعه على ما وصــل الى يده من كتب نعدها اليــوم المصدر الأول للحروب الصليبية خاصة باللغة اللاتينية وما توفر لديه من الوثائق مما هيأ له الفرصه لأن يكون بارزا فى الكتابة التاريخية وحجة موثوقا به فيما ألف ، حتى لقد عده العالم رنسمان « واحدا من أعظم مؤرخي العصور الوسطى » على الاطلاق (٢٥) . هذا الى جانب اتقانه لكثير من اللغات الغربية والشرقية وفى مقدمتها اللاتينية وفرنسية العصور الوسطى واليونانية كذلك المامه باللغة العربية الماما ساعده على الاطلاع على بعض ما كتب فيها ، كما ذكر هو وكما سنشير اليه في موضعه ، ولن نقول مع بعض القائلين بأنه كان عارفا بالعبــرية والفارسية فذلك قول لا نستطيع أن نؤكده ، وزيادة على ذلك كله فقد كان

---

(٢٥) Runciman A History Of The Crusades, vol., 2, p 437

كبير النظر في الآداب والمؤلفات القديمة لا سيما اللاتينية وعلى كتابات كبار رجالها أمثال « أوفيد » و « شيشيرون » الذى يسميه أحيانا بصاحبنا مما ساعد على أن يكون له قلم سيال ولغة مطواعة وقدرة على التعبير في غير عسر على ما يريد أن يوصله الى قارئه ٠

★★★

والمعروف أن وليم وضع ثلاثة كتب تاريخية ذات سمة معينة ، يتصل اثنان منها عن قرب بالحروب الصليبية ، هذا الى جانب كتاب آخر سجل فيه أعمال المجمع الكنسى المنعقد في روما في نهاية سنة ١١٧٨ ، وحضره مؤرخنا على رأس وفد من كبار الأساقفة والمطارنة ، الى جانب ممثل لبطرك بيت المقدس الذى حال مرضه اذ ذاك بينه وبين حضوره هذا المجمع الذى يعتبر أكبر المجامع التى شهدتها المسيحية الغربية ، وشارك وليم فيما دار فيه من مناقشات خطيرة ، وقدم تقريرا عن وضع الكنيسة والدولة في مملكة بيت المقدس اللاتينية ، وقال البعض من مؤرخى هذا المجمع ــ وهم صادقون فيما قالوا ــ ان المجمع أعجبوا بوليم وعرفوا فيه رجلا فقيها ، وحجة في الملة ، وملما بما ينبغى أن يلم به من يهتم بدراسة أحوال اللاتين في الشرق دينا ووضعا ، كما رأوا فيه محدثا لبقا ومجادلا يحسن الجدل ويفحم معارضيه ان احتاج الموقف الى الافحام ٠

وعاد وليم من هذا المؤتمر الدينى وقد سبقته أخباره ، فسأله رفاقه كما سأله رجال من البلاط البابوى والكنائس اللاتينية أن يضع كتابا عن أعمال المجمع ، فنهض بما التمسوه منه ، وجمع في ذلك سفرا قبل انه أودع نسخة منه في أرشيفات صور لكن الباحثين في تاريخه وأعماله أجمعوا على ضياع هذه النسخة للأسف، كما ضاع اثنان من مؤلفاته الأخرى ٠

وعلى الرغم من عدم وجزد نسخه من هذا النقرير فى الأيدى الا أن الأمر الذى لا يرقى اليه الشك هو أن « بعض » جلسات المؤتمر تضمنت بعض ما فى تقرير وليم ، والعكس صحيح ، خصوصا وأن وليم كان أحد مقررى المؤتمر (٣٦) ٠

★★★

اذا كان رفاق وليم قد التمسوا منه وضع هذا التقرير الذى صار كتابا من كتب تاريخ المجامع الكنسية فان الفضل فيما ألفه من كتب أخرى فى ميدان التاريخ يرجع الى الملك عمورى الذى كان حريصا على أن يبقى اسمه حيا على ألسنة الملأ من أهل عصره والأجيال التى تليهم ، لذلك فانه سأل صاحبنا وليم أن يضع كتابا عنه هو ذاته حاكما لمملكة بيت المقدس اللاتينية ، وترك تنظيم هذا الكتاب لمؤرخنا واثقا من أنه بفضل كفاءته وألمعيته ــ سوف يطالع على الناس بكتاب يرضيه ٠

واستجاب وليم لرغبة الملك لما رأى فى تحقيق هذه الرغبة من حفظ لتاريخ مملكة بيت المقدس فى فترة كان هو نفسه شاهدها وعرض لما قد يقوم به عمورى من حروب ترفع راية المسيحية اذ كان الأمل معقودا على أن ينتصر الملك على القوة الاسلامية ممثلة فى مصر فتخلص له سقوطها وجه الشرق الاسلامى بأجمعه ٠

وأقبل وليم يخطط للكتاب الذى كلف بوضعه والذى سماه « انجازات الملك عمورى » Gesta Amalrici regis ، ثم جاء يوم بدا للملك أن يمهد لعهده بعرض شامل لتاريخ ملوك مملكة بيت

---

(٣٦) أدين بالفضل فى معظم هذه المعلومات الى مقدمة الترجمة الانجليزية لهذا الكتاب الذى اشتمل الى جانب مادته التى كتبها وليم ما أضافه المترجمان من حواش وتعليقات لو ترجمت لكانت وحدها كتابا كبيرا فى حد ذاته ٠

المقدس منذ « جودفروى دى بويون » الذى رأى غاية مفاخره أن يقال له حامى القبر المقدس فكان له وحده ما أراد ولم يشاركه فى هذا اللقب غيره ، اذ نعت الذين جاءوا من بعده بالملوك حتى يتم لهم تطبيق النظام الاقطاعى على الصورة المعروف بها فى أوربا الغربية ·

صارح عمورى مؤرخه برأيه فيما ستكون عليه صورة الكتاب الذى يريده ·

وفى رأينا أن عمورى كان يعتقد اعتقادا جازما — ويشاركه وليم الى حد ما — بأن مصر لابد واقعة فى يده — بعد العهد أو قرب — وكان يرى أن فتحه اياها واستيلاءه عليها سيكونان نقطة انتقال كبرى فى تاريخ القوى الصليبية وأنه يعادل فتح اللاتين لبيت المقدس ان لم يزد عليه ، وبذلك تكتمل حلقـــات الحصار حول العـــالم الاسلامى ، ولعله كان يرى أن استيلاءه على مصر ييسر له الطريق الى مكة والمدينة ، ولعل هذا كان فى سريرة الأمير الصليبى · « رينـــو دى شاتيون » الذى نعرفه المراجع الاسلامية باسم « أرناط » ، والذى كانت نهايته وتأديبه على يد صلاح الدين بعد قليل ·

ونعرف أن شروع وليم فى وضع تاريخ الملك عمورى كان سنة ١١٦٧ ، وتمثلت الخطوة الأولى منه فى اتصال مؤلفه بالقادة وكبار الشخصيات التى ساهمت فى الحملة على مصر ، وأما الخطوة الثانية فكانت جمعه كل ما تيسر له أن يجمعه ممن صحبوا الحملة وشاهدوا أحداثها وكان لهم نصيب فيها ، ولم يقصر اهتمامه على الأحـــداث السياسية والحربيـــة بل جاوزها الى وصـــف الحكومة فى مصر والبلاط الفاطمى وتعرض لأولى الأمر من مخططى السياسة المصرية اذ ذاك ، ويلاحظ أيضـــا أن نشاط الاسكندرية التجارى استلفت انتباهه ·

على أنه ادا كان هـدا الكتاب أصبح الآن فى عـداد الكتب المفقودة فلابد أن بعضه لا سيما ما يتعلق بمصر وارد فى الأقسـام الأخيرة من تاريخه الكبير الذى توجد الآن ترجمته العربية بين يدى قارئى هده الصفحات ٠

★★★

ثم اقترح عمورى على وليم أن يكتب تاريخا للمملكة منذ قيامها على أيدى اللاتين ، وصادف هذا الاقتراح قبولا عند المؤرخ ، وصفق له قلبه اذ ليس أحب الى نفسه من تأليف كتاب عن القدس ، يخلد اسمه هو ويشرف قدره ويكون تاريخا لأحب بلد الى فؤاده ٠

وهـكذا نلاحظ ما لعمورى من فضـل على طلاب التـاريخ والنـاظرين فيـه حتى الآن اذ فكر فى أن يكون هنـاك كتاب عن المملكة ، وأن يقوم بوضعه الرجل الذى رآى فيه الملك كل ما يحببه اليه سمتا وخلقا ودينا وكفاءة وقدرة تساعده على انجاز هذا العمل الذى أدرك عمورى انه يجمـع بين ثلاثة أمور كبيرة ، أولها روعة الموضوع اذ هو عن بيت المقدس ، وثانيها شأن عظمة عمورى ذاته ، وثالثها دقة جامعه وليم ٠

على أن قبول وليم اقتراح مولاه كان معناه ارجاء ما شرع فيه وما أنجزه منه عن عهد الملك عمورى ، كذلك كان لابد له من أن ينصرف الى تدوين ما قبل هذا العهد جاعلا نقطة الابتداء هى قيـام بطرس الناسك بالحج الى الأحرام المسيحية فى بيت المقدس ثم رجوعه الى أوربا حاثا أمراءها وشعوبها والبابا اربان الثانى لمساعدة مسيحيى الشرق وارسال الحملات الى أرض فلسطين وبلاد الشام ٠

كان عمورى هو الدافع لوليم لكتابة كل ما كتب من كتب فى التاريخ ، فقد اقترح عليه القيام بوضع تاريخ لعهده ثم زاد فطلب اليه أن يكتب له مجلدا عن تاريخ ملوك الشرق ، ولكى ييسر عليه

المهمه ففد روده نكباب فى هذا الموضوع لأسحف مسرى ، يعرف العربيه هو أونوسسوس سعند بن بطريق اسعرص فه العـــالم الاسلامى مند طهور النبى علبه الصـــلاه والسلام حىى السـنة الحامســــه من حلافة الراضى العباسى ، وهى ســـه ٣٢٦ هـ (= ٩٣٧ م) (١) واسجاب وليم لطلب مولاه ووصـع كنابه الذى سماه كما قال ـ أو قال من وقفوا عليه اذ ذاك ـ « بأعمال أمراء المسرق » "Gesta Orientalium Principum" ولنـــا أن سوفع أن حزءا كبيرا منه لم يكن سوى برجمه لكباب ابن بطريق ، وان لم سسطع الجزء بما نصمنه كباب ولىم هدا لعـدم وصول نسخة منه الينا ... لكن .. أين يوجد هذا الكتاب الآن ؟! ... دلك ما لا نعرفه مما يدفعنا لاعتباره فى عداد الكتب المفقودة بـاء على خلو فهارس دور الكتب العامة من أية اشارة اليه أو الى صفحات يرجح أنها منه (٢٧)، هذا على الرعم من أن مقدمة الترجمة الأمريكية لتاريخ وليم نسير الى أن « ماتيو بارى » ذكر فى «مختصره التاريخى» وجود كتابى ولىم : التاريخ الكبير وتاريخ أمراء المشرق فى مكتبة سانت البانز التى حاوت بها ما حاق بمعظم المكتبات الديريه فى القرن السادس عشر ، وتمضى هــذه الاشارة فتبين أن نسخة من تاريخه الكبير وحدة ـ التى نترجمها الآن ـ هى التى قدر لها النجاة فانتقلت الى مكتبة المتحف البريطانى ولا تزال محفوظة به حتى اليوم ، أما محطوطة أمراء المسرق فقـد فقـدت ولم يوقف لهـــا على أثر حتى يومنا هذا .

★★★

(٢٧) ولم نشر ولىم الى عنوان كتاب سعيد بن بطريق الذى هو التاريخ المجموع على التحقيق والمعروف بنظم الجوهر ، وكان فى مكتبة الملك وهو الكتاب الذى نشره المستشرق الانجليزى « ادوارد بوكوك » فى اكسفورد سنة ١٦٥٩ وأرفقه بترجمة لاتينية ، كما طبع مرتين بعد ذلك بقربين ونصف قرن من الزمان فى مطبعة الآباء اليسوعيين ببيروت الأولى منهما سنة ١٩٠٥ والثانية سنة ١٩٠٩ .

تاريخه الكبير

على أنه بدا للملك فى سنه ١١٧٠ ـ أى قبل وفانه بأربع سنوات ـ أن يمهد لحكمه بكتاب يؤرخ للمملكة اللاتسنبه مند بدء الدعوة الصلسة حتى مستهل حكمه سنة ١١٦٢ ٠

وان استقراء ما حرى ـ وما بين أيدينا ـ ليفصح فى حلاء عن أن هدا الافراج قد وقع موقع الرضا من نفس وليم الصورى لأنه رأى أنه حين يفرغ من هدا الكتاب فانه يكون قد أرخ ـ كرجل دين أولا ـ لما يعتبره جهادا دينيا مسيحيا من وجهة نظره ، فيرضى بدلك ميوله ودراساته التى بوأته مكانة كبيرة فى عالم الكنيسة فى القرن الثانى عشر ، كما أنه يكون قد أرخ لخمسة من حكام وملوك المملكة اللاتينية قبل عمورى(٢٨) ، كما يكون قد أرخ للنشاط الصليبى بعد استقرار اللاتين فى الشرق ، وما كان بينهم وبين الجماعات المسيحية الأخرى من غير مذهبهم كالأرمن والسريان واليعاقبة والأرثوذكس ، ثم ما بين هؤلاء جميعا وبين المسـلمين من صـلات سلمية أحيانا وعدوانية أحيانا أخرى ٠

لذلك قبل وليم ما اقترحه عليه عمورى مما أسفر عن تأليفه لتاريخه الكبير "Gesta Hierosolymitorum regus" الذى لم يقف به عند سنة ١١٦٢ (وهى بداية حكم عمورى) بل جاوزها

---

(٢٨) وعلى بهم جودفرى دى بويون وان لم يلقب بالملك ، ثم بولدوين الأول فالثانى ، ثم فولك دانجو فبولدوين الثالث ٠

فسمل كل عهده ، ثم طالت حتى وقفت عند سنة ١١٨٤ ، أى بعد موت الملك بعشر سنوات تناول فيها حكم ولده بولدوين الرابع

والواقع أنه اعتمد فى القسم الأول الذى يمتد حتى سنة ١١٢٧ على مصادر لاتينية عاصر أصحابها أحداث الفترة من ١٠٩٥ حتى ذلك التاريخ ، ويمكن أن نقول انهم كانوا ثلاثة أو أربعة ، فى مقدمتهم من نسميه بالمؤرخ المجهول الذى كان من غير شك من أهل ايطاليا ، والذى رافق حملة بوهمند بن روبرت جسكارد وكان بوهمند هذا مؤسس أول امارة صليبية هى انطـــاكية منتزعا اياها من أيدى المسلمين ٠

وقد تبعثرت أوراق كتاب هذا المؤرخ المجهول ولم يبق منها الا القليل الذى جمعه الباحثون وسموه باسم "Gesta Francorum Hierosolymitanorum" وقد ترجمناه الى العربية بعنوان « أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس » (٢٩) ٠

والى جانب هذا فقد نظر وليم فيما كتبه روبرت داجيل الذى ترجمه الدكتور حسين محمد عطية باسم « تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس » (٣٠) ٠

كذلك نرى وليم يعتمد على ما سبقه اليه فولشر دى شارترز ويعرف كتابه باسم
'Fulcheri Carnotensis historia Hierosolymitana 1095-1127)' ، وهو آخر ما لدينا من تاريخ شاهد عيان لفترة

---

(٢٩) فيما يتعلق بصاحب هذه المذكرات فانا نحيل القارئ الى ما قلناه عنه والى دراستنا لمذكراته فى مقدمتنا للترجمة العربية المشار اليها وقد نشرتها دار الفكر العربى ، الطبعة الثانية سنة ١٩٦٢ ٠

(٣٠) نشرته دار المعرفة بالاسكندرية سنة ١٩٨٩ ٠

امندت ما يقرب من ثلاث وثلاثين سنة تقريبا منذ أن خطب البابا ايربان الثـــانى خطبته التاريخية المشهورة فى كلير مونت بجنوب فرنسا فأشعل نيران حروب استمرت عدة قرون .

ويتبين لنا ـ من سرد هؤلاء المؤلفين ـ ان المادة التى تضمنها مذكراتهم أو أوراقهم وقفت عند سنة ١١٢٧ م ، وكانت مادة وفيرة راح يقارن بعضها ببعض ، فما صح منها فى نفسه أبقاه ، وما أنكره تخلى عنه ولم يأخذ به .

★★★

ولعل السمة البارزة فى كتابات وليم عن هذه الفترة بالذات هى أخذه بوجهة النظر الغربية فى سرده وتعليقه على الأحداث ، وذلك راجع كما قلنا الى وجهة نظره فى الأصول التى خلفها كتاب مسيحيون وقساوسة ورهبان صحبوا الجيوش الصليبية المبكرة على اختلاف جنسيات زعمائها وقوادها ، ونرى هذا الطابع واضحا فى نقده المر للامبراطورية البيزنطية ولا سيما امبراطورها الكسيوس كومنين (٣٥) ، وهو نقـد أميل للهجو المقذع أكثر فيه من نعتها « بالخيانة » حتى فضل عليها المسلمين فى بعض الأحيان وقد ترسبت هذه التهمة القطعية فى نفوس الأوربيين جيلا بعد جيل لمدة قرن من الزمان حتى انفجرت فى سنة ١٢٠٢ م فيمـــا عرف بالحمـــلة الصليبية الرابعة التى توجهت الى القسطنطينية وأزالت امبراطوريتها

---

(٣٥) نشير هنا الى اعتزامنا باذن الله نشر ترجمتنا العربية لكتاب « الكسياد » للمؤرخة أنا كومنين Anna Comnena بعد فراغنا من نشر كتاب وليم الصورى هذا .

لنعود ـ رغم أنف الصليبيين الغربيين ـ للوجود بعد ما ينيف على نصف قرن (٣٦) ٠

وقد غيرت هذه الحملة الصليبية الرابعة المفهوم الصليبى وبدلت معالم الوضع عامة والخريطة الجغرافية لبلاد اليونان وحاولت تبديل الناحية الديموجرافية بصورة ملحوظة ٠

كانت هذه في الواقع هى صفة المرحلة الأولى من تاريخ وليم الكبير أما المرحلة الثانية فتبدأ من تكوين مملكة بيت المقدس واستكمال البنية اللاتينية بتأسيس الرها وأنطاكية وطرابلس كامارات لاتينية استبعدت كلها القاعدة الأساسية التى كان يجب أن ترتكز عليها لتضمن بقاءها لأننا نراها أهملت تماما أهل البلاد الأصليين حتى من كان منهم مسيحيا ، اذ عدهم المحتلون طبقة ثانية في المجتمع الجديد وربما وضعوهم فى مرتبة أدنى من هذه أيضا فلم ينظروا اليهم الا كعملاء أو فعلة أو صناع يبذلون الجهد لتحقيق مآرب السادة الوافدين الذين لم يسمحوا لأهل هذه الطبقة الثانية بأن يكون لهم رأى فى توجيه السياسة بل صيروها أوربية افطعه ، وظنوا أنهم قادرون بذلك على الاحتفاظ بها الى الأبد ، ناسين أن هناك أجيالا ـ من بين اللاتين ـ ستظهر على مر السنين وتخمد فى نفسها الكراهية لأهل البلاد ، كما يملى عليها الزمن والتطور أن تبتعد الرابطة بينها وبين اللاتين ، على حين تزداد هذه الرابطة بين هذه الأجيال وبين الأهالى الأصليين ٠

على أن وليم يشير فى أكثر من موضع من تاريخه الكبير الى اطلاعه على وثائق ومراجع عربية دون أن يذكر موضعها وسكت عن

---

(٣٦)انظر فتح القسطنطينية لروبرت كلارى ، ترجمة حسن حبشى ونشر مكتبة الشرق الأوسط ، وانظر أيضا مذكرات فلهاردوان ترجمة حسن حبشى ، وقد نشرته جامعة الملك عبد العزيز بجدة سنة ١٤٠٥هـ ٠

بسميتها كما هو سأنه فى مراجعه بغير هده اللغه لا سيما اللاتينيه .
وما نحسب هده الوثائق الا أنها كانت موجودة فى أرشيفات القصر الملكي بالقدس وكذلك ربما اسعان بما فى مكتبة الملك عمورى التى لابد وأنها كانت حافلة ـ الى حد ما ـ بكتب عربية وقد أشار أحد المؤرخين (٣٧) الى أن سفينه كانت تحمل فيما تحمل كتبا لاسامة ابن منقذ جنحت قرب صور فاستولى عليها بولدوين الثالث وأضافها الى مكتبة القصر .

★★★

أما الفترة الثالثة من كتابه فهى التى تميزت بظهور المنازعات بين الصليبيين أنفسهم وتفكيرهم تفكيرا توسعيا لم يقف عند حدود بلاد الشام وشمال العراق بل جاوز هذه الحدود الى ما وراءها من قوى اسلامية صغيرة ، وبلغت هذه الفكرة ذروتها عند الملك عمورى فى تخطيطه لتوسيع رقعة مملكة بيت المقـدس الى خارج حدودها الجنوبية حيث مصر الفاطمية فالأيوبية بل ان بعض هؤلاء الأمراء اللاتين كانوا من المخاطرين الذين ذهب أحدهم مذهبا جنونيا بعيدا يتطلع الى مكة والمدينة .

وكان رجال هذه الفترة الثالثة يرون أن فتح القدس والاستيلاء عليها سـنة ١١٠١ هو الخطوة الأولى على طريق دعم الصليبية فى الشرق الاسلامى وأن هذا الفتح قد أدى مهمته وأنجز غايته بالاستيلاء على بعض الامارات فى الشـام ، وأن الخطـوة الثانية لهـذا الدعم الصليبى هى فتح مصر ، وساروا فى هـذا الطريق خطـوة عملية ملحوظة فى هجوم عمورى أكثر من مرة على مصر ، وهو هجوم أطال

---

(٣٧) راجع A Syrian Gentleman, p 61. Hitti ، حيث أشارت اليه مقـدمة الترجمة الانجليزية لكتاب ولمم .

ولم فى عرضه وان عاد منه الغزاة مقلمى الأظفار ، منهوكى القوى ، وقدر لوليم أن يشاهد أولبات هذا الانهاك ممثلا فى ظهور صلاح الدين الأيوبى بعد أن استقر فى مصر وحمل راية الجهاد التى ورثها عن نور (٣٨) الدين محمود بن زنكى صاحب حلب والموصل وتمرب هذه الأحداث بعكس ما كان يرجوه دعاة الغزو اذ أدت الى تفكك الهيكل الصليبى ، ولقد واكب وليم فى أخريات أيامه هذه الفترة بل وكان فى ركب بولدوين الرابع فى محاربته لصلاح ببلاد الشام ولم تفته الاشارة الى ذلك كله مما يشكل الجزء الأكبر من الكتب الثلاثة التى ختم بها مؤلفه حتى زحزحت ما عداها ، مما يخيل الى قارئه أنه يكتب تاريخ مصر — من وجهة نظره — أكثر مما يكتب تاريخ القدس ٠

★★★

ان متابعة الكلام عن هذا التاريخ الكبير الذى نترجمه الآن الى العربية هى فى الوقت ذاته كلام عن سيرة مؤلفه الذى لو كان قد وقف قلمه عند سنة ١١٧٤ التى مات فيها عمورى وهو فى الثامنة والثلاثين من عمره لما لامه أحد ، اذ يكون بما كتبه حتى ذلك العام قد أوفى بعهده للملك الراحل فى ادراج عهده فى هـــذا الكتاب التاريخى وألحقه بتاريخ المملكة منذ تأسيسها ٠

لكن كانت هناك ثلاثة أمور تحمله على متابعة الكتابة عن الملك الصغير أولها أنه هو ابن مولاه الراحل ، وثانيها الوفاء لذكرى أبيه ، وثالثها أنه هو نفسه كان ولا يزال معلم الملك الجديد ومثقفه ، وهكذا كان وليم يعيش فى جو يعبق بكل ما يذكره بعمورى ، وهل هناك

---

(٣٨) انظر حسن حبشى ٠ **نور الدين والصليبيون أو حركة الافاقة الاسلامية فى القرن السادس الهجرى ٠**

أكثر من أن يكون ولده بولدوين الصبى قد حل مكانه يوم ١٥ يوليو ١١٧٤ (٣٩) ٠

★★★

وعاش وليم بعد موت عمورى ليكتب عن بولدوين الرابع ثلاثه أبواب أو « كتب » كما يسميها (٤٠) ، ولا يحسبن القارئ أنه أطال فى الكتابه عن عهد تلميذه الملك ، بل لقد خالف كل ظن اذ أوجز حين كان الاسهاب متوقعا منه ، وكان ظن الذين لا يدرون شيئا عن بواطن الأمور ولا يعرفون منها غير ظاهرها أن له دالة على بولدوين لقربه منه ، وأنها تتيح له فرصه أكبر مما قد تتاح لغيره فى الوقوف على كل أسرار الدولة ، لكن الوضع الجديد فى المملكه كان مهيئا الفرصة لقوم حاولوا جهدهم ابعاده عن الملك أو فرض رقابة عليه حتى لا يعمد الى تكوين حزب موال لبولدوين يفسد تطلعات الطامعين فى الوصاية على الملك ٠

ورأى وليم سماء المملكة تتلبد بالغيوم والعواصف السياسيه . كما هاله استفحال القوة المصرية استفحالا شجع أهل دمشق على أن يسلموا بلدهم وما حوله الى صلاح الدين مما جعل المملكه توشك أن تقع بين شقى الرحى من الشـــمال والجنوب ، ورأى من الخير أن يشغل نفسه بالاهتمام بالأمور الكنسية والانصراف الى معاودة الاهتمام بكتابة تاريخه الكبير وكان يجد بين هذا وذاك ساعات يعاود فيها هوايته القديمة ، ونعنى بها مطالعه كتب التراث القديم الغربى ٠

وقد أحس وليم بالحزن الشديد يسيطر عليه وزاد ألمه أن يضيع أمله فى أن يصبح بطركا لبيت المقدس فى أعقاب وفاه بطركها

---

(٣٩) الكتاب ٢١ ٠ الفصل الثانى ٠

(٤٠) هى الكتب ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ٠

أماليك فقد تمكن منافسه هرقل يوم ٦ أكتوبر ١١٨٠ من أن يسلبها منه بفضل الملكة الأم « أجنس » وحربها • ومما يظهر ألمه الشديد لضياع أمله هذا أنه سكت سكوتا شبه مطبق عن ابداء رأيه في هذا الانتخاب لما يثيره في نفسه من آلام وأحزان فكل ما قاله في هذا الصدد « ••• مات أماليك بطرك بيت المقدس بعد عشرين سنة من توليه بطركية القدس ، واذ ذاك أختير مكانه هرقل رئيس أساقفة قيصرية » (٤١) •

منهجــه :

سار وليم على نهج القدامى في تقسيمه لمؤلفه هذا الى ما سماه بـ « الكتب » التي هي في مصطلحنا اليوم «الفصول» أو «الأبواب» ، كما قسم كل كتاب الى ما سماه «بالفصول» ، ونعنى بها «الفقرات» التى تضمنها هذا « الكتاب » •

وقسم وليم تاريخه الكبير هذا الى ثلاثة وعشرين « كتابا » تكاد تكون متساوية في الطول الا الأخير منها ، كما يبدو أنه خص كل ملك من ملوكها « بكتابين » لم يستثن من ذلك سوى « جودفروى » فقد أفرد له كتابا واحدا ، وطبيعى أن يكون ما خصه به قاصرا على كتاب واحد لأن فترة حكمه لم تجاوز سنة واحدة ولم يكن معدودا بين من تولوا حكم مملكة بيت المقدس وسمى كل واحد منهم بالملك ، اذ انفرد هو عنهم جميعا بلقب حامى القبر المقدس •

كذلك خص بولدوين الرابع بثلاثة كتب ، أما الفصول التى يشتمل عليها كل كتاب فكانت فقرات بسيطة قد لا يتجاوز الفصل

(٤١) الكتاب الثانى والعشرون ، الفصل الرابع •

منها ـ حسب سمينه ـ صفحة واحدة فان زاد كان صفحتين ، وكان كل كتاب يشتمل على ما يقرب من ثلاثين « فصلا » الا الأخير فلم يشتمل على أى فصل بل كان ملخصا شاملا ترجم فيه عما يشعر به من احباط ٠

★★★

وقد مهد لذلك كله بثمانية كتب قبل أن يبدأ بكتابه عن جودفروى أشار فى أولها الى ما أسماه بصحوة المسيحية لتخليص القدس وبين فيه نشاط بطرس الناسك وطلائع الحملة الأولى عبر البطامية ثم ثنى بتجمعات الصليبيين فى القسطنطينية بالاستيلاء على نيقية والزحف على آسيا الصغرى ، فاذا كان الكتاب الرابع قد تناول اجتياح الصليبيين لشمال الشام وبدء حصار أنطاكية التى استغرق حصارها عنده والاستيلاء عليها الكتاب الخامس أما السادس فيتعلق بما لاقاه الصليبيون من حصار وانتصارهم الذى مهد للانشقاق فى صفوفهم لولا أنهم تابعوا زحفهم الى بيت المقدس وهو ما استغرق بأجمعه الفصل السابع . أما الثامن فهو نهاية رحلة الحج والاستيلاء على القدس ثم يلى ذلك ما كتبه عن جودفروى فالملك بولدوين الأول وتوسع المملكة فى عهده واتساع رقعة أنطاكية ثم بولدوين الثانى والاضطرابات فى شمال الشام وهذه استغرقت منه أربعة كتب هى التاسع والعاشر والحادى عشر والثانى عشر وهنا ينتهى الجزء الأول من هذا التاريخ كما رتبه ولم ليبدأ الجزء الثانى بالاستيلاء على صور وامتداد النفوذ الملكى على الامارات اللاتينية أما الكتاب التالى لذلك وهو الرابع عشر فمن عهد فولك دانجو ويليه الخامس عشر عن محاولات الامبراطور البيزنطى حنا لبسط نفوذه على الامارات الصليبية ثم يجىء عهد بولدوين الثالث والملكة الأم « ملزيند » وخبر الحملة الصليبية الثانية ويرتبط بذلك مباشرة الاستيلاء على عسقلان وفشل الحملة المذكورة

حالا ثم التطلع الى مصر وكل ذلك يتضمنه الكتب . السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر فاذا كان الكتابان التاسع عشر والعشرون فهما امتداد لترجمة هذا التطلع الصليبى الى صراع مع مصر حول مصر ومحاولة عقد تحالف صليبى بيزنطى لفتحها وذلك فى عهد الملك عمورى ، ثم يبدأ الكتاب الحادى والعشرون ببولدوين الرابع الأبرص وتنازع المصالح الشخصية بين الجماعات الصليبية ثم ختام ذلك كله فى الكتاب الثالث والعشرين وفيه نرى وليم يتساءل : أمن الممكن أن يتم انقاذ القدس على يد ريموند صاحب طرابلس ؟ ويدل هذا الاستفهام من جانبه على أنه كتبه فى أثناء الصراع بين الأمراء الصليبيين فى محاولة كل منهم السيطرة على بيت المقدس ، وكانت الأحوال لا سيما ظهور القوة المصرية الصلاحية يمثل خطرا على الصليبيين أدركه وليم وصرح به ثم أثبت سير الأحداث صحة توقعاته .

★★★

وبعد فهذا تعريف عاجل بوليم الصورى وكتابه الذى كان الحافز لى على ترجمته هو قيامى بتدريس الحروب الصليبية فى كلية الآداب (جامعة عين شمس) بعد عودتى من انجلترا ، ثم شاءت الظروف أن أقوم بالمحاضرة فى نفس المادة فى قسمى البكالوريوس والدراسات العليا بكلية الآداب والعلوم الانسانية بجامعة الملك عبد العزيز بجدة ، واعتبرت هذا الكتاب ــ وهو وثيقة تاريخية معاصرة لبعض الأحداث والتجريدات الحربية على العالم الاسلامى ــ من متطلبات محاضراتى هناك ، ثم طرأت فكرة تقديمه للنشر بالكلية بجدة ، فرأى زميلى وصديقى الدكتور حمد محمد العرينان أن تكون « مذكرات فلهاردوان » عن الحرب الصليبية الرابعة هى باكورة ما تنشره لجنة البحث العلمى بها ، وحظى الكتاب بموافقة المجلس العلمى للجامعة هناك .

وان كتاب ولیم الصوری هذا لهو واحد من مجموعة الكتب والوثائق المتعلقة بهذه الحروب والمكتوبة بأقلام معاصرين لها من غير العرب والمسلمين ، وحمدا لله ان مكننی من نشر خمسة مصادر منها حتى الآن ، وفى الطريق ـ ان شاء الله ـ اثنان ، أحدهمـــا هو « الاستيلاء على دمياط » لبادربورن ، والآخر هو « ألكسسياد » أو تاريخ الامبراطور البيزنطى ألكسيوس كومنين بقلم ابنتـه « آنا كومنين » ٠

ولقد اعتمدت فى ترجمتى العربية هذه على النسخة الانجليزية التى اضطلع بترجمتها والتعليق عليها المؤرخان السيدة اميلى اتواتر بابكوك ، و أ٠ كراى سنة ١٩٤٣ وهى فى مجلدين ضخمين ، وقد تفضلت مكتبة جامعة القاهرة فأذنت لى بتصويرها ٠

ولقد عنيت من جانبى بالمحافظة على مفهوم النص وروحه بقدر الامكان ، مع مراعاة الجانب العربى من حيث اللغة والأسلوب ، غير أننى أبحت لنفسى أن أستعمل لفظ « الصليبيين » فى مواضع خاصة حين رأيت سياق الموضوع يتطلب ذلك حتى لا يختلط الأمر على القارىء ، فلا يعرف أى الجماعات المسيحية يقصدها المؤلف ٠

أما ما أضفته الى الترجمة العربية ـ وهو قليل ـ فقد وضعته بين حاصرتين على هذه الصورة [٠٠٠] ، لكن حذفت من الترجمة العربية بضعة أسطر أملتها على المؤلف طبيعة العصر والأحداث ومركزه الدينى ، وهى سطور قد تكون لحمتها التعصب وسداها الجهل بالاسلام وعدم ادراك كنهه ، ولم يؤد هذا الحذف الى فراغ فى سياق الموضوع أو اخلال به ٠

وسيصدر هذه الترجمة باذن الله فى أربعـــة أجزاء بدلا من اثنين كما فى الانجليزية وأرجو من الله التوفيق والهداية ٠

القاهرة فى :

د٠ حسن حبشى

التاسع من المحرم سنة ١٤١١ هـ

الحادى والثلاثين من يوليو ١٩٩٠ م

كلمة شكر

أرى لراما على أن أتعدم بالسكر الخالص للصـديق الكريم الأستاد الدكتور عبد العظيم رمصان اد تفضل فجعل هذه الترجمة في سلسله مطبوعات « تاريخ المصريين » التى يشرف على اصدارها ٠

كما أشكر الصديق العالم الأب جورج قنواتى بدير الآباء الدومنيكان بالعباسيه فقد أعانى بكثير مما يعرفه هو وأجهله أنا من ارسادات العهدين القديم والجديد وأذن لى فى الرجوع الى مكتبـه الدير ٠

والمنه فى عنقى لمكتبه جامعه القاهرة اد أذنت لى تصـوير الترجمه الانجليزية كاملة وبذلك يسرت لى العكوف على نقـله الى العربية أنى كنت ، وشـكرا للقوامين على مكتبات جامعات القاهره واسكندريه وعين سمس والملك عبد العزيز بجده ، ولزملائى وتلامبذى وأصـدقائى فى مصر والخارج ، ولتلميذى القديم تـركى هزاع التركانى من السعودية فقد طالع معى مخطوطه هده الترجمـة وتفضل بنسخها ثم كتابتها على الآلة الكاتبه ٠

ح٠ح٠

الحروب الصليبية

(١٠٩٤ ـ ١١٨٤)

التمهيـــد

من وليم ـ الذى لولا رحمة الرب ما استحق ان يكون خادما للكنيسة المقدســة فى صور ـ الى الاخـوة المسيحيين الموقرين الذين قد يصلهم هذا الكتاب ٠٠٠٠ لكم الخلاص الأبدى من أجل السيد ٠

لا يشك انسان عاقل فى أن تدوين أعمال الملوك مهمة محفوفة بالصعاب والمخــاطر ، واذا نحينــا جانبا ذكر الجهد الذى لا يسهى والمعاناة التى لا تنقضى ، وما يتطلبه عمل من هذا النوع من التحلى باليقظة الدائمة ، فان هوة سحيقة تفتح فاها أمام كاتب التاريخ الذى يلقى المشقه العظمى فى محاولته تجنب هذا الأمر أو ذاك ، ذلك لأنه فى الوقت الذى يحاول فيه النجاة من « خاريبديس » ، فالأرجح أنه سوف يقع فى براثن « سكيلا » التى تعرف كيف تدمره الدمار الشامل وهى محاطة بكلابها ، ذلك لأن الكاتب اما أن يؤجج غضب الكثيرين ضده وأثناء جريه وراء حقيقة ما وقع ، واما أن يلتزم الصمت ازاء مسيرة الأحـداث أملا منــه فى أن يقلل ما أمكن من

الامعاص منه ، حتى يبدو بلا أخطاء ، وذلك لأن تعمد مجاوزة الصدق واخفاء الحقائق عن قصد يعتبر أمرا مخالفا تمام المخالفة للواجب الملقى على عاتق المؤرخ ، ومما لا شك فيه أن فشل الفرد في أداء الواجب المفروض عليه انما هو خطأ ، اذا كان مفهوم الواجب فى الواقع هو « مطابقة سلوك كل فرد لما يتفق وعادات بلده ونظمه » ٠

ومن ناحية أخرى فان الجرى وراء سلسلة من الأحداث دون ادخال تغيير عليها أو تحريفها عن محجة الصدق انما هو مسلك يثير الغضب على الدوام ، اذ يقول المثل القديم « ان التغاضى عن الحق يكسب المرء الأصدقاء ، أما التصريح به فيورث الكراهية » ويترتب على ذلك أمران :

اما أن يتراخى المؤرخون فى أداء الواجب الذى تقتضيه مهمتهم فيبالغون فى اظهار التوقير الذى يجاوز كل حد ، واما أنهم فى بحثهم الجاد عن حقيقة مسألة من المسائل يجلبون على أنفسهم الكراهية التى تنجم عن قول الصدق ، ومن ثم فان السائد هو أن من سمة هذين السبيلين أن يخالف كل منهما الآخر ، وأن يصبحا مصدر نعت لما تفرضانه من مستلزمات لا مناص منها ٠

لقد قال كاتبنا شيشيرون « لئن كان الحق مضنيا لما ينجم عنه فى الواقع من كراهية مطبقة للصدق فان الاستسلام أشد رزية » ، وذلك لأن تعامل المرء بلين مع الصـــديق يحمله على الاندفاع فى التهور المؤدى للخراب » وهذا احساس ينعكس على المرء الذى يجور على مقتضيات الواجب فيكتم الحقائق الثابتة رجاء أن يكون أريحيا ٠

ان الكُتاب الذين تدفعهم الرغبة فى المداهنة الى أن يُضَمِّنوا عن قصد فى ثنايا مؤلفاتهم التاريخية ما ليس بحق انما يسلكون مسلكا شائنا ، والأحرى أن لا يُدرجوا فى عداد المؤرخين ، واذا كان

اخفاء الحقائق النابتة المتعلقة بأمر من الأمور يعنبر أمرا شسيعا ينافص مهمة الكاتب بمام المنافصه ، والأشد سناعه منه هو أن يخلط الحق بما ليس بحق ، فيقدم للأجيال القادمة التى نعمعد فسا فول الحق ما هو كذب صراح على أنه حقيقة ثابتة ٠

وزيادة على هده المخاطر فان كاتب التاريخ كثيرا ما يقابل مثل هذه الصعوبة ـ بل وما هو أشد منها ـ مما يحتم عليه أن يبدل قصارى جهده لتجنبها بقدر الامكان ، وأعنى بذلك أن كرامة الأحداث التاريخية الشامخة قد تنهار بسبب ضعف العرض ونقصان البلاغة ، لذلك ينبغى أن يكون أسلوب الكاتب فى عرضه للأحداث على نفس المستوى العالى للأخبار التى يرويها ، ولا ينبغى أن تكون لغة الكاتب وطريقة عرضه للموضوع دون المستوى الرائع الذى يجب أن يتوفر للموضوع ، ومن ثم فان أكبر ما يخشاه المرء هو أن يؤدى العرض السقيم الى افساد عظمة الفكرة ، فتبدو الأعمال الجوهرية وكأنها تافهة عديمة القيمة بسبب الضعف الذى يعتور سردها ، وقديما لاحظ الخطيب المصقع (شيشرون) فى القسم الأول من كتابه « الحوار التوسكانى » أن تدوين المرء لأفكاره ـ بدون أن تكون عنده القدرة على حسن ترتيبها أو ابرازها فى جلاء تام ، أو جعلها شيقة تجذب القارىء اليها انما هو عمل رجل يسىء الى الأدب بجهالة ويبدد وقته هباء » ٠

★★★

ويبدو أننا فى كتابنا الحالى هذا قد وقعنا فى محاذير متعددة وشبهات جمة ، ذلك لأن سرد الأحداث يتطلب منا أن ندرج فى هذه الدراسه التى نقوم بكتابتها الآن كثيرا من التفاصيل عن أخلاق الملوك الشخصية وحياتهم وطباعهم الذاتية ، غير ملقين بالا عما اذا كانت هذه الحقائق حميدة فى حد ذاتها ، أم أنها خليقة بالنقد الذى

تستحقه ، ومن المحتمل أن نجد الأجيال التالية لهؤلاء الملوك ــ حين مابعهم هذا الكتاب ــ صعوبة فى قبول ما احتواه بين دفتيه ، أو قد نغضب هذه الأجيال من المؤلف غضبا لا يستحقه ٠ وحينذاك سوف يعتبرونه أحد رجلين : اما أنه كذاب أشر ، أو حاسد كفور ٠

ويعلم الله أننا بذلنا جهدنا كى نجتنب التهمتين تجنب المرء للطاعون ٠

أما ما سوى ذلك فمما لا شك فيه أنه كان اندفاعا منا أن نحاول القيام بعمل هو فوق طاقتنا ٠ كان فيه لعننا لا نرقى بحال من الأحوال الى روعة الموضوع وجلالة قدره ، ومع ذلك فقد تسنى لنا أن ننجز شيئا ما ، شأننا فى ذلك شأن الذين لا دراية لهم بالرسم ولم يقفوا على أسرار هذا الفن حين يسمح لهم فى العادة برسم الخطوط الأولى لصورة ما فيضعون الألوان غير المناسبة ، ثم تجىء بعد ذلك يد الفنان الصانع العارف بالألوان فيضيف لمسات جمالية أحسن من هذه اللمسات ، ولذلك فنحن ــ مع شدة تمسكنا بالصدق الذى لم نحد عنه قط ــ قد قمنا بمحاولات كبيرة لوضع الأسس التى يمكن للبانى الذى يبزنا بمقدرته الرائعة ــ أن يقيم عليها صرحا متكاملا ٠

وربما كان الأحدى أن ألوذ بالصمت بسبب القصور الخطير والعثرات الجمة التى تنتظر هذا المجهود ، وكان الأحرى بى أن أصمت وأرغم قلمى على الكف عن الكتابة ، غير أن ما تملكنى من حب دائم لوطنى قد دفعنى لولوج هذا السبيل ، اذ كانت احتياجات الوقت تتطلب رجلا مطبوعا على الاخلاص ، مستعدا لبذل حياته فى هذا السبيل ٠

وأعود فأكرر أنه من حق الوطن ألا تظل تلك الأعمال التى أنجزها هذا الوطن مطمورة فى زوايا الجهل وطيات الاهمال على مدى

قرن من الزمان ، وأن يسمح للنسيان أن يسحب عليها ذيوله من غير حق بل ان هذا الوطن يأمرني بعكس ذلك اذ يأمرني بالحفاظ عليها عن طريق قلمي من أجل نفع الأجيال القادمة ٠

لذلك فقد استجبت لارادته ، وشرعت في مهمة يأبى الشرف التنحي عنها ، ونهضت غير عابىء بنقد الأجيال التالية ، ولا مكترث بأي حكم تحكم به على أسلوبي الضعيف في معرض تناول مثل هذا الموضوع الجليل ٠

وليس من شك في أنني لبيت نداء الوطن بنفس الحماسة التي بذلها هذا الوطن ، عسى أن يكون العمل جديرا بالثناء الذي يتفق مع الاخلاص ٠

لقد انجذبنا بروعة تراب وطننا ، ولم نعبأ بضآلة امكانياتنا ، ولا الجهد الذي يبذل ، من غير اتكال على مساعدة ما ، ولكننا قمنا بهذا العمل مدفوعين بالود الصادق والحب الخالص ٠

يضاف الى هذه الحوافز ما أمر به الملك عموري الأول قدس الله روحه وصاحب السجل الباهر في الجهاد من أجل السيد ٠

ولقد حفزني هذا الأمر — وأسباب هامة أخرى — على أن آخذ على عاتقي القيام بهذا العمل ، أضف الى ذلك أنني قمت بوضع تاريخ آخر غير هـذا التاريخ اسـتجابة لأمر الملك الذي أمدني بالوثائق العربية الضرورية ، وكان المصدر الرئيسي الذي اتخذناه لذلك هو استعمالنا كتاب تاريخ بطرك اسكندرية الموقر سعيد بن البطريق الذي يبدأ من زمن [النبي] محمـد [صلعم] متضمنا أحـداث خمسمائة وسبعين سنة ، أي حتى عامنا الحالي هذا الذي هو عـام ١١٨٤ من مولد المسيح ، ومع ذلك فليس بين أيدينا لهذا الكتاب الحالي مصادر مكتوبة سواء في اليونانية أو العربية للاسترشاد بها ،

وانما كان اعتمادنا على الرواية الشفهيه وحدها ، الا فى ايراد قليل من الأحداث التى شاهدناها بنفسنا ، وتتبعنا سير الحوادث ، فيبدأ الكتاب بسفر أولئك الرجال والزعماء المغاوير الذين أحبهم الله فخرجوا استجابه لنداء السيد من ممالك الغرب ، واستولوا — بيد قويه — على أرض الميعاد ومعظم بلاد الشام ، ولقد تابعنا باخلاص عظيم التاريخ ابتداء من هذه النقطه لفترة تجاوزت أربعة وثمانين عاما ، انتهت بعهد بلدوين الرابع — وهو السابع فى ثبت الملوك ، اذا أدرجنا معهم لورد جودفروى الذى كان أول حاكم هناك ، ورغبه منا فى أن يزداد ويكمل علم أى راغب فى مزيد من التفاصيل .بأحوال البلاد الشرقيه فقد وصفنا أولا — فى ايجاز واختصار — متى كان احتلال هذه البلاد وكم كانت المآسى التى تحملتها كثيرة ، كما ألممنا أيضا بوصف حال المؤمنين من أهل تلك الحقبة الوسطى الذين كانوا يعيشون بين مارقى هذه الأرض •

ثم ذكرنا كيف نهض أمراء ممالك الغرب لتحمل مسئولية الحج بهدف تحرير اخوانهم بعد طول الأسر الذى عانوه •

★★★

فاذا قدر القارىء المهام المتعددة المتباينة التى تقع على كاهلنا فانه سوف يكون على يقين من أننا قد قاسينا مشقة كبرى ازاء نوع هذه المهام ، التى كان أولها المسئولية الضخمة المتعلقة بأمور تتصل بأسقفية صور الشهيرة الداخلة تحت حماية الرب ، والتى تم اختيارنا لتوليها ، لا لميزة خصصنا بها دون سوانا ، ولكن فضلا من الله وحده•

وأما ثانيها فقد وكل الى القيام بأعمال خاصة بجلالة الملك حيث نيطت بى — فى قصره الشريف — وظيفة المستشار ، هذا بالاضافة الى ما كان هنالك بين آونة وأخرى من شتى الأمور التى تتطلب

اهتمامنا ، فاذا أخذ القارىء هده الأمور بعين الاعبار فانه سوف يكون أكثر تسامحا معنا ان هو وجد فى الكتاب الذى هو الآن بين يديه شيئا لا يقبله ، دلك لأنه حين يكون المرء مسغولا بمساعل مباينة فانه من المستحيل على الذاكرة أن تنسط على الوجه الأكمل ، كما يشق عليها أن تولى كل موضوع ما هو قمين به من العنايه ، كما أنه من المستحيل على الانسان أن يصرف عنايته الكلبه الى شتى المواضع، وأن يوزع اهتمامه عليها جميعا ، ثم يطلب منه أن يكون له من النشاط الذهنى مثل الذى يفرض أن يكون له لو أنه كان قد صرف همه الى أمر واحد فقط ٠

ومن ثم فان المرء ازاء هذه الظروف يكون أهلا لتسامح أكبر ٠

ان هذا العمل فى مجموعه يحتوى على ثلاثة وعشرين كتابا ، وينقسم كل منها الى عدد معين من الفصول حتى ييسر للقارىء أن يجد ما يبحث عنه فى الأجزاء المختلفة من الرواية وانى أعتزم — ان مدت لى الحياة — أن أضيف من وقت لآخر الى ما كتب أحداث وقتنا التى قد تتمخض عنها تطورات المستقبل وأن أزيد عدد الكتب بقدر ما يسمح به الموضوع ٠

★★★

واننى أعتقد ولست مخطئا فى هذا الاعتقاد — أن هذا الكتاب يقدم بينة واضحة عن تجربتنا ، كما أننا وقد كتبناه استجابة لتجربتنا — قد أمطنا اللثام عن سلبيات كان لابد لها أن تظل مخفية لو أننا لذنا بالصمت ، غير أننا نؤثر أنْ لا نجد ما يزدهينا على أن نكون فى حاجة الى ما يهذب النفس (١) ٠

---

(١) أشار وليم فى النص هنا الى قصة لا يدرك معناها الا من يقرأ الاصحاح الثانى والعشرين من انجيل متى (١ — ١٤) من أن ملكا صنع عرسا لابنه وأرسل =

وأدعو الرب القـــادر وحـــده على كل ذلك أن يكلأنا برحمته فلا يحيق بنا هدا المصير ، كما نعرف معرفة تامة أن للخطأ فى العادة ألفاظا كثيرة « وأن يخفى البغض فشفاه كاذبتان ومشـــيع المذمة جاهل وكثرة الكلام لا تخلو من معصية » ·

ومن ثم فاننا بروح من المحبة الأخوية ندعو مطالع هذا الكتاب فى الله ، اذا وجد ما يستحق النقد ألا يتردد فى تبيانه فى رحمـة صادقة وأن يقوم ما اعوج منا فيكسب لنفسه نعمة الحياة الأبدية ·

كذلك نرجو مطالع هذا الكتاب أن يذكرنا فى صلواته فيكسب عطف الرب علينا ، فان وقعنا فى ثنايا هذ االكتاب فى خطأ فنرجوه ألا يتمنى لنا الموت ، عسى أن يتفضل مخلص العالم ــ بفضل طيبته الوفيرة ورحمته التى لا تفشل أبدا فيتغمدنا بغفرانه ، ذلك لاننـا نحن التعساء والخدم الذين لا جدوى منهم فى بيته مخطئون كل الخطأ أمام ضميرنا ، ونخشى يوم الدينونة خشية عظمى ·

هنا ينتهى التمهيد

= عبيده ليدعو المدعوين الى العرس فلم يريدوا أن يأتوا ، فارسل غيرهم الى آخرين يدعوهم للوليمة « لكنهم تهاونوا » فقد مضى منهم الى حقله من مضى ، والى تجارته من كان يتاجر ، أما الذين بقوا فقد « أمسكوا عبيده وشتموهم وقتلوهم » ، فلما سمع الملك غضب وارسل جنوده وأهلك أولئك القاتلين ، وأحرق مدينتهم ، ثم قال لعبيده « أما العرس فمستحق ، وأما المدعوون فلم يكونوا مستحقين » ثم أرسلهم آمرا اياهم ليدعوا كل من وجدوه الى العرس ، فجمعـــوا له « كل من وجدوهم · أشرارا وصالحين ، فامتلأ العرس من المتكئين ، فلما دخل الملك لينظر رأى هنـــاك انسانا لم يكن لابسا لباس العرس فقـــال له · « يا صاحبى كيف دخلت الى هنا وليس عليك لباس العرس ؟ » ، ثم يكمل وليم الصورة بالاشارة الى ما جاء فى الاصحاح العاشر من سفر الأمثال (١٩) فى « أن من يخفى البغضة فشفتاه كاذبتان ، ومشيع المذمة جاهل وكثرة الكلام لا تخلو من معصية » · كما جاء فى النص · وقد ساق وليم هذا كله فى استشهاد قصـــير ليبرر موقفه ، وكان قصر الاستشهاد حاملا ايانا على هذه الحاشية فى هذه الترجمة العربية ·

الكتاب الأول

المسيحية تهب لاستخلاص بيت المقدس ، وبطرس الناسك يبدأ فى الزحف مع جماعات أخرى ٠

فصــول الكتاب الأول :

١ ـ ذكر قيام عمر بن الخطاب ثانى خلفاء محمــد (صلعم) بالاســتيلاء عــلى بيت المقــدس زمن الامبراطور هرقل ٠

٢ ـ الظــروف التى مكنت عمــر بن الخطـــاب من الاســتيلاء على الشرق ولم تكن فى الحسبان ، وكيف أنه لما جاء الى بيت المقدس أمر باعادة بناء هيكل السيد ٠

٣ ـ كيف تحملت ســـورية طويلا أسر الرق تحت حــكم الولاة المختلفين ، وكيف أحدث صــداقة الامبراطور شارلمان العظيم مع هرون الرشيد ملك

فارس(*) على المسيحيين الذين كانوا يعيشون فى كنف المسلمين .

٤ ـ كيف انتقلت المدينه المقدسة الى نفوذ خليفة مصر ، وكيف أن نير عبودية المؤمنين صار غير محتمل زمن الخليفة الحاكم [بأمر الله) ، كذلك ما يتعلق بهدم كنيسة القيامة بالقدس .

٥ ـ عرض للظروف التى كانت سائده حينذاك بين الصادقين الذين كانوا يعيشون بين غير المتألهين.

٦ ـ الخليفة الظاهر يخلف أباه الكريه كحاكم لمملكة مصر ويعيد تشييد الكنيسة بناء على التماس رومانوس امبراطور القسطنطينية وبجهود « جون كاريانين » و « قسطنطين مونوماخوس » ويمدهما بالمواد اللازمة .

٧ ـ القول فى أصل الجنس التركى وتاريخه القديم .

٨ ـ ذكر أنواع الأهوال الكبيرة التى خضع لها العالم يومذاك .

٩ ـ كيف تمكن الفرس من احتلال كل البلاد .

١٠ ـ ذكر ذهاب كل جيوش المؤمنين معا الى المدينة المقدسة ، وما لقيته من المعاملة داخل القدس وخارجها ، وكيف وقعت المدينة مرة ثانية فى أيدي الترك .

(*) هكذا يسميه مؤرخنا ، والمقصود خليفة المسلمين وبغداد .

١١ ـ ذكر مجيء رحل الرب بطرس الناسك واللقاء بينه وبين سمون الموقر بطرك ببت المقدس ٠

١٢ ـ الوحي الذي جاء لبطرس الناسك هذا في كنيسة القيامة المباركة ٠

١٣ ـ السفاف بين الامبراطور هنري والبابا جريجوري السابع ، وكيف كان استقبال اربان الثاني ـ خليفة جريجوري ـ لبطرس العائد من القدس استقبالا كريما ٠

١٤ ـ مجيء البابا اربان الى مناطق ما وراء الجبال وعقده المؤتمر في كلرمونت ٠

١٥ ـ عظة البابا [أيربان الثاني] للناس بشأن الحج الى بيت المقدس ٠

١٦ ـ الزعماء الذين خرجوا للحج وكانوا حاضري الاجتماع ، وذكر علامة الصليب التي وضعها من أزمعوا السفر ـ على ملابسهم ـ رمزا لايمانهم وحجهم المقبل ٠

١٧ ـ أسماء أمراء مملكتي الفرنجة والتيوتون الذين قاموا بالحج ٠

١٨ ـ وولتر المفلس يصل الى القسطنطينية ٠

١٩ ـ مجيء بطرس الناسك بعدئذ ، ومعرفته ـ أثناء اجتيازه المجر ـ بخيانة أهلها ٠

٢٠ ـ نشوب شغب خطير بين الحجاج والبلغار في « نيش » احدى مدن بلغاريا ٠

٢١ ـ بطرس الناسك يستدعى قواته الهاربة ويحاول الوصول من جديد الى تفاهم سلمى مع البلغار ، ولكن يحدث شغب جديد ـ أنكى من سالفه ـ وتفرق كتائب بطرس .

٢٢ ـ بطرس يجمع سرادم جيشه المهزوم ويمضى الى القسطنطينية ، ثم يعبر البسفور ويعسكر فى سسا .

٢٣ ـ جيش بطرس يستولى في غيابه على الماشية من الاقليم الواقع حول مدينة نيقية ويحتل احدى القلاع القريبة منها .

٢٤ ـ قلج أرسلان ـ أحد أمراء الترك ـ يسترد المكان المذكور آنفا ويقتل بالسيف كل من وجده فيه .

٢٥ ـ الجيش الصليبى يتحرك بكافة عساكره ضد قلج أرسلان لقتله اخوانهم التيوتون ، ولكنه يلقى الهزيمة وهو يحاربه .

٢٦ ـ قلج أرسلان المنتصر على شعبنا يدمر المعسكر ويأخذ من وجده فيه ما بين قتيل وأسير ، ثم يمضى لمحاصرة مدينة سيفتوت ، غير أنه يرتد على أعقابه حين يسمع برسالة الامبراطور .

٢٧ ـ القسيس التيوتونى جوتسوك يصل الى المجر وهو يقود جيشا ثانيا ولا يتردد فى ارتكاب أعمال فاضحة فى حق المجريين يعف اللسان عن روايتها .

٢٨ ـ رسالة ملك المجر الى المدعو جوتشوك وجيشه والقضاء على هذا الجيش قضاء مبرما .

٢٩ ـ كيف أن جمعا كبيرا من القوم المفتونين الذين خرجوا في أعقاب الجماعات الأولى راحوا يقتلون اليهود ويسيرون في غير نظام ٠

٣٠ ـ قلعة فيزنبرج ومصرع سبعمائة مجرى ، ثم بيان كيف هلكوا أخيرا بارادة الهية وقتلوا جميعا تقريبا على يد العدو ٠

هنـا يبـدأ
الكتاب الأول

المسيحية تهب لاستخلاص بيت
المقدس وبطرس الناسك يبدأ
الزحف مع جماعات أخرى

- ١ -

تذهب التواريخ الفديمه والرواية السرفبة للقول بأنه فى زمن الامبراطور الرومانى هرفل بدأب نعالم محمد [صـــلعم] تنبت أفدامها سبيتا فويا فى السرف ٠

ولما عاد هرقل من فارس متـوجا بأكاليل النصر عاد أيضـاً بصليب المسيح ، وأفام فترة من الزمن فى بلاد النسام رسم خلالها « موديستوس » المبجل أسقفا لمدينة القدس التى كان خسرو ــ كسرى فارس الطـــاغية ــ قد خـرب كنائسها ، فعهـــد الامبراطور الى « موديسنوس » هذا باعادة ترممها ، آخذا العهد على نفسه أن ينفق من ماله الخاص كل ما يتكلفه هذا الترميم ٠

فى هذا الوقت بالذات كان عمر بن الخطاب ــ ثانى خلفاء محمد [صلعم] فى مملكته وملبه ــ فد اسـولى على عزه ــ احدى مدن فلسطين الشهيرة ــ بجيش لجب من العرب لا يحصيه العد ، ثم ما لبث أن

تمكن بما تحت يده ، من الكتائب والحشود التى جمعها أثناء زحفه أن يفتح بلاد الدماشقة ويستولى على دمشق ، كل ذلك والامبراطور هرقل فى فيليقية « لا يعمل شيئا سوى مراقبة الأحداث فى تطورها. فلما جاءه الخبر بأن العرب قد دفعهم اعـــدادهم الكبير بجموعهم الضخمة الى غزو الأراضى الرومانية ولم يترددوا فى ضم مدنها انهم أدرك أن قوته ليست كافية لصد مثل هذا الجيش وقمع غلوائه ، فآثر السلامة بالرجوع الى بلده ، بدلا من أن يقاتل قوات لا تكافئها قواته ، وألا يغامر صدها فى حرب لا تعرف ما تتمخض عنه ، وكان الأهالى المغلوبون لا يطمعون الا فى حمـــايته اياهم ، لكنـــه غادرهم فازداد بأس العرب شدة مما ساعدهم فى زمن وجيز على الاستيلاء على جميع البلاد الممتدة من اللاذقية بالشام حتى مصر •

ولقد شرحنا فى كتاب آخر ، وفى دقة بالغة ، ما كان من شأن محمد [صلعم] ومتى كان ظهوره ، كما ألممنا بالأحداث التى انتهت الى أن يعلن أنه النبى المرسل من الله ، كما وصفنا هناك أسلوب حياته ودعوته والأراضى التى بسط عليها سلطانه ، وكم عاش من السنين وذكرنا خلفاءه وكيف اتبعوا طريقته فى نشر هذه المبادىء فى أرجاء الدنيا •

- ٢ -

لقد كانت هناك ظروف خاصة سهلت فتح الشرق ، ذلك أنه قبل سنوات قلائل من هذا الفتح قام خسرو ــ الذى أشرنا اليه حالا ــ بغزو بلاد الشام بالسيف ، فدمر المدن ، وأحرق ما حولها من البقاع، وهدم الكنائس ، وزج بالناس فى السجون ، ثم استولى على المدينة

المقدسة ، وقتل بحد السيف ستة وثلاثين ألفا من أهاليـــها ، ثم رجع الى فارس حاملا معه الصليب الأعظم ، هذا الى جانب استصحابه أيضا « زكريا » اسقف بيت المقدس اسيرا وكذلك من بقى على قيد الحياة من سكانها ومن اهالى النواحى المجاورة ·

كان هذا الحاكم الفارسى الجبار قد تزوج من ماريه احدى بنات الامبراطور [البيزنطى] موريس الذى كانت تربطه روابط الصداقة القويه بالبابا المبارك جريجورى [العظيم] الذى عمَّد أحد أطفال الامبراطور عند حوض المعمودية ، كما أن خسروا عُمد هو الآخر ارضاء لخاطر زوجته وظل محافظا على ما بينـــه وبين الروم من العلاقات الودية طيلة حياة موريس الذى مات فحلفه على العرش القيصر فوكاس بعد أن غدر بموريس فاغتاله ، واذ ذاك أغار الملك خسرو على الامبراطورية وزحف عليها بجيش حرب الأراضى التابعة لها ، وذلك بسبب تقززه من خيانة أولئك الذين ارتضوا أن يولوا أمورهم رجلا دنيئا قد لطخت يداه بدم مولاه ، فعدهم خسرو شركاء لفوكاس فى اتفاق سرى واعتبرهم حلفاء فى الجرم ذاته ، كما أن زوجته مارية راحت هى الأخرى تزيد ما بصدره من غضب من أجل الثأر لأبيها ، فلما فرغ كسرى من فتح بقية الأراضى التى كانت تحت الحكم الرومانى كانت بلاد الشام هى آخر ما استولى عليه كما قلنا ، فقتل من أهلها من قتل ، وأسر منهم من أسر وساقهم معه الى فارس ·

لذلك لما دخل العرب بلاد [الشام] وجدوها خالية قد غادرها أهلهـــا ، فبادروا لاغتنام الفرصـــة التى لم يكونوا يتوقعونهـــا لبسط سلطانهم ، وفرضوا نفس المصير على مدينة القدس الحبيبة الى الرب وان منوا بالحياة على سكانها القلائل ممن لا زالوا مقيمين بها عساهم ينفعونهم فى جمع الجزية التى فرضوها عليهم ، غير أنهم ســـمحوا للمغـــلوبين أن يعيـــدوا ترميم ما دمر من الكنائس وأداء

سعائرهم الديسة ،كما أبقوا لهم أسقفهم ، وآذنوا لهم بممارسه الديانة المسيحية بلا قيد ٠

★★★

وفي أثناء اقامة عمر [بن الخطاب] ببيت المقدس راح يستقصى فى دقة عن موضع هيكل (١) السيد ويسأل عنه الأهالى لا سيما الأسقف الموقر « سفرونيوس » خليفه « موديســـوس » الطيب الذكر ، ويقال ان الأمير الرومانى « تيتس » هو الذى دمر هـــذا الهيكل أثناء تخريبه المدينة ذاتها ، فدل القوم [عمر] على موضعه وأشاروا الى ما بقى من أطلال ضئيلة تشير الى هذا الأثر القديم ، واذ ذاك أمر [عمر] باعادة بنائه ، ورصد قدرا كبيرا من المـال للنفقة على ذلك الغرض ، كما جلب لبنائه العمال ، وحمل اليه — عن طيب خاطر — شتى مواد البناء اللازمة له من الرخام والخشب ، فما لبث الهيكل أن كمل فى زمن قصير ، واستوى على الصورة التى رسمها عمر له فى ذهنه ، والتى يراها اليوم زائر القدس ٠

ثم أوقف [الخليفة] على الهيكل كثيرا من الأملاك الفسيحة الغنية التى كان دخلها كافيا للحفاظ عليه سليما ، وللصرف على تجديد أجزائه القديمة ، وزوده بمصـــابيح لا تنطفىء أنوارها أبدا بفضل أولئك الذين يقومون بالخدمة فيه ٠

لكن لمـا كان كل واحد يعرف تمـام المعرفة شكل هذا البناء ونفاسة صنعه فان تفصيل ذلك ليس من شأن هذا الكتاب الحالى ٠

على أنه توجد داخل هذا البناء وخارجه آثار قديمة قيمة ، ونقوش عربية محلاة بالفسيفساء التى يعتقد أنهـا راجعة الى هذا العهد ، وهى توضح اسم بانيه ، وما أنفقه عليه وتواريخ ذلك كله منذ البداية حتى كمل البناء ٠

---

(١) يقصد بذلك كنيسة القيامة ٠

- ٣ -

لفد دانت المدينه المفدسه ـ حبيبه الرب ـ لحكم الأعداء بسبب حطايانا وتحملت على مدى أربعمائه وسعين سنه فيدا لا سنحقه وعانت المشقة على الدوام رغم اخىلاف ظروف هدا الأسر بعضها عن بعض ، وكان تغير الأحداث المستمر يتمثل فى تبدل ولاتها وحكامها الواحد بعد الآخر ، كما مرت عليها ضراب وضاءة وأخرى كالحه تبعا لطبيعة كل حاكم تؤول اليه مقاليد الأمور بها ، وكان حالها أشبه بحال مريض تتحسن صحته تارة ، وتسوء أخرى بتغير الأيام ، ولكن السفاء كان أمـرا مستحيلا ما دامت فى قبضة حكام طغاة وشعب لا يدين بدينها ، بيد أن السلام رفرف بجناحيه على شعب الله ابان عهد ذلك الحاكم الجدير بكل ثناء ، وأعنى به هرون الملقب بالرشيد الذى دان له الشرق ، والذى لا زال تسامحه وعطفه النادرى المثال وطبيعته الرائعة محل تقدير عميق وثناء لا ينقطع فى الشرق حتى اليـــوم .

ولقـد قامت العـلاقات الطيبة بين هرون وبين المسيحيين على أساس من التفاهم الرائع الذى أرسى دعائمه الامبراطور الورع الخالد الذكر « شارلمان » عن طريق السفراء المستمرين جيئة وذهابا ، وكان الود العظيم من جانب ذلك الخليفة مصدر راحة كبرى للمؤمنين ، حتى لكأنهم يعيشون فى ظل حكم الامبراطور شارل وليس تحت حكم هرون ، وتطالع فى سيرة ذلك الخليفة الشهير قول القائل « ان علاقات شارلمان مع ملك الفارسيين (١) هرون صاحب السلطان على كافة أنحاء العالم ـ باستثناء الهند ـ كانت علاقات كريمة حتى ان الأمير [شارلمان] كان يؤثره بمودته على سائر ملوك الدنيا وحكامها، وكان يرى أنه لا ينبغى أن يكون التعظم والاجلال الا له وحده دونهم جميعا ، ولما وفد على هرون الرسل الذين بعثهم شارلمان لزيارة القبر

(١) يقصد بذلك المسلمين .

المقدس وكنيسة القيامة ودخلوا عليه بالهـدايا والتحف ، وأعلموه بما جاءوا من أجله ، وأفصحوا له عن رغبة مولاهم لم يكتف هرون بإجابتهم الى كل ما سألوه اياه بل زاد فمكنهم من ملكية هذا المكان واعتباره من أملاك شارلمان . فلما حان موعد أوبة الرسل الى مولاهم أوفد الرشيد سفراء من قبله الى شارلمان ، حاملين اليه هداياه الثمينة من الثياب الحريرية والتوابل وغير ذلك من منتجات الأقطار الشرقية، كما كان قد أرسل قبل بضع سنوات من ذلك التاريخ الى شارلمان ـ بناء على رجائه ـ فيلا كان الوحيد عنده اذ ذاك .

وكان شارلمان يمد يد العون السخي على الدوام لمن يعيش في القدس من المؤمنين الموجودين تحت حكم الشرقيين ، كما شمل بره من كان منهم يسكن مصر وافريقيا التي يحكمها الشرقيون المتعصبون ، ونقرأ في ترجمة حياته « انه لما كان شديد التقوى فقد جرت عادته على بسط يده بالمال للفقراء في سخاء بالغ ، سماه الاغريق بالزكاة ، آخذا نفسه بهذا العمل عطفا منه عليهم لسد حاجتهم ، ولم يقتصر فعله هذا على من هم في مملكته ، بل تعداهم الى كافة المسيحيين الذين يعيشون في مسكنة حتى ولو كانوا وراء البحار في بلاد الشام ومصر وبيت المقدس واسكندرية وقرطبة .

أما الدافع الخاص الذي حمله على عقد أواصر الصـداقة مع الملوك فهو طمعه في أن يمكن من مـد يد الغـوث والمساعدة لمن يعيشون تحت رحمة هؤلاء الحكام .

واذا أراد القارىء الوقوف على ما كابدته القدس : مدينة الله وما حولها من شدة بسبب كثرة التغيرات للظروف والأحوال خلال هذه الفترة الانتقالية ، فليقرأ كتابي المسمى « تاريخ أعمال أمراء المشرق » فقد أجهدت نفسي في أن يكون سجلا شاملا لأحداث حوالي خمسمائة وسبعين من السنين ، أعني منذ زمن محمد [صلعم] حتى الوقت الحاضر . وهو سنة ١١٨٢ من مولد المسيح .

كان هناك في ذلك الوقت صراع موصول الحلقات بين المصريين والفرس أشعلت جذوته المنافسة الضارية بينهما حول الزعامة ، على أن الامر الذى لا ينكره احد هو أن كل واحده من هاتين الامتين كانت تعتنق مذهبا يخالف المذهب الذى تعتنقه الأخرى تمام المخالفه ، مما أدى الى حد كبير الى اثارة شعور البغضاء بينهما ، ولا يزال اختلاف المذهبين الدينيين بينهما حتى اليوم هو موضوع الجدال الناشب بين هاتين الأمتين نشوبا أفضى للقضاء على كل تراحم بينهما، حتى ان كل واحدة منهما تعتبر الأخرى كافرة ، وقد ذهب هذا الشعور مذهبا بعيدا أدى برغبة كل منهما في مخالفة الأخرى حتى في الاسم ، فيطلق أتباع المذهب الشرقى على أنفسهم اسم « أهل السنه » على حين أن الذين يؤثرون اتباع المذهب الشرقى المصرى – وهو أقرب ما تكون اليها – يطلقون على أنفسهم اسم «الشيعه» غير أن شرح الاختلاف في الخطأ بينهما لا يدخل فى نطاق هذا الكتاب .

وقد أخذت مملكة مصر تزداد قوة يوما بعد يوم اذ استولت على الولايات والأقطار الممتدة حتى أنطاكية ، كما وقعت فى يدها مدينة القدس وغيرها من المدن التى خضعت لنفس القوانين ، وترتب على ذلك أن خفت بعض الشيء متاعب المسيحيين الذين دخلوا تحت سيطرتها ، شأنهم في ذلك شأن سجناء يسمح لهم بالتمتع بقليل من الاستجمام ، وأخيرا أصبح الحاكم [بأمر الله] خليفة لهذه المملكة جزاء وفاقا للؤم الانسان ، فجاوزت خطايا هذا الخليفة خطايا جميع سابقيه ولاحقيه على السواء ، حتى غدا اسمه مضرب الأمثال عند الأجيال التالية التى تطالع خبر جنونه ، وكان هذا الرجل مشهورا بشتى ضروب الاثم والاجتراء على ارتكاب المعاصى مما جعل حياته – وهى كريهة عند الله والخلق معا – تستحق رسالة خاصة قائمة

بدايها ، فكان من الأفعال الذميمة التى اجترحها قيامه بهدم كنيسه القيامة التى شيدها فى الأصل « ماكسيموس » الموقر أسقف بيت المقدس بأمر الامبراطور قسطنطين ثم أعيد ترميمها ــ زمن هرقل ــ على يد « موديسسوس » الموقر ·

وكان والى الرملة واسمه « ياروق » وهو أحد رجال الحاكم بأمر الله ــ قد أخذ على عاتقه تنفيذ أمر الخليفة ، وسرعان ما أعمل معول الهدم فى البناء حتى سواه بالأرض ، وكان رئيس الكنيسه يومذاك هو «أوريسسوس» المعظم حال من هذا الخليفه السفيه ، وتقول الرواية ان الخليفة اتخذ هذا الاجراء البعيد المدى ليبرهن لأهل ملته على مدى اخلاصه للملة ، اذ كانوا ينعتونه بالنصرانى قدحا فيه ونبلا منه لانه ولد من أم نصرانية ، ومن ثم حملته الرغبة فى محو هذه التهمة منه على أن يقترف تلك الجريمة ، ولما كان يعتقد أن لن يكون هناك بعدئذ اتهامات توجه الى شخصه وان خصومه لن تواتيهم الفرصة بعد ذلك لشن حملات ضارية عليه فقد هدم مهد الايمان الكاثوليكى الذى تصدر عنه الديانة المسيحية ·

- ٥ -

أخذت أحوال مسيحيى بيت المقدس منذ ذلك الوقت تزداد سوءا ، ولايرجع ذلك فحسب الى ما يشعرون به من حزن مقيم بسبب هدم كنيسة القيامة المباركة ، بل وأيضا الى الأعباء المتزايدة التى يقاسونها من جراء مختلف الخدمات المفروضة عليهم ، فقد وجدوا أنفسهم مطالبين بدفع اتاوات وضرائب باهظة ينوء بها كاهلهم ، ويرفضها العرف وتشجبها الامتيازات التى منحهم اياها حكامهم السابقون ، هذا بالاضافة الى منعهم من أداء شعائرهم الدينية التى

كانوا يمارسونها سرا وجهرا تحت حكم الولاه المحتلين ، وكانوا كلما ران عليهم ظلام الأيام ألزموا بالبقاء داخل بيوتهم فلا يجرؤون على الخروج بين الناس ، بل انهم لم يعودوا يرون بيوتهم ملجأ آمنا لهم ، فقد كان خصومهم يحصبونهم بالحجاره ، ويرمونهم بالقاذورات ويشنون عليهم هجمات وحشية ويلاقون هم من الازعاج أشده، لاسيما في أعيادهم الخاصة ، وكانت التهمة العابره يرمبهم بها أى فرد كافية لجرهم بالعنف وتوقيع القصاص عليهم وتعذيبهم من غير محاكمه ، كما تصادر بضائعهم وتجاراتهم ، وتنهب أملاكهم ، ويختطف الناس أبناءهم وبناتهم أمام أعينهم ويرغمون بالجلد تارة والكلمات المعسوله والوعود الكاذبة تارة أخرى على جب دينهم ، فان لم يفعلوا ذلك صب خصومهم عليهم جام غضبهم ، وأذاقوهم العذاب ألوانا ونصبوا لهم المشانق ٠

وكان بطركهم الموجود آنذاك هو الذى يتحمل فى بادىء الأمر هذه البلايا وتلك الاهانات ، ثم أخذ بعدئذ يحض أهل ملته ـ سرا وجهرا ـ على التمسك بالصبر ، ويعدهم بأكاليل الشهادة ـ فى العالم الآخر ـ تنعقد على رءوسهم جزاء ما تحملوه من الشرور الدنيوية ، فكانت كلماته الهاما لهم وبلسما لجراحهم فاقتدوا به ، وراح كل منهم يواسى الآخر ويشد من عزمه ، يفعلون ذلك فى حب متبادل ، فاستهانوا بالأهوال الدنيوية بلقوتها فى سبيل المسيح ٠

وان الأمر لبطول بنا جدا لو تكلمنا عن الحالات الفرديه ، أو تحدثنا عن ضروب التعـذيب الجثمانى الذى تحمله خدام المسيح هؤلاء بصبر يرجون منه أن تزلف لهم الجنة ، لكننى أسوق مثـلا واحدا من أمثلة جمة لتدرك جلالتكم لماذا كانت أتفه الأسباب تؤدى بهم الى ورود حوض الردى ، ذلك أنه كان يعيش بين ظهرانى قومنا فى مدينة القدس واحد من الأشرار الفجرة الذين انطوت نفسه على كراهية سوداء لأهلنا كانت تحمله على الدوام لاضطهادهم ، فقد

هدا الرجل مكيده فيها هلاكهم ، اد انسل حلسه داب ليله حاملا حيفة كلب ىم ألقـاها فى ساحة الجـامع الدى كان القوامون عليه ـ كدلك أهل الدينه كلهم ـ حريصين أشـد الحرص على نطـافه النامه ، فلما أهل فجر اليوم التالى أقبل المصلون على المسجد لاقامه الصلاه ، فوحدوا حثه الحيوان النجس يتصاعد منها النتن ، فثارت ثائرتهم ، وتعالت صرخاتهم حتى صخت المدينه كلها على صياحهم ، وأسرع الناس الى المسجد ، فأجمعوا الرأى كلهم ـ دون أن يشد عنه أحد ـ على أن مسئولية الحادث تقع على كاهل المسيحيين وحدهم ٠ فماذا كان بعدئذ ٠

لقد تقرر اعدام جميع النصارى باعتبار أن الموت ولا شىء سواه ـ هو وحـــده الذى يمكن أن يكفروا به عن هـذا الدنس ، فتأهب المؤمنون ـ وكلهم ثقه ببراءه ذيلهم ـ لتحمل الموت من أجل المسيح، وبينما كان الجلادون يتقدمون مشهرين سيوفهم ويوشكون أن ينفذوا الأوامر الصادرة اليهم اذا بشاب يافع يفيض قلبه بالنخوة يتقـدم الجموع جاعلا نفسه الفداء لهم ويقول لهم :

« أيهـا الاخوة ٠٠ ستكون أكبر نكبـة أن تهلك الكنيسه كلها بهذه الطريقة ، وانه لأجدى أن يقدم واحد حياته فداء للناس جميعا فلا يهلك الشعب المسيحى جميعـه ، فعـــدونى أن تكرموا ذكراى سويا ، وأن توقروا أسرتى الى الأبد ، وتخصوها بالتشريف ، ان خلصتكم بأمر الرب ، فان عاهدتمونى أن تفوا بهذه الشروط خلصتكم جميعا بأمر الرب من هذه المذبحة » ٠

وأنصت المسيحيون الى كلمـــاته فى فرح شـــديد ، وأبدوا استعدادهم للوفاء له عن طيب خاطر بما سألهم ، وقطعوا على أنفسهم العهد أن يخرج فى يوم عيد الشعانين موكب مهيب ممن هم من ذريته، يحملون الى المدينة أغصان الزيتون رمزا لسيدنا يسوع المسيح :

حيئذاك أسلم الشاب نفسه لوجوه أهل بيت المقدس ، معلنا لهم أنه هو الذى اقترف ذلك الجرم ، فبرأ بذلك ساحة المسيحيين الآخرين ، اذ ما كاد القضاة يسمعون قصته حتى صفحوا عن بقية قومه ، أما هو فقد قتلوه بالسيف ، وهكذا قدم حياته من أجل اخوته ، وقابل الموت بعزم كريم ، ونام أطيب نومه مباركه وهو واثق كل الثقة أنه قد حظى بعطف الرب ٠

- ٦ -

ولقد شاء أخيرا أن حلت الشفقة الالهية والعطف الربانى على هذا الشعب المنكوب حين وافاه العون الكريم بالرحمه بوضعه البائس، اذ فارق الأمير الخبيث الدنيا ، وتقلد من بعده ابنه « الظاهر » مقاليد السلطة ، فاجتث الاضطهاد من جذوره ، وجدد الاتفاقيه التى نقضها أبوه ، وأحكم روابط الصداقه مع رومانوس امبراطور القسطنطينيه الملقب بلهيوبوليس ، الذى استجاب الظاهر لرجائه فأذن للنصارى باعاده وتشييد الكنيسه ، لكن على الرغم من حصول مؤمنى القدس الأتقياء على هـذا الاذن الا أنهم أدركوا أن مواردهم المالية وحـدها عاجزة عن اعاده بناء أمر عظيم كهذا الأمر ، ومن ثم أرسلوا سفارة الى « قنسطنطين مونوماخوس » الذى ولى العرش بعد « رومانوس » وصار اليه الصولجان والتاج فتضرع اليه السفراء باكين بين يديه ، ووصفوا له ما تكبده الناس من حزن ممض وشقاء بالغ بسـبب تدمير كنيستهم . وتضرعوا الـيه أن يعمهم سـخاؤ الامبراطورى ليتمكنوا من اعادة تشييد الكنيسـة ، وكان القوم قد عهـدوا بهذه السفارة الى رجل من أهل القسطنطنية اسمه «جون كاريابيس» جمع بين شرف الأصل ونبل الخلق ، قد نبذ وراءه ظهريا جميع مباهج

الدنيا من أجل خدمة المسيح وصرف همه لرعاية الله . وكان جون هذا يعيش يومئذ في بيت المقدس ، عارفا عن الدنيا ، باهجا بهج الفقراء من أجل المسيح ، فناط القوم به هذه المهمة فأداها صابرا غير مقصر،وأخلص في عرضها بين يدى الامبراطور المبجل حبيب الله. ونجح في مسعاه ، اذ وعده قسطنطين من ماله بالمال اللازم للسير في اجراءات اعادة البناء ، وزاد فجعل هذه النفقة المالية من جيبه الخاص ، فلما أنجز جون مهمته على الوجه الأكمل آب الى بيت المقدس والفرحة تغمره لحصوله على الوعد الذى كان المؤمنون يتلهفون عليه .

وعلم القاصى والدانى بنجاح رحلته ، وتوفيقه فيما حصل عليه ، فارتفعت معنويات رجال الدين والناس جميعا ، وبدوا وكأنهم قوم أبلوا من مرض خطير ، وكان رئيس تلك الكنيسة في ذلك الوقت هو البطرك « نقفور » .

لم يكد الناس يتأكدون من منحهم الاذن بالبناء وحصولهم على المال من الخزانة الامبراطورية حتى شيدوا كنيسة القيامة المجددة التى لا تزال حتى اليوم في القدس ، وكان ذلك سنة ١٠٤٨ من ميلاد المسيح ، أعنى قبل تحرير المدينة بواحد وخمسين عاما ، وبعد هدم الكنيسة بسبع وثلاثين سنة ، فلما كمل البناء واستقام عاليا رأى الناس فيه عزاء لهم عما كابدوه من الأهوال والأخطار القاتلة التى تعرضوا لها من قبل .

بيد أن الشعب المؤمن لم يتخلص تماما من المتاعب والبلايا التى لم تتوقف عن أن تصيبه بين آن وآخر ، فكم تعرض للبصق والصفع، وطالما زج به في السجن وكبل بالقيود ، ولم يقتصر الأمر في الاضطهاد على من كانوا بالقدس وحدها من المسيحيين بل تعداهم الى من كانوا يسكنون في بيت لحم « وتكوا » أيضا ، ولم يحدث

أن جاء وال جديد أو أرسل الخليفة نائبا عنه الا تجددت الاهانات ننصب على رأس شعب الرب المتدين الذى لم يقصر أبدا فى الوفاء بكل ما هو مفروض عليه ، ثم يهدد بعد ذلك مباشرة بهدم الكنيسة ، حتى صارت هذه المعاملة عادة تتجدد كل سنة تقريبا .

واصطنعت شتى الطرق لابتزاز هذا الشعب ، فاذا أراد مضطهده اغتصاب أى شىء منه أو من البطرك وتلكأ هؤلاء فى الاستجابة هددوا فى الحال بهدم كنيستهم .

وكانوا يعانون كل سنة على وجه التقريب هذه المعاملة ، فيدعى النواب الجدد أن أوامر م ولاهم صريحة بتسوية الكنائس بالأرض فى الحال ان تجرأ أصحابها على التأخير فى دفع الجزية والضرائب المفروضة عليهم .

لكن على الرغم من ذلك فان المسيحيين نعموا ــ على طول مدى حكم المصريين والفرس ــ بأحوال معيشية أطيب من التى عاشوا فى ظلها بعد أن بسط الترك سلطانهم ومدوا نفوذهم على ممتلكات المصريين والفرس ، اذ أخذت أحوالهم تزداد سوءا مرة أخرى منذ أن أصبحت المدينة المقدسة تحت اشراف الترك ، كما قاسى شعب الله (على مدى ثمانية وعشرين عاما من الحكم التركى) مشاقا أعظم هولا من المشاق التى عاناها تحت نير المصريين والفرس والتى بدت فى نظره أقل فداحة .

- ٧ -

وسوف نتحدث كثيرا عن الترك في هذا الكتاب وعن عدوانهم على شعبنا كما سنقص أيضا أخبار البطولة المجيدة التي طالما قمنا بها ضدهم ولما كانوا قد دأبوا منذ ظهورهم حتى الآن على الاندفاع الطائش في مهاجمتنا فانه يبدو من الأوفق في الكتاب الحالي أن نقدم موجزا عن نشأة هذا الجنس وتاريخه القديم ، ونتكلم كذلك عن نبوئه مقعد العظمــه التي تشهد الأخبــار أنهم حافظوا عليها آمادا طويلة ٠

لقد جاء جنس الترك أو التركمان (وهما من نبعه واحده) في الأصل من المناطق الســــماليه ، وهم قوم مفرطون في الفظاظه ولا يقيمون في مكان واحد ، بل كانوا يتجولون على الدوام هنــا وهنــاك سعيا وراء المرعى النضير لقطعانهم . ولم تكن لهم مدن أو قرى أو أماكن معينة يستقرون فيها ، فان رأت احدى القبائل أن تغير مكانها شدت بأجمعها رحالها وخرجت تسعى وقد نصبت عليها شيخا يكون أكبر رجالها سنا ، وهو الذي ترفع اليه القبيلة شتى مشاكلها فيقضي فيها بما يرى ، ويلتزم المتخاصمون بطاعته فيما قدر وقرر ، لأنه لم يكن مسموحا لأحد ما أن يتبع هوى ذاته ويخالف ما يقضي به الشيخ ، وكانوا يأخــذون معهم أثناء تجوالهم جميــع ما يحتاجونه من علف الجياد ، ويستصحبون معهم الماشية والغنم وكذلك عبيدهم ونساءهم ، وذلك كله هو جميع ما يملكون ٠

وهم لا يهتمون بالزراعة ، ولا يعرفون البيع ولا الشراء ، وليس لهم من وسيلة في الحصول على ضرورات الحياة سوى المقايضة فان أعجبهم موضع معشوشب لطيف وأرادوا النزول به فترة من الوقت دون اضطراب أرسلوا من قبلهم طائفة من أعقل رجالهم الى صاحب الناحية يسألونه أن يأذن لهم بضرب خيامهم هناك ، فاذا انتهوا الى

انفاق مرض على دفع قدر معين دفعوه لحاكم هذه الناحيه ، ثم يقيمون بعد ذلك فى الغابات والمراعي وفق الشروط المبرمة ·

★★★

وحدث ذات مره أن انفصلت طائفه من هؤلاء الناس عمن سواها ودخلت بلاد فارس ، فوجدت الاقليم ملائما كل الملاءمه لاحتياجاتها، فدفعت للحاكم ما اتفقوا معه عليه فى البدايه ، وأقاموا هناك ردحا من السنين أطول مما جرت به عادتهم ، وتزايد خلال هذه الفترة عـددهم زياده هائله ، والواقع أنه لم يكن هناك حد تقف عنـده كثرتهم ، حتى انتهى الأمر أخيرا بملك فارس والأهالى أن يتخوفوا من تزايد عددهم الكبير وتوجسوا خيفه منه ، فراحوا يقلبون الأمر فيما بينهم حتى انتهى بهم الى وجوب استعمال القوة فى طرد هؤلاء الدخلاء من مملكتهم ، لكنهم ما لبثـوا أن رأوا تغيير هذه الخطه ، فأضافوا مطالب جديدة زادت من المصاعب المتراكمه دون أن يخف الضغط المعتاد ، وكانوا يطمعون أن يؤدى هـذا الأمر الى ارهاقهم ارهاقا يحملهم على النزوح من تلقاء أنفسهم ومن غير ضغط عليهم ، ومع ذلك فقد ظلوا أعواما طوالا بعـد ذلك متحملين عبئا ثقيـلا من المتاعب ، كما أرهقتهم الاتاوات المفروضة عليهم ، وأخيرا تشاوروا فيما بينهم فقر رأيهم على أنه لم تعد لهم طاقة على تحمل ما هم فيه ·

فلما علم الملك بذلك أمر المنادى أن ينادى بوجـوب رحيلهم جميعا من أرجاء المملكة فى فترة معينة لا يتجاوزونها ، ومن ثم عبروا نهر « كوبار » وهو حد المملكة فى تلك الناحية ، واغتنموا الفرصه اذ ذاك لاقامة جموعهم الكثيفة ، فلما تهيأت لهم الحياة فى فسحة من الأرض وفى رقعة أوسع مما كانت لهم من قبل تأملوا ما هم فيه من الكثرة ، فراعهم أن يستكين جيش كبير لا يحصيه العد كجيشهم هذا لصلف أى أمر ، وعجبوا من أنفسهم أن يتحملوا شنآن الخدمة

ودفع الجزيه وكان من الجلى أنهم يماثلون الفرس وغيرهم من الشعوب فى العدد والبأس ، وبدا لهم أن العقبة الوحيدة التى تقوم أمام احتلال الأراضى المجاورة بالقوة انما ترجع لعدم وجود ملك يتولى أمرهم ، كما هو الحال فى بقية الأمم الأخرى ٠

لذلك قرروا أن يولوا عليهم ملكا فاستعرضوا قومهم جميعا فوجدوا من بينهم مائة أسرة لها الصدارة على غيرها ، فأمروا أن يخرج رجل من كل أسرة ومعه قوسه ، فتجمعت بين أيديهم حزمة فيها مائة قوس بعدد العائلات ، واذ ذاك استدعوا صبيا صغيرا وأمروه أن يسحب سهما واحدا بعد أن غطوها ، وكان الاتفاق بينهم على أن يتم اختيار الملك من الأسرة التى منها السهم الذى يسحبه الصبى ، وشاءت الصدفة أن يكون السهم المسحوب هو سهم السلاجقة فكان الملك الذى يلى أمرهم فى المستقبل من هذه الأسرة حسبما جرى عليه اتفاقهم ٠

ثم أمروا باختيار مائة فرد من السلاجقة اشترطوا فيهم أن يكون كل واحد منهم أكبر رجال عشيرته سنا وأعظمهم خلقا ، وأحسنهم طبعا ، وأكثرهم اقداما ، ثم يتقدم كل واحد من هؤلاء برمح عليه اسمه وجعلوا من هذه الرماح مرة أخرى حزمة وأحسنوا غطاءها ، ونادوا ثانية على الغلام ذاته (أو آخر فى مثل براءته) وأمروه أن يسحب رمحا فكان الرمح الذى سحبه الصبى يحمل اسم سلجوق ٠

وكان سلجوق هذا رجلا جميل المنظر من أسرة مرموقة ، قد ذاع أمره وصيته فى عشيرته ، وعلى الرغم من كبر سنه الا أنه كان قوى البنية . قد طال تمرسه بفن الحرب ، وكان كل شىء فيه يشير الى أنه أمير عظيم ٠

نصّب الرجل باجماعهم كبيرا عليهم ، ووضعوا فى يده السلطة الملوكيه ، ووفروه التوفير الواجب نحو الملك واقسموا على طاعته وقطعوا له يمين الولاء الصادق بتنفيذ كل ما يقضى به فيهم ، فبادر هذا الملك فى الحال الى استخدام السلطه الموكله اليه للعمل على ما فيه خير المملكة وبعث المنادى فى الناس المجتمعين أن يعبروا النهر من جديد بكل كتائبهم وأن يحتلوا أرض فارس التى غادروها منـــذ قليـــل ، كما أمرهم بالاستيلاء على المملكة المجاورة حتى لا يضطروا فى مستقبل أيامهم أن يهيموا على وجوههم فى أرض الغير ، وحتى لا يكونوا عرضة لاستبداد غير محتمل من الشعوب الغريبة عنهم ٠

وتمكنوا فى مدى سنوات قلائل من اكتساح بلاد فارس وجميع الممالك الشرقية والتغلب على بلاد العرب وغيرهم من أصحاب النفوذ والسلطة من الأمم الأخرى ، وهكذا أتيح لهذا الشعب البسيط التافه أن يسنم فجأة معارج الذروة ويتبوأ القمة حتى ملك الشرق كله ٠

وكان حدوث ذلك قبل ثلاثين أو أربعين عاما من قيام أمرائنا الغربيين بحمله الحج التى هى موضوع هذا الكتاب ٠

ولكى نفرق على الأقل فى الاسم بين هذه القبائل التى نَصَّبت عليها ملكا فنالنها الشهرة العظيمة وذيوع الصيت وبين أولئك الذين لا زالوا محتفظين بأسلوب حيـاتهم الخشن الفطرى فانا نقول ان الجماعة الأولى تعرف الآن بالترك ، وأما الثانية فتعرف باسمها الأصلى وهو « التركمان » ٠

ولما ترك للترك غزو جميع ممالك الشرق تطلعوا لفتح مصر القوية فزحفوا على بلاد الشام ، واستولوا على بيت المقدس واحتلوا عدة مدن قريبة منها فزادوا من متـاعب المؤمنين الساكنين هنـاك زيادة أرهقتهم كل الارهاق لما فرضوه عليهم من أعمال يؤدونها لهم ، كما أشرنا الى ذلك حالا ٠

لم يكن المؤمنـون فى الشرق وحـدهم هم الذين أتاح عليهم الطغاة بكلكلهم بل لقد ضعف الايمان ووهن فى الغرب وفى كافة انحاء الارض ، لا سيما بين من كانوا يسمون بالمؤمنين فتلاشت خشية الله من قلوب الناس ، وضاع العدل من الارض . وانعدمت الطمأنينه اذ فشى العنف بين الامم ، وساد الغش وعمت الخيانه والخديعه والاحتيال كل صقع وناد ، وطويت كل فضيله . فلم يعد وجود لها وصارت عدما وارتفعت رايه الشر مكانها . والذى لا مراء فيه هو أن الدنيا قد بدت وكأنها منحدره فى هوه الظلام ، وأنه قرب الموعد الثانى لظهور ابن الانسان « فقد أمسك الكثيرون عن عمل الخير ، وأصبح الايمان فى العالم غريبا ، وعمت الفوضى ، ولم يعد أحد يراعى مكانه صاحب مكانه ، وخيل للناظر أن العالم يريد أن يعود القهقرى الى الوراء الى وضعه الأول من الفوضى التى كان عليها ، كما لم يعد الأمراء الكبار الذين كانوا ملزمين بالسير برعيتهم نحو السلام مكترثين باتفاقيات السلام التى تعقد بين بعضهم والبعض الآخر ، وراح كل منهم يقاتل حتى لأتفه الأسباب ، وعاثوا فى الأرض فسـادا يحرقون كل ما يلاقونه ، ويسـطون على الغـنائم التى وجدوها ، ومكنوا أتبـاعهم السفله الأوغاد من اغتصاب ما يملكه الفقراء ، ولم يعد وسط الكوارث الجمه طمأنينه على أية ملكيه ، وكان مجرد الشك فى حيازة الشخص لشىء ذى قيمة سببا كافيا لتقييده والزج به فى السجن حيث يلقى من العذاب الجثمانى ما لا يحتمل ، ولم تعد أمتعة الأديرة والكنائس بمنجاة من هذا الشر ، كما لم يعد أحد يراعى ما لممتلكات هذه الأماكن الطاهرة من امتيازات منحهـا الأمراء الأتقياء لها ، وانعدم التقدير الذى كانت تضفيه عليها مكانتها الرفيعة التى كانت لها من قبل ، فاقتحمت المعابد وانتهكت حرماتها، ونهبت الأوعية المعدة للخـدمة المقدسة ، ولم تعرف يد الانتهاك بين

الطـــاهر والدنس ، وانعـــدم التمييز بينهما وشملت الأســلاب فيما سملت أكسيه المذابح والأردية الكهنوتية والأواني المخصصــه لخدمة السيد ، وتعقبوا اللائذين بأقصى الأماكن الدينية والمعتصمين بالاحرم المقدسه واللاجئين الى ساحات الكنائس فطالتهم ايديهم وساقوهم الى التعذيب ، وجرعوهم كأس الردى دهاقا ، هـذا الى جانب اللصوص الظلمه الذين تسلحوا بالسيوف في الطرق العامه وراحوا ينصبون الكمائن لتصيد المسافرين ، فلم ينج من بطشهم حاج ولم يسلم من شرهم رجل دين ، ولم تكن القرى هي الأخرى بمنجاة من الأخطار لأن السفاحين المحليين أحالوا جميع الشوارع والدروب الى أماكن تبث الخوف في نفوس الأبرياء ، وربما كان أشد الناس عرضة للوقوع في المهالك هم أبعدهم عن الشبهات ٠

ومورست شتى أنواع الفجور جهرا ومن غير حياء كما لو كان أمرا مشروعا . ولم تعد تراعى روابط القربى من الدم والزواج ، وتخلى الناس عن العفة ـ وهي غاليه عند الله وملائكته ـ فنبذوها نبذ النواه ، وصارت الصدارة للدعارة والانكباب على الشراب والتهالك على ألعاب الميسر والقمار التى تحتـــاج الى سهرات لليلة طويله ، فمارسوا ذلك كله في ساحات المعـابد ، وانعدم التدبر والتعفف وساوى رجال الدين بقية الناس في ممارسة الحياه غير الشريفة وصاروا كمن نقرأ عنهم في الأنبياء حيث يقال :

« كما الشعب هكذا الكاهن ، وكما العبد هكذا سيده » (١) فقصر الكهنـة في أداء واجبـانهم « وكلهم كلاب بكم لا تقـدر أن تنبح » (٢) ، فكانوا لاينورعون عن مقابلة أى أحد « ولا نأبى رؤوسهم

---

(١) هوشع ٤ ٠ ٩ ، واشعيا ٢٤ ٢٤ ٠

(٢) اشعيا ٥٦ . ١٠ ٠

رب » (١) الجدد . وصاروا كالرعاه الذين أهملوا قطعان الماشيه الموكول اليهم حراستها وتركوها عرضة لهجمات الذئاب ، وتناسوا كلمات المسيح حين يقول (٢) « مجـانا أخذتم » مجانا اعطوا » ، ولم يتورعوا عن خطيئه السيمونيه . فلطخوا بعار حجري (٣) ٠

فهل ثم حاجه لمزيد من القول ؟

والخلاصه أن أصبحت الصداره للرذائل « اذ كان كل بشر قد أفسد طريقه على الأرض » ، ولم تستطع تهديدات الرب التي تحلت كنذير شؤم من السماء ولا الظواهر الأرضية أن تزجر من سلكوا طريق الشر ، فانتشرت المجـاعات وعمت الأوبئـه وأرعدت السماء بالنذر (٤) ، وضربت الزلازل كثيرا من البـلاد المختلفة وظهر غير ذلك من الدلائل التى عددها المسيح فى الانجيل (٥) ٠

ومع ذلك فلم يرعو الناس عن غيهم بل ظلوا يرتكبون شتى الموبقات (٦) ، شأنهم فى ذلك شأن الأغنام تنبش فى روثها (٧) ٠

وأهانوا الرب الرءوف الذى تعذب طويلا فكان مثلهم فى ذلك مثل الذين قال فيهم السيد (٨) ٠

---

(١) المزامير ١٤١ : ٥ ٠

(٢) متى ١٠ : ٨ ٠

(٣) انظر القصة والخبر كاملين فى الملوك (ثان) ٥ : ٢٠ ـ ٢٧ ٠

(٤) التكوين : ١٢ ٠

(٥) اشارة الى ما ورد فى متى ٢٤ : ٧ من قوله « لأنه تقوم أمة على أمة ، ومملكة على مملكة : وتكون مجاعات وأوبئة وزلازل فى اماكن » ٠

(٦) راجع قول السيد المسيح فى لوقا ٢١ : ١١ ٠

(٧) راجع رسالة بطرس الثانية ٢ : ٢٢ حيث قال : « كأنهم كلب قد عاد الى قيئه ، وخنزيره مغتسلة فى مراغة الحمأه » ٠

(٨) راجع أرميا ٥ : ٣ ، ٥١ : ٩ « ضربتهم فلم يتوجعوا ٠ أفنيتهم وأبوا قبول التأديب » ٠

« يا رب أليست عيناك على الحق . ضربتهم فلم يتوجعوا . أفنيتهم وأبوا قبول التأديب . صلبوا وجوههم أكثر من الصخر . أبوا الرجوع » ، وكذلك قوله « داوينا بابل فلم تشف » .

- ٩ -

حين فاض مرجل الغضب بالرب من هـذه الأمور قضى على المؤمنين الصادقين الموجودين في أرض الميعاد أن يرسفوا في قيد العبودية المشار اليها من قبل ، وأن يقاسوا من الشدائد ما يعجز اللسان عن وصفه ، وبالاضافة الى ذلك فانه آثار عليهم خصومهم وصب عليهم سوط عذاب فابتلى الذين ظلوا حتى هذه اللحظة سادرين في غيهم ومعتقدين أن كل شيء سيظل سائرا وفق هواهم ذلك أنه بينما كان « رومانوس » الملقب بـ « ديوجينوس » يحكم الاغريق ويدير دفة أمور المملكة في القسطنطينية على أتم صورة من النجاح اذا بواحد من حكام فارس وسورية الأفوياء واسمه آلب أرسلان ينهض من قلب الشرق بعساكر كثيفة جمعهم من شتى الأمم الجاحدة، وكانوا من الكثرة بالصورة التي غطت ـ كما قيل ـ وجه البسيطة ، كما اصطحب معه العربات الحربية والفرسان ، ومشت خلفه قطعان الماشية والأغنام ، وكان مجهزا بكل شيء تجهيزا رائعا ، وتقدم حتى دخل الامبراطورية [البيزنطيه] وأخضعها كلها لسلطانه وسيطر على كل شيء خارج المدن من الحقول والبلدان المسورة والقلاع المنيعة دون أن يخرج أحد لصده ولم يعترض زحفه أي معترض ، ذلك لأن كل واحد من الناس كان لا يعنيه غير سلامة نفسه ، ولا يكترث حتى بنسائه ولا أطفاله بل ولا بالحرية ذاتها ، وعلم الامبراطور في هذه الأثناء بأن جيشا قويا معاديا له كأنه السيف المسلول يهدد بقطع الرقاب قد شرع في تخريب الامبراطورية المسيحية ، فدفعته

شده انشعال باله الى استدعاء قواته من الفرسان وجميع المساه الذين تستطيع الأمة نقديمهم ، اسجابة لما يفرصه الموقف الحرج ٠

فماذا نقول آكر من دلك ؟

لقـــد رحف الامبـراطور بـكل ما تجمـع لديه من الكتائب ، وما حشده من الفرسان الكثيرين ، ولكن زحفه كان على غير رضا من اللهفلاقى الخصم لكن بعد أن كان فد استولى على قلب الامبراطورية وأخذ ينوغل فى داخل البلاد ٠

ثم كانت المعركة التى شبت بعـد ذلك فى ملازكرت معركة ضارية ضراوة تتناسب مع قوتين تعادل كل منهما الأخرى تقريبا وتحرك كلا منهما كراهية يزيدها عنفـا ايمان شديد الصـلابة ، وكراهة لمعتقدات يعتبر الواحـد منهما أن خصمه يصدر فيها عن دنس ٠

فماذا نقول أكثر من هذا ؟

لقـــد باد الجيش النصرانى ، ودارت الدائرة على صـــفوف المؤمنين ، وسفك العدو دماء فداها المسيح بدمه ، وكان أسوأ النكبات التى حاقت بهم وقوع الامبراطور فى الأسر ٠

وعاد من هذا الجيش من قيضت لهم الحياة لىقصوا نبأ النكسه التى ألمت بهم ، فاسمع الناس فى ذهول لما يقولون ، وأدى بهم الحزن الذى استولى على نفوسهم الى اليأس من حياتهم وسلامتهم ، فأسلموا أنفسهم للبكاء الممض ٠

فى هذه الأثناء انتشى العدو العظيم ــ وان يكن كافرا ــ بنصره الساحق ، وأخذ يتباهى بما أحرز من الظهور ، فأمر [ألب أرسلان]

باحضار الامبراطور من يديه ، وجلس هو على عرشه الملوكى ، ثم أمر بطرح رومانوس تحت قدميه ، وأراد اظهار احتقاره لكل ما هو مسيحى فانحد من جسد الامبراطور موطئا لقدمه ، وراح يدوسه صعودا ونزولا ، حتى اذا رضيت نفسه بما ألحقه به من تحقير وازدراء أمر طائفة من كبار رجال الامبراطور الذين أسروا معه أن يرفعوه من على الأرض ، وأذن لهم جميعا بالرحيل ٠

حين صك نبأ هذه الاهانة سمع أمراء المملكة بادروا الى اختيار رجل آخر ولوه أمرهم ، شعورا منهم بأن رومانوس ـ الذى لقى هذه الاهانات الجسدية ـ لم يكن بعد أهلا لحمل الصولجان ، ولا جديرا بهالات الشرف التى تليق بأغسطس ، بعد أن فضح أقبح فضيحة ، ثم سملوا عينيه ، وان تكرموا عليه بالحياة ليعيش ما بقى من أيامه كمواطن عادى ٠

★★★

لم يصادف ملك شاه أية عقبة فى تنفيذ أهدافه ، فقد نجح فيما أقدم عليه ، اذ استولى على جميع البلاد الممتدة من لاذقية الشام الى مضيق البسفور الذى ينساب الى جوار القسطنطينية ، وكانت الأرض التى استولى عليها تقدر برحلة ثلاثين يوما طولا ، وعشرة أو خمسة عشر يوما عرضا واسترق جميع سكان المدن والقرى ، وهكذا (١) « غضب الرب على شعبه وكره ميراثه وأسلمهم ليد الأمم، وتسلط عليهم مبغضوهم ٠

---

(١) المزامير ١٠٦ : ٤١ ٠

ثم كانت مدينه أنطاكيه الهامة آخر ما استولى عليه ، وكانت لها الصدارة بين كثير من الولايات في النبل والروعة . اذ كانت أول مركز لأمير الحواريين ، ثم أصبحت تدفع الجزيه لخصوم ملتها ، وهكذا دخل تحت سياده المارقين — وفي زمن قصير نسبيا — بلاد « كوليسيريا » بما اشتملت عليه من ولايات فينيقيه وايسوريا و « بامفيليا » و « ليكيا » و « كبادوكيا » و « غلاطيه » وأبصا ولايتا « بونتوس » و « بيثينيا » وقسم من آسيا الصغرى ، وتشتهر كلها بكثرة مواردها ، وكان أغلب سكانها من النصارى لكن جرى عليهم الأسر ، وغلبت الكنائس على أمرها وامتدت اليها يد التدمير ، وانطلق الأعداء يطاردون الملة المسيحية لا تأخذهم في هذه المطارده هوادة اذ أجمعوا العزم على استئصالها ، ولو كان تحت يد ملكشاه قوه بحرية لتم له ما أراد من عبر جدال فتح المدينة الملوكية (أعنى القسطنطينية)، ذلك لانه بث في نفوس الاغريق من الرعب ما جعلهم يستبعدون سلامة أنفسهم حتى داخل أسوار عاصمتهم ، ولم يعودوا يعتبرون تغلغل البحر في أرضهم كافيا لضمان سلامتهم تمام السلامة .

أدت هذه الأحداث — وأخرى مشابهة لها في طبعها — الى سيطرة الفرس التامة على كافة سكان بيت المقدس وما جاورها ، فغمر البأس الناس من قمة رأسهم الى أخمص أقدامهم ذلك أن عزاءهم — كما قيل — كان يأتيهم في وقت الشدة من القصر الامبراطورى يوم كانت الامبراطورية تنعم بالرخاء ، فكانت سلامتها وسلامة أحوالها وانتعاش حال المدن المجاورة — وفي مقدمتها جميعا أنطاكية — تبعث في نفوسهم أملا كبيرا في أن ينعموا بالعيش أحرارا في مستقبل أيامهم .

أما الآن فقد أصبحوا جزعين على أنفسهم وعلى غيرهم فعمتهم الاشاعات المتشـــئومة حتى أصبحوا يودون الموت أكثر مما يرجـــون

الحماه ، وانهارت عزائمهم اعتقادا منهم أن قد قضى عليهم بالأسر الأبـدى ٠

- ١٠ -

حدث فى أثناء هذه الأوقات العصيبة الخطره أن وصـل الى مدينة القدس جماعه صغيرة من اليونان واللاتين نجـوا من شتى صنوف الهلاك فى أرض العدو ، وكان محيئهم لأداء مناسك العباده فى الأماكن الطاهرة ولكن حراس أبوابها لم يأذنوا لهم بدخولها حتى يدفعوا قطعه النقود الذهبية التى جرت العاده أن يدفعها كل داخل ، غير أنهم كانوا قد صرفوا فى أثناء رحلتهم كل دانق كان معهم ، ولم يبق فى يدهم شىء من نقد يؤدونه لسداد هذا الرسم المالى ، وان كانوا قد وصلوا ـ بشق النفس ـ الى هدفهم الذى طال شوقهم اليه ، فبلغوه سالمين ٠

وتجمع الحجـاج زرافات أمام المدينـــه ينتظرون الاذن لهم بدخولها ، وطال انتظارهم حتى مات منهم أكثر من ألف حاج بسبب الجوع والعرى ، وكان هؤلاء النـاس (الحجاج) ـ الأحيـاء منهم والأموات ـ عبئا ثقيلا ينوء به كاهل الأهالى التعساء الذين حاولوا المحافظة على حياة من لا يزال فيه نفس يتردد ، فراحوا يمدونهم بما قدروا عليه من الطعام يمسكون به رمقهم ، كما بذلوا من جانبهم جهدا فى دفن المـوتى ، رغم أن مشاغلهم الخصـوصية كانت فوق طاقتهم ٠

أما الحجاج الذين دفعوا الرسـم النقـدى المقرر ، وأذن لهم بدخول بيت المقدس فقد أضافوا الى المواطنين عبئا زاد من أعبائهم

وحملهم مسئولية أضخم ، لما كان بتهدد هؤلاء الحجاج من الأخطار أثناء تجوالهم الذى كان يتسم بالبعد عن الحذر تلهفا منهم على زيارة الأماكن المقدسة ، وكانت هذه الأخطار تتمثل فى البطش عليهم ، أو لكميم على آذانهم ، او ما هو أســـوأ من ذلك ألا وهو خنقهم سرا . ومن ثم فانه لما راح الحجاج يسرعون فى المضى الى الاماكن المقدسة مضى المواطنون يسعونهم فى حمان أخوى مؤملين أن يتمكنوا بهذه الطريقه من دفع هذه الأخطار عنهم حرصا منهم على حمايتهم وسلامتهم وحرصا من أن تقع لهم حادث مؤلم .

وكان فى المدينه دير تملكه « الأمالفيون » لا يزال يعرف حتى اليوم باسم دير القديسة مارى «حامية اللاتين» وهو ملاصق للمارستان به كنيســة صغيرة أقيمت تمجيـدا لبطـرك الاســكندرية المبــارك « جون المنير » وكان يقوم بالعناية بالمارستان رئيس أساقفة « الدير المذكور حالا » . كما كانت المعونة تبذل به فى أى وقت للحجــاج البؤساء الذين يحضرون فى مثل هذه الظروف فتنفق عليهم مما يأتى من الدير أو من الهبات التى تجود بها المؤمنون وكان قل أن يوجد بين الألف من الحجاج القادمين واحد يستطيع أن يكفل ذاته ويقيم أود نفســه اذ يكون أكثرهم قد فقدوا نفقــة سفرهم ، وأرهقتهم الصعاب المهلكة ، وما استطاعوا بلوغ غايتهم سالمين الا بعد عسر ومشقة .

هكذا لم يكن ثم راحة للمواطنين فى بلدهم ولا فى خارجه ، وما كان من يوم ينقضى عليهم الا ويحمل لهم نذر الموت ، الذى كان هناك ما هو أنكى منه ألا وهو جزعهم مما هو ماثل أمامهم على الدوام من الاسترقاق الفظ الذى ليست لهم قدرة على احتماله .

وكان هناك شيء آخر أدى بهم الى أقصى آياب الحزن ، وذلك أن العدو كان يدخل قسرا الكنائس التى أعيدت لأصحابها والتى بذلوا جهدا كبيرا فى الحفاظ عليها فمنحمها عليهم وهم فى ذروه انغمارهم فى أداء طقوسهم الدينية غير عابىء فط بما لهده الأماكن الطاهرة من حرمة واحترام ، فينحد من مذابحها مقاعد له ، ويبث الفزع فى قلوب المصلين بصفيره وصياحه الجنونى ، ثم يقلب كئوس القرابين ويطأ بأقدامه الأدوات الخاصة بالمراسم الدينية ، ويحطم التماثيل الرخامية ويكيل اللكمات لرجال الدين ويصب عليهم وابلا من اللعنات ، ثم يجذب البطرك المولى الأمر من كرسيه ، ويجذبه من شعره ، ويأخذ بلحيته ويطرحه أرضا كأنه مجرم حقير ، وكم من مرة ألقى به الأعداء فى الحبس من غير جريرة ، وعاملوه معاملة لا تجوز الا مع أحقر العبيد ٠٠٠٠٠ كل ذلك تعذيبا لأتباعه الذين شاركوه الألم باعتبارهم اياه أباهم الروحى ٠

لقد ظل هذا الشعب المؤمن بالرب - كما قلنا - يعانى ذلك القيد الفظ ، ولكنه أبى الا أن يظل مستمسكا بدينه رغم بلواه على مدى أربعمائة وسبعين سنة ٠ وطالما جأر هؤلاء بالشكوى الى الرب فى صلواتهم التى لا تنقطع واستغاثوا به فى أنات باكية ، وزفرات حرى ، راجين أن يخلصهم من العذاب الذى لاقوه جزاء خطاياهم ، وكم سألوه ، أن تتغمدهم رحمته العظيمة فتبعد عنهم سؤر غضبه عليهم لأنهم وقعوا فى هوة الشر كما يقول القائل « غمر ينادى غمرا (١) ٠٠٠ كل تياراته ولججه طمت عليه » ٠

وأخيرا عطف الرب عليهم وتحنن بنظرة منه وهو على كرسيه المجيد ورغب فى وضع حد لهذا الشقاء ، فأبى حنانه الأبوى الا أن يمنحهم الراحة التى يلتمسونها ٠

---

(١) المزامير ، ٤٢ ٠ ٧ ٠

ان اهتمامنا في هذا الكتاب منصب على بيان طريقة وتنظيم هذه الخطة الالهية التي أرادها الله لانقاذ شعبه من بلواه تمجيدا للمخلص في المسيح ٠

- ١١ -

في هذا الوقت بالذات الذي كانت فيه المدينة المحبوبة من الرب تمر بتلك المتاعب السابق وصفها ، كان هناك بين الجموع الكبيرة التي سافرت الى الأماكن المقدسة من أجل العبادة والصلاة قسيس اسمه « بطرس » من أسقفية « أميس » في مملكة الفرنجة ويعرف « بالناسك » ، وهو لقب طابق لفظه واقعه وكان هذا الرجل قد شدته الى بيت المقدس نفس الحماسة الروحية ٠

أما عن هيئته فكان رجلا قميئا ليس فيه ما يجذب النظر اليه، لكن كانت تسكن هذا الجسد الضئيل شجاعة عظمى ، هذا الى انه كان امرءا خفيف الروح ذكيا ، جميل العينين ، ولا تنقصه البلاغة اذ كانت طبيعة ركبت فيه وخلقة فطر عليها ٠

وبعد أن دفع المقرر جبايته من كل مسيحي راغب في دخول المدينة استضافه أحد الأنقياء المؤمنين بالمسيح ، ولما كان بطرس رجلا طلعة فقد راح يلقي على مضيفه السؤال تلو السؤال مستفسرا منه عن أحوال النصارى فتجمع لديه منه تفاصيل جمة لا تقف عند حد الأخطار الحالية بل تجاوزتها الى ذكر الاضطهادات التي قاساها أجدادهم من قبل على مدى سنوات طوال غابرة ، أما الأخبار التي فاته سماعها منه فما لاذن فقد أدركها بالملاحظة الدقيقة التي أسعفته

بها عياه ، كما دلته استقصاءاته الخاصة دلالة جلية على صدق ما سمعه من الآخرين ، ومما تجمع لديه بعد مروره على الكنائس خلال اقامته في المدينة ، ثم ترامى الى سمعه ما كان عليه بطرك المدينة من كثرة الورع وعظم الخوف من الله فتمنى لو تكلم معه عن الأحوال السائدة اذ ذاك في المقدس ، كما طمع أيضا في الحصول على صورة كاملة أكثر وضوحا عن أمور معينة أخرى فمضى الى رؤيته ، حتى اذا صار في حضرته كان حوار طيب استمتع به كل من الرجلين وكان هناك مترجم أمين يترجم ما يقوله كل منهما .

أدرك البطرك « سمعون » من كلام بطرس أنه أمام رجل فطن، ملم الماما واسعا بكثير من الأمور ، قادر على الاقناع بالكلمة والفعل فأخذ يشرح له في اسهاب وصدق الأهوال الجمة المنصبة في وحشية على شعب الرب الساكن بيت المقدس ، فتأثرت مشاعر بطرس الأخوية عند سماعه هذه الرواية تأثرا لم يملك معه دموعه عن الانهمار ، ثم راح يسأل في لهفة عما اذا كان في الامكان ايجاد طريقة ما للخلاص من هذه المصاعب المحدقة بهم ، فأجابه الرجل الصالح « اعلم يا بطرس أن السيد الحنون الرحيم يأبى أن تكرب أناتنا وآهاتنا الباكية بسبب الخطايا التي كبلنا بها أنفسنا ، ولسبب الآثام التي ارتكبناها ولم نطهر منها ، ومن ثم فلا محل في حاضرنا لوقف القصاص منا ، ولكن رحمة الرب العظيمة لن تسمح بأن يمسنا ضر ، وبقوة اخوانك المخلصين في عبادتهم لنا سند هذا الى أن مملكتهم ــ التي تفزع أعداءنا ــ تمتد امتدادا فسيحا شرقا وغربا ، فان هم تعاطفوا معنا في حب أخوي وشاركونا في موقفنا الحالي وقدموا من العلاج ما يدفع المصائب التي تنثال علينا أو ان هم على الأقل تشفعوا لنا عند المسيح فقد يراودنا الأمل في الحصول على أي عون من امبراطورية الاغريق على الرغم من أنهم كانوا أكثر

ارتباطا بنا برابطة الدم والجوار ، هذا الى ما عندهم من ثروات ضخمة أعظم الضخامة ، ولكنهم أصبحوا اليوم لا يقدرون على الدفاع عن أنفسهم اذ تلاشت قوتهم بددا ، كما أنهم فقدوا ــ حسبما سمع حنانكم الأخوى ــ أكثر من نصف امبراطوريتهم على مدى سنوات قلائل » ٠

فرد عليه بطرس قائلا : اعلم أيها الأب المبارك أنه اذا توفر لكنيسة رومة وأمراء العرب مُبلّغ المعى ثقة يخبرهم بالمصائب التى تكابدونها ، فلا شك أنهم سوف يبادرون الى بذل الجهد لتقديم العلاج بأسرع ما يمكنهم قولا وعملا لتخليصكم من هذه المساق ، وعليك أن تبادر فى الكتابة الى قداسة البابا والى الكنيسة فى رومة وأن تؤكد الخطاب بخاتم سيادتكم وأما أنا فلن أتراجع من جهتى عن حمل هذه الرسالة رجاء خلاص روحى ، كما أننى مستعد ــ مهتديا بالله ــ لزيارة الجميع والتوسل اليهم ، وسأكون الشاهد عندهم على محنتهم التى تجاوز كل حد وأدعو الجميع أفرادا وجماعات ألا تتوانوا عن اسعافكم بما فيه خلاصكم » ٠

نزلت هذه الكلمات نزول السلوى على نفس البطرك وملأتها بالغبطة ، كما تقبلتها قلوب الجميع قبولا حسنا ، وفرت عيون المسيحيين فرحا لبطرس وشكروا رجل الرب شكرا جزيلا على عاطفته ، وناولوه المكتوب الذى سألهم اياه ٠

« حقا يارب يا مولانا .. كم أنت عظيم ورحمتك بلا حدود

« حقا يا عيسى الشفيق لن يخيب قط من ناط أمله ببابك .

« اذ من أين جاءت مثل هذه الثقة لحاج بلا معين ومن غير سند كيدا الحاج بطرس وهو ناء عن مسقط رأسـه حتى يأخذ نفسـه ويحمل على عاتقه مهمة فوق طاقته ؟ ثم هل له أن يطمع بعد ذلك في تحقيق ما يتطلع اليه » .

« ان التفسير الوحيد هو أنه وجه أفكاره نحوك يا رب وأنت حاديه ، وفاض قلبه بالحب المتقد فتعاطف مع اخوانه ، وأحب من حوله حبه لنفسه فسار للوفاء بما فرض عليه ، وعلى الرغم من ضعف قوة كيانه الا أن المحبة كانت تشد أزره ، كما أنه رغم ما ألقاه اخوانه على عاتقه من مهمة شاقة ان لم تكن مستحيلة الا أنها تيسرت عليه وذللت له بفضل ما طبع في قلبه من حب لله ولجيرانه ذلك لان الحب قوى كالموت « وأنه لا ينفع الا الايمان الكامل بالمحبة (١) » .

« ان خادمك لن يتردد اذ أظهرت نفسك له وشجعته بمرآك ولن يتذبذب ، ولكنه ينهض قويا ليكمل عمل الحب » .

---

(١) انظر غلاطية ، ٥ : ٦ .

وحدث فى أحد الأيام أن خادم الرب هذا الذى أتكلم عنه كان مشغول البال على غير العادة بالتفكير فى العودة الى وطنه والوفاء بالمهمة التى حملها ، ثم دخل كنيسة القيامة واتجه بقلب خاشع كل الخشوع الى منبع الرحمة ، وأمضى الليل فى الصلاة والتهجد ، حتى اذا خارت عاطفته سقط على الدرج واستغرق فى النوم العميق استغراقا لم يحدث له من قبل ، وخيل اليه أنه يرى سيدنا عيسى المسيح واقفا أمامه كالطيف وهو يقول له : « انهض يا بطرس وأسرع وانجز ما عهد به اليك من المهام غير خواف ولا وجل لأنني سأكون معك ... لقد جاء الوقت لتطهير الأماكن المقدسة ولمساعدة خدمى » .

واستيقظ بطرس مستريحا الى الرؤية التى رآها وصار أكثر ميلا للطاعة ورأى ـ استجابة للانذار الربانى ـ أن لا يتريث أكثر من هذا ، فدب النشاط فى أوصاله وتأهب للرجوع ، ولما فرغ من الصلوات المألوفة مضى الى الأب البطرك (سمعون) يستأذنه فى العودة فنفحه ببركاته فانطلق شطر البحر حيث وجد سفينة تجارية على وشك الابحار عن طريق أبوليا فاستقلها فبلغ « بارى » بعد رحلة موفقة . وبينما كان على وشك المضى الى رومة اذا به يعلم بوجود البابا ايربان [الثانى] فى تلك النواحى فرفع اليه رسالة البطرك ومسيحى القـــدس ، ووصف له ما يعانونه من الأهوال والمتاعب على أيدى الطغاة الموجودين فى الأماكن الطاهرة ونقل اليه فى دقة وبراعة ما عهد اليه به .

حدث قبل سنوات من هذا الوقت أن نشب صراع عنيف بين هنرى ملك الألمان وامبراطور الرومان وبين البابا جريجورى السابع سلف اربان الثانى ، وقد دار هذا الصراع حول الخاتم وعباءة الأساقفة الراحلين ، وكان العرف قد جرى ـ لا سيما في الامبراطورية ـ على ارسال خاتم أسقف الكنيسة الراحل ومسوحه الكهنوتية الى الامبراطور الذى يقوم بعد ذلك بملئ بارسال واحد من بطانته أو أحد قساوسته ويكل اليه مهام الرعوية فى ذلك المكان دون انتظار لقيام رجال الدين بانتخابه ، لكن البابا [جريجورى السابع] شعر بأن هذا العمل يخالف كل نواميس العدل لما فيه من هدر لحقوق الكنيسة ووطئها بالأقدام ، فقام من جانبه ينهى الامبراطور عن عجرفته الكريهة هذه ، يكرر منه مرارا هذا النهى بالكف عما يفعل فلما رأى أن لا جدوى من هذه التحذيرات الهادئة أصدر ضده قرار الحرمان ٠

غضب الامبراطور من هذا الاجراء أشد الغضب ، وشرع فى اضطهاد الكنيسة فى روما فعمد الى تنصيب جيبرت ـ رئيس أساقفة رافنا ـ مكان البابا المعظم جريجورى ، وكان جيبرت هذا كثير الثراء واسع المعرفة مكنته ثروته الطائلة واعتماده على بطش الامبراطور من خلع جريجورى الموقر وتولى هو قسرا الأبرشية الرسولية ، وكم كان غبيا غاية الغباء تنقصه صحة التفكير حين اعتقد اعتقادا جازما بأنه هو البابا حقا لنعته زورا وبهتانا بهذا اللقب ٠

كان العالم الشقى الغارق فى الرذيلة يسير ـ كما قلنا قبل هذا ـ فى طريق حظ خاسر فلما نشب هذا النزاع ازداد تردى العالم

فى هوة أشد عمقا لتخليه عن كل احترام واجب لله وللانسان ، وراح يجرى وراء كل ما دنسته الخطيئة ، ويباعد ما بينه وبين كل ما ينطوى على الخير ، ففتحت السجون أبوابها للأساقفة ، وكان اذا تجرأ أحد من رجال الكنيسة على معارضة الامبراطور فى تسببه هذا زج به الامبراطور فى الحبس وصادر كل ما يملك ، كأنه مجرم قتل نفسا ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد من صب الأهوال الدنيويه على رجال الدين بل صاروا عرضة على الدوام للخلع من أبرشياتهم وتعيين سواهم فى أماكنهم هذه .

فمر جريجورى من نقمة الامبراطور الى « ابوليا » حيث لقى أعظـم الترحيب ، وعومل أشرف معـاملة من جانب دوقها روبرت جيسكارد الذى مد يد المساعدة الى البابا ونجاه من الوقوع فى يد الامبراطور حتى تمكن أخيرا من الوصول الى سالرنو حيث وافاه أجله بها ودفن فى ثراها ، فخلفه اذ ذاك على كرسى البابوية البابا فيكتور الذى لم يتجاوز بابويته شهورا فقط . فتلاه البابا ايربان الثانى الذى أشرنا اليه من قبل والذى لجأ الى قلاع أتباعه النبلاء المخلصين ليدرأ عن نفسه غضب الامبراطور هنرى المذكور من قبل، لكنه لم يكن أبدا بمنجاة منه اذ كان (الامبراطور الجديد) مصرا فى عناد شابه عناد سلفه فى سلوك هذا الطريق الخبيث .

وعلى الرغم مما كان فيه البابا من بلاء عظيم الا أنه أحسن لقاء الموقر بطرس الذى شغل نفسه منذ رجوعه من القدس بتنفيذ المهمة التى ألقيت على عاتقه ، فوعده ايربان وعدا من الرب الذى هو خادمه انه مبادر لمساعدته فى مسعاه الذى جاء اليه من أجله متى لاحت له الفرصـــة .

حينذاك اشتعلت جذوة الحماسة الزكية فى نفس بطرس الذى راح يذرع كافة أرجاء ايطاليا وعبر جبال الألب ولم يترك أميرا من

الامراء الا راره ، عير مدخر وسعا فى حبهم جميعا وتحذيرهم ولومهم. فنجحت تحذيراته ـ بفضل الرب ـ فى حمل بعضهم على المبادره الى الخروج لمساعده اخوانهم الذين مسهم البلوى ونزل بهم الضر . رغبة منهم فى ألا يدعوا الأماكن المقدسة ـ وهى البقاع التى تعطف السيد فشرفها بحضوره وصانها عن أن تدنس بالخبائث .

ولم يكتف بطرس بما أثمرته دعوته بين الأمراء وحدهم ، لكنه تطلع الى أن تؤدى تحذيراته القوية الى تحريك نفوس العامة وأهل الطبقة الدنيا ، واشعال جذوة حماسهم للقيام بنفس الواجب .

وبينما كان يشق طريقه فى بطء بين الممالك والشعوب راح ـ فى وفاء صادق لرسالته وفى نشوة روحية مقدسة ـ يبشر بنفس الرسالة بين أفقر الناس وأدناهم ، ورعى المسيح مسعاه البار فكان من عطفه عليه انه لا يكاد يدعو الناس حتى تؤتى دعوته آكلها طيبة. وأصبح تبشيره هذا ضروريا أشد الضرورة للبابا الذى أجمع أمره على أن يتبعه دون ابطاء الى ما وراء الجبال ، ذلك لان كلام بطرس كان يفتح قلوب سامعيه لطاعته فلا يجد البابا صعوبة فى دعوتهم الى نفس الأمر الذى يؤدى الى تحقيق هدفه تحقيقا يجعله قادرا على التأثير فيهم .

- ١٤ -

كانت السنة سنة ١٠٩٥ من مولد السيد المسيح وهى الثالثة والأربعون من تتويج هنرى الرابع ملكا على الألمان ، وهنرى هـذا هو الثانى عشر من أباطرة الرومان ، كما كان يحكم فرنسا فيليب

الأول بن هنري الاول ملك الفرنجه العظيم ، ورأى البابا اربان ـ وقتئذاك ـ ان خبث بني ادم قد جاوز كل مدى ، وأن كل شيء يندني الى اسفل كما لو كان يتجه الى السر ، ومن ثم عقد مجمعا لكل ايطاليا في « بياشنزا » فكان هذا المجمع خطوه احتيج اليها كل الاحتياج لرد غلو الناس ، فلما انتهى هذا المجمع غادر البابا ايطاليا فرارا من غضب الامبراطور عليه ، وعبر جبال الألب ودخل مملكة فرنسا حيث نسلم تأكيدا بينا عما سمعه حالا من الأخبار تبين منه أنه لم يعد أحد ما في أية ناحية يكترث بالمدر العلوية ، الى جانب استخفاف الناس بتعاليم الأناجيل وتلاشي الايمان ، وباتت كل نعمه وفضيلة مهدده بالخطر وفغرت مملكة الشر ودولة الظلام فاها لتبتلع الجميع ٠

ونظرا لمكانة البابا اربان الثاني فقد كان شديد المعرفة بمعرفة السبيل الذى يسلكه للقضاء على الرذائل والخطايا الفاحشه التي كانت للأسف تزداد شناعة حتى لتكاد أن تبتلع الدنيا بأجمعها . لذلك عزم على الدعوه لمجمع عام عقد أولا في « فيربلسه » ثم في « بوى » ، حتى اذا حل شهر نوفمبر اجتمع باسم الرب في كليرمونت ـ احدى مدن « أوفرن » ـ مجمع مقدس من الأساقفة ورؤساء الاديره من شتى النواحي والولايات الواقعة وراء جبال الألب ، تكلؤهم الرعاية الالهية ٠

وحضر هذا الاجتماع أيضا بعض أمراء تلك الولايات ذاتها . كما تقررت فيه التنظيمات التي يمكن أن تؤدى الى التخلص من الظروف غير الملائمة التي تمر بها الكنيسة ، وكان هذا القرار بناء على نصيحة رجال الدين وأهل التقوى ، كما أذيعت المراسيم التي كان يرجى منها أن تساعد على تقويم الأخلاق وتصحيح الأخطاء الجسيمة ٠

ولما كان بطرس الناسك يسعر بالمسئولية الكبيرة نحاه الرساله النى حملها ، فقد رأى أن هذه الاجراءات ربما أدت الى عودة السلام الذى يبدو وكأنه قد تلاشى من الدنيا ٠

وأخيرا آلقى ابرمان خطبه وهى كما يلى ٠

- ١٥ -

« اعلموا أيها الاخوة الأعزاء ، وحق لكم أن تعلموا كيف أن فادى الجنس البسرى قد نزل فى تجالبد هيكل بسرى لخلاصنا جميعا ، وعاش بينا كانسان ، وكان مجيئه تمجيدا لأرض الميعاد النى وعد بهـــا من قبل ، والتى ذاعت شهرتها بأعمال الناموس وبالمعجزات المتكررة النى قام بها ، وهذا ما يشير اليه العهـدان : القديم والجديد فى كل ما تضمناه تقريبا ، وأن الواضح حقـا أنه أحب تلك الأرض حبـا صادقا منذ أن تعطف على ذلك الجزء من الأرض ــ أو بلفظ أدق ــ على هذه البقعة الصغيرة فسماها بميراثه ، رغم أن للرب « الأرض (١) وملؤها المسكونة وكل الساكنين فيها » ومن ثم فانه هو القائل أيضا بصوت أشعيا (٢) « ميراثى اسرائيل » والقائل أيضا (٣) « ان كرم رب الجنود هو بيت اسرائيل » ٠

---

(١) مزامير ٢٤ ١ ، ٤٩ . ١٢ ٠

(٢) اشعيا : ١٦ . ٢٥ ٠

(٣) اشعيا ٥ ٧ ٠

وعلى الرغم من أنه كرس الدنيا بأجمعها منذ البدء لنفسه الا أنه اسمى المدينة المقدسة على وجه الخصوص لتكون خاصه به ، وذلك بشهادة النبى القائلة « الرب(١) أحب ابواب صهيون أكثر من جميع مساكن يعقوب » ، وقد قيل فى هذه المدينه أقوال كثيرة رائعة فهناك أكد مخلصنا بتعاليمه وعذابه وقيامه من بين الموتى أن الخلاص انما يكون فى أرضها ، لذا فقد اختيرت تلك المدينة منذ البدء لتكون شاهدا على هذه الأمور ، ولتكون هيكل الأسرار ، واختيرت حقا لتكون خاصة لمن اصطفاهم بقوله : « اهتفي يا بنت أورشليم » هو ذا ملكك يأتى اليك من أجل أورشليم المدينة التى اخترتها لنفسى لأضع اسمى (٢) فيها ٠

لكن على الرغم من أن خطايا أهلها حملت الرب العادل على أن يوقعها مرة بعد أخرى فى أيدى الشريرين ، ويجعلها تكابد قظاظتهم فترة من الوقت ، الا أنه لا ينبغى أن يذهب الظن بأحد الى أنه تخلى عنها ونبذها نبذ النواة لانه مكتوب (٣) « ان الذى يحبه الرب يؤدبه ويجلده » ٠

ولكنه يغضب على من يقول له (٤) « لذلك ٠٠٠ أحل غضبى بك فتنصرف غيرتى عنك فأسكن ولا أغضب بعد » ومن ثم فانه يحب هذه المدينة حبا لا تنطفى جذوته وأنه القائل (٥) « ستكونين اكليل

---

(١) مزامير ، ٨٧ ٢ ٠

(٢) ملوك أول ٠ ١١ ٠ ٣٦ ٠

(٣) عبرانيين ، ١٢ : ٦ ٠

(٤) حزقيال ، ١٦ : ٤٢ ٠

(٥) اشعيا ، ٦٢ ٠ ٣ ، ٤ ٠

جمال بسد الرب ، وتاجا ملكيا بكف الهك ، ولا يقال بعد ذلك مهجوره ولا يقال بعد لارضك موحشه بل تدعين حفصيبه وأرضك بعولة لان الرب يسر بك (١) » .

وان مهد ايماننا ، ومهبط رأس مولانا ومنبع الخلاص قد تملكها الآن عنوة شعب غير مسأله ، هو ابن الجاريه المصريه [هاجر] لدى يفرص على أبناء المرأة الحرة [سارة] ظروفا بالغة السوء حتى قالت : « اطرد هذه الجارية وابنها » .

★★★

لقد طال حنس الشرفيين (٢) البغيض عبر سنوات طوال مصب يبسط سلطانه على الأراضى الطاهرة التى مشى عليها السيد بقدمه ، ثم خضع المؤمنون للقهر ، وراحوا يتخبطون فى قيد الأسر ، فدخلت الكلاب الأماكن الطاهرة ودنس الهيكل وضربت المذلة على عباد الرب، واليوم ها هو ذا الشعب المختار يحتمل الأحوال التى لا يستحقها ، وها هم رجال الدين مسترقون ، والكرامة ساقطة فى الوحل والطين، وأصبحت مدينة الرب ــ التى هى فوق كل مدينة ــ محكومه لا حاكمة ، فمن ذا الذى لا تنفطر نفسه كمدا ، ولا يذوب قلبه حسرة حين تخطر بباله هذه الاهانات !!

« أيها الاخوة الأعزاء : من ذا الذى يستطيع سماع هذا كله ولا تبكى مقلتاه ؟

« لقد غضب يسوع فطرد من هيكل الرب جميع من اتخذوه

---

(١) سفر التكوين ، ٢١ ١٠ .

(٢) وقد يمكن ترجمتها بالمسلمين لأن لفظ Saracens أصبح فى كتب الغربيين فى العصور الوسطى وعند بعض المؤرخين المحدثين مرادفا لكلمة «المسلمين» .

مكانا للبيع والسراء ، حتى لا يصير بيت أبيه ـ وهو بيت الصلاة ـ مغاره للصوص ومأوى للشياطين (١) ٠

« لقد كان هذا هو الذى أثار الحماسة الكريمه فى نفس القديس ماتوس ـ السلف العظيم للمكابيين الطاهرين كما يشهد بذلك هو نفسه اذ يقول : « لقد أصبح الهيكل شبه انسان بلا شرف ، وتلاشت كل المآثر الرائعة » ٠

« ان مدينة ملك الملوك التى نقلت الى الآخرين نواميس الايمان السليم قد دانت رغم أنفها الى برهان الخوارج ، كما أن كنيسة القيامة المجيدة التى هى آخر مكان رقد فيه السيد تقاسى حكمهم وتباطح بأوساخ أقوام لن تكون لهم حظ القيامة بل كتب عليهم أن يظلوا فى الجحيم الى الأبد ، كأنهم هشيم النار لا ينطفىء لهيبها أبدا ، كما أن الأماكن الموقرة المخصصة للأسرار الالهية ، والمواضع التى عرفت السيد زائرا لها بشخصه ، وشاهدت آياته ، وبالتها حسناته ، وتجسم فيها كل البراهين الدالة على ذلك فى ايمان صادق قد غدت مداود للماشية وحظائر للبهم ، كما أن أحسن الناس الذين باركهم رب الأرباب قد تعالى أنينهم من جراء عبء الخدمات المفروضة عليهم ولا يستطيعون التحلل منها ، ولا ينقذون عليها الا الأحـ الساقه ٠

وان أبناء هذه المواضع ـ وهم أغلى مهر للكنيسة الأم ـ قد ألقى القبض عليهم ، وسيقوا أذلة ، وأرغموا على خدمة الخوارج المدنسين ، حتى ينكروا اسم الله الحى القيوم ، وينطق شفاههم الطاهره بالتجديف فيه ، فاذا امتنعوا ذعرا من أوامر الكفار الآثمه

---

(١) متى ٢١ : ١٢ ـ ١٣ ٠

ذبحوهم بالسيف ذبح الأضاحى فيدخلون فى عداد الشهداء الأبرار ٠

« ان الذين انتهكوا حرمة المقدسات الدينية لا يقيمون حرمة للمكان ولا للناس ، ولا يتورعون عن قتل القسس واللاويين ، ويرغمون العذارى على ارتكاب الفحشاء والا كان الموت بالعذاب من نصيبهن ولم يشفع عندهم للعجائز شيخوختهن ٠

« الا فالويل لنا نحن الذين نعيش فى تعاسة الزمن الخطير الذى تنبأ به الملك الطاهر داود المختار من الله ، وشكى منه اذ قال (١) « يارب ، ان الامم قد دخلوا ميراثك ونجسوا هيكل قدسك » ، وقوله (٢) ٠ « الخطاه يستحقون سمعك يا رب ويذلونه ، حتى متى الطغاه يا ربى يشمتون ؟ متى يا رب تغضب كل الغضب وتتقد كالنار غيرتك ؟ » ٠٠٠ « هل الى الدهور يرفض الرب ولا يعود للرضا » ٠٠٠ « حتى متى يا رب تختبىء كل الاختفاء » « أذكر يا رب ماذا صار لنا ، اشرف وانظر الى عارنا » ٠٠٠ الويل لى حين ولدت لأرى هذا البؤس المحيق بشعبى وبالبلد المقدس وأن يسلم الى أيدى الأعراب (٣) ٠

« أنت هو ملكى ، يا الله باسمك ندوس القائمين علينا » (٤) ، فحسب « لا تظنوا انى جئت لألقى سلاما على الأرض بل سيفا » (٥)٠ فتسلحوا أنفسكم أيها الأحباب بحماسة السيد فبه ننطح مضايقينا ،

---

(١) مزامير ، ٧٩ ١ ٠

(٢) مزامير ، ٩٤ : ٥ ٠

(٣) راجع المكابيين ، ٢ ٧ ٠

(٤) مزامير ، ٤٤ ٤ ٠

(٥) متى ١٠ . ٣٤ ٠

واذا أحس أحدكم بالحمية لسريعه الرب فلينضم الينا ، وهيا بنا نمضى لنحطم القيود التى تكبلنا ونلقى بعيدا بحبالهم عنا ، فالروح نفسه سيهد أيضا لأرواحنا أننا أولاد الله ، فان كنا أولاده فاننا ورثه أيضا ووارثون مع المسيح » (١) واذهبوا وليكن الرب معكم ، ووجهوا السلاح الذى شحذتموه لقتل بعضكم البعض الى صدور أعداء الملة وخصوم المسيح ٠

« ان مملكة الرب لن تكون لمن أجرموا فسرقوا ومن اتهموا باشعال النار عن عمد ، ولا لمن نهبوا الناس وسفكوا الدماء ولا لأصحاب الجرائم الأخرى المسابهة لهذه فى طبيعتها ٠

فأطيعوا الرب الطاعة التى يرضاها ، عسى أن تتنزل عليكم رحمته سريعا وتكون لكم سفاعة القديسين فيغفر لكم ما اقترفتم من خطايا أثرتم بها حنق الرب عليكم فاستشاط غضبا ٠

« وعلى ذلك فنحن محذروكم وموصوكم باسم الرب بالعمل على التطهر من خطاياكم وذلك بمشاطرة اخواننا سكان القدس وما حولهم فى مصائبهم وآلامهم ، وكونوا شركاء لهم فى ارث ملكوت السموات ، وعليكم أن تكبحوا بكل عضبة ديسة وقاحة الكفار الذين يحاولون اخضاع الممالك والولايات والدول ، وأن تحاربوا ما وسعكم الجهد هؤلاء الذين أجمعوا العزم على ازالة الاسم المسيحى ، فان لم تفعلوا ذلك فان كنيسة الرب التى لم ترتكب اثما سوف تفقد الايمان سريعا وتكون السيادة لجهالة الوثنية ، ولقد رأى بعضكم بعينى رأسه هذه الأمور التى نتكلم عنها الآن ، وعرف مدى الأهوال التى يجلبها أولئك الأسقاء ، وان رسالتهم التى أحضرها بيده ذلك الرجل الموقر « بطرس » الموجود معنا الآن لتحمل نفس الأمر ٠

---

(١) رومية ، ٨ : ١٧ ٠

« ومن ثم فنقة منا برحمة الرب ، وبمدرة الحواريين الطوبانس بطرس وبولس لنعفر خطـايا المسيحيين الصـادقين الذين يحملون السلاح لقتال الكفار ، ويتحملون مشقة رحلة الحج هذه . ونضع عنهم كل عقاب مفروض عليهم بسبب آثامهم ، ولسق الداهبون الى هناك بنيه صادقه وبثقة نامة بغفران خطاياهم ، وبحصـولهم على النعمة الأبدية .

« كما أننا في الوقت ذاته سوف نبسط حمايه الكنيسه ورعايه المباركين بطرس وبولس على من ينهضون مسلحين بايمانهم الصادق لتحمل عبء محاربة الكبار ، وسندرجهم فى عداد أسبائنا المطيعين المخلصين « ونرسم بأن يطمئنوا ، وألا يخالجهم أدنى خوف على أملاكهم وذويهم ، فان اجترأ أحد ما ـ أثناء هذا الحج ـ على أن يسبب لهم ضيقا أصدر أسقف ناحيته قرار الحرمان ضده ، ويظل قرارا مصلطا عليه عند الجميع حتى ترد المسروقات ، وحتى يقدم التعويض الملائم عن الأشياء المفقودة ، كما أن الأساقفة والقساوسة الذين لا يقفون موقفا صلبا ضد أمثال هذه الأحداث سيعاقبون بحرمانهم من ممارسة مهام وظائفهم حتى ينوبوا ؛ لينالوا رحمة الكنيسة الرسوليه » هكذا ختم [البابا اربربان الثاني] موعظته ، وأمر جميع الحاضرين اذ ذاك من رجال الكنائس بالعودة الى أبرشـياتهم ليكرسوا أنفسهم لما سمعوه ، وليسعوا سعيا حثيثا لحث أتباعهم على النهوض الى الحج .

ولما فرغ [اربان] من هذه الرسالة أمسك عن الكلام وانفض المجمـع الذى راح كل من حضره يودع أخاه ويرجع الى موطنـه ؛ وانصرفوا منصاعين فى صدق واخلاص لتنفيذ قرارات المؤتمر (١) وحث الناس جميعا على التواصى بحفظ السلام الذى ائتلف الناس على تسميته « بسلام الرب » . وصدر الأمر بعدم اعاقة من عزموا

---

(١) أى مؤتمر كلرمونت .

على لرسله ، وألا نقدم في وجههم العراقيل أثناء اتخاذهم الاجراءات اللازمه للسفر .

- ١٦ -

وزياده على دلك فانه نظرا للخدمات الجليلة التى أداها بطرس للدين ، فان الله انعم عليه ــ وهو الخادم المطيع المبشر . دو الهمه العالية الرائعة ــ بالبلاغة والفصاحه ، ووهبهالقبول الحسن فى عيون الجميع حتى ان كلماته كانت تبدو وكأنها وحى من الله ، اد تلقاها القوم ــ صغيرهم وكبيرهم ــ بالرضا والامتثال ، غير عابئين بما ينطوى عليه تنفيذها من مشقة .

ولم تكن الحماسه الدينية لهذا الحج قاصره على من استمعوا اليه شخصيا . بل تجاوزتهم خطبته ــ حين داعت طولا وعرضا ــ الى من لم يكونوا حاضريها ، فبثت فيهم رغبة عارمة للقيام بنفس الرحله ، كما صدع الأساقفه بما أمروا به ، مظهرين التعاون الكريم فدفعوا أتباعهم للسفر للحج ، ودأبوا على التنقل فى ربوع أسقفياتهم يبذرون بدور الحياة بين الناس، وما كان لحبه منها أن تموت اذ كانت لا تقع الا وتؤتى آكالها طيبة مباركه ، ومن الحق أن نقول أنه تحققت كلمة السيد (١) اد يقول « ما جئت لألقى سلاما بل سيفا » ، فقد انفصل الروح عن روحته والمرأة عن بعلها ، وفارق الآباء أبناءهم والأبناء آباءهم ، ولم يستطع أى رباط محبـه أن يحول دون هده الحماسـة ، كما غادر كثير من الرهبـان أديرتهم ، وفعل النساك

(١) متى ١٠ : ٣٤ .

شعائهم فتركوا صوامعهم التى اتخذوها طواعية ملجأ يهيم فيه كل واحد منهم على انفراد « حبا فى الله » ٠

لكن الرب لم يكن مع الجميع فى عملهم هـذا ، اذ لم تكن الحصافة ـ وهى أم الفضائل كلها ـ محركهم الحقيقى ، فقد شارك البعض البعض الآخر حتى لا يفترقوا عن بعضهم ، ونهض آخرون حتى لا يتهموا بالتراخى والكسل ، وساهم غير هؤلاء وهؤلاء بدوافع تافهه ، أو غيرهم ساهم بخروجهم هذا يهربون من دائنيهم الذين أثقلوهم بالديون الفادحة ، وهكذا كانت هناك أسباب مختلفة أسرعت بالجميع الى نفس الهدف ، ولم يكن هناك فى بلاد الغرب أى اعتراف بالسن أو الجنس أو الوضع أو الظروف ٠ كما لم يستطع أحد منع أحد من القيام بالرحلة مهما زوق له الكلام ، بل اتحد البعض بالبعض دون تمييز بين الواحد والآخر فكانوا جميعا يدا واحدة ، وأقسموا كلهم اليمين بقلوبهم وأرواحهم ، وبدا الانجاز الحرفى لما جاء فى الكتاب(١) من انه « سـيأتى أمم كثيرة من بعيد تمتدح أورشليم وتسجد لها ، ويحملون الهدايا فى أيديهم » ٠

لقد تلقى الكثيرون ممن حضروا مؤتمر « كليرمونت » هـذه الكلمة الراسخة بفرح عظيم ، وكان على رأسهم « أديمار » أسقف « بوى » ذلك الرجل الطاهر النبيل العاطر الذكر ، والذى صار بعدئذ النـائب للبـابا ، فسار بشعب الرب فى حملته هذه سيرة ملؤها الصدق والاخلاص ٠

كما كان من بينهم أيضا « ولیم أسقف أورنج » الصـادق الايمان والذى يخاف الله ٠

---

(١) طوبيا ، ١٣ ـ ١١ ـ ١٥ ٠

ودبت (١) نفس الحماسه كذلك في نفوس أمراء جميع الممالك الذين لم يحضروا الاجتماع ، اذ راح كل واحد منهم يشجع صاحبه ويستعيدون للسفر الذى حددوا يوما معينا له يكون بعد اتمام جميع ما يلزم من الاستعدادات وبعد ان يجمع كل رفاقهم ، والحق أنه يبدو كأن العناية الالهيه هي التي رتبت الحمله التي نتكلم عنها . وكأن الأوامر صدرت اليهم من الرب ، ذلك أنه لم يكن يشاع أن أميرا ما من الأمراء قد قطع العهد على نفسه بالحج حتى يتوافد الناس عليه زمرا اثر زمر ، يتوسلون اليه أن يسمح لهم بالانضمام الى جماعته ، ويعترفون بسيادته عليهم ، ويقطعون العهد على أنفسهم بالطاعة والاخلاص له ، ولما كان المثل (٢) يقول عار على أن أتخلف عن الناس اذا كان الطاعون قد أخذهم حتى آخر واحد فيهم » ، فقد أسرعوا الى تجهيز أنفسهم بكل ما يلزمهم ويحتاجون اليه ، وكانوا يتزاحمون ويسابق كل منهم الآخر ، والحق أنه كان تكريسا الهيا لان نار التطهير هذه كانت لازمة لمحو خطايا الماضي وحب آثامه التي كانت ـ وا أسفاه ـ كبيره جدا ، كما كان الانصراف لتدبير السفر مفيدا في منع ارتكاب الخطأ بعد ذلك ، بعد أن كانوا قد حادوا عن طريق الرب وأساءوا السير مع غيرهم .

وقد اتفقت الآراء جميعا على قبول ما اشترطه البابا من قيام كل من أقسموا على السفر لهذا الحج برسم شارة الخلاص على ثيابهم ، ألا وهي الصليب الزاهي ، وبذلك يحملون على أكتافهم

(١) جاء في الترجمة الانجليزية التي اعتمدناها ، وبناء على ما ذكره Man i Sacrorum conciliarum nova et impl!ssima collectto, vol xx. col. 923.

ان كل ذكر بلغ الثانية عشرة أو أكثر كان عليه أن يقطع اليمين كل ثلاث سنوات على حفظ سلام الرب ومراعاته .

(٢) رد المترجمان الامريكيان هذا المثل الى هوراس Horace · Ars Poet. 417

ذكرى الذى عزموا على زيارة الناحية التى شهدت آلامه ، وكانوا فى عملهم هذا مقلدين للسيد الذى أسرع الى هناك من أجل خلاصنا . لانه : « يولد لنا ولد ، ونعطى ابنا وتكون الرياسة على كتفه » (١) .

ويبدو كأن الآية التالية من سفر أشعيا تشير الى هذه الحركة حيث يقول ان السيد (٢) سـوف يرفع راية للأمم ويجمع منفيى اسرائيل .

وظهر أيضا تمام كلام السيد حرفا بحرف مصداقا لقوله (٣): «ان أراد أحد أن يأتى ورائى فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعنى» .

- ١٧ -

عقد الأمراء التالية أسـماؤهم من كلتا المملكتين الى نقوية عزائمهم بعلامة الصليب ارتباطا منهم بالحج القادم :

السادة المشاهير : هيج الكبير شـقيق فلب الاول ملك الفرنجة ، وروبرت كونت فلاندرز ، وروبرت كونت نرمندى ابن وليم الأول ملك الانجليز ، وستيفن كونت شارترز وبلواوالد كونت تيوبولد الكبير ، وأديمار أسقف بوى ، ووليم أسـقف أورنج ، وريموند كونت تولوز وسنسل جيل ، مع آخرين غيرهم من الرجال العظماء .

كما ذهب أيضا المحارب الباسل لورد جودفروى العظيم دوق اللورين ، ورحل معه كذلك أخـواه اللوردان بلدوين وأستاس ،

(١) اشعيا ، ٩ : ٦ .
(٢) اشعيا ، ١١ : ١٢ .
(٣) متى ، ١٦ : ٢٤ .

وصحبهم كذلك بلدوين الملقب بورج وهو قريب الاخوه الثلاثه وابن لورد هيج كونت ريتيل ، وجاسه دي جراي ، وبلدوين كونت هينولت ، وايزور كونت دبي ، ورينولد كونت أوربج ، ووليم كونت فوريز ، وكونت ستفن دومال ، وروبرو كونت نرش ، وهيج كونت سنت بول .

وممن صحبهم من علية القوم وان لم يكونوا من فئة الكونتات : النبلاء اللامعون الذين تقدموا طواعية من تلقاء أنفسهم وهـم :

هنري دينس ، ورالف بوجنسي ، وايفرارد دي بويسيه ، وجاستون دي بيارف ، ووليم أمانجو ، وجاستون دي بزييه ، ووليم دي مونتليه ، وجيرارد دي رُوسيلون ، وجيرارد دي شريزي ، وروجر دي بارتفيل ، وجي دي بوسسا ، وجي دي جارلاند سنكال ملك الفرنجة ، وتوماس دي لافير ، وجالن دي كالفومونت .

وكما سار بطرس الناسك بطائفه كثيفة من الناس جمعهم بمشقة كبيرة من مملكة [فرنسا] وامبراطوريه [ألمانيا] .
وجاء من الجانب الآخر من جبال الألب بوهيموند أمير تارنتو ابن روبرت جسكارد دوق أبوليا ، وابن أخته تانكريد ، وكثيرون غيرهم لا نعي ذاكرتنا أسماءهم ولا نحصيهم عدا .

وظل جميع هؤلاء — مع قوات ضخمة من أهل القتال في انتظار الساعة الملائمة للانضمام للكتائب الحربية المسيحية ، وهم على أتم أهبة لبذل أرواحهم لتحمل أهوال حج عظيم كهذا الحج مرضاة للمسيح .

ومن ثم فما كاد الشتاء ينصرم ونبدأ بواكير الربيع في الظهور وتنكسر شده البرد ويعود الجو اللطيف يغمر الدنيا حتى هبّوا

حنادهم ، وأعدوا سلاحهم ، وجمعوا متاعهم ، كما ظل من أزمعوا الخروج معا على اتصـال بعضهم ببعض ، وحددوا موعدا دقيقـا فيما بينهم والساعة التى رأوها ملائمة لبدء مسيرهم ، واتفقوا أين يكون ملتقاهم ، واستعرضوا المسالك فاختـاروا أيسرها عليهم وأسرعها فى ابلاغهم غايتهم • واذ لم يكن فى قدرة أى أقليم أن ينفرد وحده بتوفير المئونة لهذه الآلاف المؤلفة من الناس فقد رتبوا ترتيبا دقيقا أن يقوم كل واحد من الأمراء الكبار بالسير على انفراد بمن يتبعه من القوات ، ويسلك طريقا لا يسير فيه سواه ، واتفقوا على ألا تلتقى هذه الجيوش الا فى مدينة « نيقية » •

لهذا ـ كما سنشرح فيما بعد ـ سار الدوق [جودفردى] بكتائبه من طريق المجر ، واتخذ كونت تولوز وأسقف بوى طريقهما عبر « دلماشيا » أما الزعماء الآخرون فاخترقوا « أبوليا » وبذلك وصلوا فى النهاية الى القسطنطينية ، وان لم يكن بلوغهم جميعا فى وقت واحد بل فى أوقات مختلفة • وأعدوا فى الوقت ذاته العتاد الذى رأوه كافيا لرحلة طويلة كهذه الرحلة ، وراح كل منهم يقدر المال الذى تتطلبه هذه السفرة بما يتناسب وطول الطريق ، كل ذلك وهم ناسون أن الأمور كلها بيد الله وليس بيـد البشر لأن الانسان فى ضعفه لا يعلم ما يأتى به الغد •

لم تكن ثم دار واحدة من دور جميـع ولايات الغرب ساكنة هادئة ، بل كان كل امرىء منهمكا حسب امكانياته فى ترتيب ما يهمه من أموره الخاصة ، فهنا الأب يدبر شئون أسرته ، وهناك الابن وثم الأسرة كلها منصرفة لاعداد ترتيبات السفر •

وجاءت رسائل كثيرة بعث بها أولئك الذين أزمعوا الرحيل في وقت واحد ، تشجع كل منهم الآخر وتحذره التأخر في الخروج • وتنصحه بالتبكير فيه • ولما أخذ الذين قلنا انهم قادة الجماعات

المحلفه فى دعوة البفيه فقد انتزعوا أنفسهم من أحضان أعزائهم وسط العويل والزفرات ، وقد ودع كل منهم الآخر وتبادلوا القبلات فيما بينهم ، ثم رحلوا ، وكان خروجهم فى جو من الانتحاب والولولة ، فترى الأمهات يصحبن الأبناء وترى البنات يودعن الأبناء والأخوات والأشقاء ، أما الزوجات فانطلقن يودعن أزواجهن حاملات أطفالهن الرضع على أذرعهن ٠

فلما فرغن من الوداع الأخير رحن يتابعن بنظرات حادة من لا يستطعن مصاحبتهم أبعد من ذلك ٠

- ١٨ -

كان وولتر المفلس الشريف النبعة والمحارب الكمى أول من نهض للحج حيث بدأ رحلتــــه فى اليوم الثامن من شهر مارس عام ١٠٩٦ من مولد المســـيح ، واستصحب معـه طائفة كبيرة من الجنــــد المشـــاة ، أما الفرسان الذين كانوا معه فلم يزيدوا عن شرذمة ضئيلة ، فلما عبر بهم مملــــكة التيوتون دخلوا بلاد مملكة المجر التى كان الوصول اليها أمرا عسيرا لكثرة المستنقعات التى تغطى معظم نواحيها وأحداق الأنهار الكبيرة بها ، ومن ثم لم يكن فى استطاعة المسافر الوصول الى المملكة أو الخروج منها الا من أماكن معينة شديدة الضيق ٠

كانت مملكة المجر حينـــذاك تحت حــكم أشــد الملوك تمسكا بالمسيحية ، ألا وهو الملك « كولمان » الذى ما كاد يعـــلم باقتراب « وولتر » وكان يعرف خبر رحلته ويستصوب هدفه الكريم حتى رحب بدخوله مملكته ، وسمح له أن يسير فيها بحملته ، كما أذن

له بعقد سوق عامة ، فسار « وولتر » فى بلاده آمنـا ، وبلغ نهر « ماروس » سالما ، وهو الحد الفاصل المعروف به بين المجر والشرق ، ثم عبر النهر ووصل بعوانه الى أرض البلغـار فى مكان يعرف « ببلجراد » .

لم يكن يدور بخلد [وولتر] أن طائفة من جماعته قد تخلفت وراءه على الجانب الآخر من النهر فى موضع يعرف باسم « سمالن » لشراء الطعام وما لا غنى عنه فى الرحلة ، فأمسك المجريون بهؤلاء الرحال وجردوهم مما عليهم من الثياب وضربوهم ، ثم أرسلوهم بعد ذلك الى أصحابهم خاوى الوفاض، فحزن القوم جميعهم حزنا عميقا للمحنة الطامة التى حاقت برفاقهم ، ومع ذلك فقد أيقنوا تمام اليقين أنه من الصعب عليهم ــ بل من المستحيل ــ أن يعودوا فيعبرون النهر أخذا بالثأر لما فى ذلك من تأجيل مسيرتهم ، فرأوا ــ فى ظروفهم الراهنة هذه ــ أن التغاضى عن المضرة التى أصابتهم أحدى عليهم من المبادرة الى القيـام بعمل طائش لا يستطيعون اجتيازه فيصبحوا على ما فعلوا نادمين . واذ كان أملهم فى الله الذى نهضوا من أجله عظيما فقد انصرفوا عما أرادوه ايمـانا منهم بأنه ما من مصيبة يلاقونها حتى المسيح الا والرب غير مهملها بل معاقب عليها بمثليها لأنه وعد أتباعه بذلك اذ قال (١) : « تكونون مبغضين من الجميع من أجـل اسـمى ، ولكن شعرة من رؤوسـكم لا تهلك ، وبصبركم اقتنوا أنفسكم » . ومن ثم ساروا لطيتهم ، ومضوا فى طريقهم حتى جاءوا ــ كما قلنا ــ الى « بلجراد » فوجدوا « وولتر » قد سأل الدوق حاكم أهلها أن يأذن لهم بعقد سوق يتبايعون فيه ، ولكنه رفض رجاءه ، فلم يجد اذ ذاك بدا من أن يضرب معسكره أمام المدينة ، واذ كان عاجزا عن كبح جماح جيشه الجائع فقد فقد الكثير

---

(١) لوقا ٢١ . ١٨ ــ ١٩ .

من رجاله ، ذلك لأن عسكره لما وجدوا أنفسهم عاجزين عن الحصول على أى شيء من البلغار انطلقوا للبحث عن الطعام ولم يتحرجوا عن أية وسيلة لالتماسه دفعا للجوع الذين عضهم بنابه ، فقدر لهم أن يأتوا الى قطعان من الماشية والأغنام كانت للبلغار فأخذوها قسرا وساقوها الى المعسكر ، فلم يكد أصحاب القطعان يعلمون بما جرى لها من نهب حتى هبوا الى أسلحتهم وكروا على [اللاتين] كرة ضارية مجمعين العزم على استرجاعها ، وهاجموا اللصوص الذين كانوا يسوقون الدواب أمامهم ، وفتكوا بهم غير جماعة قوامها مائة وخمسون رجلا قدرت لهم النجاة انفصلوا عن بقية رفاقهم ولجأوا الى كنيسة صادفوها في فرارهم فأضرم العدو فيها النار ، فمات حرقا من اعتصموا بها الا قلة لاذت بأذيال الفرار ٠

ولما أدرك « وولتر » أنه يقود جيشا عبيدا لا يعرف النظام ولا يكترث بما يفعل فقد انفصل عمن اتبعوا شهواتهم اتباعا أعجزه عن كبح جماحهم ، وسلك ببقية عسكره مسلكا فيه الحكمة والحرص، فاجتاز بهم غابات بلغاريا الكثيفة ، حتى انتهى السير بهم أخيرا الى « سترالتكا » (١) وهى مدينة جميلة من مدن « داكيا الوسطى » ، فصرح لحاكمها بما لحقه من الخسارة وشكى اليه النكبة التى حاقت ظلما بشعب الله على يد البلغار وطلب منه أن يعوضه عن ذلك كله ، فعامله هذا الدوق معاملة كلها عطف عليه ، لانه كان رجلا مستقيما يخاف الله ، وصرح لهم باقامة سوق يستطيع الجيش أن يشترى منه ما يحتاجه بثمن معقول ، وكيل لا تطفيف فيه ، وزاد فوعدهم أنه غير حاجب عنهم ما يحتاجونه مما تفرضه نواميس الانسانية ، كما أمدهم بمرشدين يدلونهم على بقية الطريق حتى يبلغوا المدينة

---

(١) رجحت الترجمة الانجليزية لهذا الكتـــاب أن تكون هذه المدينة هى « صوفيا » فى الوقت الحالى ٠

الامبراطوريه ، ولما وصل « وولنر » الى القسطنطسية جيء به الى حضرة الامبراطور ، ونجح فى الحصول من جلالته على ادن يسمح له بانزال جبسه قرب البلد وبعقد سوق للتجارة ، على آن يكون ذلك الى حين ، حتى يصل بطرس [الناسك] الذى كان قد آدن لوولنر أن يسير تحت قيادته .

- ١٩ -

ما كادت تمضى فترة وجيزة بعد الأحداث التي ذكرناها حتى زحف بطرس عبر « لوثاريجيــا » و « فرانكونيا » و « بافاريا » والاقليم المسمى بالنمسا ، وكان تحت امرته حشد ضخم يكاد يقرب من أربعين ألفا جعل منهم جيشا على اختلاف أممهم وقبائلهم وألسنتهم وشعوبهم ، فلما أشرف بهم على تخوم مملكة المجر بعث برسالة الى ملكها ، فجاءه الاذن فى يسر بالدخول ، على أن يسير فى المملكة فى هدوء ، غير محدث ارعاجا ولا مسبب شغبا فاستجاب بطرس لما اشــترطه الملك ، وبادر بالانتفــاع من هــذا الاذن ، ودخــل المملكة بعسكره ، وأمده أهلها بكميات كبيرة من الطعام قدموها اليه بثمن معقول ووفق شروط طيبــة ، فتقــدم العســكر فى هدوء الى المدينة « سملين » التى أسرنا اليها ، حيث جاءهم نبأ ما حاق برفاقهم الذين سبقوهم بقيادة « وولنر » وما عوملوا به من معاملة دنيئة على أيدى أهل تلك الناحية ، فلما طالعوا ما كان معلقا على أسوار المدينة من أسلاب وسلاح رفاقهم رمزا لانتصار المجريين عليهم أغضبهم ذلك كل الغضب وحينذاك انتضوا أسلحتهم واقتحموا المدينة عنوة ، فلقى غالب أهلها مصرعهم اما قتــلا بالسيف أو غرقا فى النهر القريب منها ، ويقال انه هلك فى هذه الحركة الهوجاء ما يناهز أربعة آلاف

مجرى ، وكان ذلك عقابا يكافىء جرمهم ، وتقول الأخبار أن « بطرس فقد فى هذا اليوم مائة رجل فقط من رجاله ، فلما فرغ الحجاج من الاستيلاء على المدينه بقوة السلاح أقاموا بها خمسة أيام سويا بسبب ما وجدوه بها من وافر الطعام .

★★★

كان دوق البلغار المدعو « نيكيتاس » هو المسئول عن رفض السماح لوولتر وجيشه بعقد السوق ، فلما ترامى الى سمعه خبر انتقام عسكر بطرس من مدينة « سملين » بسبب المعاملة التى كان قد صادفها جيش وولتر تسرب الخوف الى نفسه من أن ينزل به هؤلاء نفس العقاب لانه لم يكن بريئا من هذا الموضوع ، ولما كان « نيكيتاس » غير واثق تماما من وسائل الدفاع عن مدينة بلغراد التى يحكمها فقد غادرها ، وغادروها فى اثره سكانها جميعا مستصحبين معهم مواشيهم ودوابهم ، ولاذوا الى الغابات فرارا الى ما بها من المخابىء والأماكن السرية .

وبينما كان بطرس لا يزال مقيما بالمدينه المغلوبة على أمرها جاءته الأخبار بأن ملك المجر ـ وقد هزه نبأ المذبحة التى حرت على شعبه ـ استدعى اليه قواته الحربية من شتى أرجاء تلك الناحية واستعد استعدادا جبارا للثأر لهذه الدماء المهراقة ، فبادر بطرس فى لحظته الى الاستيلاء على جميع السفن الراسية على طول النهر ، وأمر جيشه بركوبها والعبور بها على وجه السرعة . فاستجابوا له وأخذوا معهم ما وجدوه بالمدينة المنهوبة من ماشية ودواب ، وحازوا ما بها من أغلى الأسلاب حتى توفر بين أيديهم من ذلك كثرة فوق الوصف ، ولما تم نقل كل شىء الى الشاطىء الآخر ضربوا معسكرهم أمام بلغراد التى وجدوها مهجورة من أهلها ، وسار بطرس من هناك بمن معه ثمانية أيام اجتاز خلالها غابة كثيفة بالغة الاتساع . خرج

منها الى « نبش » ، وسار من خلفه كل الجيش بما معه من عربات ومركبات وقطعان الماشية والدواب ٠

ومدينة «نبش» هذه شديدة الحصانة بفضل سورها وأبراجها التى تحميها قوة كبيرة من الشجعان والأبطال ، فعبر جيش [بطرس] النهر الذى يجرى الى جوار المدينة من جسر صخرى ، وضرب معسكره على مقربة منه ٠

كانت المئونة التى معهم فى الزحف قد أخذت فى النفاذ ، وأصبح العسكر يواجه نقصا بينا فى الطعام ، ومن ثم بعثوا برسالة الى حاكم المدينة يتوسلون اليه فى لهجة رقيقة أن يأذن لهم باقامة سوق بشروط كريمة وأسعار معتدلة ، ويكون السوق حافلة بمتطلبات الحياة اليومية الضرورية لهؤلاء القوم الحجاج الذين خرجوا امتثالا للأوامر الالهية ، فأجابهم الوالى بأنه غير مستطيع الاذن لهم بذلك الا اذا بعثوا اليه أولا برهائن من رجالهم تأكيدا لعدم قيامهم باحداث أى أذى ، وأنهم لن يقدموا على أى عمل من أعمال العنف يصيبون به الأهالى العاملين بالسوق ، وارتضى الطرفان هـذا الشرط ، وأرسل [اللاتين] اليه الرهائن ، واذ ذاك مضى المواطنون من المدينة حاملين معهم بضائعهم ٠

- ٢٠ -

توفرت كميات هائلة من الزاد لكل الجيش ، وجرى التعامل بين الجانبين بيعا وشراء على أحسن ما يكون التعامل ، وانصرم الليل فى هدوء تام ، والناس من كلا الجانبين يتحدثون بعضا الى بعض فى مودة ، حتى اذا بدت تباشير الصباح عاد الرهائن الى قومهم وأخذ

الجيس ينأهب للمسير ، وبينما كانوا على وشك الرحيل ـ أو بلفظ أدق ـ بينما كان الجانب الأكبر ـ ان لم يكن الجيس كله قد أخد في الرحيل ، ادا بجماعة قليلة من طغام الناس ودعاة الفوضى ممن يستحقون لعنة الله عليهم قد حدثتهم نفوسهم باحداث شغب تافه في الليلة السابقة أثناء شد ائهم بعض ما يلزمهم من رجل بلغاري ، فانسحبوا قليلا من الصفوف التي كانت قد رحلت وأضرموا النار في سبع طواحين كانت موجودة قرب الجسر وفوق النهر المذكور ، فأتت النار عليها كلها حتى صارت رمادا ٠

كان أبناء الالعون هؤلاء ـ وعددهم قرابة مائة شخص ـ من شعب السوتون الذين لم يكف العمل الشرير الذي ارتكبوه في اطفاء غضبهم المجنون ، بل زادوا عليه فراحوا يقذفون بالنار بيوت طائفة معينة من الناس تقع خارج الأسوار فأحرقوها هي الأخرى ،ونفوسهم ملأى بنفس الضغينة . فلما فرغوا من جريمتهم هذه أسرعوا للانضمام الى بقية الجيش البريء مما فعلوه ، وساروا كأنهم غير شاعرين بما ارتكبوه من الاثم ٠

كان حاكم المدينة قد تلقاهم في الليلة السالفة لقاء بالغ اللطف . فلما رأى نكرانهم لأفضاله عليهم اضطر لتدبير خطة يعاقبهم بها بدلا من متابعة الاحسان اليهم ، وترمي هذه الخطة للقضاء عليهم قضاء لم يعرف النصفة فيه ، اذ عدهم جميعا لصوصا مخربين ، وأخذ الجيش كله بجريمة شرذمة قليلين ، ومن ثم استدعى اليه الأهالي وأمرهم بحمل السلاح ، ولم يتأخر هو ذاته عن قيادتهم بنفسه فكانوا جمعا كبيرا ، وراح يشجعهم بالقول والعمل على مطاردة الصليبيين كما لو كانوا ماضين للثأر من فجرة دنسين ، وأصبح أهل البلاد كلهم رجلا واحدا ، قد توحدت مشاعرهم ، وتقدموا مهاجمين القوات التي كانت قد سبقت غيرها ، ثم كروا على المؤخرة

كرة عنيفة وراحوا يعملون سيوفهم فيها . ثم جاءوا الى أولئك التعساء الذين لم يكونوا قد انضموا بعد الى الجنس الأصلي فهاجموهم بشدة، وجرعوهم كئوس الموت دهاقا ، كما أوقعوا نفس العقاب ، ان قصدا أو عفوا — بكثير من الأبرياء ، فأخذوا البرىء بجريرة المذنب ، واستولوا على العربات والمركبات المحمية بشتى أنواع المئونة ، وقيدوا الشيوخ والعجزة والنساء والصبيان والبنات الذين لم يستطيعوا اللحاق بفئة القوم ، وساروا بهم ، فشفى غليلهم ما سفك في المذبحة من دماء القتلى ، ثم عادوا الى المدينة محملين بالغنائم ·

- ٣١ -

راح بطرس في هذه الأثناء يتقدم طليعة عسكره وكبار رجال الحملة وهم على جهل تام بالكارثة التي أصابت رفاقهم حتى طالعهم فجأة رسول يخب به جواده على عجل ، حاملا اليهم نبأ الفاجعة ، وأسهب لهم في شرح قصة القبض على رفاقهم اسهابا ما كاد يصافح أذني بطرس حتى نادى في العسكر أن يوافوه ، واستجاب لنصيحة أهل التجربة منهم ، فكروا راجعين عبر الطريق الذى تقدموا منه طوال اليوم كله ، فلما طالعهم جثث اخوانهم الصرعى — وكانت برهانا على المذبحة — لم يستطيعوا امساك أنفسهم عن البكاء والعويل. ثم وقفوا أخيرا للمرة الثانية أمام المدينة في البقعة التي كانوا معسكرين فيها الليلة البارحة ·

لم يكن عند بطرس ومن معه من زملائه الذين كانوا أحسن من غيرهم في سيطرتهم على انفعالاتهم الا فكرة واحدة وغرض واحد بالنسبة لهذه المسألة ··· لقد عادوا ليكتشفوا

سبب الفاجعه . ولتحاولوا ازالة دواعى النزاع حتى يتمكنوا من متابعه رحله حجتهم فى أمان أكبر ، وذلك حين يستتب السلام استتبابا تاما ويعود على أكمل وجه بين الشعبين ، وتصفو النفوس من كل شائبة ، فأرسلوا الى حاكم المدينة والى شيوخها من أجل هذه الرغبة رجالا أهل فطنه وادراك للمسئولية ، وعهدوا اليهم أن يتقصوا الحقائق والظروف التى أفضت الى ذلك الشغب الفجائى ، واهراق كثير من الدماء البريئة ·

فلما وقف الرسل على سبب [هذا الشقاق] تبين لهم أن الأهالى لم يعمدوا الى حمل السلاح جزافا بلا مبرر يدعوهم للغضب، ولما لم يكن الوقت ملائما للمطالبة بالثأر جزاء ما ارتكبوا من الأخطاء ، فقد بذل الرسل غاية جهدهم لمحاوله اعاده السلام الى مجراه ، بأن يعاد الى رفاقهم كل ما فقدوه من الغنائم والمتاع ·

وبينما كانوا يسعون سعيا حثيثا للوصول الى هذه الخاتمة والى اتفاق يرضى الطرفين ، اذا بهم يسمعون ضجة هوجاء فى المعسكر سببها العواطف المتأججة الثائرة ، وأذكاها تهور بعض الأشخاص الذين لا يكترثون بشىء ما ، ولكنهم أرادوا سلوك طريق العنف للانتقام لما وقع عليهم من أضرار ·

وطمع بطرس فى تهدئة ثائرتهم وازالة ما قد يؤدى الى مذبحة أخرى ، فاختار رهطا من المسئولين أصحاب النفوذ القوى وأرسلهم الى الرعاع فى محاولة منه لمنعهم ـ وهم فى سورة غضبهم الجنونى ـ من مهاجمة الأهالى ، فما أحدث هذه المحاولة نفعا ، فقد رفضوا أن يستمعوا الى تحذيره المجدى ، واذ ذاك أصدر أوامر صريحة الى الجيش عن طريق المنادين أن يلتزم كل واحد يمين الطاعة التى فى عنقه له ، ولا يحاول بأى صورة من الصور أن يساعد أو يعضد الذين

يريدون الحرق بسلوكهم الطائش على سجب السلام الذى عاد يرفرف الآن من جديد عليهم .

واستجاب الجيش لهذا التوجيه وعده أمرا لا مفر من الخضوع له ، واذ ذاك ركن الجميع الى الهدوء انتظارا لانتهاء الدوره الأولى ومعرفة نتائج الأمر كله .

أما الرسل الذين كانوا ذهبوا الى الحاكم لعقد الاتفاق فقد رأوا العكس من ذلك ، وأن الأهالى لم يمكن تهدئة ثائرتهم ، بل ان غضبهم راح يزداد عنفا بين لحظة وأخرى ، فلما أدركوا ألا أمل فى نجاح مهمتهم التى جاءوا من أجلها نبذوا هذه المحاولة وراء ظهورهم ، وعادوا الى المعسكر لمساعده رجل الرب بطرس فى اخماد ثائرة الفتنة ، لكن هذا كان ضربا من المستحيل ، فقد اندفع قرابة ألف من الناس فى هذه المحاولة المجنونة ، وكانوا فى عددهم هذا يماثلون عدد من هب من أهل البلد ، وتمخض الأمر عن معركه شرسة جرت أمام المدينة .

ورأى من بداخل المدينة أن السفاق قد بث من هم خارجها ، واذ كانت الفتنة قد وقعت على كره من بطرس وعلى الرغم من أمره الصريح ، فقد راودهم الأمل فى وقوف بقية الجيش بمعزل عنه لا تمد له يد المساعدة ، واذ ذاك فتحوا مزاليج الأبواب ، واندفعت جموعهم هادرة ففتكت بما يقرب من خمسمائة رجل من رجالنا الذين على الجسر ، والذين كانت بقبتهم كلها لا تعرف مواضع المخاضات ، ولا تدرى شيئا ما عن الموقع بأجمعه ، فابتلعها النهر ، فلما رأى العسكر هذا المنظر هبوا سراعا الى أسلحتهم لأنهم لم يعودوا قادرين على تحمل الأهوال التى انصبت على رفاقهم ، والتقى الجمعان المتعاديان وجها لوجه فى معركة وحشية أسفرت عن مذبحة مروعة .

فكان الحطب في هده المرة أشد من سابقه ، ولم يستطع العسامه ولا الرعاع غير النطاميين أن يصمدوا أمام ضغط البلعار علبهم ، فتخلوا عن موضعهم ولاذوا بأذيال الفرار ، فتأثر بهذا الهرب الجنوبى آخرون كانوا يحاربون ببسالة ، فاقتفوا آثرهم وفعلوا فعلهم ٠

على هده الصوره هرب الجيس كله ٠

فلما بصدعت الصفوف وانفرط عقدها ، لم يعد يوجد أحد ما يحاول المقاومة ، وفى وسط هذا الاضطراب فقد بطرس كل ما كان الأمراء المخلصون قد أهدوه اياه من الهدايا ، كما ضاع كل ما كان عنده من مال كان قد اعتزم بذله فى سد حاجات الفقراء وأهل الفاقة فى أثناء الطريق ، وذلك بسبب استيلاء العدو على العربة التى كانت تحمل هذه الثروة ، فضاع كل شىء بضياعها ٠

أما البلغار فقد حدوا فى اثرهم بقصونهم والغضب يملأ جوانحهم ، فقارب من قتلوهم منهم عشرة آلاف مسيحى ، واستولوا على العربات ، ونهبوا ما عندهم من المتاع ، وسبوا كثيرا من النساء ، واسترقوا العديد من الأطفال ٠

فأما الذين سلموا من الوقوع فى أيديهم فقد التمسوا النجاة فى الفرار الى أعماق الأدغال التى لا يمكن الوصول اليها ، وكان من أصعب الأمور استدعاءهم للرجوع فى اليوم الثالث ، اذ أخذوا يدقون لهم الطبول ، وينفخون الأبواق ، حتى التفوا حول بطرس هم ومن نجا منهم ، وارتدوا جميعا الى تل صغير يرتفع بعض الشىء عن السهل ٠

ولما كان اليوم الرابع وقد تجمعت القوات المسرده ، وأقبل الهاربون من الأماكن الخفية التى ظلوا متوارين فيها ثلاثة أيام سويا ، وصار عدد الجيش الذى عاد بعضه الى بعض يقرب من ثلاثين ألفا نهضوا من جديد لمتابعة الزحف ، وعلى الرغم من سلوكهم الطائش الذى أدى الى ضياع ما يقرب من ألفى عربة نقل ومركبة حمولة من أيديهم ، الا أنهم استشعروا العــار ان لم يتجزوا حجهم فعادوا لمواصلة رحلتهم تحت ظروف بالغة المشقة ، اذ بينما كانوا يهمون بالسير رغم حاجتهم الملحة الى المئونة اذا بوافد من الامبراطور يصل الى المعسكر مزودا بالأوامر الامبراطورية الصادرة الى بطرس وغيره من قادة العسكر ، فخاطبهم الرسول علانية بقوله ٠

« أيها السادة النبلاء العظام : لقد وصلت الى سمع الامبراطور شائعة تتضمن رميكم بتهمة شنعة ذات طبيعــة نكراء ، ونقول انكم سرتم سيرة خرقاء فى امبراطوريته ، وأنكم ارتكبتم أمرا ادا فى حق سكان البلاد وحق رعاياه ، وأثرتم القلاقل والاضطرابات ، فاذا طمعتم فى أى وقت فى نوال عطفه ، وأن تقعوا عند جلالته موقع الرضا فاننا ننهاكم ـ بأمره ـ ألا تفكروا فى البقاء بأى مدينة من مدنه أمدا يتجاوز ثلاثة أيام ، وعليكم أن تشدوا رحالكم سريعا الى القسطنطينية فى انضــباط ونظــام تامين ، وسيــدل الجيش على الطريق ، ونعينكم بما تحتاجونه من الطعام بثمن مقبول » ٠

شدت هذه الكلمات من عزيمة القوم ودفعتهم حاجتهم للطعام الى التسرد ، كما أن رأفة الامبراطور أنعشت الآمال فى نفوسهم ، فراحوا يشرحون للمبعوث الامبراطورى بعض الظروف التى أدت الى الاضطراب الأخير مدافعين عن أنفسهم ، ومبرئين عنــده ساحتهم ،

وتحدثوا عن تذرعهم بالصبر في احتمال البلايا التى أنزلها البلغار بهم طلما وعدوانا ، فلمـا فرغوا من كل ذلك ساروا ـ كما وجههم ـ راسدس حتى بلغوا القسطنطينية بعد رحلة شاقة . فلما بلغوها وجدوا بهـا « وولتر المفلس » وقواته التى كانت معه فى انتظار قدومهم ، فانضم المعسكران بعضهما الى بعض ، وخيموا فى الموضع الذى خصص لهم ، واستجاب بطرس للاستدعاء الامبراطورى . فدخل المدينة ووقف فى الحضره الملوكية التى سألته عن مقاصده من وراء هذه الحركة الكبيرة ودوافعه اليها ، فأسهب بطرس فى شرح الأمـر اسهابا دل على ما هو عليه من فصـاحة اللسان وقوه الجنان ، وأخبره أن أكثر أمراء العرب قادمون فى أثره ، وهم رجال مخلصون فى خدمه الرب .

ولقد أظهر [بطرس] روحا عالية ، وامتلاكا لناصية البلاغة ، مما حمل كبار رجال القصر على الاعجاب بفطنته وشجاعته ، بل ان الامبراطور ذاته مال اليه كل الميل وأثنى على هدفه ، ثم صرفه بعد هذا الاستقبال الكريم ، محملا بالهدايا الرائعة ، وأمره بالعودة الى جنده الذين معه .

كان الجيش قد أقام فى هذا الموضع بضعة أيام أتيح لرجاله خلالها أن ينعموا بالراحة وبما طاب لهم من المآكل ، ثم صدر الأمر الامبراطورى بتزويدهم بالسفن يعبرون بها البسفور الى «بيثينيا» وهى أول الولايات فى منطقة آسيا ، وبعدها نفس البحر الذى بلغوا مكانا يقع عليه اسمه «سيفيتوت» فأقاموا به وضربوا معسكرهم فيه.

كانت البقعة التي عسكر فيها الجيش تقع على تخوم بلاد العدو، فظلوا مقيمين بها أمدا فارب الشهرين اقامة طيبة ناعمة ، توفرت لهم بها شتى صنوف المئونة . كما أنه في خلال هذه الفترة كانت هناك كميات ضخمة من البضائع تعرض عليهم كل يوم للبيع ، كما أتيحت لهم فرصة من الاستجمام الذي كانوا في مسيس الحاجة اليه ، غير أن هذه النعمة العظيمة من الطعام والفراغ الكبير حولت هؤلاء التعساء والجفاة الى قوم استبد بهم الطيش، ودفعتهم البلهنية التي يتقلبون في مطارفها الى الصلف ، فكونوا من بينهم جماعات لا تأتمر بأمر أحد ، وراحوا يتوغلون في البلاد – على غير رضى من رؤسائهم – لمسافة بلغت عشرة أميال أو أكثر ، فساقوا منها قطعان الماشية والدواب .

وطالما جاءتهم كتب من الامبراطور يحذرهم مغبة ما يقترفون ، وينهاهم عن التجرؤ على الابتعاد أو استفزاز العدو ، ويأمرهم بالبقاء في الموضع الذي خصص لهم ، وأن ينهجوا النهج القويم الى حين وصول قوادهم الذين قيل انهم قادمون وراءهم .

وخاف بطرس على من وكلت اليه رعايتهم فذهب الى المدينة الامبراطورية عساه يحصل على تخفيض ثمن ما يشترونه ، وعلى ظروف أحسن في المتاجرة ، فاغتنم العسكر المشاكس الذي لم يألف النظام فرصة تغيب بطرس ، وساروا سيرة رعناء حين قامت طائفة منهم ، قوامها سبعة آلاف جندي من المشاة الذين يماثلون من ذكرنا في غيهم ، وانفصلوا عن الجيش الأصلي ، وضموا اليهم ثلاثمائة فارس وزحفوا جميعا على نيقية من غير اكتراث باعتراض رفاقهم الآخرين على مسلكهم هذا ، ورتبوا صفوفهم للحرب ،

واندفعوا فساقوا من ضواحي المدينة عددا كبيرا من القطعان والأغنام ، وعادوا بها سالمين الى المعسكر ·

★★★

ورأى جماعة من النيوتون وغيرهم ممن يتكلمون لغتهم ما صادفه اللاتين من النجاح في غزوتهم هذه ، فتملكتهم هم أيضا الرغبة في مجاراتهم في السلب والنهب ، وأجمعوا العزم على القيام بمثل هذه المحاولة ، مؤملين أن يحوزوا من الفخر لأنفسهم مثل الذي حازه هؤلاء ، وأن يرفهوا عن ذواتهم فجمعوا من هذه الأمة [التيوتونية] ما يقرب من ثلاثة آلاف شخص ومائتي فارس . وزحفوا بهم على نيقية ·

وكان في ذلك الاقليم — وعلى بعد أربعة أميال من نيقية نفسها — مدينة حصينة تقع على سطح أحد التلال ، فدنا منها هؤلاء النيوتون وهاجموها أعنف هجوم ، وأحدقوا بها من شتى النواحي، واستولوا قسرا على ذلك المكان رغم استبسال أهله في مقاومتهم . لكنهم فتكوا بهم وملكوا كل شيء في البلد ، ثم أعجبهم جمال الناحية وغناها فحصنوها تحصينا قويا ، وأجمعوا العزم على البقاء هناك حتى يصل القواد ·

- ٢٤ -

كان [قلج أرسلان بن] سليمان [بن قطامش] صاحب هذه الأرض وحاكمها قد علم قبل ذلك بأمد طويل بقدوم الزعماء الصليبيين ، ومن ثم حشد جيشا كثيفا من الشجعان الذين

لا يحصيهم العد من نواحي الشرق ، باذلا في سبيل ذلك كل وسائل الاغراء والمال ، وعاد بهم الى هذه الجهات ليمد يد المساعدة المنشوده الى أهالى الناحية ابتغاء صد هجمات العدو ، فلما بلغه الخبر أن التيوتون الذين ذكرناهم حالا قد استولوا على احدى قلاعه ، بادر الى الزحف عليهم ، وحاصر القلعة حصارا شديدا ، وحكم السيف فى رقاب كل من وجده فيها ٠

ووصلت أنباء هذه النكبة الى المعسكر [الصليبى] ، وسرعان ما تردد الصدى بأن طائفة التيوتون الذين غادروا المعسكر منذ قريب قد هلكوا عن بكرة أبيهم على يد قلج أرسلان . فاستبد الذعر بنفوس القوم من هذا النبأ ، ولم يستطيعوا أن يكتموا ما اعتملت به صدورهم من الأسى ، فأسلموا أنفســهم للبكاء والأنين ، حتى اذا أصبحت الحقيقه فى النهايه معروفه لا خفاء فيها عم الاضطراب جميع الناس فى المعسكر ، وارتفعت صيحاتهم عالية تلح الحاحا شديدا ألا يسكتوا عن هذه النكبة التى نزلت باخوانهم ، وتنادوا بأن يهب الفرسان والمشاة لحمل السلاح للخروج ثأرا لدم رفاقهم المقتولين. وكان أعظم رجال الجيش وأهل الخبرة فى مثل هذه الأمور راغبين فى اطاعة أوامر الامبراطور ، فلما أرادوا التغلب على هذا الموضوع وكبح جماح العامة الطائشــة ثار الناس ضدهم وتمردوا عليهم ، ورأسوا عليهم واحدا منهم اسمه « جودفروى » ويلقب « ببوريل » وكان صعلوكا ، وجعلوه قائد هذه العصبة ، وراحوا يصبون اللعنات على رءوس أصحاب المكانة العليا ، زاعمين أن عدم اتاحة الفرصــة للانتقام بالسيف ممن قتلوا اخوانهم انما يرجع الى الجبن ، أكثر من أن يكون صادرا عن تفكير سليم ٠

كانت العلبه أخيرا لمشيئه العناصر الشريره ، فحملوا وراءهم النساء والأطفال والشيوخ العزل من السلاح ، على حين تسلح الباقون . فتجمع منهم رهط كانوا خمسة وعشرين الفا من المشاة المدججين بالسيوف ، ومائتين من الفرسان المجهزين أحسن تجهيز بما عليهم من الزردبات ، وصفوا صفوفهم للقتال ، وزحفوا فى الغابات المشار اليها ، وكانت وجهتهم ناحية التل فى اقليم نيقية ، وما كادوا يتقدمون ثلاثة أميال فى الغابة حتى كان قد بلغها أيضا قلج أرسلان على رأس جيش من قومه كالدبى كثره ، وراح بعد السير شطر معسكرنا الذى ذكرنا موضعه من قبل ، قاصدا مباغته بالهجوم ، وترامت الى الأسماع صيحات وصيحات غير مألوفة صادره من الغابات أنبأته أن الصليبيين قد غادروا مخيمهم ، وأنهم فى الطريق لمهاجمته ، فبادر فى لحظته الى مغادرة الغابة والنزول الى السهل الفسيح . ففعل رجالنا مثلما فعل [قلج أرسلان] ، غير شاعرين باقتراب العدو منهم ، فلما اكتشفوا أنه أدنى ما يكون اليهم هموا للانقضاض عليه ، وراح كل واحد منهم يشجع الآخر ويشد من عزيمته ، وأحاطوا به مسرعين بسيوفهم لينتقموا بأيديهم لدم اخوانهم المراق . لكن بينما كان رجالنا مندفعين الى الأمام بقلوب ملؤها الحميه والغيرة اذا بسيوف العدو تتلقاهم ، وذلك لأن الترك — وقد أيقنوا أنه صراع حتى الموت — قاوموا مقاومة عنيفة ، يذكيها غضبهم العارم واعتزازهم بكثرة جندهم ، واستبسل الجانبان استبسالا قويا رائعا لكن دارت الدائرة أخيرا على الصليبيين بسبب كثره خصومهم ، ولما لم يستطع رجالنا أن يتحملوا شدة المعركه أكثر مما تحملوا فقد اضطربت صفوفهم ولاذوا بأذيال الفرار ، فانقض عليهم الترك بسيوفهم وتعقبوهم حتى معسكرهم ، وأعملوا فيهم مذبحة شنيعة .

ر ا د ل ل ى عده المعركة بصعه رحل من دوى المكانه فى معسكر بطرس ، منهم « وولتر » المفلس ، و « ربنه دى بروس » و « فولشر دى أرلنانز » وغيرهم ٠

أما الخمسة وعسرون ألفـا من الجنـد المسـاة ، والخمسمائه فارس الذين كانوا قد خرجوا من المعسكر ، فقد راح معظمهم ما بين قتل وأسر ٠

- ٣٦ -

دبت النشوة الكبرى فى أعطاف قلج أرسلان ، وهزته الفرحه الطاغية لهذا النصر الذى حازه ، ولما لم يعـد باقيا أحد قادرا على مقاومته فقد حكم السيف فى رقاب الأحياء ، غير مبق على قيد الحياة أحدا مريضا كان أو عجوزا ، رجلا كان أو امرأة ، وهلك الرهبان وجميع رجال الدين ، لم يستثن من هؤلاء كلهم سوى من لم يبلغوا سن الرشد من الصبيان والبنات الصغيرات الذين كان يشفع لهم عنده بهاء طلعتهم وصغر سنهم ، ولم تكن استبقاؤه اياهم الا ليضرب عليهم الرق ٠

★★★

وكان على الساحل قرب المعسكر حصن قديم نصف خرب ، ليس له أبـواب ولا متاريس ، وليس من أحـــد يقيم به ، فألجأت الضرورة طائفة من الحجاج تقدر بثلاثة آلاف حاج الى الهروب الى هذا الحصن والاعتصام به ، اعتقادا منهم أنهم واجدون فيه الملاذ الأمين ، وحاولوا الدفاع عن أنفسهم فى موقفهم العصيب هذا لسد

مداخله بدروعهم ز ز لاحجار الضخمة بدحرجونها الى هناك، كى يحولوا بين أى أحد من الاقتراب منه . ولكن الترك شددوا عليهم الحصار فلم يمنع هذه السدة المحصورين من الاستبسال دفاعا عنه حتى ردوا مهاجميهم على أعقابهم ، كما أرسلوا فى الوقت ذاته رسولا على جناح السرعة الى بطرس يخبره بهلاك جماعته ، وأن القلة الباقية منهم على قيد الحياة تكابدون حصارا شديدا ضربه العدو عليهم فى قلعة نصف خربة ، وأنهم فى مسيس الحاجة للطعام والسلاح . فبادر بطرس بالمضى من ساعته الى الامبراطور ، واستطاع بتوسلاته اليه وتضرعاته أن يحمله على أن يرسل فى لحظته هذه بعض القوات الى هناك . وألقى لهؤلا العسكر أمره بانقاذ الأحياء منهم من الخطر الذى يكتنفهم . فأنجزوا ما كلفهم به على أتم وجه ، اذ ما كاد الترك يسمعون بأمـر الامبراطور حتى كفوا فى الحال عن مهاجمـة ذلك المكان . وانسحبوا ومن خلفهم أسراهم ، وعادوا الى نيقية ، كما حملوا بالاضافة الى ذلك أحسن الأسلاب والخيم والفساطيط والجياد والبغال وجميع التجهيزات التى نهبوها من الصليبين .

وهكذا فان الطيش الجنونى الذى كان عليه هؤلاء القوم الجفاة غير المطامس ، المنصرفون عن الأخذ بمشورة من هم أحكم منهم قد أدى بهم الى الابادة الشاملة ، ولما لم يكونوا معتادين على النظـام المحمود فقد سلكوا سبيلا لم يجنوا من ورائه خيرا ، وأصبحوا نهبا لسيوف العدو .

بعد فترة وجيزة من وصول بطرس الى « سمبا » قام قسيس سوتونى اسمه « جوسوك » سار فى أثر خطى بطرس يحثه الشوق لأداء رحلة الحج هذه . ولما كان جوسوك قادرا بالطبيعة على استمالة الناس اليه بكلامه فقد استطاع اغراء كثير من السويون فى جميع رحاب تلك المملكة على الاشتراك فى هذه المهمة ، حتى تجمع لديه منهم قرابة خمسة عشر ألف حاج دخل بهم المجر ، ثم ناى كندا . كما استجاب المجريون من جانبهم الى أوامر ملكهم فقدموا البضائع بأثمان معقوله الى رجال جيش « جوسوك » الذين اغترتهم وفرة الطعام بين أيديهم ، فأسلموا أنفسهم الى البطالة والكسل ، وانغمسوا فى الشراب يعبون منه عبا ، وأساءوا السيرة مع الأهالى وألحقوا بهم شرورا كثيرة اذ راحوا ينهبونهم ، وامتدت أيديهم بالسرقة الى البضائع المعروضة للبيع فى الأسواق العامة ، واجترحوا السيئات فقتلوا الناس غير مراعين أصول الضيافة .

فلما وصلت أخبار ما فعلوا الى الملك استبد به الغضب ، فأمر أن ينادى فى كافة أرجاء مملكته أن يحمل الناس وكبار ملاك الأرض السلاح للقضاء على هذه الأخطار الكبيرة ، لا سيما وقد ارتكب فى كثير من النواحى تجاوزات مهلكة ، بلغت من العار حدا يفوق الوصف ويعف اللسان عن ذكرها ، وكان من المستحيل على الملك أن يغض الطرف عن مثل هذه الجرائم والا اتهم بالجبن ، وجلب على نفسه كراهية شعبه له ، ومن ثم تجمعت قوات المملكه ، وكروا كرة رجل واحد غاضب على الصليبيين ، باعتبارهم أعداء يستحقون الاستئصال التام ، وأجمعوا العزم على الفتك بهم انتقاما مما اجترحوا من الآثام .

وأخيرا نسمى لقوات الملك أن تعبر على طائفة من هؤلاء المجانين الفوضويين فى مكان يعرف « ببلجراد » يقع وسط تلك المملكة . وكان هؤلاء (السونون) قد سمعوا بزحف الملك ، وأيقنوا تمام اليقين من حنقه الشديد عليهم ، كما أزعجهم شعورهم بما اقترفوا من الجرم ، ورآهم المجريون ـ وقد حملوا سلاحهم ـ عازمين على رد القوة بالقوة فأرادوا درأ الخطر عن أنفسهم ، لكنهم أدركوا إستحالة الاشتباك معهم دون أن يفقدوا الكثيرين من رجالهم ، ذلك لأن هؤلاء المسيحيين [السونون] كانوا فى الواقع رجالا ذوى بأس وشجاعة ، ومهرة فى استعمال السلاح ، يأبون أن يسلموا أرواحهم من غير قتال ، ولذلك فان المجريين ـ جريا على مألوف عادتهم ـ حاولوا أن ينالوا بالحيلة ما يعجزون عن نيله بالعنف ، فأرسلوا وفادة الى « جونسوك » وزعماء حسبه ، يطمئنون خواطرهم ـ خديعة ـ بالكلمات المعسولة .

- ٢٨ -

لقد قالوا لهم :

« أنه ترامى الى سمع الملك الشكوى المريرة من فعال جنسكم ، وقيل له انكم أنزلتم برعاياه الخاضعين له كثيرا من الأضرار البالغة والأهوال التى يعجز اللسان عن ذكرها ، وأنكم جازيتم حسن المعاملة التى عومل بها عسكركم بأسوأ ما يكون الجزاء ، ومع ذلك فان الملك يدرك بحكمته تمام الادراك أنكم لستم جميعا تحملون وزر هذه الجرائم ، وهو واثق أن فيكم رجالا حكماء ممن تمتلىء قلوبهم بخشية الله لم ترضهم فعال الآخرين الشريرة ، وأن هذه الجرائم

التى أثارت عن حق الحنق الملكى قد نمت على غير رضى هؤلاء وأنها حدثت رغم استنكارهم ، ولما كانت رغبة الملك ألا تؤدى خطايا البعض الى تأثيم الكل ، وألا يؤخذ البرىء بجريرة المذنب فقد قرر أن يكبح جماح غضبه حتى لا يصيب اخوانه فى الملة المسيحية بضرر ، ومن ثم فاننا نشير عليكم أن تستسلموا وتسلموا كل ما معكم الآن ، بما فى ذلك سلاحكم ، دون قيد أو شرط ، واضعين ذلك كله فى يد الملك حتى يذهب عنه غضبه تماما ، فان لم تفعلوا ذلك لم يستطع أحد منكم النجاة من الموت — لأنكم — بوجودكم فى وسط ممالكه — لستم أكفاء لنـا فى القوة الحربية ، كمـا أنه لا قدرة لكم على النجاة من بطشه » .

☆☆☆

ظهر منذ البداية عدم رضاء « جوسوك » ورؤساء جنده عن المسلك الجنونى الذى سلكه شعبهم العنيد ، لكن بساطة قلوبهم دفعتهم للثقة فى اعتبار رحمة الملك أمرا لا يخالج الشك فيه أحدا ، ومن ثم فقد حملوا عسكرهم بالقوة تقريبا على الاذعان لفكرة تسليم أنفسهم وسلاحهم وكل ما تملكه أيديهم الى الملك ، وبذلك يكفرون عما ارتكبوه من آثام جرحته ، وانتهى الأمر أخيرا برضائهم عن فكرة أسرهم بما تقرر ، هذا على الرغم من احتجاجهم العنيف ، ومداهم السديد للحرب دفاعا عن أنفسهم ، بيد أنهم ما كادوا يفرغون من تسليم أسلحتهم وجميع متاعهم لقواد الملك ورسله حتى وجدوا الموت فى انتظـــارهم ، بدلا من العطف الذى كانوا يتوقعــونه ، اذ قام المجريون بمباغتة التيوتون على غرة منهم ، وكروا عليهم فى الوقت الذى كان فيه هؤلاء عزلا من كل سلاح ، ايمانا منهم برحمة الملك ، وثقة منهم به ، وأعمل المجريون فيهم مذبحة من أشنع المذابح فى البعد عن الانسانية ، دون تفرقة بين الصالح والطالح منهم وأسفر

الأمر عن غرق المكان كله فى بحر الدم المطلول ، وامتلائه بجثث القتلى وانتهى الأمر بهلاك هذا الجمع الكثيف الذى لم يبق منه سوى نفر قليل نجــوا من الهلاك الشامل ، ممن شملتهم رحمــة الرب فلم تأخذهم سيوف المجريين ، فعادوا الى وطنهم يقصون خبر المذبحة . ويروون نبأ المصير المشئوم الذى لقيه اخوانهم على من ارتبطوا بالعهد ممن كانوا على وشك القيام بذلك الحج ذاته وأسدوا النصح لهؤلاء الحجاج الجدد بوجوب اصطناع الحكمة فى سيرهم ، واتخاذ أكبر قدر من الحذر من هذا الشعب الدنيء ، لما ارتكبه من خيانة لن تمحى من الأذهان .

- ٢٩ -

فى هذه الأثناء ــ أو بعدها بقليل ــ تجمعت من بلاد الغرب زمر كثيفة لا يحصيها العد من المشاة ، كانت تحركهم نفس الرغبة [فى الحج] ، وانطلقوا لم يزعموا عليهم أحـــدا أو يجدوا لهم مرشدا ، وزحفوا من غير هدى ولا تبصر أو حكمة ، على الرغم من أنه كان بينهم فى الواقع رجال من أصل شريف ، أمثـــال « توماس دى لافير » و « كلاربولدوى فندبل » ، و « ولیم النجار » وكونت هارتمان وغيرهم ، غير أن القوم كانوا لا يعرفون الانضباط فلم يطيعوا هــؤلاء السادة بأى صــورة من الصور ، وضربوا عرض الحائط بما أشار به عليهم أهل الحجى والتبصرة ، فانطلقوا على وجوههم هنا وهنـــاك ، مقترفين الفعال التى يرفضها القانون ، ويرتكبون ما تمليه عليهم شهواتهم ، ومن ثم فقد ركبوا متن الجنون والشطط ، مع أن واجبهم كان يحتم عليهم أن يحملهم خوفهم من الله على السير فى هذه الرحلة الناهضين بها سيرا كله طاعة للأوامر الالهية ، وأن

يلتزموا تمام الالتزام بالنظام فى حجهم الذى يقومون به من اجل المسيح ولكنهم كانوا لا يمرون بمدينة أو قرية الا وثبوا على من فيها من يهودها فذبحوهم من غير أن تأخذهم رحمة ، ولم يكن اليهود قد أخذوا حذرهم منهم اذ لم يكن هناك ما يحملهم على أن يتوجسوا منهم شرا فيخافونهم ٠

وقد وقعت هذه الاعتداءات على وجه الخصوص فى مدينتى « كولونيا » و « ميتز » حيث كان الكونت « اميكو » أحد نبلاء ومشهورى تلك الناحية الأقوياء قد انضم بالكثير ممن يدعوه الى عصابات الحجاج ، وكان [اميكو] بالنسبة الى مكانته ملزما بما تفرضه عليه هذه المكانة من التمسك بالأخلاقيات . الا أنه لم يكن بالشخص الذى يستحب التجاوز فى السلوك ، فسار على العكس من ذلك ، اذ ساهم فيما ارتكبه أتباعه من أعمال الفساد والشر ، وزاد على هذا فراح يشجعهم على اقتراف الجرائم ٠

اخترقت هذه الجموع كلها « فرانكونيا » و « بافاريا » حتى بلغت ناحية تدعى « ميسبورج » (فيزيلبورج) على تخوم المجر ، وكانوا يتوقعون السماح لهم بالدخول من غير صعوبة ، لكنهم ما كادوا يرون المدخل مغلقا فى وجوههم حتى وقفوا على هذا الجانب من الجسر ٠

وكان فى الناحية قلعة شديدة الحصانة بفضل حماية نهرى « الدانوب » و « لبثا » لها ، وكذلك المستنقعات العميقة المحيطة بها ٠

وتقول الأخبار ان عدد الجيش الذى زحف الى هناك قارب مائتى ألف جندى من المشاة ، وثلاثة آلاف من الفرسان ٠

يضاف الى ذلك أن ملك المجر أصدر أوامره بعدم السماح لهؤلاء العسكر الراغبين فى عبور بلده بدخوله ، فقد تذكر الأهوال

التى كان قد أوقعها بعوات « جوسوك » فخاف ان هو اذن لهذا العسكر بالدخول أن يدفعوا الى القتال لأخذ الثأر ، لا سيما وأن خبر المجزرة الدامية التى جرت حديثا قد عم السهل والجبل ، وتردد فى جميع الآفاق ، فحملت شناعة هذه الفعال الملك على الخوف ·

وعلى الرغم من ذلك فقد اتصل هؤلاء الحجاج بالموكول اليهم حراسة المدينة وبقواد الفرق القائمة بحماية هــذه الناحية وكان اتصالهم بهم لسؤالهم الاذن لهم بارسال رسل من قبلهم الى الملك يلتمسون منه الحصول على اتفاقية تخولهم عبور تلك الأراضى ·

وفى خلال هذه الفترة كان الجنــد قد ضربوا معسكرهم فى مرعى معشوشب بهذه الناحية ، وأقاموا فى انتظار ما ستجىء عنه سفارتهم الى الملك ·

- ٣٠ -

انقضت بضعة أيام عاد بعدها الرسل الذين كانوا قد بعثوا الى الملك ، وأعلموا فشل سفارتهم فشلا تاما ، وحينذاك أيقن زعماء الحملة أن لا رجاء فى خبر يأتيهم من ناحية الملك ، لذلك أجمعوا أمرهم على تخريب بلاده الواقعة على هذا الجانب من النهر ، واضرام النيران فى ضواحيها ، سالكين بذلك مسلك الأعــداء فى أملاكه ، وبينما كانوا ذات يــوم منهمكين غاية الانهماك فى هذا العمل اذا بكوكبــة من رجال الملك قوامها سبعمائة فارس قد عبــرت النهر لحماية المنطقة من أن يعيث الأعداء فيها تخريبا ، فصادفوا على غير انتظار جماعة الحجاج فلم يستطع الفرسان تجنبهم ، كما حال النهر

بسهم وبين العوده الى الساحة التى جاءوا منها ، ماحى فرسان الكوكبه أو حلهم مصرعهم ، ولم ينج منهم الا نفر قليل فقدوا جيادهم ورأوا الاحياء تحلفاء المستقعات حفاظا على حياتهم وحمايه لأرواحهم ٠

تملكت السجاعه الحجاج بما أحرزوه من نصر على عدوهم ، وصمموا على بناء بعض الجسور ومهاجمة القلعه حتى اذا تم لهم فتح الطريق تحت السقف عزموا على دخول المملكة ، لذلك استدعوا جميع عسكرهم لتحقيق هذه الغاية ، وعبروا الجسور التى فرغوا حالا من اقامتها ، وتمكنوا من الوصول الى الحصون والقلاع ، ثم دفعتهم الجرأه للاستعداد لنسف الأســوار وشق طريقهم الى الداخـل ، متخذين من دروعهم وقاء لهم ، ونجحت محاولاتهم الجاده فى فتح ثغرات فى أماكن كثيره من الأسوار ، حتى اذا بلغ عملهم نقطه صار دخول الحجاج فيها الى المدينة أمرا مقررا ، واستبد اليأس بنفوس المقيمين بها الذين لم يعد لهم أمل فى البقـــاء على حياتهم ، اذا بالصليبيين المهاجمين يصيبهم رعب مفاجىء أرسلته السماء هلعت له قلوبهم فتخلوا عن الهجوم وفروا تاركين وراءهم معظم متاعهم ، وعلى الرغم من أن ظاهر الأمور كان يشير الى أن النصر حليفهم وأنه ليس هناك ما يبرر فرارهم ، الا أنهم ولوا على أعقابهم منهزمين ، مدبرين غير مقبلين ، ويقال أنه لم يكن ثم سبب وجيه الا أن تكون آثامهم الجمة وخطاياهم الكثيرة قد حلت عليهم ســخط الله لأنهم كانوا قد غرقوا الى الأذقان فى لجة الكفر الذى يزلزل بالخوف قلوب أصحابه مصداقا لكلمات الحكيم « يهرب الجبان دون أن يكون أحد يطـــارده » ٠

تبـــدل وضـــع المجرمين الى ما هو أحسن حـــين رأوا القوات الصليبية تلوذ بأذيال الفرار فانطلقوا انطلاق الغالبين يتعقبون هذه القوات التى أنزلت الفزع الممض بهم منذ قليل وكانت هذه القوات

المعادية هي التى لم تكونوا يستطيعون دفعها حتى وهم وراء الاسوار في حماية المستقعات . أما الآن فقد راحوا يطاردونهم من تلقاء أنفسهم ، ولم يكتفوا ببث الفزع فيهم ، بل زادوا فراحوا يقتلونهم .

★★★

فر من هؤلاء كوتن « ايمكو » ومعه الجانب الأكبر من قواته المدحوره ، وعاد بهم الى وطنه .

أما الأمراء الآخرون الذين أسرت اليهم من قبل فقد فروا عبر « كارينسا » حتى بلغوا ايطاليا التى عبروها ووصلوا الى حدود « أبوليا » ومن هنا اتجهوا نحو بلاد اليونان فى أثر أولئك القراء الذين قاموا هم أيضا بنفس هذه الرحلة ، والذين كانوا قد اقترحوا عليهم أن يركبوا البحر الى « دورازو » .

ولقد تأثر الغرب كله عن حق بهذه الحركة وبغيرها مما على شاكلتها ، وراحت كل أمة على وجه التقريب ترسل قواتها على حده . وقد انفصلت الواحده منها عن الأخرى ، فمضى للحج جماعات تحت امره قادة معينين ، وخرج آخرون من غير أن يرأسوا عليهم أحدا لكن كان من الواضح أن الطريق الذى سلكه القوم عبر المجر كان أقصر الطرق ، بيد أنه أصبح مسدودا فى وجوههم ، بسبب ما أنزلوه بسكان هذه البلاد من المضره والشرور التى جاوزت كل مدى وبسبب ما ارتكبه الحجاج الذين سبقوهم من جرم ، فأصابوا به الناس من غير اثم اقترفوه .

من أجل هذا السبب واجه الذين جاءوا من بعدهم صعوبة بالغة فى الحصول على عطف ملك المجر .

هنا ينتهى الكتاب الأول

الكتاب الثانى

جيوش الحملة الصليبية الأولى
تزحف الى القسطنطينية

فصول الكتاب الثانى :

١ ـ موعد رحيل جودفروى والنبلاء المصاحبين له ، وكيف تقدموا حتى بلغوا المجر ٠

٢ ـ رسالة الدوق الى كولمان ملك المجر على لسان « جودفروى ديس » ، ورد الملك على الدوق ٠

٣ ـ الملك وقوادنا يعقدون مجلسا فيما بينهم ويرسلون بلدوين أخا الدوق « رهينة » ثم عودته بعد اجتيازهم المجر ، والملك يتحف الدوق بكثير من الهدايا ٠

٤ ـ عسكريا يتقدم فى أراضى الامبراطورية ، ووصف الدخـــول وملاحظة عن أحـــوال بلاد الاغـــريق الحسنة ٠

٥ ـ الدوق يرسل مبعوثين الى الامبراطور يطلبـــون منه اطـــلاق هيو العظيـــم وغـــيره من النبلاء الموجودين فى السجون ٠ قواتنـــا تنهب الاقاليم ثم تصل فى النهاية الى القسطنطينية ٠

٦ ـ الامبراطور يدعو الدوق للحضور اليه ، لـــكن الدوق يرفض الدعـــوة فسبب العداوه المستحكمة بينهما فيعمد الامبراطور الى حيلة ماكره يصـــل بها الجيش الى مكان عينه له ٠

٧ ـ وصـــف موقع القسطنطينيـــة ٠ الدوق يرســـل رسلا الى الامبراطور ، وجيشنا يكابد المتاعب من الكمـــائن التى لم يكن يتوقعهـــا والتى نصبـــها الاغريق له ٠

٨ الجيش يعود الى المدينـــه ويشـــب معركة كبيرة تتمخض عن مذبحة فظيعة فى الاغريق ٠

٩ ـ النـــاس يهرعـــون لحمل الســـلاح ويعملون يد التخريب فى الناحية كلهـــا ، ويسفر الأمر عن توفر كميات ضخمة من المئونة فى المعسكر ٠

١٠ ـ وصـــول رسل من ناحيـــة بوهيموند الى الدوق جودفروى يحملون اليه رجاءه بعدم الذهاب الى الامبراطور ورد الدوق على بوهيموند ٠

١١ ـ الامبراطور يرسل ابنه حون بورفيروحسس الى الدوق رهينة عنـده ، ويدعو حودفروى اليه فيذهب حودفروى فيتنبـأه الامبراطور ويستقر السلام بين الاثنين .

١٢ ـ الدوق يستأذن في المغـادرة فتره من الوقت فيرحل محملا بالهـدايا . عقد سـوق للحجاج وعبـور عسـكر الدوق الى البسـفور وضربهم خيامهم في الاقليم المحيط بخلقدونيا .

١٣ ـ اسراع بوهيموند في القدوم ووصف من كان في معيتـه من الكبار وتدبير الامبراطـور الخطط السرية لتصيدهم .

١٤ ـ رسالة الامبراطور الكسيوس الى لورد بوهيموند وقيام حسن الامبراطور بهجوم سرى على معسكر بوهيموند والقبض على أسـر فصـح نوايا الامبراطور السرية

١٥ ـ الدوق [حودفروى] يخرج لاسـتقبال الأمير بوهيموند ويسـير به رغم أنفه الى الامبراطور الذي يستقبله باحترام كبير ، كما أن تانكريد تحرك في الوقت ذاته كتائبه في سفينا فتنضم الى حسن الدوق .

١٦ ـ وصول روبرت كونت فلاندرز بجيشه وذهابه محروسا الى حضرة الامبراطور بناء على استدعاء الأخير له . واغـداق الهـدايا الجمة عليه ثم عبوره البحر وانضمامه الى الزعماء الآخرين .

١٧ ـ كونت تولوز وأسقف بوى تحترقان دلماسيا بجيوشهما ، ويلاقيان كثيرا من الصعوبات في عبور هذه البلاد ٠

١٨ ـ سفاره امبراطوريه تقابل الكونت فى دورازو . والبلغاريون يلقون القبض على أسقف بوى ولكن سرعان ما تطلق العنايه الالهية سراحه ، وحين وصول ريموند الى « رودستو » يصله رسل من الامبراطور ومن قادتنا مرة أخرى ٠

١٩ ـ الكونت يترك جيشه ويذهب الى الامبراطور لكنه لا يوافق على وجهة نظره ، فيعمد الامبراطور ـ خيانة منه له ـ الى اصدار الأوامر بمهاجمة جيش الكونت ٠

٢٠ ـ الاغريق يباغتون جيش الكونت أثناء غيابه فيحتدم الكونت غيظا من الامبراطور ألكسيوس الذى يبدى ندمه على ما جرى وبدفعه خوفه على نفسه الى أن يطلب من الأمراء التدخل ويتظاهر ببراءته مما حدث ٠

٢١ ـ الكونت يتصافى مع الامبراطور بسبب وساطة القادة ويدعوه لمرافقة القادة الصليبيين فى زحفهم ، أما القوات التى عبرت البحر فتسرع الى نيقية ويسير الكونت فى أثرهم فى الحال ٠

٢٢ ـ وصول روبرت كونت نرمندى وأستاس ـ أخى الدوق ـ بكتائبهما الى القسطنطينية واستقبال الامبراطور لهما بالترحيب ووصلهما بالهدايا

الحمه ثم عبورهما السفور ومحنتهما الى الزعماء
الآخرين ٠

٢٣ ـ اتصال أحـــد موظفى الامبراطـور ـ واســمه
تابيكبوس ـ بزعمائنا وتودده اليهم وكان رجلا
شديد المكر مطبوعا على الحب الدنىء ٠

هنا يبدا
الكتاب الثانى
جيوس الحمله الصليبية الأولى تزحف الى القسطنطينية

- ١ -

فى نفس هذه السنة ، أعنى سنه ١٠٩٦ من مولد السيد المسيح ، وفى اليوم الخامس عشر من شهر أغسطس ، قام « جودفروى » دوق « لوثاريخيا » العطيم المبجل بجمع أصدقائه فى رحلة الحج ، وأعد أمتعته بالطريقة المألوفة ، وكان خروجه بعد رحيل « بطرس الناسك » أثر الطامة الكبرى التى حاقت به وأشرنا اليها ، وفى أعقاب مذبحة جماعة « حوتشوك » التى ذكرناها أيضا ، وبعد النكبة الأخرى التى حرت على حدود المجر ووصفناها سابقا ، وقلنا انها نزلت بالجيس الذى جاء من بعده ولقد انصم الى معسكر « حودفروى » رجال من ذوى المكانة السامية ، الحديرين بخلود الذكر ممن ربطوا أنفسهم به ، وهم لورد « بلدوين دى موتس » كونت « همنولت » ، ولورد هيج كونت « سـنت بول » ، وابنه « انجراند » وكان شابا غرانقا عالى الهمة ، وكونت « حارنيه » المعروف بجراى ، ولورد « رينار » كونت نول وأخوه بطرس ولورد بلدوين « دى بورج » أحد أقارب الدوق [جودفروى] ، ولورد « هنرى ديش » وأخوه « حودفروى » ، و « دودو دى كونى » ، و « كونون دى موساج » وكثيرون غيرهم ممن لا نعى اسماءهم ولا ندرك عددهم .

ولقد سار هؤلاء جميعا في طريقهم فى هدوء مسيره طائفة واحدة مترابطة ، حتى اذا كان يوم ٢٠ سبتمبر بلغوا سالمين معافين ناحية في ولاية النمسا تعرف باسم « سولنبورج » حيث يكون نهر « لبتا » الحد الفاصل بين أقاليم الامبراطورية وبلاد مملكة المجر ٠

وحين بلغ هؤلاء هذه المدينة وقعت عليهم وقع الصاعقة أخبار النكبة التى حلت ابها حاقت بجوسوك وعسكره ، فتشاور بعضهم مع بعض كيف يتسنى لهم السير قدما فى أمان حتى يتم لهم انجاز العمل الذى أزمعوا القيام به ، فاتفق رأيهم فى النهاية على وجوب ارسال سفارة الى ملك المجر تتقصى منه السبب الذى أدى الى هلاك جيش اخوانهم الذين سبقوهم فى تلك البلاد على هذه الصوره ٠

وزيادة على ذلك فقد كلف الرسل الموفدون بايجاد فرصة للتفاهم مع الملك حول اسباب السلام ، وأوصوا أن ينحلوا جانبا عن اثارة الشكاية من الخصومات السابقة ، حتى يتمكنوا من الحصول على اذن يمرون به سالمين عبر المجر ، لأنهم لو راحوا يبحثون عن طريق آخر يسلكونه بعد أن بدأوا مسيرتهم فان خسارتهم تكون فادحة ، ومشقتهم التى يلقونها عظيمة ، لذلك اختاروا لهذه السفاره الشريف « جودفروى ديش » أخا هنرى ، مع طائفة معينة من ذوى المكانة العاليه والرتبه النبيله ، وكان اختيارهم [جودفروى ديش] راجعا الى روابط الود والصداقة التى كانت تربطه منذ سنوات طويلة سالفة بملك المجر ، فلما صار [جودفروى] فى حضرة الملك حياه بما يليق بمكانته ، ثم ألقى على مسامعه بما كلف أن يقوله :

- ٢ -

قال :

« لقد جئنـــا الى جلالتكم مبعوثين من قبل النبـــل السرى « جودفروى دوق لوثارنجيا » ومن فى صحبته من القادة الآخرين ، عباد الرب المرافقين له ، والصادقين فى طاعتهم للاراده الربانية ٠

« وانهم ليوافون أن نعرفهم السبب الذى من أجله عومل شعب مسيحى طالعتنا حينهم على طول الطريق هذه المعاملة التى ينكرها الانسانية على يدكم ، وأنتم أمة ذاعت شهرتها بين الأمم بأنها من الشعوب المؤمنة المخلصة ، وكأنه كان من الأسلم لهؤلاء المسيحيين لو أنهم ولوا وجوههم شطر بلاد العدو فسلكوها ، فان كانت جرائم هؤلاء الناس شنعة بشاعة استحقوا من أجلها العقاب الشديد فان الذين أرسلونى اليك مستعدون أن يتحملوا — عن طيب خاطر — اصلاح ما أفسدوه ، ذلك لأنه اذا كان الجرم يعادل العقوبة كان ذلك عدلا ، ولن نثير غضبا كبيرا ، بل ينبغى أن نتقبله فى صبر ٠

« أما اذا لم يكن الأمر كذلك ، ولم يكن هناك مبرر لمهاجمتكم الأبرياء ، فان زعماءنا لا يقبلون السكوت وغض الطرف عن النكبات التى كانت من نصيب خدام الرب ، بل انهم مستعدون للثأر لدم اخوانهم ولذلك فانهم ينتظرون أن توافيهم بالجواب عن كل هـذه الأمور ، وسوف يتخذون قرارهم بما يتفق وخلاصة ردكم » ٠

وختم جودفروى دبش خطابه بهذه الكلمات ٠

فأجابه الملك وهو محاط بكبار رجالاته ٠

« أيها العزيز جودفروى ، يا من حبوناه منذ زمن بعيد بمودتنا التى هو أهل لها ، انه ليسعدنا أن تكون قد أتيت لا لتجدد صداقة

الأيام الحالية فحسب بل ولتسمعنا ونحن نؤكد براءتنا أمام حكم عاقل مثلك .

« اننا ـ كما قلت بحق ـ في عداد المؤمنين ، واننا نستطيع بأعمالنا أن نعلي من شأن هذا الاسم ، ولكن الذين سبقوكم من أتباع بطرس الناسك وذيول جوتشوك ومن بعدهم ممن حاولوا الاستيلاء قسرا على احدى قلاعنا القائمة على أطراف المملكة ، واقتحام مملكتنا بالعنف ، لم تكونوا في الواقع من أتباع المسيح ، ولا أهلا لحمل هذا النعت ، فلقد احتفلنا ببطرس وحشده في بداية الأمر احتفالا كريما ووهبناهم ما عندنا من السلع مجانا وبثمن رخيص . ولكنهم رغم ذلك كانوا كالحية تختبيء في الصـدر أو كالفأر في صوان الملابس ، اذ ردوا احسان المضيف أسوأ رد ، لأنهم بدلا مما كان يحتمه عليهم الواجب من مجازاتنا بالشكر على ما تفضلنا به عليهم ، اذا بهم يقتحمون واحدة من مدننا الواقعة في أقصى تخوم المملكة ، ويفتكون بأهلها فتكا ذريعا ثم يرحلون في خسة اللصوص . سائقين أمامهم قطعان الماشية والأغنام ، وحاملين معهم ما سلبوه ، وعلى الرغم من هذا الفعل الذميم فقد أذنا لجيوش جوتشوك بالدخول دون أن تكلفه رهقا أو تعبا ، كأننا لم نلق أذى من الجيوش التي سبقته في المجيء ، لكن رجاله لم يترددوا بدورهم في النهب ، ولم يكفوا عن العنف ، ولم يتحرجوا عن اضرام النار ، بل انهم لم يتورعوا عن سفك الدماء لأوهى الأسباب وأتفه العلل ، ومن ثم فقد أغضبوا الرب منهم بسبب شناعة جرائمهم .

« ولما لم يعد في طوق صبرنا قدرة على تحمل ما أنزلوه من البلايا برعايانا ، فقد صح عزمنا على القيـام ببعض ما فيه علاج لهذه الظروف الخطرة ، فدلتنا تجـارـبنا الماضية على أن الحـكمة تقتضينا أن نوصد أبواب مملكتنا في وجه هذه الجماعات المؤلفه من فجرة أوغـاد ، حتى لا ننكب للمرة الثـالثة على أيديهم ، فكانت

محاربنا اياهم كأعداء خيرا مما يسرلونه بنا من اهانات ، ويلحقونه بنا من الخسائر الفادحة ·

« فليكن اذن فيما فصلت عذرا لنا عندك ، وأنت الرجل الفطن اللبيب ، فوالله لقد بننا الحق الصراح كما جرى » ·

ولما فرغ الملك من قوله هذا أمر باستضافة الرسل أحسن ضيافة ، وأن يعاملوا بوافر الاحترام حتى يستطيع — بعد مشاورة رجاله — اعداد رسل الى القادة [الصليبيين] يحملون اليهم الرد الملائم ، ثم بعث أخيرا الى الدوق والى القادة بعض أهل بيته صحبة السفراء ، وحملهم هذه الرسالة التالية .

« لقد سمعنا وجاءتنا الأخبار الصادقة منذ أمد بعيد بأنك بعد عن حق أمرا عظيما جليلا ، كبير القدر في قومه ، كما أن العقلاء — وان بعدوا عنك أرضا — ليثنون على صدق ايمانكم ، وثبات جنانكم ثباتا يشكرون عليه ، وقد شدنا اليكم حسن الأحدوثة عنكم ، وبطولة أعمالكم فرأينا أن نحبك حتى في غيابك ، وأن نحبوك بعطف أكبر . ونحن نعتقد أن الرجال النبلاء الذين أرسلتهم ، والذين يماثلونكم أيضا في تحمسهم للعقيدة المسيحية ، قد قاموا كذلك بعمل كله تقوى . ولما كنا عازفين كل العزوف عن أن يعتور الفتور والتراخي ما بيننا من ود بسبب عمل غير مرض ، فاننا على استعداد لأن نعمل كل ما يزيد هذه المودة نماء ، ونبذل العطف للجميع ، ونعاملهم معاملة تنطوي على الحب الأخوى » ·

وها هى دى الفرصة قد واتتنا لنرجوكم أن تتفضلوا بالحضور الى قلعتنا « سيبيرون » لنعقد واياكم مجلسا طال اشتياقنا له وتطلعنا اليه ، وحتى نكون قادرين على الوصول الى سلام يتلاءم مع رغباتكم » ·

- ٣ -

بعــد اسماع الدوق الى رســل الملك ومشاورانه أصدقاءه ، غرب يوما معينا مضى فيه الى المكان الذى قسم له ، مسصحبا معه ثلاثمائة فارس من الصفوة المنقاة من رجاله ، فلما اجتاز الجسر وجــد الملك الذى استقبله أروع استقبال ، وخصه بأسمى آيات الترحيب ، وأبدى كل منهما لصاحبه الصداقة الحميمة ، ثم اتفقا فى النهاية على تبادل الرهائن الذين يختارونهم من علية القوم ، كما اتفقا على ألا تنطوى صدور الجانبين على كراهية بعضهم لبعض ، وأن يعود السلام بين الفريقين ، فلما تم قبول هذه الشروط أذن الملك للدوق وعسكره بدخول المملكة ٠

ورغبة من الملك فى أن يزداد قلبه طمأنينة اذ يسمح بدخول مثل هذا الجيش اللجب الذى قد يحدث ـ بطريق الصدفة المحضة ـ أن يتوسل بأى ذريعة لاحداث ما يكون فيه مضايقة للملك اعتمادا منه على كثرة عدده وشجاعته فقد سألهم أن يعطوه بلدوين ـ أخا الدوق ـ وزوجته وأهل بيته رهائن عنده ، فوافق الدوق على ذلك . وأسلم أخاه رهينة كما اتفق على ذلك من قبل ، ثم دخل المملكة راضى النفس قرير العين بعسكره ، وحينذاك أصدر الملك ـ وفاء بوعده ـ قرارا يقضى بتقديم الطعام اللازم للجند فى كل ناحية يمرون بها من نواحى البلد لقاء سعر معقول ، وألا يطفف عليهم فى الكيل ، وزيادة على ذلك فقد أمر بأن يصحب الجيش سوق يبتاعون منها ما يريدون ٠

أما الدوق فقــد أمر من جانبه أن ينــادى المنــادون فى أرجاء المعسكر ألا ينهب أحد شيئا ما أو يلجأ للعنف أو الشدة مع من يأتون الى الجيش ، والا كان الموت جزاءه ومصادرة كل ما بيده ، كما أمر أن تجرى معاملات البيع والشراء فى جو من السلام والمحبة الأخــوية ٠

وهكذا قدر لهم – بفضل من الله – أن يعبروا كل بلاد المجر في سلام لم يعكر صفوه أحد من الطرفين ، ثم مشى الملك برهائنه الى يسار الجيش على رأس قوة كبيرة من حرسه الخاص ، وهو على أتم أهبة لأن يخمد في الحال أي شغب قد يحدث ، فلما وصلوا أخيرا الى « سملين » التي تكررت الاشـارة اليها توقفوا على شاطىء نهـر الساف ، حتى تم اعداد ممر للعسكر [الصلبي] ، وإذ لم يجدوا سوى بضع قوارب قليلة لا تكفي لنقل قوم كثيرين كهؤلاء القوم فقد جهزت أرمات لهذا الغرض ، وأقاموا ألف فارس في كامل سلاحهم لحراسة الشاطىء الآخر ضد ما قد يكون هناك من كمين ينصبه العدو لهم حتى يتسر للجيش – بعد عبوره النهر – أن يجد مكانا هادئا توفرت فيه أسباب الراحة ·

وحينذاك أخـذ الحجاج ينتقلون الى الجـانب الآخر في لهفه وشـــوق ·

ما كاد [اللاتين] وبعض زعمائهم يجتازون النهر حتى أسرع الملك بالتقدم مستصحبا معه حرسا كثيرين ، وأسلم بلدوين وزوجته وبقية الرهائن الى الدوق وفق ما اتفقوا عليه في البداية ، ثم وصل الدوق ومن معه من القادة بالغالي الثمين من الهدايا التي وصلهم بها الملك تكريما لهم واجلالا لقدرهم ، ثم عاد الملك بعدئذ الى قصره ·

حينذاك بادر الدوق مع القادة الآخرين وبقية الناس الى السير وراء الجند الذين كانوا قد عبروا النهر الى الشاطىء الآخر ، حتى اذا وصلوا الى بلجراد – احدى مدن بلغاريا التي أشرت اليها من قبل – نصب الدوق خيامه ، فلما فرغوا من ترتيب متاعهم ، وتهيأ الجند للرحيل ، شقوا طريقهم عبر غابات بلغاريا وأدغالها الشاسعة الكثيفة ، فبلغوا أول ما بلغوا مدينة « نيش » ثم « سترالكما » ·

- ٤ -

من اليسير على المرء أن يدرك ما عليه الاغريق من النعاسة وأن يعرف مدى الضعف الذى بلغته الامبراطورية حين يساهد أوضاع الأماكن التى كانت فى السالف ولايات غنية ، حافلة بكل ما تشتهيه النفس من السلع والمتجر ، لكن حدث بعد انتهاء حكم أمراء القسطنطينية اللاتين أن وقعت الامبراطورية بسبب أخطائها وعماءها تحت سلطان اليونان بزعامة نقفور الأول . فاغتنمت شعوب المنطقة المتحمسة فرصة ضعفها وبادرت فى الحال الى شن سلسلة من الغارات على الأراضى الخاضعة للامبراطورية ، وراحت تعامل السكان وفق هواها .

كان من بين هؤلاء الغزاة جماعة « البلغار المتبربرين » ، الذين لم يأخذوا بحظ من الحضـــارة ولكنهم أغاروا عليهـــا من الشمال . وبسطوا سلطانهم على جميع الأقطار الممتدة من الدانوب حتى مدينة القسطنطينية الامبراطورية ، وكذلك الى بحر الأدرياتيك ، ونجم عن ذلك أن اضطربت أسماء الولايات واختلطت الحدود بعضها ببعض . وأطلق اسم « بلغاريا » على كل الأصقاع التى طولها مسيرة شهر ، وعرضها عشرة أيام أو أكثر . ولم يدرك الاغريق الأشقياء أن هذا الاسم بالذات كان دليلا على اللعنة التى انصبت عليهم ، ذلك لأنه كانت تقع فى القديم على بحر الأدرياتيك ولايتا « ابيروس » وكانت عاصمة احداهما الكبرى هى « دورازو » التى كانت فى وقت من الأوقات قصبة بيرهوس « ملك الأبيروت » وكان رجلا شجاعا وكان موضع الاعجاب من الناس .

كان الاقليم الذى يوشك أن يجتازه الدوق [جودفروى] على رأس جيشه يتألف من ولايتى « داكيا » وأعنى بهما داكيا (ريبنسس)

وهى البى نكون على يسارهم حين عبورهم الدانوب . وداكيا التحربه البى مروا بهـــا فى طريقهم ، وفيهـــا مدينتنا سس وسيرالكما الرائعــان .

كذلك كانت بوجد ولايات أخرى فى نفس المنطقه هى اركاديا وساليا ومقدونيا وأقاليم براقيا البلاثة التى قدر لها أن باقى نفس الحظ العاثر [الذى لقيته الامبراطوريه] لم تكن هذه الولايات كلها هى وحدها الأملاك البى صاعت من يد الاغريق بسبب ضعفهم ، دلك أنه لم يكن مسموحا لأحد ما أن يقيم فى الأراضى الواقعه فى الولايات القاصية ، ولا يجوز له رراعتها حتى بعد أن أخضع الامبراطور « باريل » الاغريقى نفس الشعب البلغارى . وكان واضحا على وجه الخصوص فى حالة الأراضى المتاخمة لحدود الممالك الأجنبيه والتى كانت تمتد الى بلادهم وأعنى بها ولايتى « داكيا » ، ولا بزال نفس الوصف منطبقا حتى اليوم . ولما كانت الناحيه بأجمعها مغطاه بالغابات الكثيفة والنباتات المتشابكة فلم تكن ثم أحد بقادر على اختراقها حتى ولو رغب فى دلك ، ويرجع هذا الى أن اليونان وضعوا ثقتهم الكبرى فى العوائق البى تعود الى صعوبة الطرق وكثره أشجار العوسج والشوك التى كانت تعتبر وسائل دفاعية تفوق ما تستطيعه قوات اليونان الدفاعية .

ونهج اليونان هذه السياسة دائما فتركوا « بتروس بريموس » أرضا عذراء خالية من السكان ، حتى ان الغابات المهجوره والأحراج الموحشة أصبحت لا تنتج طعاما ، وصارت عقبة كأداء فى وجه من يبغى دخولها ، وكان هذا الاقليم الذى لابد من أن يجتازه بقية القادة الآخرين يبدأ عند « دورا زو » ويمتد مسيرة أربعة أيام فى الجبال المسماة بجبال البلقان .

سار الدوق بمن معه من العسكر عبر داكيا البحريه المعروفه أيضا باسم « موزيا » ، فلما اجتاز الأحراج المسماة عاده بممر سافت بازيل صادف ناحيه أكثر اتساعا ورفاهية أمدته بكميات وفيرة من المئونه حتى جاء الى مدينه « فيليبو بوليس » الجميلة ، الآهلة بالسكان . وهنا علم بما فعله الامبراطور من زج هيج الكبير ـ أخي ملك فرنسا ـ فى السجن مع ثله من رفاقه النبلاء ، فأرسل على جناح السرعه وفى لحظته رجالا من قبله الى الامبراطور . ولاحقه بالرسل ملحا عليه أن يطلق سراح هـؤلاء الرجال . ويلومه على ما أنزله بهم ـ وهم الذين وهبوا أنفسهم لرحلة الحج نفسها ـ لكنه سجنهم من غير جرم ارتكبوه .

وكان هذا الرجل الوجيه [هيج] أول القاده حمسا فى الخروج الى الحملة ، وقد اجتاز جبال الألب ودخل ايطاليا ، ثم غادرها الى « أبوليا » حيث أبحر فى حراسة قليلة ، وتوقف فى « دورازو » فى انتظار القادمين وراءه ، ولم يكن يخطر بباله أبدا وقوع أى خطر عليه ولا على من معه ، وهم فى مملكة الاغريق المنظور اليهم بأنهم يعتنقون المسيحية ، غير أن والى هذه الناحية ألقى القبض عليه وزج به فى السجن ، ليسلمه الى الامبراطور كى يقضى فيه بما تشاؤه ارادته الملوكية ، فحبسه الامبراطور كما لو كان لصا أو سفاكا للدماء ، وكان الامبراطور ينتظر وصول القادة الذين قالوا انهم فى الطريق . فاذا قدر لهم النجاح فى الحضور أطلق سراحه كيد يمن بها عليهم ، أما ان كان الأمر غير ذلك فاسوف يبقيه أسيرا طول حيـــاته .

- ٥ -

كانت الامبراطورية اليونانية فى هذه الآونة تحت حكم رجل ماكر يدعى « ألكسيوس » ويلقب « نكومسنوس » ، كان يعيش من قبل فى القصر الامبراطورى ، ويشغل وظيفة كبير الحجاب التى يطلق به واحيانا ، وهى وظيفة يسمونها نحن [اللاس] بحاجب الحجاب . أو مدبر شئون القصر ، وتجعله فى مكانة تلى مباشرة مكانة الامبراطور ، مما أسبغ عليه تقديرا كبيرا عند الامبراطور « نقفور » الملقب « سوبوتانس » صاحب الصولجان فى هذا الوقت ، لكن ذلك الرجل [الكسيوس] خان ولى نعمته [نقفور] وكان ذلك قبل مجيء شعبنا بخمس سنوات أو ست فخلع مولاه وتقلد الأمر بدلا منه فى الامبراطوريه ، وأصبح مالكا لها الآن اغتصابا .

وجاء رسل الدوق الى الامبراطور ، وراحوا ينفذون التعليمات الملقاة اليهم ويسألونه فى الحاف أن يطلق سراح هيج ورفاقه ، فلما رأوا اصرار الامبراطور على رفض رجائهم عادوا الى الجيش الذى كان اذ ذاك قد جاوز « أدرنه » ونزل للاستجمام فى أحد السهول .

ولما علم الدوق والقـــادة الآخرون عن طريق معـــرفتهم أن الامبراطور لن يمن بالحرية على هؤلاء الرجال [هيج ورفاقه] اتفق رأيهم جميعا على الاذن لعسكرهم بنهب الاقليم ، واذ طال اقامتهم هنا ثمانية أيام سويا فقد دمروا الناحية دمارا شاملا . لكن ما كادت أنباء ما فعلوا تصل الى سمع الامبراطور حتى بعث رسلا من لدنه الى الدوق يرجوه — عن طريقهم — أن يكف أيدى جنده عن أعمال التخريب هـذه ، ويؤكد له أنه مستجيب لرجـائه ، ومطلق سراح الأشراف الذين فى حبسه ، فقبل الدوق هذا الاجراء نفس جذلى وأمر جنده بالتوقف عن متابعة السلب والنهب ، ثم سار بعدئذ الى مدينة القسطنطينية مستصحبا قواته فى أحسن نظام ، فلما صار

أمامها أمر جسمه ، القوى البأس ، الكثيف العدد ، بنصب خيامهم هناك واقامة معسكرهم ٠

أما النبلاء الذين أسرنا النهم وهم : هبح الكبير و « دروجو دى نيسل » — و « وليم » النجار . و « كلاريبولد دى فنديل » ، فقد قدموا من المدينة لمقابلته ، ثم ذهبوا الى المعسكر شاكرين له يده عليهم فى تحريرهم من أسرهم ، فاستقبلهم الدوق استقبالا نفيض بالود ، وحياهم بما هم أهل له من التعظيم ، واستبقاهم معه بعض الوقت مسبغا عليهم عطفه ، ومواسيهم مواساة الأخ لاخوانه يشاركهم آلامهم التى تحملوها ظلما ٠

- ٦ -

لم يكد هؤلاء يفرغون من عناق بعضهم البعض ومن تبـادل الأحاديث الرقيقة فيما بينهم ، حتى وصل رسل من جهة الامبراطور [ألكسيوس كومنين] يحملون الأوامر بوجوب اسراع الدوق للمثول بالقصر الامبراطورى ولكن فى حرس قليل ، غير أن الدوق رأى — بعد مشاورة أصدقائه — أن يرجىء ذهابه اليه ، مما أغضب ألكسيوس غضبا حمله على رفض الاذن لهم بعقد سوق يبتاع منه العسكر الوافد مع الدوق ويشترون ، بيد أن ما صار فيه القوم جميعا من مسيس الحاجة الى المئونة وقلة ما لديهم منها ، حمل القادة مرة ثانية على الاتفاق على اجتياح تلك النواحى بجماعات مسلحة كبيرة ، وعادوا يسوقون أمامهم قطعان الماشية والأغنام التى غنموها ، ورجعوا الى المعسكر وقد فاضت أيديهم بشتى أنواع المأكولات ، حتى ان الرعاع منهم أصابوا منها وفرة ضخمة أصابتهم بالكظة ٠

ولما رأى الامبراطور أن المنطمة قد تعرضت للحريق والنهب ، خاف أن تتطور الأمور الى ما هو أفدح من هذا فأمر بعقد السوق ، ولما كان يوم الأحزان لمولد سيدنا قد قرب موعده ، وصار على الأبواب فقد أصدر الزعماء ـ احتراما للدين ـ قرارا ينهى الجند عن النهب وارتكاب الموبقات خلال هذه الأيام الأربعة ، فانقضى العقد فى أتم هدوء وسلام ٠

ثم جاءت بعد ذلك رسالة من الامبراطور تسيل كلماتها رقه وعذوبة ، وان انطوت على الخديعة ، يسألهم فيها أن يخرج الجيش عن طريق الجسر المجاور للقصر المسمى بقصر « ىلاشرىاى » وأن يقيموا فى القصور المتعددة المتناثرة على شاطىء البسفور ، فأقبلوا فى يسر على تنفيذ هذا الأمر ، لأن طلائع الشتاء الذى كان على الأبواب كانت تزعجهم أشد الازعاج ، كما ضربتهم العواصف الملحة بشدة لم يسبق لها مثيل ، حتى ان الخيام لم تمنع المطر من التسرب اليهم ، فتولاهم الجزع من الخطر الذى يهدد الطعام وسائر معداتهم بالفساد والعفونة بسبب التعرض الدائم للرطوبة ، ولم يكن هناك من انسان ولا حيوان ولا ذى روح بقادر أن يتحمل أكثر من هذا البرد القاسى الذى كان يخترق كل شىء ، وعجزوا عن مجابهة الثلوج الكثيرة ، ناهيك بالبلل والمتاعب التى لحقت بهم وكانت فوق طاقتهم٠

وعلى الرغم مما كانت تحمله كلمات الامبراطور من العطف على الحجاج ، الا أن هدفه الحقيقى كان يختلف عن ذلك تمام الاختلاف. فقد كان السبب الجوهرى لهذا الانفصال هو أن يصبح العسكر أقل حرية فى التحرك هنا وهناك ان هم صاروا فى بقعة محدودة ، كما تزداد قدرة الامبراطور فى كبح جماحهم والسيطرة عليهم ٠

ولكى يكون هذا القول أكثر وضوحا فلابد من ابراز بعض الحقائق عن موقع تلك المدينة المذكورة أعلاه ٠

- ٧ -

ان بحر بنطس [البحر الأسود] الذى يتخذ اسمه من الاقليم المجاور له يقع على بعد ثلاثين ميلا من شمال القسطنطينية ، ويكون جزء معين من هذا البحر على شكل نهر ينحدر جنوبا عبر مسالك ضيقة . ثم يستقيم مجراه لمسافة قدرها مائتان وثلاثون ميلا ، يخترق فيها مدينتى سيستون « وابيدوس » الموغلتين فى القدم ويقع احداهما فى أوربا ، والأخرى فى آسيا ، ثم يصب فى النهاية فى بحرنا الأبيض المتوسط ، وعند خروج هذا الماء من البحر الأسود ينتشر لثلاثين ميلا فى مجرى يمتد من الممر الأول الذى دخله ويكون فى الناحية الغربية خليجا يقرب طوله من خمسة أميال الى ستة ، وعرضه ميل واحد ، ويسمى هذا المجرى الضيق الذى يمتد لمائتين وثلاثين ميلا من البحر الأسود الى البحر الأبيض المتوسط بالبسفور أو « بروبونتس » أو « هيلليسبونت » ، ويشهد بذلك « سولنوس » فى الفصل السابع عشر من مذكراته حيث يقول « ان خليج أوربة الرابع يبدأ عند الهيللسبونت وينتهى عند بحيرة « ماوتس » والعرض الكلى لهذا المجرى المائى الذى يفصل أوربة عن آسيا يتحول الى مضيق يتألف من سبعة روافد ، وهذا هو البسفور الذى عبره احررسيس على جسر من القوارب أمر باقامته ، ويجرى الماء من هنا على شكل قناة الى مدينة « بريانوس » الآسيوية التى استولى عليها الاسكندر الأكبر أثناء مروره بجوارها حين كان يتطلع لغزو العالم ، ويتسع هذا المجرى المائى مرة أخرى ويتحول الى سطح واسع جدا من المياه فيسمى بروبونتس [أى البسفور] ـ أما الآن فانه يضيق الى مسافة عرضها خمسمائة خطوة ، ويصبح بسفور تراقيا الذى نقل « دارا » جنده عبره .

ويبدو أن هذه الأسماء ترجع فى أصولها الى الشعراء القدامى

فسمي البسفور بهذا الاسم لما يقال من أن جوبتر تنكر فى شكل ثور حاملا عبر مياهه « أوربه » ابنة أجنور ٠

وجاء اسم هيللسبونت من « هله » أخت « فركسيس » الذى تزعم الأسطورة أنه عبر هو الآخر البحر بأخيها على ظهر كبش ، وهو يعتبر الحد الفاصل بين أوربا وآسيا ، ويعرف عادة باسم ذراع سنت جورج وقد ذكرنا طوله ، أما عرضه فليس متساويا فى كل الأماكن ، ونظرا لموقع الأراضى المجاورة له وطبيعة تكوينها فان عرضه الآن يصل الى ميل ، ثم يتسع حتى يبلغ ثلاثين ميلا أو أكثر ٠

وأما الخليج الذى يمتد الى الغرب فيكون ـ كما ذكرنا ـ واحدا من أشهر موانى الدنيا وله مرفأ رحب ، وأما المدينة التى نتكلم عنها فتقع فى زاوية بين هذا الخليج وبين البسفور ، وكانت تسمى فى القديم بيزنطة التى كانت موضعا لا يعتد به ، والأغلب أنها كانت آخر المدن فى تراقيا ، أما الآن فهى أسعد المدن حظا اذ تحمل اسم الامبراطور الذى زاد فيها حتى أصبحت قصبة الولايات كلها كما صارت مقر الامبراطور ، وأصبح اسمها بفضل مكانتها الممتازة منافسا لاسم سيدتها رومة ٠

وتذهب الروايه الواردة فى الكتاب الثالث « لبول أورسياس » الى أن تأسيس هـذه المدينة كان على يد « باوساوسـوس » ملك الاسبرطيين ، وهى على شكل مثلث غير متساوى الأضلاع التى يمتد أولها من تلك الزاوية الواقعة بين البحر وبين هيللسبونت حيث توجد كنيسة سنت جورج المعروفة باسم « مانجانا » ، ويمتد هذا الضلع بامتداد الميناء الى القصر الجديد المسمى بقصر بلاشرناى ٠

أما الضلع الثانى فيمتد على طول البسفور من عند دير سنت جورج الى البوابة الذهبية ٠

وأما القسم الثالث فيمتد بطول الاقليم من نفس البوابة الى قصر بلاشيرناى المذكور حالا ، وهو محصن بالأسوار والأبراج ووسائل الدفاع الخارجية ، ويوجد عنده نهر يصب فى المبناء وهو ضحل جدا فى الصيف ، أما فى الشتاء فتغزر مياهه بسبب فيضان مياه الأمطار مما تصبح الجسر معه ضرورة لابد منها .

★★★

ولما اجتاز جيشنا هذا الجسر مضى الى النواحى التى خصصت له فى بعض المبانى الكبيرة القائمة على امتداد شاطىء البسفور . وهى الدور الواقعة بين مياهه ومياه البحر الأسود ، وحدث فى أثناء انتظارهم قدوم القادة الآخرين أن تسلم الدوق عدة رسائل من الامبراطور ، يرجوه فيها الشخوص اليه ، غير أن عدم اطمئنان « جودفروى » الى صدق الملك وتخوفه من الاجتماع به حملاه على الاحجام عن استجابة دعواته ، وان شعر أن من سوء الأدب ومخالفة نواميس الشرف ألا يبعث على الأقل أشخاصا ملائمين لتمثيله عنده ، طالما هو عازف عن الذهاب بنفسه ، ومن ثم فقد أرسل النبيل كونون دى مونتاج وبلدوين دى بورج وهنرى دى يعتذرون للامبراطور عن عدم قدوم جودفروى . فلما أدرك ألكسيوس أن لا رجعة للدوق فيما قرره وأنه لا سبيل أبدا لارغامه على الحضور الى مجلسه عاد فأمر بغض السوق ونقضه ، ولكن هذا الاجراء لم ينجح فى ثنى هذا الرجل [جودفروى] عن عزمه ، واذ ذاك اتخذ ألكسيوس اجراءات أشد صرامة ، فأرسل فى السر جماعة من رماة الأقواس عبر النهر ، فى قوارب الى المكان الذى كانت تعسكر فيه قوات الدوق ، فلما أهلت أولى تباشير الصباح قتل هؤلاء الرجال بسهامهم طائفة كبيرة من رجالنا لم يكونوا فحسب من بين الذين ذهبوا الى الشاطىء ، بل وأيضا ممن كانوا يطلون من النوافذ .

حين جاء نبأ ما جرى الى الدوق استدعى فى الحال زعماء الناس لمساورتهم ، ونزل على ما أجمعوا كلهم عليه ، فوجه أخاه [بلدوين] على رأس كتيبة من العسكر للاستيلاء على وجه السرعة على الجسر الذى عبره الجيش ، حتى لا يغدو محصورا فى هذه الأماكن الضيقة ، وحتى لا يفقد الكثيرين من رجاله ، فخرج بلدوين الشجاع على رأس خمسمائة فارس وأسرع بهم الى الجسر واستولى عليه عنوة ، ولم يعد الخطر قاصرا على من جاءوا بالقوارب بل ان المدينة بأجمعها أيضا حملت السلاح تريد الفتك برجالنا .

رأى الصليبيون أن استدعاهم الاغريق تسيطر فى اقامة الاستعدادات ضدهم ، كما حمل الأهالى السلاح للقضاء عليهم ، لذلك أضرموا النار فى جميع القصور التى كانوا ينزلونها ، والتى تمتد مسافة ستة أميال أو سبعة على طول البسفور ، فسبب الحريق فى جمعها ، سواء ما كان منها ملكا للأهالى ، أو كان للامبراطور ، والتهمتها النيران حتى تهاوت الى الأرض ، وسمع رجالنا دق الطبول ونفير الأبواق يتردد مدويا فى الأحياء المحتلة التى كانوا قد انكفؤوا اليها التماسا للراحة ، فأسرعوا لحمل سلاحهم ، وسمعوا الدوق الذى أسرع الى الجسر يقود عسكره وقد صفهم للقتال ، غير أن أصحاب الخبرة الحربية الكبيرة خافوا أن يضيق العدو الخناق على الجيش وهو فى مواضعه الضيقة هذه ، فيهلكون ان استولى الخصم على الجسر ، ومن ثم لم يتريثوا فى انتظار فرق المشاة ، بل بادروا الى جمع كل الخيالة فى تلك الناحية ، الا أن بلدوين – أخا الدوق – كان كما قلنا – قد أسرع الى الأمام واحتل الجسر رغم محاولات الأعداء فأرغمهم أن يولوا الأدبار هاربين ، فسيطر بذلك على الشاطىء الآخر للنهر ، واستخلصه لجيشنا .

ومن ثم فقد تمكن الدوق وجميع رجاله من العبور بكل ما معهم من المتاع والتجهيزات ، وأقاموا مره أخرى فى موضع بالعراء تواحه المدينة ، ويمتد فى كل اتجاه دون أى عائق ٠

ولما اقترب المساء من الدخول نشبت معركه فى البقعة الواقعه عندما يعرف الآن باسم قلعه بوهيموند الموجودة بين كنيسة القديسين الطاهرين كوزمو وداميين وبين قصر بلاشرناى الجديد ، القائم فى زاوية من المدينه قرب الميناء ، وهلك فى هذه الموقعة آعداد كبيره من الناس ، وعجز الاغريق عن تحمل ضراوة القتال فتقهقروا عنه وارتدوا الى المدينة ٠

حينذاك نزل عسكرنا المنصور فى أروع بقعه من الساحه التى استولوا عليها بشجاعتهم ، ولولا سرعة دخول الليل ووضعه نهاية للقتال الدائر بين الجيشين لتمكن الأهالى من معاودة الحرب بسبب ما يضمرونه من الكراهية السوداء التى كانت تعشش فى صدورهم نحونا ، وزادها حدة غضبهم علينا ، وكان من الممكن حينذاك أن تجرى معركة ثانية أشد وحشية من سابقتها فتتمخض عنها خساره فى الأرواح أكبر من الخسارة السالفة ٠

هنا — ولأول مره — تجلى بوضوح للعيان مدى الشر الذى انطوت عليه خطة الامبراطور فى اصدار الأمر بنقل المعسكر ، اذ كان ذلك نابعا عن رغبة منه فى أن يضع هذا الشعب الصليبى الذى تساوره الشكوك فيه فى منطقـــة ضيقة محدودة ، فيصبح بين المطـرقة والسندان ٠

- ٩ -

ما كاد النهار يطلع على الكون حتى نودى علانية بين الناس بحمل السلاح ، وخرجت طائفة بقيادة رهط من الزعماء لتفتيش المنطقة التي حولهم ، والعودة بالأطعمة التي منع الامبراطور بيعها . وصدرت الأوامر لهذه الطائفة بالحصول على ما خرجوا من أجله ان غصبا أو بالشراء ، وألا يخلفوا وراءهم ماشية ولا غنما ولا غلة ، ولا أي نوع من المئونة .

كما صدرت الأوامر لغيرهم ولطائفة من القادة بالبقاء مع الدوق في المعسكر لحراسته ، ذلك أنهم حين اكتشفوا غـدر الامبراطور وخيانة شعبه ، لم يدخروا وسعا في الاستعانة بكل الوسائل الممكنة لحماية أنفسهم من هذه المكائد الوضيعة ، فنهضت اذ ذاك كتيبة كبيرة من الفرسان والمشاة ، وخرجت في حملة لجلب الطعـام وطالت غيبتهم ستة أيام بلياليها ، راحوا خلالها ينهبون الحقول في دائرة محيطها ستون ميلا ، فلما كان اليـوم الثامن عادوا الى المعسكر بكميات وفيرة من المواد الغذائية لا يتصورها العقل ، والحق أن قطعان الماشية والأغنام ودواب الحمل - بله العربات - كانت كثيرة جدا ، حتى لقد صادفوا صعوبة بالغة في احضار كل ما نهبوه .

- ١٠ -

بينما كانت هـذه الأمور تجرى في المعسـكر وصـل الى [جودفروى] رسـول من الأمير بوهيموند يحمـل اليه خطـابا يقول فيه :

« اعرف يا أعظم الرجال انك تتعامل مع أحقر الحيوانات ، ومع رجل خسيس كل الخسة ، ليس له من عرض أبدا الا الخديعة ، ولا يتورع عن اصطناع أى وسيلة أو سلوك أى سبيل يكون فيه هلاك كل من هو من أمة اللاتين ، وسيبرهن لك تقديرك الذاتي — أن آجلا أو عاجلا — على صدق احساسى نحو هذا الرجل ، وذلك لأنى أعرف أن اليونان يضمرون الشر والضغينة لكل من هو لاتينى، وتلك طبيعة متأصلة فيهم ما لهم منها من فكاك ولا يستطيعون عنها حولا ، ومن ثم فعليك أن تغادر المدينة — اذ شئت — وترحل الى النواحي المحيطة بأدرنة و « فيلبوبولس » ودع عساكر الجند الذين عهد بهم الرب الملك ليستجمعوا وينعموا بلذيذ الطعام في منطقة أخرى خصبة ، وانني لقادم الملك — ان بأذن الرب — في مطلع الربيع لأقدم الملك — باعتبارك مولاى — خدماتي الأخوية المنطوية على الحب والنصيحة ضد أمر الاغريق اللئيم » .

☆☆☆

قرأ الدوق الرسالة ، وبعد أن تبصر مليا في فحواها عقد مجلسا مع القادة ، ثم أرسل الرد كتابة وشفاها بهذه الصورة الحكيمة .

« انى أعرف يا شقيقى الحبيب — كما جاءنى الأخبار منذ وقت طويل مؤكده صدق ما أحس — أن الجنس اليوناني المحتال يطوى قلبه على الكراهية العميقة لنا ، ويلتهف للاضرار بشعبنا ، واذا كنت فى حاجة الى شيء من هذه المعرفة من قبل فقد أكدتها التجربة يوما بعد يوم ، ولست أشك فى أن ما انطبعت عليه أنت من صادق النوايا بحركك ضدهم ، كما لا أشك في صحة احساسك الغريزى بخستهم ، ولكننى اذ أضع خوفى من الله أمام عينى .

ولا أغمضها عن هدف حملى ، فان بدنى يقشعر من أن أوجه ضد أى شعب مسيحى سيفى الذى قطعت العهد على أن أناضل به الكفار ، ومهما يكن الأمر فان الجنس الذى معنا ــ أيها المحب للرب ــ ملتهب شوقا الى قدومك وقدوم الأمراء الآخرين المخلصين للسيد » ٠

- ١١ -

استبد بالامبراطور وبجميع من حوله الفزع الكبير حين رأوا البلد بأكمله عرضة للنهب ، كمـا أنه لم يعـد فى قدره الامبراطور احتمال أنين شعبه وبكائه ، وزاد الطين بلة ما عرفه من خبر مجىء رسل الأمير بوهيموند وقدومه حالا فى أثرهم ، كما أنه خاف ان يتحد الأمراء الذين على وشك الوصول ويصبحوا يدا واحده تعمل لدماره قبـل أن ينجح هو فى استرضـاء الدوق وتهدئة ثائرته ، ومن ثم فقد عاود مرة ثانية ارسال مبعوثيه اليه ، ملتمسا منه زيارته وكان هذا هو السبب الذى حمله على أن يجهد نفسه كل الاجتهاد فى أن يتم الوفاق بينه وبين الدوق قبل وصول هؤلاء الأمراء ، ومن ثم أرسل وفادة ثانية الى الدوق يلح عليه أن يبادر بالحضور الى القصر دون أى ابطاء أو تمهل حاملا بصلة ابنه « حنا برفيرجنيتس » الذى أرسله اليه ليكون رهينة عنده ٠

ولقد أبلج هـذا الاتصال قلوب القادة [اللاتين] فأوفدوا اثنين من ذوى المكانة الرفيعة هما « كونون دى مونتاج » و « بلدوين دى بورج » ليكونا فى استقبال ابن الامبراطور الذى عهدوا به الى الرعاية الكريمة من بلدوين أخى الدوق ، وما كاد ذلك الأمر يتم خلف الدوق أخاه فى قيادة الجيش وشخص هو الى المدينة ، يصحبه

الماده الآخرون ، ودحل على الامبراطور الدى كان يلهف أسد اللهفه على فدومه فاسنفبله الامبراطور اسنقبالا كريما وكان محاطا برحاله البارزين وكلهم بوافون لرؤية الرحل الذى طالما سمعوا به وعرفوا الكبير عنه من قبل ٠

وأكرم الامبراطور أيضـــا وفادة من كانوا فى شرف صحبة الدوق ، واحنفى بكل منهم الاحنفاء اللائق بقدره ومكانته ، ثم قبلهم حميعا قبلة السلام ، وأكثر من السؤال عن صحتهم ، مخاطبا كل واحد باسمه ، وبرفق لهم ، وأبدى لهم العطف عساه يكسب ودهم. ثم التفت الى الدوق فائلا له ٠

« أيها الدوق المحبوب لقد سمعنا أنك أعظم من معك من الأمراء سأنا وقدره ، وما كنا جاهلين حماستك الكريمة فيما عاهدت به نفسك القيام به من مشروع حاطتك التقوى الكريمة فيه برعايتها. أضف الى ذلك أن الأخبار التى ذاعت عنك شرقا وغربا قد أكدت لنا أنك رجل قوى الروح ، صادق الايمان ، ولهذا فقد اكتسبت عن حق حب الكثيرين حتى من لم نتح لهم الفرصة للقائك ٠

« ولما كانت رغبتنا أن نحوطك بكل آيات الحب ، وأن نخصك بالود الصادق ، فقد صممنا أن نتبناك اليوم ابنا لنا فى حضره كبار رجال قصرنا المقدس ، ونعهد اليك بامبراطوريتنا ، عسى أن يظل تماسكها عن طريقك صحيحا غير منلوم فى نظر الجمـــوع التى احتشدت هنا ، وكذلك فى عيون أبناء العصور القادمة » ٠

بهذه الكلمات التى صحبها احتفال ملكى جرت العادة باتخاذه كلما كان هناك نبز من هــذا النوع ، أمر الامبراطور أن يلبســوا الدوق الثياب الامبراطورية ، وتبناه جريا على عادة المملكة ٠

وبهذا عاد السلام وحسن النية بين الاثنين من جديد ٠

حين فرغ الامبراطور من هذا الحفل فتح خزائنه للدوق ورفاقه، ووصلهم بالهدايا الذهبية الرائعة ، وأغدق عليهم الجواهر والثياب الحريرية . والمزهريات الغالية النفيسة التى يعجز الخيال عن تصورها صنعة وقيمة ، وذلك لأن الامبراطور أراد - من وراء اتحافهم بالهدايا التى أكرمهم بها - أن يثير دهولهم واعجابهم بما هو عليه من ثراء ليس له مثيل ، كما هدف أن يجتذب ألبابهم بعظمته الملوكية ولذلك لم يقتصر كرمه الذى خص به الدوق على أن يكون مرة واحدة فحسب ، بل أخذ منذ يوم العطاس حتى عيد الصعود يرسل اليه أسبوعيا من القصر الامبراطورى من النقود الذهبية ما يكلل أكتاف اربعة رجال أشداء عن حمله . هذا الى جانب عشرة أثقال من الدراهم النحاسية ، غير ان الدوق لم يستبق من كل ذلك شيئا لنفسه ، بل جاد بما جاءه على النبلاء والجيش ، حسبما يستلزم حاجة كل فرد .

★★★

استأذن الدوق ومن معه ، بعدئذ الامبراطور فى الرحيل . ورجعوا الى المعسكر ، ثم ردوا اليه ولده يوحنا الذى كانوا قد استبقوه فى المعسكر رهينة الى حين أوبة الدوق ، وقد صحبه فى رجوعه كوكبة من حرس الشرف .

حينذاك أصدر الامبراطور بيانا عاما يقضى بتجهيز كل ما يحتاجه جيش الدوق بثمن معقول ، وكيل لا جور فيه ولا ظلم ، ويودى بقتل كل مخالف لهذا القرار ، كما أعلن الدوق من ناحيته على لسان مناديه باعدام كل من يرتكب فى معسكره عملا من أعمال العنف . أو يخطىء فى حق رجال الامبراطور ، وبهذا استمر الجانبان

فى تعاون متبادل بينهما فى أمور البيع والشراء وسادهما جو من التوفاق التام ٠

ولما آذن شهر مارس بالانتصاف علم الدوق بوصول القادة الآخرين ونزولهم بجيوشهم فى تلك الناحية ، فأمر الامبراطور بتهيئة السفن وعبورهم البسفور ، بعد أن وافقه على هذا الأمر كبار رجالاته أيضا ، وإذ ذاك ضرب [جودفروى] معسكره فى خلقدونية فى بثينيا التى كانت أول ولاية فى آسيا يصل اليها ٠

☆☆☆

وكان قد انعقد [فى سنة ٤٥١] فى خلقدونية التى هى من أعمال بيثينيا ، وفى زمن كل من البابا ليو الكبير والامبراطور مارسيان المجمع الدينى الرابع العام ، وحضره ستمائة وستة وثلاثون من آباء الكنيسة ، فشجب المجمع هرطقات كل من الراهب « اوتيخيوس » راهب اسكندرية و « ديوسكورس » بطركها ٠

كان هذا المكان [وأعنى به خلقدونية] أقرب ما يكون الى القسطنطينية ، ولا يفصله عنها سوى البسفور ، ويستطيع الناظر من هنا أن يطالع المدينة « الملوكية » ، حتى لكأنها الى جواره ٠

يضاف الى ذلك أنه كان فى استطاعة من تحتم عليهم أعمالهم الذهاب اليها من المعسكر القيام بهذه الرحلة ذهابا وايابا ثلاث أو أربع مرات يوميا ٠

غير أن كلمات الامبراطور المعسولة ــ فى الالحاح على الدوق بأن يعبر هو وجيشه البحر قبل الوقت الذى كان محددا لذلك ــ لم تكن صادرة عن اخلاص وصدق طوية ، بل كانت على العكس من ذلك نابعة

ـما دابرع عليه من الحسل والرغبة فى خداع الدوق حتى لا يصمم براده الى مواب اللاتين الآخرين عند وصولهما ، كما أنه سالك سبيل الخبث دانه حين احتال فأرغم الآخرين الذين جاءوا بعدئذ على ركوب البحر . واحدا بعد الآخر ، حتى لا يتسنى مطلقا وجود جيشين معا في وقت واحد أمام المدينه .

- ١٣ -

هكذا كان الموقف بين الامبراطور والدوق فى القسطنطينية ، وحدث فى هذه الأثناء ــ وقبل دخول فصل الشتاء القارس البرد ــ أن قام لورد بوهيموند بن روبرت جيسكارد أمير تارانتو بعبور بحر الأدرياتيك ، ووصل الى دورازو على رأس جميع عسكره ، وتابع من هناك ــ هو ومن معه ــ الزحف فى بطء عبر غابات بلغاريا وكان قد انضم الى جيشه كثير من أصحاب المكانة السامية وأهل النبل من ايطاليا وغيرها من البلاد ، وقد أوردنا أسماء هؤلاء وعددهم لتظل ذكراهم خالدة أبدا ، منهم تانكريد بن ولیم مارشسوس ، وريشارد البرنسيباتي بن وليم ذي الذراع الحديدية أخو روبرت جيسكارد ، وأخوه رينولف ، وروبرت انزى ، وهيرمان دى كانى ، وروبرت دي سورديفال ، وروبرت بن تستان ، وهمفرى ابن رالف ، وريتشاردر ابن كونت ريـنولف ، وكونت ريرونولو مع اخـوته ، وكذلك بويللودى شارترز ، والبيريد دى كانـــانو ، وهمفرى من مونت سكاليوزو .

انخرط هؤلاء جميعـا تحت راية بوهيموند ، حتى اذا بلغوا « كاسوريا » احتفلوا بعيد ميلاد المسيح .

لم نكن المدينه نعقد فى هذا المكان أسواقا لمن يمر بالناحيه من الناس ، ومن ثم اضطر [اللاتين] للاستيلاء قسرا على قطعان الماشيه والدواب ، ونهب كل ما يحتاجونه للعيش مما أدى الى خساره الأهالى الذين نظروا اليهم نظرتهم للأعداء ·

ثم أخذ [اللاتين] بعد ذلك فى متابعه زحفهم من عند الناحيه حتى بلغوا منطقـــه شديدة الخصب والنمـــاء ، وتعرف باســـم « بلا جونيا » فضربوا معسكرهم بها ، وهنا وافتهم الأخبـــار أنه يوجد على مقربه منهم مدينة حصينة يسكنها الهراطقة . فأوسعوا خطاهم نحوها ما وسعتهم السرعة واستولوا عليها بالسلاح . وأضرموا النـــار فى دفاعها ، وراح ما بها من ناس هنالك بالسيف أو صريع ألسنه النار ، ثم عادوا منها محملين بالغنائم الضخمه والأسلاب الوفـــيره ·

ولما سمع الامبراطور أن كتائب بوهيموند تابع زحفها . أوعز سرا الى مقدمى جنوده الذين كان قد أرسلهم فى مسالك ذلك المكان أن يظلوا سائرين مع جميع قوات تلك الناحيه الى جانب القوات المسيحية حتى يصلوا الى نهر الوردار ، على أن يغتنموا الفرصه ان لاحت لهم ليلا أو نهارا للاغارة على طليعة الجيش ، سرا أو جهرا ، وذلك لما نمى الى علمه من أعمال القتل التى جرت عند مجيء القائد بوهيموند ، وكان الامبراطور قد ذاق منه ومن أبيه روبرت جسكارد الأهوال الجمة فى سالف الأيام ، لكنه استطاع بفضل ما طبع عليه من الدهاء والمكر - أن يوفق غاية التوفيق فى ستر أغراضه واخفاء أهدافه . بارساله طائفة من كبار من حوله الى هذا الرجل العظيم [بوهيموند] ألقى اليهم أن يكلموه بلين الكلام وأرقه ، وأن يصطنعوا معه من الأسلوب المطمئن ما يخفى غرضه ، وأن يستعملوا كلمـــات تبث فى نفسه الطمأنينة ، لكنها تخفى وراءها الغدر الذى لا مناص

منه ، كما أمرهم أن يبدلوا قصارى جهدهم لخديعته . وكانت لهجة الرسالة المكتوبة اليه وكذلك الكلمات التى فاه بها الرسل كالآتى

- ١٤ -

« قد علم جلالتنا — رعانا الله — بما لا يدع مجالا للشك أنك أمير جليل القدر ، قوى الشكيمة ، رفيع المكانة ، كما أنه يعلم أنك ابن أمير مبجل نوى لم يعرف الكلل اليه سبيلا ، وقد أنزلناك منا منزلة الحب ، وحبوناك من اقبالنا ما أنت أهل له . وان كنا لم نرك وجها لوجه حتى الآن .

★★★

« وقد علمنــا أن طاعتك للرب حملتك عــلى أن تهب نفسك لخدمته ، وأن تشارك بقية الأمراء المخلصين فى القيام برحلة الحج . وان هدفنا هو أن نزيدك منا حبا ، وننزلك منزلة الود من نفسنا لذا (فانا نلتمس منك) أيها الصديق الحبيب أن توعز الى أتباعك بكف أيديهم ومنع أذاهم عن رعايانا ، وألا يرتكبوا عملا من أعمال العنف أو النهب أو اضرام الحرائق ، ونسألك أن تبادر ما وسعك البدار للمجيء الى حضرتنــا لا تخــاف شيئا ما ، عساك أن تنعم بآلاف السرف ، وتحظى بالنعم التى نعتزم اغداقها عليك ، ولقــد أصدرنا أمرنا الى حامل هذه الهدايا على تهيئة كل ما هو لازم لجيشك، بثمن لا فصال فيه ، حتى تظل امداداتكم بأسباب العيش موصولة على الدوام » .

وعلى الرغم مما يوحي به ظاهر كلمات الامبراطور هذه من الود الكبير ، الا أنها كانت تخفي وراءها السم ، غير أن بوهيموند - وهو الرجل الفطن اللماح ، المدرك تمام الادراك ما تنطوي عليه نفس الامبراطور من الشر - كتم مشاعره ، وأخذ حذره الشديد ، وأزجى الى الملك آيات الشكر على ما أبداه من العطف والاهتمام بسلامته ، وتبع الدوق هؤلاء المرشدين ، حتى اذا بلغوا نهر الوردار وجدوا قسما من عسكرنا قد عبروا النهر حالا ووقفوا على شاطئه الآخر ، بينما كان هناك غيرهم يتأهبون لعبوره ، فظن أتباع الامبراطور الذين كانوا يقتفون أثر معظم جيشنا ان قد لاحت الفرصة لهم ، فكروا في وحشية ضارية ، وروح عدوانية كريهة ، على هذا الرهط من الناس الذين كانوا على وشك العبور .

فلما اتضح المكر السيء لتانكريد - وكان مستعدا للدوام للعمل - هب كأنه البرق الخاطف الى تلك الناحية ، مستصحبا معه ما يقرب من ألفي فارس وعبروا النهر المزبد سباحة الى شاطئه الآخر الذي لم يكادوا يصلونه حتى وثبوا على العدو بسيوفهم ، فمزقوا صفوفه وأرغموه على الفرار ، ثم مضوا يتعقبونه بعض الوقت وفتكوا بالكثيرين من رجاله ، كما أسروا البعض منهم وجاءوا بهم الى بوهيموند الذي أمطرهم بأسئلته ، مستفسرا منهم عما وراء مطاردتهم جيشا مسيحيا مثلهم واقتفاء أثره ، فقالوا له انهم رجال الامبراطور ومرتزقته ، وأنه لابد لهم من الانصياع لأمره ، وقال من أوصاهم بقتالهم ..

وحينذاك اتضح للجميع بما لا يدع مجالا للشك والريبة زيف كل ما قاله الامبراطور لهم وانه قول لحمته الخديعة ، وسداه الرياء .

غير أن بوهيموند لما كان يعلم أنه موشك على الرحيل ، وانه في حاجة لاستعمال كل ما يقدمه له الامبراطور من وسائل السفر ،

فقد تصــــدى للوقوف فى وجه ارادة بقية رجاله ، ورأى أن يكتم أحاسيسه ، حتى لا يثير حنق ألكسيوس من غير فائدة يجنيها ٠

- ١٥ -

بعد أن احتاز الجيش مقدونيا وولاية الليريا كلها ، راح يحث الخطى وهو تحت قيادة جودفروى الحكيمة حتى دنى من المدينة ، فوقف قربها ، وكان ذلك قبل عيد الميلاد بخمسة أيام ، وهنا جاءت سفارة ثانية من الامبراطور الذى أرســل يرجو من بوهيموند فى الحاح أن يحلف وراءه قوانه ، ويمضى لزيارته فى حرس قليل ، فتردد بوهيموند فترة قصيرة وأجل تنفيذ هذه الأوامر بعض الوقت، لانه كان يشك فى نوايا الامبراطور ويدرك ما يضمره من الشر ، وبينما كان يبحث فيما ينبغى عليه اتخـاذه ، اذا بالدوق العظيـم جودفروى يقبل فى أبهة عظيمة ، تحوطه كوكبة سرف من النبلاء ، وقد وفد على بوهيموند ـ استجابة لتوسلات الإمبراطور الملحة عليه ـ فى محاولة منه لحمله على زيارة جلالته الامبراطورية دون خوف أو وجل ، فعانق كل منهما الآخـر ، وتبـادلا قبلات الحب ، ودارت بينهما الأحاديث اللطيفة وراح كل منهما يسأل الآخر عن أحواله ، فلما فرغا من ذلك أشار الدوق جودفروى ـ بناء على ما لديه من المعلومات ـ على بوهيموند ـ بزيارة الامبراطور ، ولكن الآخر أظهر فى بداية الأمر اصراره الشديد على رفض هذا العرض ، غير عابىء بنصيحة الدق ، لعـدم ايمـانه بصدق ما يقوله الامبراطور كمـا ذكرنا ، بيد أنه رضخ فى النهاية لرجاء جودفروى ، ومضى مطمئنا فى حراسة الدوق الى القصر ، فلما بلغه تلقــاه الامبراطور بقبلة

السلام ، وأحاطه بكل ضروب العطف ، وبعد حوار أخوى طويل أصبح بوهيموند « رجل الامبراطور » كما يقول المثل وأعلن تبعيته له ، وأقسم يمين الولاء له حرفيا على عادة الافصال لساداتهم اللوردات الاقطاعيين .

فلما فرغ من قسمه انهالت عليه الهدايا الغالية التى لا تقدر بثمن ، والتى جيء له بها من الخزانة الملوكية ، حسب قدموا اليه الذهب والثياب والمرصعات والأحجار الكريمة . وبذلك انعقد السلام بين الاثنين .

★☆☆

أما تانكريد — ابن أخت بوهيموند — وكان رجلا يسير كل ما فيه الى عظمته — فقد كان حريصا كل الحرص على ألا يذهب الى الامبراطور حتى لا يتحدث اليه ، وبينما كان خاله [بوهيموند] لا يزال فى البلاط الامبراطورى انتقل هو بكل عسكره الى بثينيا فى اقليم خلقدونيه الواقعة على لجانب الآخر من البسفور ، وضرب خايمه قرب جيش الدوق [جودفروى] الذى كان قد عبر البحر منذ قليل وأصبح الآن فى انتظار الجيوش الأخرى .

ولما علم الامبراطور [ألكسيوس] بتجنب تانكريد المجيء الى حضرته اشتد غضبه منه ، الا أنه تمسك بالعقل وكظم غيظه ، وراح يغدق — بين آونة وأخرى — الهدايا على الأمراء الذين يزورونه ، فاذا ما صدروا عنه الى معسكراتهم فيما وراء البسفور — وصلهم بآيات التشريف .

وأقام الجنسان هنا فى وئام واستقرا فى انسجام على مقربة

من المدينه فى انتظار وصول الجيـوش الأخرى ، ثم انضم الجميع بعضهم الى بعض فى جيش واحد فى السير الى الحج الذى اعتزموه ٠

ولقد أمدت المدينة الملوكية والمنطقة التى حولها أهل المعسكر بكميات كبيرة من الطعام ، حتى أصبح الجميع قادرين على التمتع بالوفرة منه حسبما يشاءون ٠

- ١٦ -

فى هذه الأثناء ، وعنـد اقتراب دخول فصل الشـتاء ، شرع روبرت كونت فلاندرز العظيم فى الابحار من « بارى » احدى مدن أبوليا الساحلية ، وأرسى بعد ابحاره بجميع جيشه فى « دورارو » وتحاشى زمهرير الشتاء بنزوله وسط الغابات والمراعى وفى منطقة خصبة تزخر بشتى متطلبـات الحياة ، فأقام بها ، حتى اذا دنى فصل الربيع تابع رحلته وهو أنشط ما يكون لينضم الى القـادة الآخرين الذين سبقوه فعبروا البحر ٠

وأنفذ الامبراطور ـ كما فعل مع القادة الآخرين ـ رسلا من جهته الى كونت فلاندرز قبل وصوله القسطنطينية ، يشيرون عليه بترك قواته خلفه ، ومتابعة رحلته مع ثلة من رفاقه ، للمثول بالحضرة الامبراطورية ، وأوقفه هؤلاء الرسل على كل صغيرة وكبيرة مما فعل سابقوه فى هـذا الموضـــوع مع الامبراطـور ، فلما بلغ الكونت القسطنطينية مضى الى القصر فى شرذمة ضئيلة من حاشيته ، فتلقاه الامبراطور بكل مظاهر الاجلال ، وعامله أطيب معاملة ، فلم يكن من [الكونت] الا أن نهج نهج الآخرين فقطع على نفسه يمين الولاء الذى

طلبه منه الامبراطور ، واذ ذاك انهال عليه من مظاهر التكريم والهدايا أكثر مما انهال على السابقين ، وكان حظ رفاقه مثل هذا الحظ من الكرم ، وان نال كل منه حسب مرتبته ٠

وصدر الاذن لجبس كونت فلاندرز بالبقاء عدة أيام قرب المدينة منعما بأطيب الطعام ومستجما ، وقد أكثر الكونت في هذه الأيام من اجتماعاته مع الامبراطور لبحث المواضيع التي تهمه ضرورية ، فلما فرغ منها استأذنه في الرحيل بعسكره فأذن له ، فأبحر للانضمام الى اخوانه الحجاج الذين استقبلوه بالحب العظيم ، وانضم الجيشان بعضهما الى بعض ٠

أقام القادة بضعة أيام يقص الواحد منهم على الآخر الاحداث المختلفة التي جرت له في رحلته ، وقد سادتهم روح البهجة ، حتى اذا فرغوا من استعراضهم للصعوبات التي مرت بهم انتهوا أخيرا الى مناقشة المسائل الخطيرة ، وكان من الضروري بعد أن عقد كل منهم محادثات دقيقة مع الآخر أن يقرروا متى وكيف تكون انجاز المشروع الذي أقدموا على النهوض به ، وبينما كانوا منهمكين في لوم رفاقهم الذين تأخروا في المجيء وتحميلهم مسئولية انصرام الوقت بلا طائل اذا برسول يصلهم من كونت تولوز وأسقف بوي ينبؤهم بانهما على مقربة منهم ، وأنهما سرعان ما سيدخلان المدينة ٠

- ١٧ -

تلازم هذان الرحالان العظيمان منذ مستهل السير ، وظلا جنبا الى جنب بجيوشهما ، فكانا رفيقي رحلة لم ينفصل أحدهما فيها عن الآخر ، وكان في ركابهما رجال بارزون من علية القوم خلقا ومكانة ،

منهم : ولبم أسقف أورنج ، ورينبولد كوب نفس المدينة [أورنج] وجاســـون دى بيرييه ، وجيرار دى روســـيلون ، ووليم كونب مونتبلييه ، ووليم كوب فورير ، وريمـــوند بيليه ، وجاســون دى بيارن ، ووليم أمانجـــو وكثيرون غـــيرهم ممن لم تع الداكرة أسماءهم ، الا انهم سيظلون من غير شك أحياء فى ذاكرة الزمان ، ذلك لانهم آثروا الفقر عن رضـــا وطيب خاطر ، فهجروا ، مهبط رؤوس آبائهم وفارقوا أحبـــابهم وأقاربهم ، وتخـلوا عن أملاكهم الفسيحة التى ورثوها عن أسلافهم من أجل اقتفاء خطى المسيح ٠

وصدقت النية من هؤلاء الناس جميعا فأخلصوا فى خروجهم واتباعهم من ذكرنا من الرجال الموقرين ، وشدوا رحالهم الى ايطاليا ، واجتازوا لمبارديا ، حتى اذا خلفوا وراءهم الاقليم المسمى«فورم جيلى»

دخلوا استريا القريبة من « أكويليا » فأفضى بهم السير فى النهاية الى أرض « دلماشيا » الواقعة على امتداد الطريق الواصل بين المجر وبحر أدرياتيك ، والتى توجد بها أربع مدن كبرى هى « زارا » و « سالونا » (المسماة أيضا بسبالتو) و « أنتيفارى » و « راجوزة » التى يسكنها قوم قد أوغلوا فى الهمجيـــة ، وبلغوا من الوحشية أقصاها ، فهم يعيشون على السلب والنهب والقتل ٠

وأرضهم مكسوة كلهـــا بالغابات ، وتشقها الأنهار الكبيرة ، وتحفل بالمراعى الفسيحة ، ومن ثم تقل بها الحقول الا ما تناثر منها هنا وهناك ٠

ويعتمد الأهالى فى معاشهم اعتمادا تاما على الماشية والأغنـــام باستثناء جماعات قليلة جدا تقيم على ساحل البحر ، وتختلف اختلافا بينا عن بقية القوم فى العادات واللغة ، فلسان هذه الجماعة هو اللاتينى ، على حين يتكلم بقية الأهالى اللغة السلافية ، وسلوكهم هو سلوك المتبربرين ٠

ولما دخل الكونت وأسقف بوى ورجالهما هذه الولاية صادفهم كثير من الصعاب على طول الطريق لا سيما بسبب طبيعة الاقليم الوعرة ، واضراب فصل الشتاء ، كما ظلوا بضعة أيام يكابدون وطأة المجاعة لقلة ما عندهم من الطعام والمئونه ·

ولما طالع الأهالى وجوه قوما فزعوا فزعا شديدا ، حملهم على ترك مدنهم والتخلى عن أماكنهم الحصينة ، وفروا فرارهم من وحوش كاسره ، واعتصموا بالتلال والأدغال مستصحبين معهم نساءهم وأطفالهم ومتاعهم وان ظلوا يتابعون فى خلسه — وعلى بعد — آثار جيشنا الزاحف ، ويفتكون بمن ترميه الأقدار فى أيديهم من المرضى والمسنين والعجائز من النساء ، ممن لم تسعفهم قواهم وخطاهم البطيئة بملازمة بقية القوم ، فانفصلوا عنهم ·

ولما كان الكونت يشعر بالمسئوليه الملقاة على عاتقه عن هذا الحشد الكثيف ، فقد ولى قيادة الطليعة الزاحفه أمامه جماعة من الزعماء · وأما هو فقد وقف فى المؤخرة على رأس الجانب الأكبر من الفرسان ، كما أنه هو ذاته كان آخر العائدين الى معسكره ·

★★★

كان الجو مليئا بالضباب الكثيف ، والظلام شديدا كأنه قطع متصل بعضها ببعض حتى ليكاد المرء يحسها ، ومن ثم فقد كان من الصعب جدا على السائر فى الخلف أن يتبين الذين أمامه ، على حين أن طليعة الجيش كانت لا ترى قدامها أكثر من رمية حجر ، هذا الى جانب ما ذكرناه من أن الاقليم زاخر بالأنهار والقنوات المائية ، وتكثر فيها المستنقعات التى تعمل على زيادة الرطوبة والضباب الكثيف لحظة بعد أخرى ، حتى كاد الهواء أن يخنق الأنفاس ·

يضاف الى ذلك أن المواطنين الدلماشيين والسلاف كانوا على

دراية تامة بالاقليم ، فراحوا يتابعون الجيش وهم على القمم الشاهقة وفى الغابات الكثيفة ، وكثيرا ما كانوا يبرزون فجأة من الغابات لمهاجمة الحجاج العزل من السلاح .

غير أن الكونت ومن معه من القادة طالما قاموا أيضا من جانبهم يردون على هجماتهم عليهم بمثلها ، فقصت حرابهم وسيوفهم على الكثيرين منهم ، وكان فى امكانهم أن يفحشوا القتل فيهم أكثر مما فعلوا لولا فرار هؤلاء الدلماسيين الى الأحراج القريبة منهم ، متخذين منها ملجأ أمينا لهم ، وحدث فى يوم من الأيام أن وقع بعض هؤلاء الأشرار فى يد الجيش فأمر الكونت بقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، عسى أن يكون فى هذا العقاب زجر لغيرهم ، فيكفون - جزعا - عن متابعة الجيش وملاحقته .

ظل الحجاج ثلاثة أسابيع متتالية يعبرون هذا الجزء من الاقليم وهم فى كرب وضيق ، حتى انتهوا أخيرا الى موضع يقال له « سكوتارى » وجدوا به ملك السلاف ، ولما كان الكونت رجلا رحيما رضى الخلق فقد سخى فى تقديم الهدايا الى ملك السلاف راجيا أن يؤدى هذا الكرم من جانبه الى توثيق روابط الصداقة بين الجانبين ، وحتى يضمن لمن معه مودة الأهالى عساهم يعقدون لهم سوقا يشترون منها ما يحتاجونه من بضاعة .

لكن الكونت لم يستطع - حتى بهذا السلوك - أن يهدىء من وحشية هؤلاء القوم ، أو يخفف من فظاظتهم ، بل الواقع أنهم ازدادوا شراسة عما كانوا عليه من قبل .

لكن تسنى للجيش أن يصل فى النهاية الى دورازو بعد مسيرة أربعين يوما داخل أرض دلماشيا كابد فيها كل الصعاب .

حاصرت المخاوف الكثيرة الامبراطور من مقدم الكونت ، لما كان عليه هذا الأمير من الفطنة والعقل ، الى جانب ما كان تحت قيادته من جيش بالغ الضخامة ، وكان الامبراطور قد أرسل منذ أمد طويل قبل وصول الصلبيين الى هذا المكان سفارة من كبار رجالاته لمقابلة الكونت فى دورازو ، وعهد اليهم أن ينقلوا اليه تحياته الرقيقة النابضة بالود ، فامتثلوا لأوامر مولاهم وذهبوا الى الكونت وخاطبوه بألفاظ سداها الرقة ولحمتها المداهنة ، وقدموا اليه رسالة الامبراطور التى تضمنت الآتى :

« أيها الكونت العزيز ، لقد طبق الخافقين منذ أمد بعيد كثير من أخبار فطنتك ، وما اشتهرت به من حسن الأحدوثة شهرة ذاعت شرقا وغربا حتى بلغت بلاطنا ، مما حملنا على حبك ، ومن أجل هذا الحب ، ورغبة منا فى اظهار مودتنا ، فاننا ندعوك الينا لنؤكد لك — بسبب فضائلك — وعلى رءوس الأشهاد — تقديرنا الشخصى لما أنت عليه من الفضل ، ونحن نتطلع فى لهفة الى قدومك علينا ، واننا نريد أن نناقش مع عظمتك — وأنت العزيز الغالى عند امبراطوريتنا — كثيرا من المسائل المتعلقة بالأمور العامة ، ونرجوك رجاء حارا أن يكون سيرك عبر بلادنا من غير شغب ولا ازعاج ، وأن تبادر بالمجىء الينا معتمدا على محبتنا ، ولتكن واثقا مما عزمنا عليه من اغداقنا عليك آيات الشرف ، كما أصدرنا تعليمات الى حاملى هذه الهدايا أن يهيئوا موضعا تبتاعون فيه ما تحتاجونه ، وأن يظل التعامل التجارى بين قومنا وقومكم موصولا ، تحت شروط ملائمة كل الملاءمة » .

حين تسلم الكونت هذا الخطاب انشرح صدره وصدور عسكره انشراحا كبيرا ، فقرروا متابعة السير ، فساروا أياما كثيرة

واسوا حلالها المنساق فى اجتيازهم الأحراج والجبال ، حتى اذا جاوزوا بلاد ابيروس كلها نزلوا فى الاقليم المسمى ببلاحوسا ، ناصبين معسكرهم به لكثرة ما يزخر به مما تهواه النفس ٠

وأما أسقف بوى الذى عاش حياته عفيفا طاهر الذيل فقد انتقى من دون الجند مكانا قصيا ايثارا منه لراحته ، ونصب هناك معسكره ، لكن ما لبث البلغار أن هاجموه وأخذوه أسيرا ، غير أنه لما كان شعب الرب لا يزال فى مسيس الحاجة الى قسيس عظيم كهذا القسيس فقد أبت رحمة الرب الا أن تداركه ، فأبقت على حياته ، وما كان ذلك الابقاء الا عن طريق الصدفة البحتة وحدها ، اذ طلب منه أحد اللصوص أن يسلمه ما معه من الذهب ليبسط عليه فضل حمايته ، فلا يناله أحد بضر ، فأعطاه ما طلبه ، فأغضب هذا بقية اللصوص ، فثارت بينهم فتنة تعالى ضجيجها حتى سمعها عسكرنا ، فهبوا جميعا الى سلاحهم ، وكروا على المفسدين وأنقذوا الأسقف المبجل ومن معه من بين أيديهم ٠

★★★

تابع العسكر بعد ذلك مسيرتهم ثانية فعبروا سالونيكا وكل بلاد مقدونيا ، وظلوا يتابعون زحفهم المضنى عدة أيام حتى بلغوا مدينة « رودستو » البحرية المطلة على البسفور ، والتى تبعد عن القسطنطينية مسيرة أربعة أيام ، وهنا جاء الى الكونت وفد آخر من جهة الامبراطور ، كما وفد عليه رسل من القادة [اللاتين] الذين قدموا قبله يمحضونه النصح ، ويلحون عليه أن يأذن لجيشه بالسير ولكن فى بطء ، أما هو ففعليه أن يبادر بالخروج فى شرذمة ضئيلة من حرسه للذهاب الى الامبراطور ، حتى اذا فرغ من أمره معه يكون جيشه قد بلغ [القسطنطينية] ، واذ ذاك يستطيع ملاحقة الآخرين

بأسرع ما يمكن ، دون أى اعاقة للجيس الذى كان راعبا فى سرعة الزحف ٠

وكان الكونت قد أرسل [الى القادة] من تلقاء نفسه جماعة من عنده . فلما عادوا اليه شجعوه على اتخاذ نفس الخطوة ٠

- ١٩ -

تلاشى أخيرا تردد الكونت أمام الالحاح المستمر من جانب مندوبى كل من الرسل الامبراطوريين والقادة [اللاتين] الذين التمسوا هم أيضا منه أن يسرع الى قصر الامبراطور ، فاستجاب لهم جميعا . وترك جيشه تحت الحماية الدقيقة من جانب الأساقفة وغيرهم من الأشراف الذين كانوا فى المعسكر ، ومضى هو ملبيا الدعوات المتكررة اليه ، ودخل القسطنطينية فى رهط قليل من حاشيته ، وفى حراسة مندوبى الامبراطورية ، فلما مثل أمام الامبراطور بالغ الامبراطور ووجوه رجاله فى الترحاب به واظهار التقدير العظيم له ، لكن ما كادت تنتهى كرمات الثناء التى قيلت لاستمالته وخديعته ، والتى تضمنت الالحاح الشديد عليه لقطع يمين الولاء للامبراطور بالطريقة التى اتبعها القادة الآخرون الذين سبقوه ، أقول ما كادت هذه الكلمات المعسولة تنتهى حتى رفض الكونت قطع اليمين رفضا باتا ٠

بينما كانت هذه الأحداث تجرى فى القسطنطينية اذا بالامبراطور قد استبد به الحنق لرفض الكونت اعلان تبعيته له كما فعل الآخرون ، وحينذاك أسر الى قادة جنده الموجودين فى تلك النواحى

بمباغتة فواب الكونت وأخذها على عره ، وأمرهم آلا يدخروا وسعا في ازعاجهم ، حتى ولو أدى بهم الأمر الى اغتيالهم ، وقد شجعه على ركوب هذا المركب وسلوك هذا السبيل التزام القادة الآخرين بيمين الولاء التي قطعوها له ، كما أغراه على ذلك أيضا أن جيوشهم كلها كانت قد عبرت البحر ولم يعد من اليسير رجوعها ، كذلك صدر الأمر الى جميع السفن المتجهة لنقل التجاره أو الناس بحرا بعدم مغادره الساطيء الآخر ، وبذلك نصبح كل فكره للرجوع ضربا من العبث لانعدام وسائل النقل ، وكان الامبراطور قد نجح بكلماته المعسولة الخادعة ، وما اصطنعه من اغراءات كبيرة في حمل الجيوش على العبور فردا بعد فرد حتى لا يتجمعوا كلهم في المدينة في وقت واحد . وكان الداعي له الى ذلك الأمر هو خوفه ـ كما سرحنا ـ من أن يجيء هؤلاء العسكر فيكون في تجمعهم كلهم خطر ما بعده من خطر عليه . كما أن سخاء القادة لم يكن عن كرم أو حسن قصد ، بل كان سياسة خبيثة تنطوي على المكر وهي وليدة اليأس ، ومع ذلك فقد أقدم زعماؤنا على تلبية ما طلبه الامبراطور منهم لتقتهم فيه وتصديقهم لما يقوله ، وكان من أصعب الأمور اقناعهم بسوء طوية الاغريق ، ولؤم نية الامبراطور وخداعه وختله الذي لا ينقضي ، لا سيما منذ أن بالغ في السخاء عليهم واكرامهم وتظاهره نحوهم بأقصى مظاهر حسن النية ٠

- ٢٠ -

راح الضباط الذين تلقوا أوامر الامبراطور ـ وهم من أمراء الخمسمائة وكذلك الموكل اليهم قيادة القوات الحربية ـ ينفذون توجيهاته ، فقاموا سرا ـ والليل يلف الدنيا بظلامه ـ بمهاجمة

عسكر الكونت الذين لم يكونوا يتوقعون قط أى خطر يأتيهم من هذه الناحية ، فتراخى حراسهم ، وغفلت عيونهم ، فأخذهم الاغريق على غرة منهم ، وفتكوا بالكثيرين منهم فتكا ذريعا ، وذلك لأن المباغتة أدت الى عدم اتاحة الفرصة لهم لانتضاء سيوفهم ، فجرت فيهم مذبحة محزنة ، وفر من نجى فرارا مشينا لكنهم ما لبثوا أن رجعوا على أعقابهم حين تبصروا حالهم ، واستردوا شجاعتهم وعاودتهم بطولتهم، فأنزلوا كثيرا من الخسائر بتلك العصابات الحربية من مرتزقة الامبراطور ، ولقد أبدى الصليبيون مقاومة عبقرية آخذين بعين الاعتبار ظروف الزمان والمكان ، غير أن اليأس بدأ يتسرب الى نفوسهم بسبب مشقة الطريق وما يلقونه كل يوم تقريبا من أخطار لا تنتهى، تأتيهم على غير انتظار منهم ، فراحوا يستسلمون للبأس ، وطالما لاموا أنفسهم على ذلك ، وأخذت حماستهم تفتر كل يوم عن الذى قبله بسبب الارهاق الذى نال منهم كل منال ، ومن جراء المصاعب الشاقة التى واجهتهم ، وندم الكثيرون منهم على المغامرة التى أقدموا عليها ندما جاوز الكثيرين من العامة الى طائفة كبيرة من أبرز رجالهم الذين يشأونهم مكانة ، والواقع أن الريبة ساورتهم فى قدرتهم على انحاز حججهم ، فنسوا ما قطعوه على أنفسهم من عهود ، وما أقسموه من أيمان ، وراحوا يعدون العدة للعودة من حيث جاءوا ، ولولا أن أخذتهم تحذيرات الأساقفة ورجال الدين من كل جانب ونصائحهم اليهم وحثهم اياهم على الوفاء بما فى أعناقهم من يمين فهجروا الجيش وحاولوا الرجوع الى ديارهم ، غير مبالين بالخطب الذى يترتب على ذلك .

ولما سمع الكونت هذا النبأ عصر الحزن قلبه واستبد به الألم وبكى وأعلن أن قد غرر به ، ثم أرسل رهطا من أشرافه المخلصين الى الامبراطور يقولون له على لسانه انه خائن ، لأنه خرج على جميع مقتضيات اللياقة والذوق اذ أمر رجاله بمحاربة جيش الكونت

ريموند في الوقت الذى ذهب فيه ريموند الى الامبراطور استجابه للكتب العـــديدة التى جاءته من القـــادة ، ونزولا على التماساتهم الكثيرة منه ٠

كذلك لام الكونت القـــادة لمداومتهم الالحاح عليه بالمضى الى الامبراطور حتى ترك جيشه وشخص الى القسطنطينية ، وأعلمهم ريموند بالمصائب التى ألمت بكتائبه وبخيانة الامبراطور لها ، ثم طالبهم ـ كأخوة له ـ أن يثأروا لهذه الفعال الشائنة ٠

★★★

لو ان قوة الكونت كانت مكافئة لرغبته الصادقة فى الانتقام لرجاله لما كان لتهديدات الآخرين ، ولا لتدخل سواهم من القادة قدرة على ثنيه عما اعتزمه ، فقد اشتهر عنه انه كان رجلا صلب الارادة ، قوى الشكيمة ولا ينثنيه ثان عما أجمع العزم عليه ، كما أنه لا ينسى الاساءة أبدا ٠

وحين عرف الامبراطور المدى البعيد الذى ذهب اليه ندم على ما بدر منه ، ورأى أن يبعث فى استدعاء القـــادة الذين لا زالوا بجيوشهم على الشواطىء الأخرى طالبا اليهم المثول فى حضرته ، طمعا منه فى أن يؤدى تدخل هؤلاء القادة ـ وهم الدوق وبوهيموند وكونت فلاندرز ـ الى استرضاء ريموند ، فاستجابوا كلهم لدعوته، وعلى الرغم من شدة حنقهم جميعا على ما قد جرى الا أنهم رأوا عدم ملاءمة الزمان ولا المكان لطلب الثأر ، ومن ثم انفردوا بالكونت رجاء أن يحملوه على ألا يصرح بالأخطاء التى يشعرون أنها قد حاقت به وبهم أيضا ، مبينين له أن اندفاعه فى طريق الانتقام قد يؤدى الى ضياع جهد أيام طويلة ، والى عرقلة زحف أولئك الذين يرغبون فى السير فى طريق السيد ، فاستجاب الكونت لحججهم هذه ، ورضخ

لتدخلهم الرحم ، وكبت مساعره المريرة واحساسه بالألم ، وخضع لنصيحة القادة ، ووافق على ما رتبوه ، وحينذاك ذهبوا جميعا الى الامبراطور بنفوس راضية وان عبروا بالاجماع عما يشعرون به من السخط على ما جرى ، فلما أدرك الامبراطور ما هم عليه من الاستياء ، وقد وحدهم جميعا شعور جماعى متين ربط بينهم جميعا لم يجد بدا من التنازل والاعتذار للكونت أمامه وفى حضور بطانته ومن لا يمت اليهم بصلة . وزاد فأقسم بأنه لم يعلم بما قالوه من خبر الاهانة التى لحقت الكونت ، وأن شيئا من ذلك لم يصدر عن أمره . وقال انه على الرغم من ذلك فانه راغب في استرضاء الكونت ليؤكد له براءته .

هكذا كانت تتكشف للعيان – يوما بعد يوم – خدع الاغريق وخيانة الامبراطور ، ولم يعد هناك أحد من الزعماء لم يتضح له وضوح الشمس في وسط النهار ان نفس الكسيوس تنطوى على كراهية سوداء لشعبنا واحتقاره اياه ، ومع ذلك فلما كان تحقيق هدف الحجاج يدفعهم الى أمور أخرى . ولما كانوا هم أنفسهم تواقين لانجاز مهمتهم على الوجه الذى يرضاه الرب ، فقد رأوا أن التجاوز عما لحقهم من الأهوال أعظم من انصرافهم عن هذا المشروع المقدس الذى جاءوا من أجله .

- ٢١ -

انصاع الكونت لنصيحة القادة فصافى مع الامبراطور ، وأقسم له يمين الولاء على الصورة التى أقسمها الآخرون ، فأصبح الامبراطور منذئذ يحبوه بعطفه الشامل ، ويسخو عليه بالهدايا

الثمينة التي لا يحصيها العد ، والتي تبلغ قيمتها قدرا لا يدركه التصور ، كما مضى يصــــل الزعماء الآخرين بالمزيد من العطايا ، واذ ذاك استأذنوه في الرحيــل فأذن لهم ، والتمســوا من الكونت — على وجه الخصوص — ألا يبطيء في اللحاق بهم ، بل عليه أن يجيء اليهم على جناح السرعة ، واذ ذاك انطلقوا عابرين المسعور ، وانتصبوا الى كنائسهم الموجوده في بيثينيا ٠

أما عسكر الكونت [ريموند] فكانوا قد بلغوا القسطنطينية حينذاك ، فأمرهم الكونت بركوب البحر في ساعتهم هذه فاستجابوا لأمره . وانضموا الى الجيوش التي سبقتهم وان تخلف ريموند عنهم للنظر في ترتيب أموره الخاصة ، وتصريفها تصريفا لم يخل بنيته — وهو الرجل الفطن — وبين الاهتمام بالصالح العام ، اذ فعل ما فعله القادة الآخرون من قبله حين راح يرجو الامبراطور رجاء الملح أن يصحب القوم في زحفهم . على أن تكون له قيادة جيش المسيح ، ويكون حينذاك صاحب الأمر فيه ٠

وعلى الرغم من أن جميع قادتنا — لا سيما كونت تولوز — طالما التمسوا منه مرة بعد أخرى أن يتفضل بمرافقتهم كقائد لجيش المسيح ، وأن يأخذ القيادة العليا بيده ، الا أنه ظل يتنصل متحللا المعاذير ، بحجة أنه محاط بأعـــداء همجيين كالبلغــــار والكومان والبشـــناق الذين لا يكفون عن الحــركة على حــدود الامبراطورية لاغتنام الفرصــــة لشن هجمــاتهم الفجائية ، وتهديد سلم الدولة وأمانها ، وبين لهم أنه رغم رغبته الشديدة في المساهمة معهم في الحج العظيم . ومشاركتهم في النصر المقبل الا أنه لا يستطيع أن يتنحى عن المسئولية الملقاة على عاتقه بمملكته ، والا أتاح الفرصـــة للعدو المحدق بها لينزل الضر بها ٠

لكن كان جميع ما صرح به افكا وكل ما قاله بهتانا حشوه الخديعة ٠

وكانت غيرته من رجالنا هى التى دعته الى هذا الادعاء ، لانه كان يلتمس أى ذريعة تمكنه من كف مساعدته من شعبنا واعاقة تقدمهم بأى وسيلة يستطيعها ٠

وكان القادة الذين عبروا البحر حالا ـ وأعنى بهم جودفروى وبوهيموند وروبرت كونت فلاندرز وأسـقف بوى ـ قد أعـدوا حوائجهم وصاروا على أهبة الاستعداد لمواصلة الحج مرة أخرى ، كما أزمعوا السير على مهل الى نيقية فى انتظار رفاقهم القادمين وراءهم ، ومن ثم ساروا يومهم كله قاصدين نيقوميديا ، التى هى أكبر مدن ولاية بثينيا ، واذ ذاك خف بطرس الناسك لمقابلة الكتائب المتقدمة وتحية الزعماء ٠

كان بطرس ـ تجنبا منه للجو القارس ـ قد أمضى الشتاء فى هذه الناحية مع الفئة القليلة الباقية ممن ظلوا على قيد الحياة . فانضم بهم الى زمر الحجاج الذين رحبوا به أجمل ترحيب ، ولما سألوه عما لقيه جيشه من الأهوال أسهب لهم فى تفصيل كل ما حاق بهم ، ولم يفته أن يصف لهم روح الفوضى والتمرد التى كان عليها هؤلاء العصاة الرعاع الذين خرجوا فى صحبته ، ونسب النكبة التى ألمت بهم الى سلوكهم الذاتى أكثر من نسبتها الى شىء سواه فشاركه القادة الحزن العميق فى مصيبته ، ثم وصلوه هو ومن معه بالهدايا الثمينة الجمة ٠

ازداد حينذاك عدد الجيش زيادة كبيرة بعون الرب ، وذلك لان الطوائف المختلفة اتحدت حتى صارت جماعة واحدة تابعت السير تحت قيادة حكيمة لبقة ، فبلغوا نيقية فى الوقت المحدد ، ونصبوا معسكرهم على شكل دائرة أحاطت بالمدينة ، وخصصوا أماكن معينة

للزعماء الذين لم يفدوا بعد ، حتى اذا كان اليوم الخامس عشر من شهر مايو [سنة ١٠٩٧] ضربوا الحصار على المدينة ٠

★★★

حين فرغ كونت تولوز من انجاز شئونه في القسطنطينية استأذن الامبراطور في الرحيل ، فسخا عليه ثانية سخاء بالغا ، ووصله بالهدايا اكراما له ، فسار بمن كان قد ظل معه من رجال جيشه ، مقتفين أثر عسكر اخوانهم ومسرعين في زحفهم ، وسرعان ما بلغوا المدينة المذكورة آنفا ٠

- ٢٢ -

في هذه الأثناء قام لورد روبرت ـ كونت نرمندى العظيم ـ وغيره من كبار النبلاء البارزين ممن كانوا في معيته ، ومنهم لورد ستيفن كونت شارترز وبلوا ، ولورد أسطاس أخو الدوق جودفروى، بايفاد الرسل من جانبهم الى الامبراطور والى اخوانهم ، يعلنون اليهم أنهم قادمون حالا ٠

وكان مع هؤلاء أيضا ستيفن كونت أومال ، وألان فيرجانت ، وكونون ، أحد سراة بريتاني ، وكذلك روترو كونت بيرش ، وروجر بارنفيل ٠

وكان جميع هؤلاء النبلاء مع كثير من غيرهم من الأبطال البارزين وفيهم كونت فلاندرز وهيج العظيم قد وصلوا العام المنصرم الى أبوليا مع دخول فصل الشتاء ٠

وكان الأخيران قد عبرا البحر الى دورازو ، أما بعضهم فقد كان خوفهم من برودة الجو القاسية حاملا اياهم على قضاء الشتاء في ربوع أبوليا اللطيفة ، وعلى حدود كلابريا [قلهورية] .

لكن ما كاد الربيع يطل حتى استدعوا أتباعهم الحجاج ، وجهزوا متاعهم للسفر ، ويمموا وجوههم شطر الساحل ، سالكين الطريق الذى سلكه الآخرون ، فأبحروا الى دورازو ، وأرسوا بها ، ثم تابعوا سفرهم منها على جناح السرعة لتعويض الوقت الذى قضوه في أبوليا ، وأعانهم الرب فاجتازوا الولايات الوسطى لا سيما « الليريكوم » ومقدونيا ومنطقتى ترافيا ، وكانت رحلة هادئة أبلغتهم القسطنطينية آمنين ، فاستدعاهم الامبراطور استدعاءه الزعماء الآخرين من قبل ، فلما دخلوا القصر تلقاهم جلالته وجميع من حوله من الرجال البارزين لقاء حارا مشرقا .

ثم أجرى الامبراطور محادثات طويلة مع الزعماء الثلاثة ، مجتمعين تارة ، ومع كل منهم على حدة تارة أخرى ، ملاحقا اياهم بكلماته الرقيقة ، ووعوده الجمة ، فقطعوا له على أنفسهم العهد الذى قطعه الآخرون له من قبل .

وكان هؤلاء القادة الآخرون قد أخبروهم ـ قبل ذهابهم الى الامبراطور ـ بكل ما ينبغى عليهم فعله فقالوا لأنفسهم ، لسنا أكبر من كبارنا الذين سبقونا » ، ومن ثم فانهم اقتداء منهم بهم نهجوا نهجهم وربطوا أنفسهم بالامبراطور وقطعوا له يمينا كاليمين التى قطعها له على أنفسهم من سبقوهم ، فكان الرد عليهم أن حظوا بعطف أكبر مما حظى به هؤلاء ، وأصبحوا جديرين بالحصول على مِنَح فاقت كل ما قدم من قبل ، فكثر المال بين أيديهم ، وجاءهم من الهدايا ما لم يروا له مثيلا من قبل ، من الذهب والملابس الثمينة والأوانى التى تشد الناظر اليها : مادة وصنعة ، وكذلك الثياب

الحريرية ، فأذهلهم سخاء الامبراطور الذى حاورب عطاياه فى طبيعتها وقدرها كل ما نتصوره نحن ، ثم انطلقوا محملين بهذه الهدايا الرائعة بعد استئذانهم الامبراطور فى الخروج حتى لا يكونوا سببا فى تأخير اخوانهم الحجاج ، وعبروا البسفور ، وأسرعوا بجموعهم الى نيقية حيث كانت بقية الجيش الصليبى لا تزال بها ، فتلقاهم الأمراء بالأحضان ، ثم نزلوا جميعهم راضين فى المكان الذى قسم لهم ·

- ٢٣ -

اتصل بمعسكرنا اغريقى اسمه « تاتيكيوس » كان موضع ثقة الامبراطور . وكان لئيم الطبع غدارا ، بدل أنفه الأفطس على ما انطوت عليه نفسه من الشر ، وكان زعماؤنا قد سألوا الامبراطور أن يمدهم بمرشد لتكون رحلتهم أكثر أمانا ، فصدر الأمر الامبراطورى بتعيين [تاتيكيوس هذا] ليكون مرافقا ومرشدا لنا ·

لم تكن معرفته التامة بتلك النواحى هى وحدها ـ كما قيل ـ التى دعت الى اختياره ، بل ان الامبراطور كان كبير الاعتماد عليه لما كان عليه من فساد النية والنفاق الذى لا حد له ، فانضم تاتيكيوس بقواته الخاصة الى زعمائنا ، عساه يكون كالأوزة التى تصبح غالبا بين الدجاج ، وكالحية الرقطاء بين ثعابين الأكل ، فكان أذن الامبراطور وعينه فى كل ما يجرى بالحملة ، ويفسر له كل ملاحظة يبديها أى شخص تفسيرا يرشح بالحقد ، ويتلقى من مولاه على يد الرسل الكثيرين المترددين بينهما غدوا ورواحا موجزا للخطط التى يوحيه اليها مشاريعه الشريرة ·

ولقد نألف هنا – ولأول مرة – جيش منحد للسيد الحى ، وكان فى مجمــوعه مكونا من زمر شــتى ألقت قيادتها الى رجال تزعموها فى أماكن مختلفة وفى أوقات متباينة ، ثم انحدرت هذه الجماعات الكثيرة حتى اذا وصلت الى ها هنا صارت جيشا واحدا ، ذلك لأنه لم يتأت لأحد من قادة جيش الرب وزعمائه منذ مغادرتهم أوطانهم حتى بلوغهم هذه المدينة وضربهم معسكرانهم بها ، أقول لم يتأت لهؤلاء رؤية بعضهم البعض ، ولم تسنح لهم الفرصة لمناقشة المسائل المتعلقة بالصالح العام كما سنحت لهم الآن ٠

وأحصوا العسكر فوجدوهم سبمائة ألف شخص ، ذكرا وأنثى مشاه لا طهر عندهم ، أما الفرســـان من أصحاب الدروع فكانوا مائة ألف ٠

وقد عسكر هذا الجيش بأجمعه أمام مدينة نيقية ، مكرسا كل نشاطه بشتى الطرق الممكنة للاستيلاء عليها ، وبذلك يهدون أول ثمار عملهم للسيد فى اخلاص ٠

هنا ينتهى الكتاب الثانى

الكتاب الثالث

الاستيلاء على نيقية والزحف عبر آسيا الصغرى

فصول الكتاب الثالث

١ ـ وصف مدينة نقية وذكر أسباب شهرتها ، وكيف جمع حاكمها قلج أرسلان قوة كبيرة من الترك من كل نواحى الشرق لمحاربتنا ، وكيف أعدوا الكمين لمهاجمتنا .

٢ ـ قواتنا تهاجم المدينة فى ضراوة ولكن المواطنين يجدون سبيلا لهم للخروج عن طريق البحيرة ، فيرسل اليهم قلج أرسلان رسالة يشد بها أزرهم .

٣ ـ القبض على حامل الرسالة وافضاؤه الى القادة بكل أسرار العدو ، ووصول كونت تولوز

ـ وكان الغـائب الوحيد ـ على جناح السرعة استجابة للزعماء الآخرين ·

٤ ـ قلج أرسلان ينزل من التلال ويهاجم معسكرنا بعنف ، ولكن الهزيمة تحيق بجيشه ويرسـل رجالنا بعض امارات انتصـارهم الى الامبراطور فيكافيء الزعماء على ما فعلوا ·

٥ ـ اقـامة السـادة فى الأماكن التى خصصت لهم ومهاجمة المدينة المحاصرة من كل النواحى وهلاك طائفة من النبلاء فى المعركة ·

٦ ـ أهل المدينة يحطمون آلة كانت على الأسـوار فيهلك نحوهـا كثير من الصليبيين ، كمـا أن البحيرة تعوق نجاح محاولاتنا ·

٧ ـ الصـليبيون ينقلون القـوارب من البحر على العربات ويسيطرون على البحيرة ، وينظر الأهالى فى يأس ودهشة الى براعة شعبنا ·

٨ ـ معـاودة الهجوم على نيقيـة من كل الجهات ، ومحاولات كونت تولوز التغلب على برج أمامه واستعماله من أجل ذلك الآلات وشتى الحيل الممكنة ، ولكن مقـاومة الأهالى أدت الى فشـل جهوده ·

٩ ـ البراعة العظيمة التى أظهرها جود فروى ، وقيام أحد الأهالى بقذف النار وصب الزيت على الآلات

وما حدث اذ ذاك من المصير المحزن الذى لقيه أحد رجالنا البارزين ٠

١٠ ـ أحد الصناع يقدم خدماته للزعماء اليائسين فيبنى لهم آلة ويحدث نقبا بالسور الذى سرعان ما ينهار ٠

١١ ـ زوجة قلج أرسلان تقع فى الاسر هى وولداها أثناء محاولتها الفرار ويستولى اليأس على الأهالى فيفاوضون تاتيكوس الاغريقى كى يستسلموا ، ويبعث القادة الرسل الى الامبراطور بشأن هذا الموضوع ٠

١٢ ـ الامبراطور يوفد رسلا من قبله لتسلم المدينة ، كما يبعث أيضا بالهدايا والشكر للقادة ، ولكن السخط يستولى على الصليبيين ويشكون من شجب الاتفاق بينه وبينهم ، ويصدر الامبراطور أمره بسوق الأسرى الى القسطنطينية ويقدم لهم الهدايا ويبعث بهم من هناك الى بلادهم ٠

١٣ ـ رفع الحصار عن نيقية ، والجيش يتابع زحفه وينفرق القادة ، ويقوم قلج أرسلان باعتراض الصليبيين مرة ثانية بجيش كثيف ٠

١٤ ـ نشوب المعركة وهلاك وليم أخى تانكريد فيها ، وأما جيش بوهيموند فيصبح بأكمله فى خطر عظيم، كما أن تانكريد ينجو من الأسر باعجوبة٠

١٥ ـ القادة الآخرون يصلون لنجدة اخوانهم المنهوكين ، فيفر قلج أرسلان ويحيق البوار

بجيشه ، ويعود الصليبيون وقد فاضت أيديهم بالغنائم ، وينجمع العسكر كلهم مره أخرى .

١٦ ـ الجيوش تدخل « بيزيديا » ولكنها تكابد هنا الشدة بسبب قلة الماء ويصبح العسكر فى حال بالغة الحزن شديدة الخطورة .

١٧ ـ انفصال بعض القادة عن بقية اخوانهم وتخريبهم الاقليم المجاور ، ونجاة الدوق من الموت باعجوبه من هجوم دب عليه .

١٨ ـ اصابة كونت تولوز بمرض أشفى به على الموت ، وأما الجيش فيعبر « ليكونيا » ويصل الى « مرعش » حيث تموت زوجة بلدوين أخى الدوق .

١٩ ـ ذهاب تانكريد الى قيليقية ومحاصرته طرسوس ، وزيارة بلدوين ـ أخى الدوق ـ لتلك النواحى واستقباله بالتعظيم الذى هو أهل له .

٢٠ ـ بلدوين يطلب انزال راية تانكريد من فوق القلعة لبرفع رايته مكانها ، فيرتد تانكريد غاضبا ويستولى « جلف » على أدنة .

٢١ ـ استيلاء تانكريد عنوة على المصيصة وهى احدى المدن الواقعة فى نفس الاقليم .

٢٢ ـ استيلاء بلدوين على طرسوس وهلاك ثلاثمائه صليبى أمام باب المدينة فى نكبة فادحة .

٢٣ ـ بعض المحاربين يحملون السلاح لمقاتلة بلدوين ، ولكنهم يهدأون أخيرا ويصـــل الى طرســـوس أسطول من الغرب محمل بالرحال ٠

٢٤ ـ بلدوين يزحف على المصيصه بعد استيلائه على طرسوس ، وتنشب معركة بينه وبين تانكريد ثم يتصافى الاثنان ويتصالحان ٠

٢٥ ـ بلدوين يعود للجيش الأصلي أما تانكريد فيغير على كافة أرجاء قيليقية ويستولي عليها ، فيسرع الحكام المجاورون لمهادنته كسبا لوده ويقدمون الهدايا اليه ٠

هنـا يبـدأ

الكتاب الثالث

الاستيلاء على نيقية والزحف عبر آسيا الصغرى

- ١ -

كانت نيقية ـ وهى احدى مدن بيثينيا وعاصمة الاقليم ـ خاضعة فى القديم لنيقوميديا ، ثم تحررت من سلطانها علبها على يد الامبراطور قنسطنطين . فغدا لما قرره أول مجمع دينى مقدس انعقد فيها ، فقد حدث فى عهد كل من البابا سلفستر واسكندر الموقر بطرك القسطنطينيه والامبراطور قسطنطين الذى اشرنا اليه حالا أن اجتمع فى بقيه مجمع مقدس حضره ثلاثمائه وثمانون من آباء الكنيسة ليحددوا قرارا ضد هرطقه آريوس وأتباعه ، فتمحض المجمع عن شجب ما عليه هؤلاء من عقيده فاسدة ضاله ، واستبدالها بالحق المبنى على شـهادة الكتاب المقدس ، وبذلك قدم المجمع الى كنيسة الرب ايمانا نقى الجوانب ، كما عقد فى نفس المدينه مجمع عام آخـر ، يعرف بالسابع ، فى زمن الامبراطور المؤمن قسطنطين [السابع] ابن ايرين ، احتجاجا على اللا أيقونيين أعنى المهاجمين للصور المقدسة ، وكان يجلس على كرسى رومه اذ ذاك البابا أدريان. وكان بطـرك القسطنطينيـة حينــذاك ثاراتيــوس الموقر ، ولقى الهراطقة المشار اليهم فى هـذا المجتمع من الكنيسه الارثوذكسية الحكم العادل الذى يستحقونه بشجب بهتانهم .

وتقع مدينة « نيقية » في الاقليم السهلي ، وتتمتع بموقع رائع كل الروعة ، وتشرف عليها الجبال التي تحيط بها من شتى النواحي ، كما أنها حافلة بأحسن الحقول في المنطقة فأرضها خصبة ، هذا الى جانب المزايا العديدة التي سمحت بها عليها الغابات والاحراج ، ويوجد بالقرب من المدينة بحيرة عظيمة الاتساع ، وهي تمتد شطر الغرب امتدادا كبيرا ، وكانت الأمواج اذا هاجت بها علت المياه وغسلت جدرانها ٠

وزيادة على ذلك فان نيقية مكتظة بالسكان الذين هم مساعير حرب ، ويقوم بحراستها حراسة تامة أسوار عريضة الاتساع ، وابراج ساهقة الارتفاع ، قدت من الصخر الجلمود ، حتى ان الدهشة استولت على رجالنا حين أخذوا يقتربون منها فرأوا وسائل دفاع ضخمة ٠

كانت المدينة وبقية الاقليم والولايات المتاخمة لها في هذا الوقت تحت حكم وال تركي شديد المراس قوي الشكيمة ، يدعى « قلج أرسلان » ويكنى « بالشاه » التي تعني الملك في اللسان الفارسي ، وكان قلج أرسلان هذا على جانب كبير من الحذق ، وما كان يسمع بعزم فواتنا على المجيء حتى أخذ للأمر أهبته ومضى الى الشرق يلتمس العون والنجدة من حكام تلك النواحي ليحول بين الصليبين وبين المجيء ، واستطاع بقوة اقناعه ، وبالمزيد من التوسلات ، وبالمال الذي بذله أن يجمع اليه من فارس وما تاخمها أعدادا ضخمة من الأتراك الذين طمع أن يعينوه على انقاذ « نيقية » وتجنيب الناحية بأجمعها ويلات الخطر الذي يهددها ، وحدث قبل هذا بقليل ــ وكان على القسطنطينية الامبراطور رومانوس ديوجينيس وهو الثالث قبل الامبراطور الحالي الكسيوس [كومنين] ــ أن تمكن أقوى ملوك فارس يومذاك واسمه ملك شاه ــ وهو عم قلج أرسلان من الاستيلاء

عنوه على جميع الأقاليم الممتده من خليج السفور حتى بلاد الشام ومسيرها رحلة ثلاثين يوما ، كما تمتد نفس المسافة من البحر الأبيض المتوسط الى الشمال ، وقد آلت معظم تلك الأراضى فى ذلك الوقت الى قلج أرسلان الذى اشتغل ملكيته اياها ، فتطلع الى الاستيلاء على كل الاقليم الممتد من طوروس فى قيلقية الى السفور ، ومن ثم كان له — وهو على مدى رمية قوس من القسطنطينية ذاتها — نوابه الذين يجبون له الضرائب من المارين بها ، كما كان هؤلاء النواب يجمعون لمولاهم الجزية والاتاوات من كل النواحى المحيطة بالاقليم ٠

كان هــذا الحاكم يقيم فى المنــاطق الجبليه المجاوره ، التى لا تبعد عن قواتنا أكثر من عشرة أميال ، وكان يترقب الفرصـــة المواتية لمهاجمتها دون أن يعرض نفسه للخطر بفضل ما توفر له من جيش بذل الجهد فى جمعه ، وبهذا كان يأمل أن يذهب عن المدينة الجزع الذى يؤرقها من هذا العسكر ٠

- ٢ -

لم تكد قواتنا تقف أمام المدينة حتى شنت هجوما عنيفا عليها رغم عدم حسن ترتيب العسكر ، لأنه لم يكن قد تم تنظيمه بعد ، ومع ذلك فان عسكرنا الذين جاءوا أولا قد تخيروا لأنفسهم مواضع محدده يقيمون فيها ، وخصصـــوا أخرى ملائمة للقادمين بعدهم ، وبذلوا غاية جهدهم لمنع الأهالى من دخــول المدينة أو الخروج منها غير أن البحيرة الملاصقة لأسوار المدينة — كما قلنا — كانت تقف حائلا دون تنفيذ هذه الخطة بسبب ما كانت توفره السفن الموجودة

فيها من السلامة لمن يريدون الخروج من البلد أو دخوله ، وبعلهم حيث شاؤوا ، ولما لم يكن لدى جيشنا قوة بحريه فقد كان عاجزا عن تقييد حرية التنقل هذه ، ولكنه استطاع بشتى الحيل أن يمنع الوصول الى المدينة عن طريق البر بفضل عنايته الشديدة بمراقبة جميع مسالكها ومنافذها ، ولما عرف قلج أرسلان أن مدينته تعاني أهوال الحصـــار فقد أرسل اثنين من أتباعه ليدخل الطمأنينه في قلوب أهلها ، وبشجعهم على الاستمرار في الصمود ، وقد أرسلهما في قارب يعبر بهما البحيرة ، وبعث معهما عبارات التشجيع التي جاء فيها حسب العادة ٠

« ان قدوم هؤلاء المناكيد المبربرين الذين يظنون أنفســـهم قادرين على فرض الحصار على مدينا لا ينبغي أن يسبب لكم خوفا كبيرا ، لأنني مرابط الى جواركم بقوه ضـــخمة من الرجال الأشداء العظماء ، كما أنني في ارتقاب أعداد أكبر قادمة بعدهم ، وحين يلتئم شمل هـــذه القوات كلهـــا في جمع واحـــد فسوف نفاجيء معسكرهم بالهجوم ، فاذا هاجمناهم نحن من الخارج فهبوا أنتم من ناحيتكم لمساعدتنـــا ، وكونوا مستعدين لفتح الأبواب وانهضـــوا متحدين لا يشغلكم شاغل سوى مهاجمتهم ، ولا ترهبنكم كثرة عددهم اذ ليس عندهم من العدد والعدة ما يكافيء ما عند قواتنا النشيطة ، لأنهم جاؤوا من أقصى بلاد العرب ، فأعياهم طول السفر ، وأرهقهم بعد المســـافة ، وفت في عضدهم ما صـــادفوه من المتاعب ، وهم لا يملكون سوى جياد لا تصمد للقتال الشديد ، ومن ثم فهم ليسوا نظراء لقواتنا التي وصلت حالا ، ولا يبلغ نشاطهم نشاطها ، وعليكم ان تتذكروا كيف انتصرنا في يسر على جيشـــهم القوى ، وأوردنا ما ينيف على خمسين ألف من رجالهم ورد الردى في يوم واحد ، فقروا نفســـا واهدأوا بالا ، ولا يأخذنكم الجزع لانكم تلقون نهار الغد نجدة كبيرة ، وسوف تتخلصون من العدو » ٠

ظل الرسولان مبحرين على طول الساحل سعيا لأحسن مكان يرسوان فيه ، وبينما كانا يلمســان منفذا أمينا يدخلان منه اذا برجالنا يباغتونهما على حين غرة منهما ، فوقع أحدهما فى الأسر ، وأما الآخر فقد قتل خــلال الهجوم ، فأخذوا الأسير الى القادة لم يمسوه بسوء ، فاعترف لهم تحت التهديد والخوف بما يعرفه وكشف النقاب عن كل شيء وأخبرهم عمن أرسله وعما حمله على ارساله ٠ فاتضح من روايته أن قلج أرسلان بعث بالرجلين ليخبر الأهالى أنه قــريب منهم ، وأنه قادم اليهم بالجنــد القوى الذى جمعــه ، وقد أجمع العزم على مباغتة معسكرنا غدا ٠

فلما عرف زعماء كتائبنــا أن قلج أرسلان على وشــك القدوم أمروا بابقاء الأسير تحت الحراسة ، وبادروا فى لحظتهم فأرسلوا من قبلهم الى كونت تولوز والى أسقف بوى ـ اللذين لم يكونا قد انضما الى بقية العسكر حتى هذه اللحظة ـ رجالا يلتمسون منهما المجيء على جناح السرعة ، فلما تسلم هذان القــائدان تلك الرســالة من اخوانهما جزعا عليهم جزعا غير قليل ، وندما على تأخرهما عن اللحاق بهما . وخرجا وظلا سائرين طول الليل حتى بلغا المعسكر مع أولى تباشير الصــباح وقبل شروق الشمس ، ونفذا وحولهمــا الناس ما بين مهلل وهاتف ، والرايات ، تخفق أمامهما ، وتلمع الأسلحة فى الجو ، وما كادا يضعان أثقالهما جانبــا ليتخذا مكانا مع بقية الجيش فى المكان المقسوم لهما حتى انحدر قلج أرسلان من ناحية الجبال ــ وكانت الساعة الثالثة طبقا لما قاله الأسير ، واجتاز السهل فى طريقه الى المدينة ، على رأس حشد كثيف من الفرسان ، ان تعدهم تجدهم قرابة خمسين ألف رجل ، وما كاد رجالنا يرون العدو حتى هبوا الى أسلحتهم فحملوهــا ، والى طبول الحرب فدقوها ، والى الأبواق فنفخوا فيهــا ، وأيقظوا العســكر كلهم فرتبوا صفوفهم استعدادا للقتال ، وأخذوا لكل شيء قد يعرض لهم أهبته ، وتهيئوا

لمواجهة العدو القريب منهم فى صورة التزموا فيها غاية الالتزام بقواعد التنظيم الحربى الذى دربوا عليه ومارسوه طويلا ٠

- ٤ -

أرسل قلج أرسلان كتيبة قوامها عشرة آلاف رجل على خيولهم لتكونوا طليعته ، نحو البوابة الجنوبية التى وكلت حراستها الى كونت تولوز ، لكن لما كان قلج أرسلان غير عالم بوصول ريموند فقد توقع أن يجد البوابة كعهده بها فى اليومين السالفين من غير حراسة ، بيد أن أمله تبدد هباء اذ صادف عندها من الجنود المرابطين أكثر مما فى أية بقعة أخرى ، لكنه لم يكن عالما بهذه التغييرات ٠

ومن ثم أسرع فشن غارة شعواء على رجال الكونت الذين رغم أنهم لم يتخففوا من أحمالهم الا منذ قريب الا أنهم صمدوا للهجوم ، وبددوا شمل الصف الأول من عسكر العدو الذى أدبر هاربا ، بيد أن ظهور قلج أرسلان على رأس امدادات قوية أحيا عزيمة عسكره ، فعادوا الى ساحة القتال بعد أن كان قد انفرط عقد نظامهم٠

فى هذه اللحظات لاحظ الدوق وبوهيموند وكونت فلاندرز أن العدو قد عاد بقوات أكبر عددا وأنها تقف صفوفا متراصة ، كما لاحظوا أن الارهاق بلغ من رجال كونت تولوز مبلغا جاوز الحد ، بسبب جيش كاسح باسل الشجاعة قد اندفع اندفاع رجل واحد لمساعدة رفاقه ، فقام [الثلاثة] قومة صادقة بمهاجمة معسكرات العدو القريبة ، وتناوشوه بالرماح والسيوف ، وعلى الرغم مما كان يبدو على العدو حين طلوعه فى البداية من دلائل الشجاعة والبأس ـ

الا أنه لم يمض غير ساعة واحدة من الصراع حتى فقدوا أربعة آلاف نفس ما بين قتيل وأسير ، مما حمل بقيتهم على الفرار ٠

وهكذا أحرزت قواتنا هذا النصر الأول بعون الرب ، فاستمروا يحاصرون الخصم حصارا أحاطوا فيه بالأسوار ، فلم يجرؤ قلج أرسلان أو أى أمير آخر من أمراء العدو – منذ ذلك اليوم وأيام الحصار التالية له – على القيام بهجوم كهذا الهجوم ، واذا كان زعماؤنا المذكورون آنفا قد برهنوا على كفاءتهم ، فان تانكريد وولتر دى جار لاند صنجاق الفرنجة ، وجى دى بوسسا ، وروجر دى بار نفسل أبدوا من البسالة ما أذاع صيتهم وأكسبهم حسن الأحدوثة ٠

ورغبة فى زيادة بث الفزع فى قلوب الأعداء فقد صدر الأمر لرجالنا بقذف أعداد كبيرة من رؤوس الترك المقتولين الى داخل المدينة ، قذفت بها الآلات اليهم ، وكما بعثوا الى الامبراطور ألفا من هذه الرؤوس وطائفة من الأسرى هدية ، فكان لذلك وقع طيب فى نفسه ، وزيادة على ذلك فقد قام ألكسيوس بمكافأة زعماء الجيوش بمبالغ طائلة من المال ، وخلع عليهم شتى أنواع الثياب الحريرية المختلفة الأنواع ، ثم زاد فى كرمه فأرسل المواد الضروريه لهم من غير ابطاء عليهم ، وأمر بتجهيز سوق حافله بالبضائع من أجلهم ٠

أراد قوادنا تنفيذ غرضهم ، فرأوا من الملائم فرض الحصار على المدينة من كل جوانبها كما قلنا وذلك بوضع القواد فى أماكن استراتيجية راحوا يصبون منها وابلا من الأضرار على الأهالى ، عساهم يحملونهم على الاستسلام دون مشقة نلقاها ، لذلك قسموا منطقة السور الى أقسام متساوية ، عهدوا بكل قسم منها الى فريق معين من الزعماء ٠

فرابط الدوق وأخواه بقواتهم فى الجانب السرقى ·

أما القسم الشمالى من المدينة فقد وقف فيه بوهيموند بجيشه ومعه تانكريد والقادة الذين نبعوه . والذين ذكرنا أسماءهم من قبل·

وكان يلى هؤلاء فى الترتيب كونت فلاندرز ، وأمير نورماندى مع جندهما ·

كما خصص الشطر الجنوبى لريموند كونت تولوز ولأسقف بوى بمن معهما ·

وقام سيفن كونت شارترز وبلوا بنصب معسكره وراءهم · وكان معه هيج الكبير وبعض النبلاء الآخرين والرجال العظام ·

ولما تم الاحداق تماما بالمدينة على هذه الصورة أجمع القادة على وجوب الاسراع فى نصب الآلات اللازمة لتقويض الأسوار ، وهى الآلات المسماة بالآلات المتحركة ·

كذلك صــدرت الأوامر بالتعجيل ببنــاء آلات رمى المنجنيق وقذف الأحجار التى توفر الحصول على المواد الملائمه لصنعها من الغابات القريبة ·

- ٥ -

وسار العمل سيرا حثيثا فجىء بالفعلة الذين راحوا يتنافسون فيما بينهم فى انجاز ما بيدهم من عمل ، ليفرغوا لمهاجمة المدينة ، وظلوا على هذه الصورة سبعة أسابيع ، وان دأبوا خلالها على مراوحة

المدينة بهجماتهم بين آن وآخر ، حتى جاء يوم من أيام كرهم طالعهم فيه نكد الطالع ، يوم فقدوا اثنين من محاربيهم الأشاوس جمعا بين نبل المحتد ورفعة المكانة ، هما : بلدوين الملقب بكالديرون ، وبلدوين الغنتى ، فقد هلكا وهما يقاتلان أروع قتال أثناء قصف المدينة ، اذ أصيب أحدهما بحجر أرداه صريعا ، وجاء الآخر سهم غرب أودى بحيـاته ، ومن ثم فرر السادة شن هجـوم ثان ، ولكن هلك فيـه وليم كونت فوريز ، وجالو دى ليل ، وهما يحاربان ببسالة ، فقد رميا بسهمين أصابا منهما مقتلا ·

وأصـاب المرض هنا أيضـا دى بوسسا أحد نبـلاء مملكة الفرنجة ، وكان مرضا عضالا أودى به ، فدب الذعر فى نفوس شعب الرب لهلاك هؤلاء المحاربين الذين شيعوا الى مثواهم الأخير محاطين بالشرف والحزن العميق ، وكان موكب جنازتهم موكبا حافلا لم تجر العادة بمثله الا لمن تسنموا ذروة الشرف الرفيع ·

- ٦ -

وحدث فى مرة أخرى أن كان جميع السـادة منصرفين الى الحصار ، وقد بذلوا أنفسهم أصدق البذل فى ذلك ، فلم ينـالوا قسطا من الراحة أو قليلا من التمهل ، وراحوا يحاولون بكل ما فى وسعهم نصب آلاتهم على الأسوار ، عساهم يتمكنون من شق طريق لأنفسهم يقتحمون منه المدينة ·

وانصرف كونت هارتمـان وهنرى ديش ــ وهما نبيلان من مملكة التيوتون ــ وانصرف أتباعهما وحواشيهما ومعـاونوهم الى

نصب آله صنعت ـ على أحسن ما تكون الصنعه ـ من جذوع البلوط التى سدوا بعضهـا الى بعض شـدا متينا ، وأحاطوا الآله بأعمده غلاظ ، ورتبت عسى أن تسع فى جوفها عشرين من الفرسان الشجعان عهد اليهم بتقويض السور ، فاذا صار الفرسان فى جوف الآلة أمنوا على أنفسهم حتى من أعتى الصخور الضخمه التى ترميهم بها الآلات.
لكن حين أسندت هذه الآلة الى الجدار اشتد الاهالى فى رميها من فوق رميا أسفر عن تحطمها تمام التحطيم ، بسبب ما انهال عليها من القذائف الحجريه ، فتناثرت أجزاؤها بددا ، وهلك جميع من كانوا بداخلها فقد سحقوا سحقا فاشتد حزن الناس على هؤلاء النبلاء ، وعظم الكرب لضياع جهد أيام كثيره صرفوهـا فى بنـاء تهدم عن آخره ، ولم تعـد به أدنى فائدة ، وحزن الناس على مصـير أولئك الشجعان الذين تفطرت القلوب للنهاية التى انتهوا اليها ، ومع ذلك فما زال الأمل يراود النفوس ويهدد الجوانح ، لتعيشهم الجازم بأن هؤلاء الذين خاطروا بحياتهم فى سبيل المسيح فى هذا العمل انما فازوا بحياة أسمى من هذه الحياه الدنيا ، ولادراكهم الحقيقى أن هؤلاء الرجال الذين ماتوا فى ذلك القتال ماتوا شهداء ، لذلك فقد ازدروا هم أيضا الموت واستهانوا بالحياه الدنيا ، واستمروا يواجهون شتى المخاطر بقلوب ثابتة الجنان ، ومن ثم فقد اتفق القاده عـلى الاستمرار فى مضاعفة رمى جميع أسوار المدينه ، وراح كل قائد يبذل قصارى جهده فى تشديد الحصار ـ فى قطاعه الذى وكل اليه ـ شدة حملت بقية الناس على التحدث بما كان منه • وسار العمل قدما ، وان كلفهم غاليا ، كما أن المعارك الموصولة والكمائن شبه الدائمه ، لم تدع لأهل البلد وقتا لالتقاط أنفاسهم •

ومع ذلك فان البحيرة المجاورة للمدينة كانت تقف أمام ما يعمله الصليبيون كأكبر عقبة أفسـدت عليهم جنى الثمرة المرجوة التى بذلوا من أجلها جهودهم المضنية ، هذا الى جانب ان هذه البحيرة كانت

مصدر راحة وطمأنينه للمحصورين الذين ييسر لهم بركوبهم ماءها ان يجلبوا ما يشاؤون من الطعام والمئونه ثم انها كانت تمكنهم بين آونة وأخرى من ادخال رؤوس كثيرة من الماشيه الى المدينة تحت بصر قوانسا التى كانت تقف مكتوفـة الأيدى عاجزه عن منعهم من ذلك .

- ٧ -

حينذاك اجتمع القادة أحباب الله للنظر فى هذه المشكلة على وجه الخصوص ، وتدبير أحسن الوسـائل لمعالجتها ، واستقر الرأى منهم أخيرا على ارسال رهط من بينهم الى البحر ، تحرسهم كوكبة من الفرسان ، ووكلوا الى هذه الطائفة من الناس أن ينقلوا القوارب من اليابسة الى البحيرة مفككة أو كاملة ، مستعملين فى ذلك ما تيسر لهم من عربات الحمل والعجلات وغيرها من وسائل النقل . ورأوا أن عدم تنفيذ هذا الاجراء لابد أن يؤدى الى فشل جميع مجهودات الصليبيين وضـياع كل ما بذلوه من مال ولا تعود ثمة جدوى لأى شيء ما .

وخرج الرهط الموكل اليهم تنفيذ هذه الخطة فيسَّر السيد طريقهم ، وكلأ محاولتهم برعايته ، اذ وجدوا السفن الراسية هناك من الحجم المتوسط فحصلوا عليهـا فى سهولة من الامبراطور ، وجروها على اليابسة الى البحر بعد أن شدوا كل ثلاث عربات أو أربع الى بعض حسب طول السفن التى يحتاجونهـا ، وأمكن بهذا النقل على مدى ليلة واحـدة سـحب هذه القوارب من البر الى

البحيره ، مسافة سبعة أميال أو نريد ، بعد أن شدوا الحبال الى أكتاف الرجال ورقاب الجياد ، وكان من بينها سفن كبيرة الحجم تسع الواحده منها ما بين خمسين ومائه مقاتل ·

ولما تم سحب هذا الأسطول على اليابسه ، وفرغوا من انزاله الى البحيرة ، بلغت فرحة الجيش الصليبي غايتهـا ، وأسرع الى الشاطىء ، وحيء بالجدافين المهره والرجال المفتولى السواعد المشهود لهم بالمهارة فى هذا الفن ، وسرعان ما امتلأت قلوب الجميع بالثقـة فى استيلائهم على المدينة ·

ولاحظ أهل البلد وجود عدد من السفن أكبر ممـا اعتادوا رؤيته ، فتملكتهم الدهشة ولم يدروا أهى بعض من الأسطول الذى جاء لمساعدتهم أم انها من سفن العدو ·

ثم أدركوا بعد حين أنها لنا ، قد نقلها رجالنا من البحر بعد بذلهم مجهودات مضنية فى سحبها على اليابسة ، ثم أنزلوهـا الى البحيرة فتملكتهم من الدهشة أكبرها من بأس الصليبيين ومهارتهم اذ نجحوا فى تنفيذ عمل يعتبر من الميئوس منه وشبه مستحيل ·

- ٨ -

أدى ادخال السفن الصليبية الى سد مخرج المدينه عن طريق البحيرة ، ومن ثم نادى المنادى أن تحمـل كل كتيبة سلاحهـا ، وتقف بقيادة قائدها فى المكان المخصص لها ، كمـا نودى بتشديد الضغط على أهل البلد ، وشن الهجوم العنيف على المدينة ، ومضى

كل قائد يشد من عزم رجـاله ، ويخرج على رأسـهم الى المعركه وهم فى أكمل سلاح ، فلما تم ذلك كله حـرب معركه لم تكن فى الحسبان ، أبدع فيها رجالنا أيما ابداع فى اسـتعمال الآلات ، ودللوا على شـجاعتهم ، وبينما كان بعضـهم منصرفا الى ملعمـه الأسوار ، مضى غيرهم يقذفون الأحجار الضخمة على الحصون لتضعف صمودها ٠

أما القسم الجنوبى الذى عهـد به الى كونت تولـوز لتخذه مركزا لهجماته فكان به بـرج يبز كل بـرج سـواه فى ارتفاعه الشاهق وبنائه المحكم ، وقيل ان زوجه قلج أرسلان كانت تقيم على مقربة منه ٠

وظل الكونت بضعه أيام يبذل كل جهده لهدم هذا البرج فما أفلح ، بل باءت مساعيه كلها بالفشل اذ على الرغم من موالاته رميه بالصخور التى كانت تنصب عليه من آلتين الا أن البناء الصلد أثبت أنه من المستحيل زحزحة حجر واحد منه ، فلم يثن ذلك الكونت عن مضـاعفة الضـغط عليه كما زاد من عدد الآلات التى أعدهـا لقصفه ، غير أن موالاة قذفه بكتل الصخر والأحجار الثقيله أصابته بالشروخ فوهت مقاومته ، وانتهى الأمر أخيرا الى اضعافه ، فلما رأى العسكر هذا المنظر البهيج وثبوا فرحين وثبة قوية عبروا بها الخندق المملوء بالماء حتى حاذوا الأسوار فى محاولة منهم لتقويضه ، وكان كل منهم يشجع رفيقه على الهدم ، فان أعجزهم الهدم فلا أقل من فتح ثغرة فيه ٠

كان الأهالى يدركون أن الخطر يهددهم ان انهـــار البرج ، فانطلقوا يملؤون داخله بالأحجار والآسمنت حتى اذا زعزعت الآلات أسواره أو قوضتها حل الجديد محل القديم ، وأصبح عائقا فى طريق الذين يحاولون فتح الثغرة ٠

غير أن رجالنا نجحوا فى هذه الأثناء فى تثبيت مسار متين الى السور من هجمات العدو ، ثم قيض النجاح لهم أخيرا بعد أن بذلوا من الجهد غايته ، وبفضل عددهم الحربية ، وتمكنوا من فتح ثغرة كافيه لادخال رجلين في عير مشقه كما أخذ الأهالى فى الوقت ذاته يزيدون من مقاومتهم العنيفة ضد عدوهم ، وراحوا يقابلون الحيلة بالحيلة ، ويواجهون القوة بقوة مثلها ، وأظهروا روحا لا تقل عما عند الصليبين وحاربوا بكل ما يملكون ، وجاهدوا كأنهم رجـل واحد ، فرموا بالنشاب والمنجنيق وكل سلاح تيسر بين أيديهم تسنى لهم العثـور عليه ، وتكاتفوا فى رد العـدو وتفادى الأهوال المنصبة عليهم ٠

– ٩ –

كان من بين المدافعين عن الســور والقــائمين بصــد القوات المهاجمة رجل تميز من بين الرجال بضخامة جسمانه وشدة بطشه ، وكان نسيج وحده بما تنطوى عليه نفسه من كراهية لنا لم يحاول سترها ، وقد أذاق هـذا الرجل رجالنا كثيرا من العطب بما كان يرميهم به عن قوسه ، وقد غره ما كان يصادفه على الدوام من كبد لنا ، ولم يعف عن نيل رجالنا بفاحش القول يرميهم به ، فلم يطق جود فروى العظيم احتمال هذا العار ، فتنكب قوسا ضخما ، وتخير مكانا مناسبا ، وسدد رميته فى دقة ، فأصاب السهم – وقد انطلق –

أحشاء هذا الخاسر فجندله صريعا على الارض قد فارقه روحه فلقى الجزاء الحق الذى محا الاهانات الجمة التى كان يصبها على الصليبيين ، وكان رفاق هذا الزنيم قد نسجوا على منواله فوضعوا خطة محكمة كل الاحكام فى هذا الجزء من السور ، غير أن فزعهم من الدوق استبد بأكثرهم فقللوا من رميهم رجالنا بالسلاح ، وكفوا عن ملاحقتهم بالاهانات ، على أن رجالا غيرهم لم يعلموا نبأ هذه النكبة فثابروا على نشاطهم فى الدفاع عن المدينة من أماكن أخرى على طول السور من أخذهم الحذر الشديد ، ولم يكفوا عن اصابة رجالنا برميهم وهم على الأسوار والأبراج فيتركونهم ما بين جريح وقتيل ، ولم يكتفوا بأن يصبوا عليهم القار والزيت والدهن وغير ذلك من المواد التى تؤجج النار ضراما ، بل زادوا على ذلك بأن راحوا يرمون النار المشتعلة على آلاتنا فتلف أكثرها ، الا ما كان منها فى أماكن سددت عليها الحراسة الدقيقة .

★★★

أما رجالنا الذين كانوا فى الناحية الجنوبية فكانوا يشنون هجومهم العنيف على البرج ، واستمروا على ذلك الحال من النشاط حتى النهاية ، لكنهم لما رأوا أنهم كلما نقبوا جزءا من السور نهارا رممه العدو ليلا فانهم سرعان ما تراخوا فى جهودهم بعض الشيء ، حتى اذا أيقنوا فشلهم التام كادوا أن يقلعوا عما هم فيه ، لولا أن رجلا منهم شجاعا عالى المكانة ـ وهو فارس من جيش كونت نرمندى قام بمحاولة بارعة ، مؤملا من ورائها أن يقتفى الآخرون منواله ، فلبس درعه ، ووضع خوذته على رأسه ، وعبر الخندق مستهينا بكل خطر ، ودنا من السور متخذا من ترسه مجنا يقيه العطب ، هادفا من وراء ذلك أن يقوض البناء الحجرى الجديد الذى شيده الأهالى فى الليل ، وأن يعيد فتح الثغرة التى كانت موجودة فى اليوم

السابق ، فأصر أهل البلد أن يكون الهجوم الذى يشنونه من أعلى هجوما عنيفا ، فباءت محاولة [الفارس النورماندى] بالفشل اذا لم يجرؤ أحد من الصليبيين على القدوم لنجدته ، فخر قتيلا قد سحقته القذائف الحجرية الضخمة ، فهلك تحت السور على مشهد من رفاقه الذين وان كانوا راغبين أشد الرغبة فى انقاذه ، الا أنهم كانوا أعجز ما يكونون على مده بأى عون من جانبهم ، فجذب المارقون الجثة الهامدة بالخطاطيف الحديدية ، وقذفوا بها فيما وراء السور ، حيث ظلت موضع سخريتهم المقذعة ، ثم جردوه فى النهاية من درعه وسلبوه حوذته ، وألقوا به الى قوادنا فى الخارج ، فبكاه الناس وهم يثنون عليه وعلى شجاعته ، ثم دفنوه بما يليق به من الاحترام وسحبوا جثمانه فى قبره ، ولم يشكوا أبدا فى أن ميتته هذه كانت عظيمة فى عين الرب ، وأن روحه ـ وقد لقيت هذه الخاتمة النبيلة ـ سوف تكون مع أرواح الصفوة المختارين ، لأن الجميع ـ كما قيل اجمعوا على أن من يسقطون فى ساحة القتال سيوفى لهم ما وعدوا به من حياة أبدية مجيدة بين القديسين .

- ١٠ -

قام فى هذه الأثناء زعماء جيوشنا الذين وهبوا أنفسهم لخدمة الرب بعقد مؤتمر على مألوف عادتهم بعد ان اتضح لهم عدم احراز أى تقدم فى مشروعهم ، بل تبينوا أن واقعهم جرى على العكس مما رتبوا ، وأدركوا أنهم أضاعوا جهودهم وبعثروا نشاطهم سدى ، ومن ثم راحوا يتشاورون فيما بينهم بروح ملؤها الجد فيما ينبغى عليهم عمله فى ظروفهم الراهنة هذه ، وبينما هم يقلبون الأمر على شتى

وجوهه بقلوب جازعة ، اذا برجل لمباردى يأتيهم وينبئهم أنه لاحظ ألا جدوى من وراء جميع مشاريع مهندسيهم ، وان جهدهم ذاهب ادراج الرياح ، وذكر لهم ما هو عليه من مهاره فائقة فى هـذه الصنعة . وبين لهم أنهم لو وفروا له المواد اللازمه والمال الكافى لاتمام العمل بأخذونه مما عندهم فى حرانيهم العامه فانه بمشيئة الرب منحره فى ايام قلائل معدودات وأنه مدمر البرج . وفاتح فيه بغرة واسعه ، ان يشأ الجميع أن يقتحموه منهـا لم يعسر ذلك عليهم . وأكد لهم أنه متم ذلك العمل دون أن يفقد رجلا واحدا ، فأمدوه بما يكفى نفقاته مما أخذوه من الأموال العامة هذا بالاضافه الى تخصيصهم مبلغا مناسبا مكافأة له على جهده .

وجىء له بالمواد التى أرادها ، فعمل آله رائعه الصنع صممت على هيئة يستطيع من بداخلها ـ رغم مقاومة العدو ـ أن يعلقوها الى البرج من غير خطر يهددهم . فان دخلوها أحصنهم وتمكنوا من متابعه عملهم فى تقويض المبانى وهم آمنون ، لا خوف عليهم .

وأنجز الرجل صنع هذه الآلة كما أرادها ، فلما ضمت أجزاؤها بعضها الى بعض وتم تحصينها من كل النواحى حسبما أشـــار [صانعها اللومباردى] دخلها هو مع رهط من الرجال الشجعان ، وبدأوا عملهم فى تقويض المبانى وهم آمنون ، لا خوف عليهم . ثم دفع القوم الآلة بمن فى داخلها من الصناع ، حتى اجتازت الخندق ثم سنوها الى الأسوار فى براعة ومهارة فائقين .

على أن الأهالى لم يفارقهم اندفاعهم الذى طبعوا عليه ، فراحوا يرمون الآلة من عل ، ويقذفونهم بالنيران المشتعلة فما أجدتهم هذه القذائف ولا أضرت بالآلة ، ولا كان منها شر عليهـا لأن الانحدار الشديد لكل من السقف وجوانب الآلة حال بين هذه القذائف وبين

أن تستقر حيث رميت . فسلم كل من كان فى الداخل من الرجال ، وسرعان ما أخذت ثقة الأعداء تتزعزع فى أساليبهم التقليدية ، وكان اعجابهم بعبقرية المخترع وقوة الآلة ، اعجابا بالغا لما اتضح من فشل كل حيلة حيالها .

كان الذين بداخل هذا المخبأ آمنين تماما من مكائد العدو ، ومن ثم ظلوا يتابعون عملهم فى تقويض البرج وفى نقب السور بكل ما أوتوا من قوة ، ولم يكد الصدع يلم بحجر الأساس فيخلعه حتى وضعوا مكانه العروق والأعمدة الخشبية خوفا من أن ينهار ما فوق السور على الآلة فيسحقها سحقا اذا ما نزع الأساس اذ لا تعود الآلة قادرة على تحمل كتلة ضخمة كهذه الكتلة ان هى انهارت عليها .

ولما اتضح أن البرج قد نقب بما يكفى لسقوطه ، اشعلوا النيران فى الدعائم التى يقوم عليها الحائط الآيل للسقوط . وجىء أيضا بمواد ملتهبة تعمل على بقاء النار مشتعلة على الدوام ، واذ ذاك ترك العمال الآلة وغادروها مسرعين الى رفاقهم ، حتى اذا انتصف الليل أو كاد أتت النار على الأعمدة الخشبية فصيرتها هشيما ، وانهار البرج وصحب انهياره دوى كأنه الرعد ، أثار فى الناس جميعا – حتى من كانوا على مسافة قاصية – فزعا وخفقت له قلوبهم ، ونبه صوت انهياره الجند فهبوا الى أسلحتهم مجمعين العزم على اقتحام المدينة عنوة .

– ١١ –

ظلت زوجة فلج أرسلان – حتى هذه اللحظة – صابرة صبرا شديدا على تحمل أهوال الحصار ، أما الآن وقد بلغ الفزع منها غايته بسبب انهيار البرج فقد أمرت – كعادة النساء – باعداد السفن

وصحبت جواريها وكل أهل بيتها ، وانطلقت سرا من المدينة عازمة على التماس مكان يكون أكثر أمنا وسلامة ، لكن الصليبيين كانوا قد أقاموا حراسا في القوارب الراسية بالبحيرة لمنع المحصورين من الدخول أو الخروج ، واذ كان هؤلاء الحراس رجالا عقلاء قد أعدوا لكل شيء عدته ، ويقظين أشد اليقظة في مراقبة أية حركة فقد تكشف لهم أمر هذه السيدة وهي على وشك الهروب . فأمسكوها ومعها ولداها الصغيران وساروا بهم الى القادة الذين أمروا بوضعها وولديها تحت الحراسة الكثيفة ·

★★★

أما الأهالي فقد مسهم الفزع الشديد بسبب الثغرة التي تمكن عدوهم من فتحها ، وبسبب القبض على سيدة لها هذه الخطورة ، وتملكهم اليأس القاتل من قدرتهم ، فأرسلوا في لحظتهم وفادة الى الزعماء يلتمسون منهم منحهم هدنة امريثما خطة الاستسلام ·

ولما كان تاتيكيوس الذي تكلمت عنه من قبل رجلا شديد المكر كبير الدهاء ، فقد أدرك أن الأهالي لابد أن يتحلوا عن دفاعهم عن المدينة . ومن ثم دعا كبار رجال المدينة الى لقاء معه نصحهم فيه أن يستسلموا للامبراطور احلالا له ، كما أشار الى ان جيش الحجاج الواقف الآن قبالة المدينة مشغول هذه اللحظة بانجاز أمور أخرى ، وذكر لهم أن هؤلاء الرجال الذين كان اشتراكهم في الحصار عن طريق الصدفة البحتة قد بعدوا تماما عن خططهم الرئيسية ، كما أكد لهم أن الامبراطور سوف يقف على الدوام الى جانبهم (وليس الى جانب الصليبيين) ، وأن في قدرتهم الاعتماد التام على رحمته الجديرة بشكرهم ، وحينذاك يحق لهم أن يأملوا أن تكون الأمور أكثر يسرا عليهم وألقى اليهم أن الخير لهم أن يستسلموا — اذا

استسلموا – الى الامبراطور وأن يؤثروه على قوم مجهولين ، وأفهمهم ان الاستسلام الذى لا مفر منه يجب أن يكون للامبراطور الذى سوف يمكن اذ ذاك – بمعونتهم من استرداد المدينة التى انتزعت منه ظلما منذ قريب بسبب بطش الأتراك .

أتت هذه الحجج القوية وأمثالها اكلها فى حمل الأهالى المجتمعين على موافقة [تاتيكيوس على ما طلبه] مشترطين عليه ضمان سلامتهم ، فلما استجاب الى ما طلبوه منه وما اشترطوه عليه فقد آثروا أن يسلموا المدينة وأنفسهم وكل ما ملكت أيديهم الى الامبراطور .

***

لم يكن هذا العرض مرفوضا أيضا من جانب القادة الصليبيين نظرا لأنهم كانوا فى الواقع يتطلعون الى خاتمة تختلف كل الاختلاف عن هذه الخاتمة ، ولم يكن من غرضهم أن يقيموا فى نيقية أطول مما أقاموا ، ومع ذلك فقد طمعوا أن يطبق الاتفاق [المبرم بينهم وبين ألكسيوس] فتندفع غنائم المدينة وأسلابها الى الجيش تعويضا له عن المشاق التى كابدها والخسائر التى منى بها وتحملها .

على أن [القادة اللاتين] اشترطوا – قبل أن يبحثوا كل ما يتعلق بالاستسلام . وقبل أن يوافقوا على ما فيه تحقيق رغبات الأهالى فى هذا الصدد – أقول انهم اشترطوا ان يعود الى الجيش جميع اخوانهم من عسكر بطرس الناسك ، الذين أسرهم قلج أرسلان فى قلعة سيفتوت وكذلك من أسرهم الأهالى أثناء الحصار .

لذلك تمت موافقة القادة وأهل المعسكر على انفاذ رسل من قبلهم الى الامبراطور ، يحملون اليه الرسالة التالية يقولون له فيها :

« لقد أخلص الجيش الصليبي وقواده النية في حصار نيقية محبة منهم في المسيح ، واستطاعوا بجهودهم الصادقة الدؤوبة ، وبعون الرب أن يرغموا تلك المدينة على الخضوع ، وإننا لنلتمس من كريم جلالتكم أن لا تتأخروا عن ارسال بعض وجوه رجالكم الى تلك الناحية ، على رأس قوة كافية لتسلم هذه المدينة التي استسلمت تقديرا منها لاسمكم .

« وعلى الاهالي ان يلتزموا هم أيضا بارجاع من في أيديهم من الأسرى وهم كثيرون ، ذلك لأننا راغبون في الرحيل في أعقاب تسلم جلالتكم المدينة ، ومعتزمون متابعة السير في طريق الحج الذي اعتزمناه بفضل الله » .

- ١٣ -

ملأت هذه الرسالة قلب الامبراطور غبطة ، فأبعد في ساعته الى نيقية رهطا اختارهم من حاشيته وثقاته وأهل الخبرة ممن يستطيع الاعتماد عليهم في تسلم المدينة والقيام بتحصينها ، وكلفهم بأن يحملوا اليه – كملك خاص له دون سواه – كل ما غنم من الأسرى من ذهب وفضة وشتى أنواع المتاع . كما أرسل الى القادة هدايا ضخمة طمعا منه في كسب ودهم ، وزاد فأزجى اليهم شكره الخاص – كتابة وقولا – على خدماتهم الجليلة والعطاء العظيم الذي حصلت عليه الامبراطورية بفضل جهودهم .

على أن الحنق بلغ غايته مداه بعامة الجند ومن دونهم ، لما بذلوه هم أيضا من أقصى الجهد في حصار المدينة : الأمر الذي كانوا

يتوقعون معه أن تكون لهم وحدهم ودون سواهم هذه الغنائم التى استولوا عليها من الأسرى ، وما عثروا عليه من البضائع ، وما زخرت به المخازن الموجودة فى المدينة ذاتها ، فيعوضهم ذلك كله عن خسارتهم لأملاكهم ، لكن تبين لهم الآن أنهم لم يجزوا الجزاء الأوفى على ما تكبدوه من المشاق فقد اتضح لهم ما عزم عليه الامبراطور من احتجاز كل شئ لنفسه ولخزانته الخاصة ، أعنى الغنائم التى نص الاتفاق المبرم بينهم وبين الامبراطور على أن تكون غنيمة مشاعة . فندموا على ما بذلوا من جهد ، وتجلى لهم الآن أن كل المال الذى أنفقوه قد ضاع بددا .

كذلك دأب العادة على اتهام الامبراطور [ألكسيوس كومنين] بأنه نكث عهده ، وخالف نصوص الاتفاقية التى نصت شروطها المبرمة بينهم وبينه على أنهم اذا استولوا أثناء زحفهم كلهم معا على بلاد الشام بارشاد الرب على أى مدينة من المدن التى كانت تابعة لامبراطوريته وجب عليهم ردها اليه هى وما يلحقها من النواحى ، أما الغنائم والأسلاب وما شاكلها فتؤول من غير جدال الى العسكر مكافأة لهم على جهودهم ، وتعويضا عن النفقات التى تكبدوها .

★★★

بادر الصليبيون الى اخراج مرتزقة الامبراطور من المدينة وردوهم الى مولاهم صفر الأيدى ، وما كان لأحد أن يلومهم على هذا العمل الذى قاموا به ، بل اللوم يكون فى التزامهم الوفاء بالعهد مع رجل نقض عهده معهم ، غير أنه لما كان الخوف من الوب يملأ جوانحهم ، ولما كانت الرغبة فى الاسراع بانجاز عمل أجل خطرا من هذا وأبلغ أهمية تملأ نفوسهم ، ولما كان اتمام حجهم هو مقصودهم فقد كتموا مشاعرهم الحقيقية فى صدورهم حفاظا منهم على الصالح العام .

ثم حاولوا بكلماتهم الرقيقه تهدئة مشاعر العامة الذين كان سخطهم شديدا على هذه المعاملة التى عاملهم بها الامبراطور .

★★★

ولما دخل المدينه الرسل الاغريق الذين أوفدهم الامبراطور لاستلامها وأخذوا سلاح أهلها وسلموا البلد منهم مضوا الى المعسكر ووقفوا أمام القاده باعتبارهم — أى الرسل — مسئولين عن حياه الأهالى وسلامتهم مصرحين بأن الأهالى هم الذين أعادوا المدينة الى الامبراطور ، وانهم استأمنوه على أنفسهم ، وأسلموه رقابهم .

بعد ان استسلمت مدينه نيقيه على هذه الصورة ، أقيمت فيها قوه كافيــة لحمايتها ، وسيرت بعدئذ امرأة قلج أرسلان وولداها ، وطائفة كبيره من الأسرى الى القسطنطينية ، فلم يكتف الامبراطور بعاملتهم بالرحمة ، بل زاد فبالغ فى الاحسان اليهم واكرامهم اذ لم تكد تنقضى أيام قلائل على ذلك الأمر . حتى رد عليهم حريتهم التى كانوا يتمتعون بها من قبل ، ويقال ان الدافع له على ذلك هو ما كان يراوده من الأمل فى اكتساب موده الترك ، وما كان يطمع فيه من تحويلهم ضدنا من غير جهد يبذل ، وما كان يقدره من أن قواتنــا لو حاصرت أى مدينــة أخرى فلن يخامر أهل تلك المدينة خوف منه ، أن هم استسلموا له على هذه الصورة التى استسلمت له بها مدينة نيقية .

وكان الاستيلاء على مدينة نيقية فى العشرين من يونيو من مولد السيد .

- ١٣ -

لم يكد الحصار يرفع عن نيقية حتى أصدر القادة أمرهم بمتابعة السير ، فرتب العسكر متاعهم ، وخرجت كتائبهم يوم التاسع والعشرين من يونيو ، في وحدة متماسكة ، وظلوا سائرين لمدة يومين ، فلما كانت الليلة الثانية اتفقوا على النزول عند جسر معين لوفرة الماء عنده ، فأقاموا هناك ، حتى اذا أهلت طلائع الفجر الوليد وان كان الظلام لا يزال يمد رواقه على الكون تأهبوا للرحيل مرة أخرى فعبروا الجسر ، وهنا حدث اما صدفة أو باتفاق من القادة – أن مضى كل منهم بكتيبته مفارقا غيره ، واذا ببوهيموند كونت نورماندى، وستيفن كونت بلوا ، وتانكريد وهيج كونت سنت بول ييممون وجوههم ناحية المسار ، وساروا ذلك اليوم وحدهم ليس معهم غيرهم ، حتى انتهى بهم السير الى واد يسمى «بجورجون» فعسكروا به حوالى الساعة التاسعة ، ونزلوا عند ضفاف نبع جار ، كثير الكلأ ، وافر المرعى ، وأقاموا الحرس حول العسكر ، ونعموا بليلة هادئة رغم انشغال بالهم .

★★★

أما القادة الآخرون فقد اتجهوا يمينا ضاربين معسكرهم – بعد مسيرة يوم – فى ناحية لا يكاد يفصلهم فيها عن غيرهم سوى ميلين ، وقد توفر لهم هنا أيضا المرعى الطيب والماء الغزير .

فى هذه الأثناء كان قلج أرسلان – وقد أهمه الخطب الذى نزل به – دائم التفكير فيما دهمه على أيدى الصليبيين من ضياع تلك المدينة الرائعة من قبضته ، وما كان من فقده لزوجته والصبيين ، فاشتعلت نيران الثأر فى قلبه وأجمع العزم – ان أمكن – على نصب كمين لعدوه ، حينذاك حشد عددا كبيرا من العسكر ، متعقبا بهم

الجيش الذى انعطف الى اليسار بنفس خطاه ، وكانت عيونه تأتيه على الدوام بأخبار حركات العسكر الذى يسبقه وبتلهف لاغتنام الفرصة الملائمة لمباغتهم ، وسرعان ما أعلمه كشافته بانقسام الجيش شطرين ، وأن أقربهما اليه أصغرهما وأقلهما عددا ، وأدرك فى الحال أن الفرصة التى ينشدها منذ وقت طويل قد واتته فنزل من الجبل بجيشه الذى لا يحصيه العد ٠

★★★

وما كاد الضياء يسرع فى تبديد غبش الظلام الكثيف حتى تبين للمراقبين ذلك لأن الجيش الصليبى كان قد وضع رجالا يرصدون من بعد مكائد العدو ، ويعطون الاشاره فى الوقت المناسب ، فأعطوها ، فدقت الطبول فى الحال محذره من اقترابه ، فهب العسكر جميعهم الى سلاحهم وقد نبههم دق الطبول ونداء المنادين ، وأسرجوا خيولهم واستعدوا للالتحام فيما ورد من النواحى ، وكان ذلك فى الصباح الباكر من أول يوليو ، واصطفت الصفوف للقتال ، سواء منهم أمراء المئين أو أمراء الخمسين ، وتقدم كل واحد منهم على رأس جماعته ، أما الزعماء فكانت أماكنهم فى أجنحة المشاة ٠

ولما كانوا يريدون أن يكون تقدم القوات للقتال من غير عائق يعوقها ، فقد أنزلوا فى غابات البوص المتكاثف القريبة منهم جميع العجزة والمسنين من الرجال والنساء ، والآلاف المؤلفة ممن لا جدوى ترتجى منهم فى المعركة وجعلوا معهم كل متاعهم ، وكان هذا المكان الذى اختاروه ، والذى تحميه العربات الخفيفه وغيرها من مراكب النقل ملاذا أمينا ، وبعثوا بالرسل الى كتائب الجيش الأخرى التى دفعها الطيش للانفصال عنهم حاملين اليهم نبأ ما هم فيه من حرج وضيق ويحثونهم على المجىء اليهم على جناح السرعة لنجدتهم ٠

ومن ثم تمت اجادة تنظيم كل شيء في معسكر بوهيموند وفق ما تقضي به أصول الحرب ، ولما قاربت الساعة الثانية نهارا ظهر قلج أرسلان ، يقود جماعة لا يحصيها العد من الترك . فاستولت الدهشة على جيشنا ، اذ لم نر في هذا الحشد الكثيف الذى قيل انه جاوز مائتي الف مقاتل سوى الخيالة . على حين كانت قواتنا ـ كما قيل ـ تتألف من خليط من الفرسان والمشاة .

- ١٤ -

حين أخذ جيش الترك في الاقتراب تعالت في المعسكر ضجة هائلة لم يعد أحد يدرك معها أو يستبين منها كلمة مما يقال ، فلم يكن يسمع الا صليل السلاح ، وصهيل الخيل ، وقرع الطبول ونفخ الأبواق ، وهتافات العسكر الحماسية التي تعالت حتى خيل انها تبلغ عنان السماء . مما أوقع الفزع في قلوب من لم يألفوا شهود مثل هذا الموقف .

وأخذت صفوف الترك ترمي بنفسها على قواتنا ، ممطرة اياها بوابل هتان من السهام ، كأنها المطر الهتان فسدت الأفق ، حتى انه ما من أحد من المحاربين الصليبيين الا وقد أصابه جرح لتوالي السهام بعضها في اثر بعض ، وكانت كل رمية أكثف من سابقتها ، فان فات سهم واحدا أصابه التالي بجرح واذ كان هذا الأسلوب من القتال غريبا على رجالنا وليس مألوفا عندهم ، فقد صعبت عليهم مواجهته . وأخذت خيولهم تتهاوى تحتهم وأمام أعينهم ، وهم عاجزون عن نجدتها اذ كانوا هم أنفسهم مرمى ضربات تأتيهم من حيث لا يحتسبون ، ومن نواح سدت عليهم فيها مسالك الفرار ، ومع ذلك فقد استمروا يقاتلون خصومهم بالسيوف والحراب ، ويجاهدونهم دفعا الى الوراء ، حتى اذا عجز الترك عن الصمود بسبب

شده الغاره عليهم ، فنحوا صفوفهم عمدا لتجنب الالتحام ، فجازت الحيلة على الصليبيين اذ لم يجدوا واحدا يتصدى لهم ، ورجعوا الى مواقعهم فى الخلف دون احراز النجاح ، وحينذاك عاد الترك ثانيه فضموا صفوفهم ، وكروا على رجالنا صابين عليهم سيلا جارفا من السهام والنشاب ، حتى قل أن استطاع صليبى واحد فى هذه اللحظه النجاه من غير جراح خطيره نافذة . وقد قاوموا ما وسعهم المقاومة ، يحميهم ما عليهم من الدروع والزرديات والخود ، ولكن تساقطت الجياد على الأرض ، ووقع من لا سلاح معه واختلط الحابل بالنابل ٠

ولقد سقط فى هذه المعركه قرابه ألفين من وجـوه الفرسان والمشاه على السواء ، كان من بينهم « ولبم » ابن المركيز الطيب وأخو تانكريد ، وكان شابا ببشر يومه بما سيكون عليه فى غده ، ذلك أنه بينما كان مستبسلا فى الدفاع عن جماعته ، اذا بسهم غرب أصابه فصرعه ٠

كذلك لقى روبرت أوف باريس نهايته بنفس الطريقة ، وكان محاربا بارعا مشهودا له بالكفاءه ٠

بل ان تانكريد ذاته ــ الذى لم يكن يكترث بالحياه ولا يعبأ بمكانته السامية ــ كاد أن يكون هو نفسه من الهالكين ، وكان الموت منه قاب قوسين أو أدنى ، اذ طوح بنفسه فى معمعان القتال ، صابا على العدو أهوال الدمار ، ولكنه نجا بفضل ما بذله بوهمويد من جهد فانتزعه من براثن الموت رغم أنفه ٠ واستمرت كفه العدو تزداد رجحانا ، على حين شالت كفة الصليبيين وأخذت شوكتهم فى الضعف ، واذ ذاك شرع الترك فى مهاجمتنا بالسيوف ، وتضييق الخناق علينا ، وهم أقرب ما يكونون الينا ، حتى لم تعد أية جدوى

نرتجى من الفسى المدلاه من نجادها ، فاصطربت الصفوف ، واريد المحاربون الى حسب توجد أمعتهم وأحمالهم فى الغـابات الكثيفه المتشابكه ، وراحوا يتزاحمون حول العربات ، أملا فى أن يجدوا شيئا من الحمايه ٠

- ١٥ -

فى هذه الاثناء التى كان جيش الايمان فيها يحارب تحت عدء الظروف ، والتى أخذت فيها قوة بوهيموند فى الضعف والتلاشى ، خف لنجدتهم رهط من احوانهم الأساوس العظـام ، نطالع فيهم دوق جودفروى ، وكونت ريموند ، وهيج العظيم . وبلدوين أسماس أخا الدوق وسواهم من القادة الذين أخلصوا النيه لله وكانوا قد خلفوا وراءهم فى المعسكر من لا ظهر عندهم يركبونه ، ونركوهم مع شتى أنواع الأمتعة ، أما هم فقد هبوا نجدة على رأس أربعين ألف مقاتل من الفرسان ومعهم أحسن السلاح . فبث قدومهم الحماسة الشديدة فى رجال بوهيموند الذين كانوا على وشك التسليم ، فلما عاودهم بأسهم ، عادوا الى ساحة المعركة أشوق ما يكونون لأخـذ الثأر ، الثأر ، انتقاما لما نزل بهم من المصائب ومسح عار هزيمتهم السابقه ، وكروا على العدو كرة ضاربة ، وأجادوا الضرب بسيوفهم بأيد لا يعرف الكلل اليها طريقه وما لبثوا قليلا الا وقد هزموا الأعداء الذين لم يعودوا قادرين على الصمود ، والذين كانوا يخافونهم أشد الخوف ، ويحسبونهم أشد منهم بأسا ٠

★★★

وقد راح أسقف بوى ــ مع رهط من مساعديه فى نفس أسقفيته ــ تقوى عزائم الناس ويعظهم ويشـجع القادة ألا يتراخوا فى قتالهم

أخذا بدم من هلك من اخوانهم ، مؤكدا لهم أن النصر لابد مسعفهم من السماء ، ودعاهم الا يمكنوا خصوم الله وأعداء اسم المسيح من التباهي بأنهم أهلكوا المؤمنين . وظل رجال الرب يحثون الناس على القتال بهذه الكلمات وأمثالها من عبارات التشجيع ، وبثوا فيهم الشجاعة .

ومن ثم شن الصليبيون في همة لم نعهد فيهم من قبل ، هجوما عنيفا سلوا فيه سيوفهم على الأعداء ، مفرقين صفوفهم حتى حملوهم على الفرار ، وأعملوا فيهم مذبحة شرسة ، كما راحوا يتعقبون الفارين في اصرار وعزم مسافة ثلاثة أو أربعة أميال الى ما وراء معسكرهم الذى كان يقوم في واد شديد الخصوبة ، وكان القتل فيهم فظيعا .

وهكذا تبدد الترك أمام عدوهم متكبدين خسائر فادحة في الأرواح . ثم عاد الصليبيون الى معسكر خصومهم فجاءوا منه ببعض من قومهم [اللاتين] ممن كان العدو قد أسرهم ، وعثروا في هذا المعسكر على كميات كبيرة من الذهب والفضة ، كما استولوا على كثير من الحمير وبغال الحمل وقوافل الجمال (وهي دواب لم يسبق لقومنا رؤيتها من قبل) كما استولوا على بعض الخيل ووجدوا فيما وجدوا شتى أنواع الخيم والفساطيط المختلفة الألوان ، فأخذوا هذه المغانم الغالية كلها وقفلوا راجعين بها الى معسكرهم ترفرف عليهم رايات النصر ومحملين بأغلى الأسلاب ، وسائقين أمامهم الدواب والعبيد .

ويقال ان العدو فقد في هذا اليوم ما يقرب من ثلاثة آلاف رجل من رجاله الأقوياء البارزين من أصحاب المكانة الرفيعة في قومهم ، كما سقط في تلك المعركة أربعة آلاف من عامتنا ، ومن الطبقات الدنيا من الرجال والنساء على السواء .

ويقول أهل السن – اعتمادا منهم على ما تعيه ذاكرتهم – أنه لم يهلك من وجوه قومنا سوى اثنين فقط ، ولقد حرب الموقعة يوم أول يوليو ، وكان الحظ فيها بين صعود وهبوط كما أنها جرت بين قوات لا يكافىء أحد الجانبين فيها الآخر في العدد ولا في العدد ، واستمرت من الساعة السادسة حتى الثامنة من ذلك اليوم وقيل ان عدد الفرسان وحدهم الذين أحصوا في جيش قلج أرسلان كان يربو على مائة ألف وخمسين ألفا ، أما فرسان الصليبين الذين شاركوا في هذه المعركة فقد قاربوا الخمسين ألفا ٠

ولما فرغ الجيش من هذا النصر العشيب الذى هيأته له العناية الالهية انضم رجاله بعضهم الى بعض مرة ثانية ، وأتيحت لهم فترة راحة قصيرة صرفوها في مداواة جرحاهم ، وأقاموا ثلاثة أيام سويا وسط المراعى الخضراء مستجمين معننين بجيادهم ، وزاد في رفاهيتهم جميعا ما خلفه العدو وراءه رغم ارادته من مئونة وأحمال ضخمة من المأكولات الكثيرة ٠

★★★

وظهر قوادنا العظام ظهورا بينا في هذه الأزمة الخطيرة ، كما واتت الفرصة من هم دونهم لكسب المجد المؤثل ، لاسيما بلدوين بورج وتوماس لافير ، ورينو دى بوفيه ، وجالو دى شومونت ، وجاستون دى بيرن وجيرارد دى شريزى ٠

وتقرر منذ هذا اليوم بالاجماع أن تنضم الكتائب بعضها الى جانب البعض وتتوحد ، وأن تسير مترافقة كالجسد الواحد حتى يتقاسموا جميعا اقبال الحظ اذ يقبل ، وادباره اذ يدبر ٠

أمام المحاربين مستحمين فى هذه الناحية ثلاثة أيام كما فدا وكانوا هم وجيادهم أحوج ما يكونون لهذه الراحة ، ثم لما ناداهم النفير استعدوا مرة أخرى لمتابعة رحلة حجهم التى بدأوها ، وكان طريقهم الذى سلكوه يمر عبر كل بلاد بسينيا الى بسسديا ، وقد دفعهم رغبتهم فى اختصار زحفهم الى النزول عن عبر قصد فى اقليم جاف ، يكاد يكون بأكمله خلوا من الماء ، ولما صاروا فريسة للخطرين الجسيمين : الظمأ وشدة قيظ يوليو كما هى العادة ، فقد أخذ أعداد كبيرة منهم فى الهرب ، وتقول الروايات أنه هلك يوم ذاك أكثر من خمسمائة من الحجاج من شدة العطش والحر ، وتمضى الرواية فتقول ان الحوامل من النساء طرحن ما فى بطونهن من شدة الظمأ والحر المهلك ، وكان ذلك حدثا لم يسجل التاريخ له مثلا ٠

أما النساء اللاتى كن يعانين غصص الكرب الشديد ، فقد خلفن أطفالهن فى المعسكر ، منهم الأحياء ومنهم الموتى ، وفيهم من يعانون سكرات الموت ، ودفعت الرحمة الانسانية غيرهن الى احتضان أطفالهن فى صدورهن ، غير آبهات أن يراهن الرجال وهن ينطلقن فى الطرقات شبه عاريات ، لا يشغل بالهن شىء سوى خطر الموت المفزع ، غير حافلات بأنوثتهن ٠

★★★

ولم يجد الرحال فتيلا قوتهم الجثمانية الهائلة ، فأعمى عليهم من وطأة الحر ، ومما بذلوه من جهد ، فراحوا يلهثون بأفواه مفتوحة، وأنوف تتلهف على نسمة ريح ، ويسعون لالتماس الرطوبة ، عساها تخفف بعض ما هم فيه من ظمأ ، لكنهم لم يجدوا شيئا مما ينشدونه٠

لم يقتصر مكابدة هذه الأهوال على الآدميين وحدهم ، بل تعدتهم أيضا الى دوابهم التى تحمل متاعهم فعصتهم كل بهيمة ذات ظلف كانت تستجيب لكل ما تؤمر به ، أما الطيــور الصغيرة والصقور المحلقة فى الســماء فقد لفظت أنفاسها . كما أن البزاة التى كان النبلاء يستمتعون بها أثناء خروجهم للصيد والقنص فقد ماتت هى الأخرى فى أيدى أصحابها ، على الرغم من الرعاية القصــوى التى يحيطونها بها ٠

وأما الكلاب ذات حاسة الشم النافذة والمدربة على الصيد ، والحيوانات الأليفة فقد هجــرت أصحابها الذين تتبعهم ، وراحت تتساقط على طول الطريق وهى تلهث من الظمأ ، وكان أشد الأشياء ايلاما للسادة وأوجعها لنفوسهم ، هى أن جيادهم الصافنات ـ وهى رفيقتهم فى حروبهم وكان عليها كل اعتمادهم فى طلبهم الســلامة لأنفسهم والتى حققت الفخــر لنفسها بقوائمها الوثابة وأســنانها الراقية ـ نفقت هى الأخرى نافقة كما نفقت دواب الحمل العادية تحت وطأة الحرارة والظمأ ٠

وأخيرا تفضل رب كل الرحمة ورب السلوى، فأنقذ هؤلاء الحجاج المعذبين الظماء اذ قادهم الى نهر كانوا أحوج ما يكونون اليه وقد طال بحثهم عنه ، فتدافعوا الى مائه فى لهفة مجنونة ، وراح كل منهم يزاحم الآخر فى الوصول اليه . لكنهم بعثورهم على هذا الماء الذى طال شوقهم اليه سقطوا فى خطر أكبر مما هم فيه ، حيث أقبلوا يعبون منه عبا ، ولا يستطيعون مسك أنفسهم عن الشرب ، فكان ذلك خطأ منهم فى هذه الحال ، اذ كانت كثرة الماء تحمل لهم الهلاك، الذى كانوا قد نجوا منه من قبل ، ولم يقف الأمر عند هلاك الآدميين بل نفق كثير من دوابهم بنفس الأسلوب ٠

ثم شاءت عناية الرب أخيرا أن تنقذهم من هذه الأخطار فجاءوا

الى ناحية شديدة الخصب والنماء قرب أنطاكيه الصغرى ، عاصمه بسسديا ، وكانت من أجمل النواحي لما فيها من القنوات والمراعى ، فضربوا مخيمانهم في حقولها الخضراء ٠

- ١٧ -

وحدث لأول مرة في هذا الموضع أن عمد بعض الزعماء الى الانفصال بقواتهم عن الجيش الرئيسى ، وكان أول من فعل ذلك منهم بلدوين أخو الدوق ، وانضم اليه بطرس كونت سننناى وأخوه رينارد كونت تول ، وبلدوين دى بورج ، وجلبرت دى مونت كلير، واستصحبوا معهم سبعمائة فارس وجماعة من الجند المشاه ٠

أما باقى القادة الذين انفصلوا عن الجيش فكان تانكريد وفى صحبته ريسارد من برنسيباتس ، وروبرت أوف انزى على رأس قوة كبيرة قوامها خمسمائه فارس وبعض الجند المشاه ٠

كان يحرك هؤلاء الفرسان جميعا غرض واحد لا يختلفون فيه، ألا وهو استطلاع الطرق واستكشاف الاقليم المجاور . والبحث عما يجدونه ، وكان عليهم بعد ذلك أن يبعثوا الى الزعماء الذين أرسلوهم جميعا بتقارير عن كل ما حدث بالنسبة للزمان والمكان ، وأن الجيش يمكنه متابعة الزحف في سلام وطمأنينة ، وكانوا فى بداية مغادرتهم المعسكر ملازمين للطريق الرئيسى فمروا ببعض المدن المجاورة ومنها قونية وهرقلية ، ثم عرجوا بعدئذ يمينا ، وأخذوا يحثون الخطى ناحية الساحل ٠

في هذه الأثناء اسمهوى الدوق والقاده الآخرين ممن ظلوا في المعسكر حسن منظر النواحي المحيطة بهم وبهاؤها ، وجذب انتباههم قرب المكان من الغابات ، فانطلقوا الى واحدة منها في طلب الصيد وذلك لانهم أحسوا وهم في غمرة انشغالهم بالعمل المضني بحاجتهم الى الترويح عن أنفسهم بعض الشيء ، وودوا لو خلوا وراءهم — ولو لفترة قصيرة — ما يشغل بالهم من أمور كانت تقلقهم على الدوام ، فلما دخلوا الغابة استلفت انتباههم كثير من مباهجها ، فتفرقت بهم المسالك ، ولاقوا مخاطر جمة ·

فأما الدوق الذي خرج للغابة التماسا للرياضة وللهو ، فقد واجه على غير انتظار دبا بشع المنظر يتأهب ليعض على رجل من الفقراء الحجاج يعمل حطابا قاصـدا افتراسه ، وعبثا كانت مجاهدة الرجل في العثور على ملجأ يهرب اليه فرارا من الدب · فلم يسعه الا الصراخ بصوت عال يسأل المعونة في محنته الخطيرة التي هو فيها ، وشاء القدر أن يظهر في هذه اللحظة الدوق الذي أشفق على رفيقه المنكوب ، فاندفع لنجدته ، فما كاد الدب يرى الدوق الذي كان موشكا أن يرفع سيفه لضربه حتى انصرف عن فريسته الأولى وألقى بنفسه على الخصم الشجاع ، مكشرا عن أنيابه ، ومسددا نحوه مخالبه ، فأصاب حصانه بجرح خطير وجد الدوق نفسه ازاءه مضطرا للنزول عن ظهره ، مصلتا سيفه لمهاجمة الوحش الذي زمجر زمجرة ترتعد لها الفرائص ، وأقبل على الدوق فاغرا فاه ، مكشرا عن أنيابه · غير مكترث بسيف الدوق ، بل هم بالامساك بصاحبه الذي رد هجمته بحسامه محاولا جهده أن يطعنه طعنة نجلاء ترديه ، فتحاشى الحيوان السلاح ، وطوق الدوق بذراعيه وطرحه أرضا ، فلم يعد الدوق يملك دفاعا عن نفسه اذ علاه الوحش ، وأصبح من اليسير عليه أن يمزقه اربا بمخالبه وأسنانه ، ولكن المحارب الباسل استل حسامه ، واذ كان شديد البأس فقد احتضن الدب المهاجم

بيسراه ، بينما أعمدت نماه سنفه حتى مفصه فى حنبه فصرعه ، وهكذا كسب الدوق الجولة بالدم وان حرح منها تحرح حطر فى ساقه ارتمى منه على الأرض وفد وهى بدنه وسرى الصعف فى كيانه اذ انساب من دمه ما لم يعد معه فادرا على النهوض ٠

وتعالى صراح الرجـــل العفر الذى فدرت له النجاه بفضـــل مساعده الدوق له . فنبه صاحه العسكر لما حرى ، فانطلقوا كلهم صوب الناحية التى كان البطل السجاع ـ حامى الجنوس ـ مسجى فيها ، وفد أتخنته حراحه فوضعوه على محفة ، وحمله القادة الآخرون الى المعسكر وسط نكاء الجميع . واستدعوا له المطببين الذين بدلوا المحاولات السافه لانقاذه ، ووصفوا له من الأدوية المناسبة ما جعل الأمل يداعب النفوس فى أن يسترد عافيته ٠

- ١٨ -

حدث فى هذا الوقت بالذات أن اعترى المرض الشديد رودولف كوتت دولور ، ذلك المبجل الذائع الصيت ، وحمل هو الآخر فى محفه وقد أنهكـــه علته وأثقله مرضه . حتى انهم لما وضعوه على الأرض فى انتظار موته كانت أنفاسه شبه مقطوعة ، فقام ولىم أسقف أورانج الطاهر السلوك بأداء كل الشـــعائر التى تؤدى للمؤمنين ، مثلما يفعل ازاء رجل قد انتهى ولفظ أنفاسه ٠

واذا رأى العسكر أنهم قد حرموا ـ أو كادوا أن يحرمــوا ـ من توجيهات هذين الرجلين العظيمين فقد ران عليهم من اليـــأس

ما كاد ان يصرفهم عن متابعة رحلة الحج الذى كانوا قد قطعوا العهد على أنفسهم للقيام به . واستحوطوا جميعا فى البكاء لانشغال بالهم بحاله قائديهما ، وقام كل الحجاج أثناء بأديهم الشعائر الدينية برفع أكف الضراعة للرب عساه يرد على هذين الزعيمين عافيتهما ، فأصغى اليهم الرب الرحيم واستجاب لتوسلاتهم ودعائهم ، ورد على الرجلين صحتهما ، وأصبحت الرحمة لصلوات شعبه .

ولما انتهى العسكر الحجاج من اجتياز ببسيديا دخلوا اقليم ليكونيا ، وجاءوا الى عاصمته قونيه ، وكانت هذه الناحية قاحلة جرداء . فابتلوا فيها بنقص كبير فى الطعام أدخل اليأس الى قلوبهم، وكان الترك قد علموا من قبل بزحفنا عليهم . فانطلقوا يعيثون فسادا فى الاقليم بأجمعه ، ونهبوا جميع مدنه اعتمادا منهم على عجز رجال أى مدينة عن المقاومه . وزادوا على ذلك بأن سبوا النساء ، واسترقوا الأطفال ونهبوا كل ما صادفوه من الماشية والأغنام ، ثم فروا الى الجبال المنيعة متحصنين بها . وكان أملهم الوحيد هو أن يبادر الصليبيون الى مغادرة الاقليم حين يبلغ الجهد منهم غايته بسبب حاجتهم للطعام ، ولم تكن الترك واهمين فى هذا الأمل ، اذ فر الحجاج من هذه الناحية القاحلة التى لا تستطيع اسعافهم بما يقيم أودهم وغادروها على جناح السرعة .

فلما خلفوا هرقليه وراءهم ، جاءوا الى مدينة مرعش ، فنصبوا معسكرهم بها . وأقاموا بها ثلاثة أيام .

وفى أثنـــاء وجودهم فى مـدينه مرعش هـذه فاضت روح [جودهيلد] زوجة بلدوين ـ أخي جودفروى ـ الذى كان قد تركها في رعاية أخويه حين سفره ، فرقدت فى الرب فى هدوء ، ولفظت

انقاسـا بعد مرض عضال أمضها ، وكانت «جودهيلد» (١) هذه امرأة شريفة المولد ، عاشت حياة حميدة طاهرة ، وتخلقت بالخلق الكريم ، ودفنت حيث ماتت ، بعد أن أقاموا لها شعائر الشرف الجديرة بها ٠

- ١٩ -

في هذه الأثناء قام تانكريد الفاضل ، وهو من هو في الفضل بفرض الحصار على طوروس وهي أهم مدن تلك الولاية . ونجح اذ سلك أقصر الطرق فكان أول من بلغ قليقيا احدى ولايات الشرق، وبناء على ما يقوله القدماء فان ولاية « أنتيوكينا » كانت تسمى بمنطقة الشرق ٠

ويتاخم قليقية من الشرق ولاية كوابسيريا ، « سـوريه الشمالية » كما تتاخمها من الغرب ايسوريا ، ويحدها من الشمال جبال طوروس ومن الجنوب بحر ايجة ، ويوجد بها مدينتان رئيسيتان هما طرسوس موطن معلم المبتدين ومهبط رأسه أما الأخرى فتدعى « عين زربة » ولكل منهما قراها التابعة لها . ومن أجل هذا يقال أنه يوجد قيليقية الأولى وقيليقيه الثانية ٠

والقول السائع أن مؤسس طرسوس كان يدعى « طارسيس » وهو ثاني أولاد « جافام » ابن يافث الذي تذهب الروايات القديمة الى أنه الابن الثالث لنوح ، ويدللون على صحة هذا القول بأن المدينة تحمل اسم مؤسسها ٠

---

(١) أشارت الترجمة الانجليزية في تعليقها على ذكر هذه السيدة أنها عرفت بأكثر من اسم ، ومع أن وليم أثر من هذه الأسماء كلمة « جوتيريا GUTEREA»

الا أننا نفضل « جودهيلد » بناء على المراجع الواردة في هذه الحاشية الانجليزية ٠

ومع ذلك فان لسولسوس رأيا مخالفا لهذا الرأى بشأن عدد المؤسس ، فيقول فى الفصل الثالث والأربعين من كتابه «المذكرات» « وتبع فليقيا مدينة طرسوس التى هى أم المدن ، والتى أسسها برسيوس داناى الشريف ، ويسقها نهر « كيندس » الذى يقول بعض النقات انه ينبع من جبال طوروس وينحدر انحدارا عميقا مجيقا ، على حين يذهب آخرون للقول انه أحد روافد نهر « هيد اسباس » ٠

وربما كان هناك شىء من الصحة فى كلا القولين من أن مؤسسها هو طارسيس ، ثم جاء من بعده برسيوس فحصنها وزاد فيها ٠

أقام تانكريد ورجاله على حصار مدينة طوروس بضعة ايام حتى أرغم أهلها ــ بالوعيد تارة والكلام المعسول تارة أخرى ــ أن يقبلوا ما رسمه من ادخال رايته ورفعها على أحد أبراجهم رمزا لاعترافهم بالخضوع له . فاستجابوا لطلبه هذا ، مشترطين عليه أن يظلهم بحمايته حتى يحضر بوهموند والجيش الرئيسى ، وألا يحملهم ــ خلال الفترة الواقعة فيما بين دخوله وقدوم بوهيموند ــ على مغادرة دورهم أو ترك مزارعهم ، فان رضى بهذه الشروط قبلوا أن يسلموا المدينة فى هدوء الى بوهموند حين يصل ، ويبدو أن هذا العرض كان مرضيا لتانكريد . فقد قبله هو أيضا ٠

كان أهالى هذه المدينة مسيحيين مثل جميع بقية سكان الاقليم ، وهم يتألفون من الأرمن والاغريق ، غير ثلة قليلة من الترك الذين كانت لهم الغلبة الحربية لمهارتهم فى استعمال السلاح . والذين كانت حراسة الحصون موكولة اليهم ، ويقع على عاتقهم مهمة قمع الأهالى بالشدة ، أما المؤمنون فلم يكن مسموحا لهم بحمل السلاح ومن ثم صرفوا همتهم لممارسة التجارة والاشتغال بالزراعة ٠

فى هذه الأثناء كان بلدوين ــ أخو الدوق ــ ورفاقه الذين

سلكوا مسالك لم نكن مألوفة ـ في مسيس الحاجة للطعام ، لكن تسنى له أخيرا ، بعد جولات دائرية ، أن يصل بالصدفة الى قمة جبل من الجبال استشرف منها منظرا يمتد حتى البحر الى قيليقيا ومدنها المسابرة تحت قدميه ٠

★★★

ولما تبين لبلدوين أن هناك معسكرا حول طرسوس ، تسرب المخاوف أن يكون قد ضل الطريق ، وأن تكون هذه الخيام خيام عدوه ، بيد أن رغبته الملحة فى الوقوف على هوية هذا الاقليم وعمن يكون أصحاب هذا المعسكر الذى يراه على بعد دفعته للخروج على رأس جماعته بما عرف عنه من الاقدام ، ونزل بهم الى السهل ٠

وكان تانكريد قد أقام لنفسه هو الآخر عيونا فى نقاط مرتفعة، كما أخذ حذره توقعا لأى عدوان قد يقوم به العدو ، فاستدعى فى الحال الية رفاقه فى الحرب وحملوا أسلحتهم لتعينه بأن الذين رآهم انما هم عسكر الخصم ، جاءوا نجدة للمدينة ، فصاح فى رجاله مشجعا اياهم ، وخرج بهم رافعين راياتهم لصد القوات الزاحفة ، ولم تطر روحه شعاعا لايمانه بالله ، فلما اقترب المصافان بعضهما من بعض ورأى كل واحد منهما الآخر رؤيا العين ، عرف أن ليست هذه أسلحة العدو ، فبدنا اذ ذاك كل واحد من الآخر فى اطمئنان وتعانقوا ٠

وبعد الفراغ من الأحاديث الرقيقة المألوفة انضم بعضهم الى بعض وتابعوا زحفهم الى المدينة لاكمال الحصار ، فتلقاهم تانكريد بالترحاب والاكرام ، وأولم لهم ليلتهم هذه وليمة قدم لهم فيها لحوم الأغنام والماشية التى نهبوها من النواحى المتاخمة ٠

ولما أشرق الصباح وتجلى النهار ، رأى بلدوين ورفاقه راية تانكريد تخفق على أعلى برج بالمدينة ، فتملكتهم الغيرة فى الحال بأنيابها ، ونسوا أواصر الحب والأخوة التى عقدوها فيما بينهم أثناء زحفهم فى سلام ، وهى الأواصر التى صمموا ـ أفرادا وجماعات ـ على أن تظل عراها ثابتة لا انفصام لها ، لكن الذى جرى كان عكس ذلك ، اذ غضب رجال بلدوين من جرأة تانكريد على رفع رايته فوق المدينة ، فى الوقت الذى يوجد فيه كثيرون غيره من الأمراء الحاضرين، وهم أكثر منه جندا ، وأكثف عسكرا ٠

كان تانكريد رجلا متواضعا فأراد فض غضبهم ، فأنكر أن يكون قد استهدف اهانتهم من وراء رفع رايته ، وقال انه اتفق على رفعها مع أهل المدينة بسبب بسالته ، وذلك قبل وصول الزعماء . وقبل أن يخامر الأمل أحدا فى قدومهم ٠

أما بلدوين الذى راح أصحابه يثيرونه بكل فواهم ، ويحثونه على سلوك هذا السبيل ، فلم يعبأ بما فعله تانكريد ، بل نهج عكس هذا النهج ، وكان مدفوعا فى ذلك بانفعالاته ، فجاوز حدود الفطنة، فتطاول على تانكريد بكلماته السفيهة ، وأدت غطرسته الى مأزق أوشك فيه كل منهما أن يقاتل صاحبه ، ويفتك به ، وأخيرا استدعى بلدوين اليه أهل البلد ، وهددهم علانية بتخريب المدينة وما جاورها من النواحى غير عابيء بما وعدهم به تانكريد من بسط حمايته عليهم ، ان لم يبادروا الى انزال راية تانكريد ونصب رايته هو مكانها ٠

ولما رأى الأهالى أن بلدوين أشد من تانكريد بأسا وأكثر منه جندا فقد أذعنوا له على نفس الشروط التى سلف لهم اشتراطها على

تانكريد الذى أنزلوا رايته ورفعوا مكانها علم بلدوين ، فلما رأى تانكريد هذا الحيف الذى حاق به أحرقه الغيظ عن حق ، لكنه كظم غيظه بفضل ما طبع عليه من رجاحة العقل . ومن تعوده الصبر على تحمل الآلام شفقة منه من حدوث شقاق خطير بين قوات المؤمنين . لذلك نقض معسكره ، وارتد الى مدينة مجاورة تدعونها « أدنه » ، فلما بلغها لم يأذن له أهلها بدخولها لان شخصا معينه اسمه «حلف» من الأمة البرجندية كان قد استولى عليها ، وكان « حلف » هذا انفصل عن الجيش الأصلى مع ثلة من الآخرين ، وجمع اليه حشدا كبيرا من الناس انخرطوا تحت رايته ، وشاءت الصدفة أن تؤدى به الى أذنة حيث طرد منها الترك ، واستولى عليها قسرا .

ولما علم تانكريد أن مشيئه الرب قد أسقطت هذه المدينه فى أيدى شعبنا ، بعث الرسـل الى حلف يلتمس منه فتح أبوابهـا لندخلها جماعته وأعلمه أنه يبغى النزول بها وشراء ما يحتـاجه عسكره من ضرورات العيش . فاستجاب حلف للرسـل ، وأمد تانكريد وخيله بكل ما هو لازم لهم فى كماية وفيرة جعل بعضها اليه هبة . والبعض الآخر بأثمان معقولة ، وذلك لان حلف كان قد وجد المكان مليئا بالذهب والفضة وقطعـان الماشية والأغنـام والحبوب والنبيذ والزيت ، وقصارى القول بكل شيء نافع .

- ٢١ -

حين طلع النهـار رحل تانكريد من المدينة بكل من معه وأغذ السير فى الطريق الرئيسى المؤدى الى المصيصة ، التى كانت واحدة من أروع مدن هذا الاقليم ، والتى نالت حظا من الشهرة بفضـل

أسـوارها وأبراجها وكثره سكانها ، كمـا زاد فى قدرها موقعها البهج ، وحقولها الخصبة ، وأرضها العسة ، وما كاد تانكريد يعسكر على مقربة منها حتى أغار عليها وراوحها بسلسلة غير مقطوعة من الغارات حتى تمكن من الاستيلاء عليها فى مدى أيام قلائل بمعونة الرب ، وحكم السيف فى رقاب أهلها المارقين ٠

ووجد بها تانكريد ثروات ضخمة وكميات كبيرة من الميرة من كل صنف فوزع على أتباعه كل ما وجده ، فى أنصبة يلائم كل منها ما أداه كل حاج من الخدمة ، ففاضت أيديهم بما ملكوا ، وعوضهم الطعام الوفير عن أيام المسغبة التى قاسوها من قبـل ، كما استسلموا فى الوقت ذاته للراحة ، وأقبلوا على أكل ما يشتهون . وأطلقوا ما عندهم من دواب النقل حرة ترعى كيف شاءت ٠

- ٣٢ -

راح بلدوين - بعـد رحيل تانكريد - يكثر من تأنيب أهل طرسوس ويهددهم تهديدا شديدا ويحذرهم مره بعد أخرى ، وأمرهم أن يفتحوا الأبواب أمام عسكره ليدخلوها ، اذ خيـل اليه أن العار لاحقه ان هو أضاع الوقت بلا عمل حتى مجىء الجيش ، فخـاف الأهالى منه أن يهاجم المدينة من قرب ان هم رفضوا اطاعة أمره ، لما رأوا من عجز تانكريد عن مقاومته ، هذا الى جانب زعزعة ثقتهم فى قدرتهم الذاتية فجعلوا من الضرورة فضيلة ، وفتحوا الأبواب وأدخلوا بلدوين وجميع عسكره ، وخصصـوا برجين جعلوهما فى وقتهما الراهن سكنا خاصا له ٠

أما بقية جنده فقد تفرقوا فى بيوت المؤمنين من أهل المدينة ٠

وأما الابراج الأخرى فكانت فى أيدى الترك الذين كانوا لا يزالون يحتلون المدينه ، وكانوا أكثر منهم عددا . هذا بالاضافة الى أنهم كانوا يملكون بلا جدال معظم استحكامات البلد . ومع ذلك كانت الريبة تخامر نفوسهم من ناحية طائفه النصارى الذين أذنوا [لعدوه] بدخول البلد ، واذ لم يكن لديهم ثم أمل فى نجده تأتيهم . فقد كانوا يلتمسون الفرصـة للتسلل فى الخفـاء الى خارجها مع زوجاتهم وأبنائهم وما ملكت أيديهم .

وحدث فى هذه الليله بالذات ان وصل الى طرسوس ثلاثمائه رجل من حمله بوهيموند كانوا فى طريقهم للانضمام الى تانكريد . فأصدر بلدوين أمره بعدم السماح لهم بدخول المدينه ، ولما كان طول السفر قد أرهقهم ، وقلص فى أيديهم ضرورات العيش . فقد ألحفوا فى السؤال التماسا للسكن وعقد سوق لهم . فعطف عليهم فى محنتهم هذه رفاقهم من الحجاج الذين هم دونهم مكانة والذين كانوا فى المدينة ، وألحوا فى طلب الاذن لهم بالدخول لكنهم ردوا فاشلين ، لأنهم كانوا ، كما قيل طائفة من رجال حملة بوهمموند الذين كانوا مغذين السير لمساندة تانكريد .

وعلى الرغم من عدم قدرة المسيحيين الموجودين فى المدينة من الخروج الا أنه لم تكن تنقصهم العواطف الأخوية فراحـوا يدلون الحبال بالسلال من الأسوار ملأى بالخبز ، والروايا مترعة بالنبيذ ، وهكذا أمكنهم امـداد الذين بالخارج بالطعام الكافى لهم فى هـذه الليلة ، ولما وجد هؤلاء الرجال ألا مناص لهم من البقاء خلف الأسوار فقد وطنوا أنفسهم على الاقامة أمام أبواب المدينة ، وتدبر حاجاتهم جهد استطاعتهم .

فلما كان الليل استسلم للنوم العميق والراحة التامة من داخل المدينة وخارجها على السواء من المسيحيين ، وضرب السكون أطنابه

ولكنه كان سكونا مريبا ، فقد قام الترك وغيرهم من كفار طوروس بفتح الباب فى هدوء تام ، وخرجوا متلصصين مستصحبين معهم نساءهم وأطفالهم وعبيدهم وكل ما ملكت أيديهم ، وذلك لأنهم لم يكونوا يشعرون بالهدوء فى بلدهم الى جوار هؤلاء الضيوف الذين نزلوا بينهم على كره منهم ولكنهم خافوا مساكنتهم ، وأصبح هؤلاء الترك قادرين كل القدرة على مغادرة المدينة متى شاءوا ، اذ كان فى أيديهم بوابة أو اثنتان من بواباتها ، وأبوا الا أن يخلفوا وراءهم انتصارا دمويا على عدوهم ، ذلك أنهم بعد أن فرغوا من ارسال أحمالهم وما ثقل من متاعهم أمامهم عادوا ففتكوا بكل الذين كانوا يغطون فى سباتهم العميق .

- ٢٣ -

فلما كان اليوم التالى وقد ملأ النور الكون ، استيقظ مسيحيو المدينة فوجدوها مهجورة ،فعجبوا كيف هرب العدو من غير ضجة . وانطلقوا الى الأسوار ومداخل المدينة عساهم يعرفون كيف تمكن هؤلاء من التسلل الى خارجها ، وبينما كانوا يتقصون الأمر فى دقة وينقصون كل ركن وزاوية اذا بهم يطالعون آثار المذبحة التى أنزلها الترك الفارون بخدام المسيح فحزنوا أشد الحزن ، وتقطعت نفوسهم حسرات وأسلموا أنفسهم للبكاء .

ثم وقف رجال الطبقة النابهة على بعد من الآخرين وحملوا السلاح ضد بلدوين وغيره من الزعماء الذين يشأونه مكانة ، وذلك لأنهم اعتبروهم السبب فى هلاك رفاقهم الحجاج ، حين أبوا أن يستضيفوهم ، وكانت هذه الاستضافة واجبا لا يصح التنصل

منه ، كما كانت حقا لكل ذى حاجة ، ومن ثم فقد استبد بهم الحنق، فاندفعوا اندفاعا عدوانيا يقصـــدون النيل من زعمائهم الذين لولا انسحابهم الى الأبراج العـــالية لقتل منهم مثل الذين قتلوا وراء الأســوار ٠

ولما رأى بلدوين أخيرا أن الهرج الذى استولى على الناس بحق، آخذ فى الزيادة ، راح يدبر فى لهفه كيف يبرر مسلكه ، وكيف يعتذر عن نفسه عند قومه ، عسى أن تهـدأ ثائرتهم ، ويركنوا الى السكينة ، فتريث لحظة استرد فيها أنفاســه ، وسألهم الانصات فهدأت غاغة الرجال قليلا وان كانوا لا يزالون مشهرين أسلحتهم ، وراح هو يبرىء ساحته عندهم ، مقسما لهم بأن السبب الوحيد الذى حمله على اغلاق أبواب المدينة فى وجه الحجاج هو أنه كان قد وعد وعدا لا حنث فيه ألا يسمح لأحد بدخولها حتى يصل الدوق ، كما أن كلماته المرائية ، وألفاظ الاستعطاف التى كان لابد منها فى مثل هذا الموقف والتى قالها وقالها بعض أشرافهم فعلت فعلها ، وأفلحت فهدأت من ثائرة الناس بعض الهدوء وتراضوا فيما بينهم ٠

وهكذا انتهى النزاع ، ولبث القوم هناك فى سكون بضعة أيام ، حتى رأوا أسطولا يمخر البحر على مسافة تقرب من ثلاثة أميال من طرسوس ، فما كاد الفرسان والمشاة يطالعون هذه السفن حتى، هبوا سراعا ناحيتها ، وتحدثوا مع القادمين من البحر فعلموا منهم أنهم نصارى ، ولما سألوهم من أى البلاد هم قالوا انهم من فلاندرز وهولندة وفريزيا ، حيث ظلوا يمارسون القرصنة ثمانى سنوات ، ثم صحت ضمائرهم فندموا على ما كان منهم ، وتابوا عن اثمهم فركبوا هذا البحر فى طريقهم الى القدس للصلاة ٠

فلما عرف رحالنا أنهم مسيحيون مثلهم دعوهم لدخول الميناء ،

وصافح بعضهم بعضا ، وبادلوا فيما بينهم قبلات السلام ، وبعد أن أرست السفن آمنة بالثغر قادوا رجالها الى طرسوس .

كان زعيم هؤلاء القوم يدعى « جينمار » من اقليم بولونيا ، ومن مقاطعة كونت استاس ، والد جودفروى ، وما كاد جينمار يعلم أن بلدوين هو ابن سيده حتى ترك الأسطول وتهيأ لمرافقته الى القدس ، وكان جينمار فاحش الثراء وزاد من ثرائه هذه الحرفة الدنيئة التى مارسها ردحا طويلا من الزمن ، وكان فى خدمته رهط كبير من الناس أبى معظمهم الا مصاحبته حين علموا بعزمه على اتباع بلدوين ، واذ ذاك انتقى انتقاء دقيقا خمسمائة من أتباع القائدين لحماية المدينة ، أما كل من سواهم فقد راحوا يتهيئون للخروج للبحث عن حظوظهم .

- ٢٤ -

غادر الجيش طرسوس ميمما وجهه شطر المصيصة حتى بلغها، وكان تانكريد كما قلنا من قبل — قد احتلها عنوة منذ أمد قريب ، وأحكم قبضته عليها فأنزل بلدوين جنده خارجها وفي البساتين المحيطة بها . ليقينه التام بأن تانكريد لن يسمح لهم قط بدخول المدينة .

ولما ترامى الى سمع تانكريد خبر وصول بلدوين ، وانه نصب معسكره على مقربة منه ، غلى مرجل غضبه ، وثارت ثائرته وتأججت نيران سخطه اذ عاودته ذكرى المصائب التى صبها هذا الرجل ظلما

وعدوانا عليه ، ودعا رجاله وهو في سوره حنقه الى حمل السلاح مجمعا العزم على رد الصاع صاعين ، وأن ينزل ببلدوين من الأذى مثل الذي أنزله هو به من قبل ، ومن ثم أنهض فرقة من رماة النساب لرمي جياد بلدوين التي سرحها في المراعي ، ولأخذها أو دفعها . كما خرج تانكريد ذاته في خمسمائة فارس في دروعهم مهاجما بهم معسكر بلدوين وآخذا الحراس على غره منهم قبل أن يمكنوا من امتساق سيوفهم ، حتى كاد أن يفسهم عن بكرة أبيهم ، ولكنهم مع ذلك هبوا الى أسلحتهم واستعدوا للمقاومة ، وجرت في اثر ذاك معركة عنيفة ، استبسل فيها كل من الجانبين استبسالا ضاريا كما لو كان كل واحد منهم يحارب خصما لدودا ، فسقط من الجانبين قتلى كثيرون ، وأسر كل فريق رجالا من رجال الفريق الآخر . غير أن عسكر تانكريد كان دون عسكر بلدوين بأسا ، وأقل منه عددا ، ثم ان القتال أجهد تانكريد اجهادا لم يعد قادرا معه على تحمل شدته ، فاضطر الى ترك ساحة المعركة ، والارتداد الى المدينة .

★★★

كان الجسر الشديد الضيق الذي يعلو النهر الفاصل بين معسكر بلدوين وبين المدينة يقف عقبة كأداء في وجه قوات تانكريد وهي تسرع في الفرار الى المدينة ، حتى لقد هلك رهط غير قليل من فرسانه ومشاته ، وان أسعف الفرار ثلة منهم هربوا الى داخل البلد ، ولولا أن الليل أرخى سدوله مما أدى الى وقف القتال لكان من الممكن أن تكون الخسائر أفدح مما هي عليه ، نظرا لما كان يكنه كل فريق من كراهية تضطرم كالنار في قلبه للفريق الآخر .

كان من بين أتباع تانكريد الذين وقعوا في الأسر رجال نبلاء بارزون منهم واحد من ذوي قرباه اسمه ريتشارد دي برنسباني .

وآخـر اسـمه روبرت دانزى ، وكانت مشـوره هدين الرجلين وتحريضاتهما هى السبب الرئيسى فى قيام نانكريد بحركة الانتقام التى ذكرناها .

كما وقع فى أسر نانكريد واحد من أتباع بلدوين ومن علية القوم وأسماهم مكانه ، هو جلبرت دى مونت كلير ، ونجم عن غياب هؤلاء القادة أن شاع الاضطراب فى صفوف كلا الجانبين ، اعتقادا منهم بهلاكهم فى معركة اليوم .

وحين ذر قرن الفجر فى اليوم التالى أخذت أحاسيس الكراهية فى التلاشى ، وخفت سورة الغضب ، وكان الفضل فى ذلك للرحمة الالهية اذ تذكروا ما جاءوا من أجله ، فصفا تفكيرهم وعاد الى هدوئه . ومن ثم مضت الرسل بين الجانبين تنشد اقرار السلام ، ورجع كل أسير الى جماعته ، كما راحوا يتبادلون قبلات السلام ارضاء لكلا الجيشين ، وعاد الوئام يرفرف من جديد بين الجميع وأظلهم السلم بجناحيه .

- ٢٥ -

نزل بلدوين على طلب رفاقه ، وعاد من المصيصة منضما بكل عسكره الى الجيش الأصلى الذى كان قد وصل ــ كما قلنا ــ الى مرعش ، وكان بلدوين قد علم بالحادث الخطير الذى ألم بالدوق فى بيسيديا أمام انطاكية فاشتد جزعه على سلامة جودفروى ، وأراد أن يتأكد تماما عن واقع حاله .

كان نانكريد فى هده الأثناء قد زاد من بأس قواته بمن صمهم اليها من الرجال الذين جاءوا فى صحبة الأسطول ، فكثر جيشه بهم كثرة بالغـة ، مكنته من اجتياح كل ملقبا ، والاستيلاء قسرا على معاقل العدو انى وجدها فأضرم النار فيها حتى تهاوت الى الأرض ، واذ ذاك عرض من فيها على السيف فقتلهم جميعا ، وكان آخر مكان عصف به جنده هو « الاسكندرية الصغرى » التى استولى عليها أيضا رغم مقاومتها اليائسة ، فمكنه هذا النصر الأخير من أن يصبح مسيطرا على الاقليم كله .

سرعان ما تواردت الأخبار تشير الى تمام استيلاء تانكريد على كل المنطقة ، بفضل ما تجمع لديه من مختلف القوات ، فارفضت قلوب الترك والأرمن الجبليين خوفا من أن يعوج تانكريد عليهم ، ويفتح مدنهم ، ويسترق أهلهم ، فراح كل ينافس الآخر فى سرعة المبادرة بارسال الرسل اليه ، محملين بالهدايا الثمينة من الذهب والفضة والجياد والخيول والأقمشة الحريرية ، مؤملين أن يهدىء هذا الكرم حدة غضب ذلك الزعيم العظيم ، عساهم يكسبون وده ، ويعقدون واياه أواصر الصداقة .

هكذا كان النجاح حليف تانكريد فى كل خطاه ، لأن الرب كان معه ، ولأن السيد كان يوجه جميع أعماله لأنه خادم أمين .

هنا ينتهى الكتاب الثالث

الكتاب الرابع

اجتياح الصليبيين شمال الشام وشروعهم

فى حصـــار أنطاكيـــة

فصول الكتاب الرابع :

١ ـ بولدوين أخو الدوق ـ يعود الى الجنس الأصلى وينزل على اقتراح باكراد فيقود حمله تزحف الى الشمال ويحتل كل الاقليم حتى الفرات ·

٢ ـ شهرة بلدوين تنتشر فى كل ناحيه ، فيستدعيه آهل الرها فيستجيب لهم ويسرع اليهم عـابرا الفرات ولكنه يقع فى كمين نصب له فى بعض الطريق فتخرج المسبحون لمقابلته ويجعلون من أنفسهم حرسا له ويدخلونه المدينة فرحين به ·

٣ ـ الغيره من نجاح بلدوين تدب فى نفس حاكـــم

المدينه الذى يندم على قراره الذى اتحده ويرعب فى شجب الاتفاق ، لكنه من أجل استرضاء الأهالى يتبنى بلدوين ويتخذه ولدان وان أضمر الغدر به ٠

٤ ـ بلدوين يحاصر سمبساط استجابة لرجاء أهـل المديـــه الذين يتآمرون ضد حاكمها الضعيف انتقاما منه للأضرار الجسيمة التى أنزلها بهم ٠

٥ ـ الأهالى يفتكون بحاكم الرها وينصبون بلدوين واليـا عليهـم فيشترى سميساط من حاكمهـا « بلدك » بمبلغ كبير من المـال ٠

٦ ـ بلدوين يحاصر بلدة « سروج » ويستولى عليهـا بالقوة فيشكره أهلها شكرا يعجز اللسان عن وصفه ٠

٧ ـ ارسال طائفـة معينة من رجـال الجيش الأصلى يحتلون بالقوة مدينة « أرتاح » واذ تترامى أنباء ذلك الى أهل أنطاكيه يبادرون الى هنـــاك بقوة ضخمة وينصبون كمينـــا لشعبنا ، ويهاجمون مدينة « أرتاح » لكنهــــم يفشلون فى محاولتهم هذه فيعودون الى ديارهم بعد تحصين الجسر ٠

٨ ـ الجيش الرئيسى يصل « أرتاح » ويرسل الكشافة من هــذا المكان لكشف الطـريق ثم يقترب من الجسر ويعبر النهـر رغم مـا بذله العـدو من محاولات كان يهدف من ورائها الى صده ٠

٩ ـ وصف مدينة أنطاكيه ، ومكانتها ٠

١٠ ـ القـول فى الاقليم الذى بـه المدينـه ووصـف موقعهـا ٠

١١ ـ من كان حاكم هـذه المدينه التى هى أنطاكيه ، وكيف بادر هذا الحاكم ـ حين سماعه بنبـأ اقترابنا ـ الى تحصينها ، ثم جلب الى داخلهـا العسكر الذين استقدمهم من المدن المجاورة ٠

١٢ ـ زعماؤنا يتشاورون فيما بينهم ويتقدم الجيش الى المدينـة ٠

١٣ ـ القادة يأخذون مواضعهم حول أنطاكية فى أماكن استراتيجية ويسدون منافذ المدينة فيسيطـر الخوف على نفوس الأهالى ٠

١٤ ـ المسيحيون يقيمون جسرا خشبيا على النهر حتى يساعدهم على توفير مزيد من حرية الحركـة للبحث عن العلف ، كمـا يقـوم الأهـالى بشن هجمات مفاجئة على معسـكر كونت تولوز من أقرب البوابات اليهم ٠

١٥ ـ الكونت يقوم بكثير من المحاولات ضد العـدو وينتهى الأمـر أخـيرا بسد البوابة بأكـوام من الأحجار يهيلونها أمامها ٠

١٦ ـ العـدو يهاجم الجماعات التى خرجت فى التماس العلف وينتج عن ذلك قتال ضار يهلك فيـه

الكثيرون من الجانبين اذ يهلك بعضهم بالسيف ويبتلع النهر غيرهم فيموتون غرقى .

١٧ ـ الضعف يستولى على جميع الاقاليم وتتفاقم المجاعة وتزداد سوءا ويصبح الناس في صراع ضد الجوع ، كما تؤدى الأمطار الغزيرة الى الرطوبة التى تعمل على انتشار العفن فى الخيام وهو عفن يهدد الجيش بالفناء .

١٨ ـ بوهيموند وكونت فلاندرز يخرجان فى حملة كبيرة سعيا وراء الكلأ ، كما يقوم المواطنون فى الوقت ذاته بشن هجوم فجائى على المعسكر ، ويُمنى الصليبيون بخسارة كبرى ويكثر فيهم الجرحى .

١٩ ـ الفرقة الباحثة عن الطعام تكشف العدو وتهزمه ، ثم تعود بالغنيمة والأسلاب الوفيرة .

٢٠ ـ مقتل « زفين » أحد أبناء ملك الدانمركين على أيدى الاتراك قرب « فيلو ميليام » بينما كان يغذ السير للانضمام الى الجيش .

٢١ ـ تاتيكيوس الوغد يترك الجيش وليس فى نيته العودة اليه ويدعى ان ذهابه انما هو من أجل عقد سوق يستبضعون فيها ، كما يزعم أنه ماض الى الامبراطور ليسأله الحضور لمساعدتهم .

٢٢ ـ المجاعة تزداد تفشيا والطاعون المهلك يصيب الناس فيأمرهم الأساقفة بصيام ثلاثة أيام ،

ويسترد الدوق جود فروى صحته تماما ويفرح الجيش بشفاهته ٠

٢٣ ــ لورد بوهيموند يقترح خطة حكيمة للقضاء على ما سببه الكشافة الذين أرسلهم العدو من الازعاج ٠

٢٤ ــ خليفة مصر يوفد رسلا من قبله الى الزعماء ويطلب عقد معاهدة بينه وبينهم ويحاول كسب مودتهم ٠

هنــا يبــدأ

الكتــاب الرابــع

اجتياح الصليبيين لشمال الشام وشروعهم فى حصار أنطاكية

— ١ —

بينما كان تانكريد يتابع اخضاع كل ارجاء قيليقيا غير هياب ولا وجل ، كان الجيش الرئيسى قد وصــل الى مرعش [يوم ١٣ أكتوبر ١٠٩٧] ، واذ ذاك اعتزم بلدوين زيارة أخيه جود فروى ، فلما وجده قد تماثل للشفاء ثارت فى نفسه نيران الغيرة من تانكريد مرة أخرى ، وأحفظه منه أن يجمع الكل على امتداح بسالته التى طبق خبرها الآفاق ، ومن ثم دعا اليه أصدقاءه ، وافضى اليهم بعزمه على معاودة القيام بمخاطرات جديدة وسألهم ان يكونوا عونا له فى تحقيق هذا الهدف . لكنهم كرهوا ان يصاحبوه فى خروجه . لما سمعوه عن وقاحته المتناهية حيال تانكريد أثناء وجودهما أمام أسوار طرسوس فى قيليقيا ، اعتمادا منه على كثرة أتباعه . والحق انه لم يشذ أحد منهم عن الاجماع على ان مسلكه كان اذ ذاك مسلكا منسبا ، وهــو اجماع استحقه عن حق جزاء جريمته الشنعاء ، وما كان لبوهيموند ورجاله ان يتركوا ما لحق بتانكريد دون عقاب .

ولم يجد بلدوين من يقبل مرافقته فى حملته هذه غير شرذمـة قليلين ، كما عنفه أخوه خادم الرب — تعنيفا قاسيا على عمله هذا ، ولمـا أدرك بلدوين شناعة ما اقترف من جرم فقد أعلن بكل مذلة انه

ستسعد لأن يقدم لبانكريد النبيـل الاعتذار الواجب عمـا اقترفه من اساءه في حقه .

ولما كان بلدوين قد أخطأ بناء على ما أشار به غيره عليه أكثر من ان يكون خطؤه نابعـا من تلقـاء ذاته ، ولما كان هذا المسلك بحريص من سواه ولبس من طبعه ، فقد سامحه الجميع واسترد ثقتهم به . والحق انه كان رحلا موضع الاطراء من كل الوجوه كمـا انه لم يؤخذ عليه قط بعدئذ سقاطة تزرى به كهذه الشناعة .

وكان لبلدوين صديق من أشراف الأرمن يدعى « باكراد » تعرف عليه في نيقية بعد فراره من حبس الامبراطور ، وظل هذا الرجـل يلازم بلدوين على الدوام في جميع رحله . ومع أنه كان محاربا شديدا الا أنه كان شديد المكر ، مغموز الوفاء ، وقد دأب على الالحاح على بلدوين واغرائه بشق السبيل على جمع العسكر ، ووعد بأن ينضم هو اليه في حملة يشنها على النواحي المتاخمة التي قال انه من اليسير احتلالها بقوة صغيرة ، ونزل بلدوين أخيرا على الحاح «باكراد» ، وخرج مسترشدا به على رأس مائتي فارس ، وحشد غير قليل من المشـاة وزحف بهم ميمما وجهه ناحية الشمال ، وسرعان ما دخل اقليمـا شديد الخصب والثراء . أغلب أهله مسيحيون صادقون في دينهـم . أما البقية من السكان ، وهم قلة كافرة ، فكانوا أصحاب القلاع ، وكانوا يعاملون المؤمنين الصـادقين كما يحلو لهم ، كما كانوا يحرمونهم من الانخراط في الخدمة الحربية .

وكان فلاحو الاقليم من المسيحيين الكارهين لأن يتسود عليهم قوم من غير ملتهم ، لذلك لم يكد بلدوين يدخل تلك النـاحية حتى أسلموه الأماكن الحصينة ، وما غبرت أيام قلائل على ذلك الأمر حتى كان بلدوين قد ملك من الناحية أغلبها ، بالغا في ذلك نهر الفرات

العظيم ، وصار اسمه وحده كافيا لبث الرعب في ذلك الاقليم وما حوله ، وبلغ الخوف في نفوس الاعداء منه حدا غادروا معه قلاعهم من تلقاء أنفسهم ، وهاموا على وجوههم ، على الرغم من انه لم يرسل رجلا واحدا من رجاله لقتالهم ٠

وكان مجرد حضور بلدوين قد بث الشجاعة والثقة في قلوب المخلصين الذين رحبوا به ، وتمت كلمات النبي (١) : « كيف يطرد واحد ألفا ، ويهزم اثنان ربوة » ٠

لم يكن العامة وحدهم هم الذين تعلقوا ببلدوين ، بل حالفه أيضا امراء تلك النواحي المسيحيون وأخلصوا النية في مصادقته ، وآزروه فيما يفعله ، وامدوه بالجند ، وبذلوا له الطاعة الصادقة ٠

- ٢ -

على أنه لم تمض بضعة أيام حتى كان اسم هذا الرجل العظيم يجري على كل لسان ، وحتى كانت أعماله الجليلة مشهورة في كل مكان ، واستساغ خبرها في كل الولايات المجاورة ، وراح الجميع يثنون على بطولته ، ويمتدحون اخلاصه ، ويشيدون بشجاعته ، وملأ صيته الافاق ، فلم يبق أحد من أهل الرها الا وقد سمع به ، وسرعان ما راحت المدينة تتحدث بأن قائدا باسلا من الجيش الصليبي ، قادر على تحريرهم تماما من رق العبودية وردهم الى الحريه ، وترتب على ذلك أن جاءته وفادة ممن كان بيدهم أمر حراسة المدينه وكانوا من أصحاب النفوذ فيها ، يدعونه دعوة صادقة ــ بالكلمه المنطوقة والمكتوبة ــ أن يأتي اليهم ٠

---

(١) تثنية ، ٣٢ ، ٣٠ ٠

وأوديسا هي احدى مدن العراق الشهيره أيضا باسم الرها وهي المدينة التى أرسل اليها توبيت الكبير ولده توبيت الشاب . ليطلب من قريبه « جابيلوس » عشرة مكاييل من الفضة كان الأب قد اعاره اياها وهو طفل .

وكان أهالى الرها قد اعتنقوا المذهب المتعلق بالخلاص المسيحى على يد الرسول «تاديوس» ، وذلك فى أعقاب أسبوع الآلام ، والحق أنهم كانوا من كل النواحي أهلا لما ينفق مع ما بشر به ذلك الرسول العظم وبرسائله مخلصا التى كتبها الى ملكهم « ابجار » ، وعدا ما نطالعه فى الفصل الأول من التاريخ الكنسى الذى كتبه يوسيبيوس القيصرى ، وقد ظل القوم مخلصين فى تمسكهم بهذه العقيدة منذ ايمانهم بها لاول مره فى زمن الرسل ، ثم قدر لهم أن يقعوا تحت نير خصوم ملتهم الذين أرغموهم على دفع الضرائب والاتاوات سنويا ، كما اغتصبوا منهم عنوة كل ما فى ايديهم من بساتين الكروم والمزارع ، فلم يعد أحد يجرؤ على العيش داخل المدينة سوى من ملأ الايمان قلبه ، فكانت مدينة الرها — دون غيرها من جميع مدن الناحية — هى التى احتفظت بحريتها الأصيلة ولم تلوثها الجاهلية ، ومع ان العدو كان قد استولى منذ أمد بعيد على جميع النواحي التى حولها الا أنها ظلت بمنأى عن الخضوع له ، ولم تأذن لأى صاحب عقيدة أخرى أن يعيش فى رحابها .

ولقد كابد أهل الرها الأمرين من أولئك الذين يعيشون فى المدن والقلاع المجاورة لهم ، الذين لم يكونوا يأذنون لمواطنى الرها بمغادرتها أو القيام بعمل خارجها .

كانت أمور المدينة بيد حاكم من بلاد الاغريق ، أرسله ليدير شئونها ويتولى الأمر فيها ، ومنذ أن أصبحت البلاد كلها تابعة لامبراطور القسطنطينية ، وكان هذا الوالى شيخا طاعنا فى السن ،

واهن القوى ، ليس له من صلبه ولد ولا بنت ، ولما كان الترك قد وصلوا الى هناك قبل انتهاء فترة حكومته فقد اضطرتهم الضروره لابقائه حيث هو ، فظلت له الحكومة في البلد ، وربما كان ذلك راجعا اما لعجزه عن الرجوع الى بلده ، أو لأن الناس لم يرغموه على التخلى عن السلطة ، ومن ثم كان بلا نفع ولا جدوى ، عاجزا عن حماية رعيته من الضرر ينزل بهم ، أو دفع الشر عنهم أو تخفيف ما يلقونه من الضيق •

ولقد وفد على بلدوين ـ كما قلنا ـ مبعوثون من قبل المواطنين وبرضاء هذا الحاكم يلتمسون منه القدوم عليهم وتخفيف مصائبهم •

فلما استمع بلدوين الى التماس العامة والخاصة ، أجمع عزمه على استجابة رجائهم بعد أن شاور أصدقاءه في هذا الأمر ، فأعد العدة اذ ذاك للسير اليهم ، وخرج غير مستصحب معه سوى ثمانين فارسا ، عبر بهم نهر الفرات ، ومخلفا بقية أتباعه وراءه للقيام بحراسة القلاع والمدن الواقعة على ذلك الجانب من النهر ، وللمحافظة على الاملاك التى منحها الرب له ، فلما علم الاتراك الذين يعيشون على الجانب البعيد من النهر بخبر سيره اليهم نصبوا له الكمائن فى طريقه الذى كانت به احدى المدن الحصينه وعليها وال أرمنى ، فانحاز اليها بلدوين تجنبا للكمائن التى رصدوها له فى الطريق فلما بلغها استقبله حاكمها استقبالا كريما وأحسن استضافته ، فاقام بها يومين لم يجرؤ خلالهما على السير قدما ، مما سرب الملل الى نفوس الترك الذين كانوا قد اعدوا له كمينا ، وضاقوا ذراعا من طول انتظارهم اياه ، فرفعوا بيارقهم وظهروا فجأة فى حشد كثيف قوى أمام الناحية التى هو فيها وراحوا يسوقون أمامهم قطعان الماشيه من المراعى المجاورة ، ولما لم يكن المسيحيون مكافئين لخصومهم فى البأس ولا فى العدد فانهم لم يخاطروا بالخروج اليهم بل أقاموا فى القلعة حيث هم ، حتى اذا كان اليوم الثالث رحل الأتراك •

حينـذاك تابع سيره المتقطع الى مدينة الرها حيث استقبله حاكمها بالتعظيم عند وصوله اليها ، وشاركه الترحيب به جميع من فيها ، كما خف لاستقباله رجال الدين والناس عامة وقد ساروا أمامه منشدين الاهازيج والتراتيل الدينية على وقع الدفوف ودق الطبول .

- ٣ -

على أن الحاكم الذى كان السبب فى استدعاء بلدوين ، سرعان ما شعر بعضة الغيرة تنهش قلبه منه ، فراح يستعرض فيما بينه وبين نفسـه ، ما أظهره الناس من الحفاوة والترحيب بهـذا القائد عند وصوله ، وتمنى لو نقض ما أبرمه معه من اتفاق كان يتضمن — حين وجه الدعوة اليه — أن يناصفه طول حياته كل ما تملكه المدينة من البضائع والضرائب وجميع دخلها من الأتاوات ، ثم يؤول كل شىء . بعد ذلك الى بلدوين .

أما الآن فقد رغب الحاكم فى تقديم عرض مخالف لهذا العرض يتلخص فى ان يبذل بلدوين المساعدة للمدينة ولأهلها ضد استبداد الترك ، وأن يدفع عنها شرهم ، على أن يعوضه الحاكم ذاته مقابل ذلك تعويضا ماليا سنويا مجزيا مسرفا ، حسبما يتراءى له كرجل عادل ، لكن بلدوين رفض هذا العرض وازدراه لأنه عَرض ينزله منزلة الجندى المرتزق ، الذى يتناول أجرا لقاء خدماته ، لذلك أخذ يعـد العدة للعودة من حيث جاء ، فلما عرف الأهالى بعزمه على الرحيل ، بادروا بالذهاب الى الحاكم وأصروا على الا يأذن بأى حال من الأحوال برحيل زعيم جليل القدر كهذا الزعيم عنهم ، فهو رجل لاغناء لهم عنه لتحقيق حريتهم ، وطالبوه أن يضم بلدوين اليه وفقا لشروط

الاتفاق ، حتى ينعم هو والمدينة كلها بالسلام الذى هو غاية ما ينشدون .

وازاء هذه المطالب المجمع عليها من عامة الناس وخاصتهم . وازاء المحبة العميقة التى يتمتع بها بلدوين فى نفوسهم شعر الحاكم بمدى الخطر الذى يتهدده ان لم يستجب لرجائهم هذا ، ومن ثم رضخ لهم على مضض وأجابهم الى كل ما طلبوه منه ، وكان ذلك على كره منه ، وزاد على ذلك فعمد الى تحسين مسلكه السابق بأن تبنى بلدوين فى حضرة أهل البلد ، واعلن فى احتفال مهيب يتلاءم مع جلال الحدث بأنه يأذن له أن يناصفه كل شىء فى حياته فان مات كان هو الحاكم من بعده ، فعربدت الفرحة فى قلوب الناس أجمعين لانهم كانوا يرون أن بلدوين هو معقد آمالهم فى النجاة ، وأخذوا منذ هذه اللحظة فى الاقدام على كل عمل يتطلب الجرأة ، واطمئنانا منهم الى حماية سيدهم الجديد لهم ، ولما راحوا يسترجعون ما نالهم من وصب على يد حاكمهم فقد شرعوا يخططون للانتقام منه ، متى يسمح الزمان والمكان بذلك ، وهذا مما اتضح من مجرى الاحداث .

- ٤ -

وكانت تقع على مقربة من الرها مدينة سميساط الموغلة فى القدم والشهيرة باستحكاماتها الحصينة ، يحكمها تركى كافر اسمه بلدوك ، وهو محارب مقدام ، ولكنه مخادع لئيم ، وقد أنزل كثيرا من المصائب بأهل الرها ، فضاعف عليهم الخراج والضرائب التى فرضها على مزارعهم ، وأثقل كاهلهم بما كلفهم به من الأعمال . وجرت عادته على أخذ أطفالهم رهائن لديه ، ضمانا للوفاء بهذه

الامور ، وكان هؤلاء الرهائن يرغمون تحت ظروف بالغه القسوه على العمل فى خدمته كرقيق يحملون الطين والآجر ، ومن ثم فقد ركع كافة السكان عند قدمي بلودين بعيون باكية يستعطفونه أن يعمل على حمايتهم من ظلم الطاغيه ، وأن يعيد اليهم أبناءهم الذين فى جيشه فأصغى بلدوين باهتمام الى أول رجاء لشعبه ، أملا منه فى اكتساب ودهم ، فدعاهم جميعا اليه ، وزودهم بالسلاح ، وخرج بطائفه منهم زاحفا على سميساط ٠

وظل بلدوين بضعه أيام يراوح المدينة ويعاديها بالهجمات المتتاليه ، لكنه صادف مقاومه شرسة من جانب من فيها من الترك ، ثقه منهم فى استحكاماتها القويه ، وسرعان ما ادرك بلدوين أنه غير مدرك منها أربه ولا بالغ منها غاية ، فانقلب راجعا الى الرها ، تاركا وراءه على مقربة من سميساط وفى مكان حصين ملائم ــ جماعه من الفرسان ، أمرهم بمداومة الاغارة عليها ، وألا يذيقوا أهلها طعم الراحـــة ٠

سرعان ما تبين لمواطنى الرها ما عليه بلدوين من النشاط . وما يلقاه من النجاح فى كل ما ينهض به ٠ وأدركوا ظلم الاجراء الذى حاق بمحرر المدينه وبمرسى دعائم السلام بها ، حين ساووه برجل لا انتفاع منه أبدا للمدينة ، وأيقنوا أن بلدوين هذا قمين بأن يملك كل شيء ، وان ينخلص مما لا يتفق وهواه ، ومن ثم استدعوا واحدا من أشرافهم يدعى قسطنطين ، وكان واسع النفوذ وصاحب عدة قلاع شديدة المنعة ، واقعة على جبل قريب منهم واقترحوا باجماع منهم أن يفتكوا بحاكمهم ، ويحلوا بلدوين مكانه ، ليكون وحده صاحب الأمر والنهى ، وقد دعاهم الى ذلك ما كانوا يضمرونه لحاكمهم من كراهية هو أهل لها ، فقد قيـــل انه سلبهم ما عندهم من الذهب والفضه وغير ذلك من كل غال وثمين ، وظلمهم ظلما فاحشا ، وكان

اذا ما حاول أحد مقاومه آثار عداوه الترك صدهم بما يصلهم به من الرشاوى ، حتى يصبح الرجل التعيس منهم لا يخاف فحسب قطع كرومه وافساد حقوله ومزروعاته وسلب قطعانه واغنامه ، بل ان حياته ذاتها تصبح فى خطر ٠

- ٥ -

ادرك مواطنو الرها الذين كانت فعال حاكمهم السريره ماثله على الدوام فى اذهانهم ان قد واتتهم الفرصة لنيل حريتهم المنشوده منذ زمن طويل على يد هذا الصيف ، ومن ثم فانهم ـ وفقا للخطط التى تم اتفاقهم عليها ـ اسرعوا لحمل السلاح وهاجموا البرج الذى اتخذه حاكمهم مستقرا له هجوما عنيفا محاولين هدمه بعزم لا يثنى ، فاشتد خوف الوالى على حياته بسبب غضب الأهالى وسخطهم الذى هو أهل له والذى له ما يبرره . فاستدعى اليه بلدوين ، ونثر امامه كل الأموال ، وتوسل اليه أن يكون واسطه له عند الناس ٠

وعلى الرغم من أن بلدوين سعى سعيا صادقا الى حمايه الحاكم ، وصرف كل أذى ينزل به على أيدى المواطنين ، ورغم أنه بذل قصارى جهده لتنبيهم عما اعتزموه الا أنه سرعان ما تبين له فشل محاولاته وذهابها أدراج الرياح ، لأن غضبهم على واليهم كان يزداد عمقا وحده سيئا بعد سىء ، وحينذاك انكفأ بلدوين الى الحاكم . ومحضه النصيحه أن يتخذ من الاجراءات ما شاء لتأمين حياته وسلامتها ، فلما أعيت الحاكم كل السبل فى التماس علاج للأمر تعلق بحبل دلاه من احدى النوافذ بيد أنه هلك قبل أن يبلغ الأرض ، اذ ناوشته آلف سهم من سهام القوم الذين سحبوه الى القصر جثمانا هامدا وقطعوا رأسه، لكن ذلك كله لم يشف لهم غليلا ٠

فلما كان اليوم التالى نصبوا بلدوين حاكما عليهم رغم اعتراضاته ، وقطعوا له يمين الولاء ثم طلعوا به فى موكب بهى مهيب الى قلعة المدينه ، وأعطوه كل ما اكسره واليهم السابق طوال سنين عدة من الأموال والثروات الكبيره ، ومن ثم عاد الهدوء يرفرف على المدينة ٠

ولما راى « بلدوك » الذى كان كما قلنا حاكم سميساط ـ نجاح بلدوين نجاحا لا جدال فيه ، وأنه محصع كل الأقاليم ، فقد عرض عليه أن يبيعه مدينته بعشره آلاف قطعة ذهبية ، واذ كان بلدوين يدرك أن أخذ سميساط بالقوة ليس بالأمر اليسير بفضل تحصيناتها ، فقد دفع بعد مداولات طويله ـ المبلغ الضخم الذى طلبه صاحبها ، وتسلم البلدة ، واسترد رهائن الرها ، مما زاد في عينه فى العيون زيادة كبيرة ٠

ولما قدر له انجاز هذه المأثره منذ اللحظة الأولى من حكمه . فقد اكتسب حب أهالى الرها العظيم ، الذين اعتبروه منذ هذه اللحظه واليا عليهم وأبا لهم أيضا ، وكانوا على أتم أهبة لبذل أرواحهم دفاعا عن كل ما فيه صالحه ومجده ٠

- ٦ -

كان يوجد فى نفس الولاية قرب الرها مدينة يقال لها «سروج» كانت هي الأخرى غاصة بمن ليسوا على الملة ، وعليها نائب تركى اسمه « بلاس » قد دأب على مضايقة الرها ، ومستها منه البلايـا الضارة ، مما جعل بلدوين يستجيب لتوسلات الأهالى اليه ، فجمع جيشا لغزو سروج ، حتى اذا وافى اليـوم الموعود زحف عليهـا وحاصرها نزولا على رغبة سعنه ، وضرب أولا معسكره حولها ووضع

آلاته على اكمل صوره واحسن هيئه . شرع فى مهاجمتها فى عنف بث الخوف فى نفوس أهلها حين رأوا عزمه المطبق على تحقيق هدفه ، فى الوقت الذى كادوا يشكون فيه فى مبلغ قوتهم الذاتيه فأبلوا أن يسلموه المدينه ان ضمن لهم حياتهم وسلامتهم ، فلما وافق على هذه الشروط أسلموه المكان فأقام من رجاله جماعه رابطت بالمدينه لحمايتها، وجعل القياده فيهم لواحد من الذين شاركوا فى المفاوضات ، وفرض على أهل سروج جزيه سنوية ، ثم رجع الى الرها منوها بالفخر ·
ولقد أدى احتلال الصليبيين لسروج الى حريه الاتصال بين أنطاكيه والرها ، اذ كان وقوعها فى منتصف الطريق بين الرها والفرات يعسر عقبه كأداء أمام الذين يودون الغدو والرواح بينهما ·

والآن وقد قدمنا هذه البيانات عن عمل بلدوين فيما بنا نعود الى قصه الجيش [الصليبى] الأصلى ·

- ٧ -

بينما كان بلدوين منشغلا انشغالا كبيرا فى اقليم الرها فيما وراء الفرات ، كان الجيش الرئيسي قد وصل الى مرعش ، بعد أن اجتاز ــ كما قلنا ــ جبالا شديدة الانحدار ، وأودية منعرجه ، وكان سكان هذه المدينة ــ الا القليل منهم ــ نصارى ، وكانت قلعتها فى يد الترك الذين يتحكمون كيفما شاءوا فى الأهالى ، ولم يكد الترك يعلمون أن جيشا آخذ فى الاقتراب منهم حتى فروا خفية وفى ذعر شديد ، تاركين البلد كله فى قبضة المؤمنين ·

ولما بلغ الجيش الخارج فى سبيل الرب هذا المكان ، عسكر أمام أسوار المدينة فى المراعى الخضراء ، وصدرت الأوامر الى المعسكر

ان يتجنبوا العنف مع اهل البلد ، كما انعقد فى هذا المكان سوق حافلة . ثم جاء الى الصليبيين رهط من ثقات أهل البلد ، يخبرونهم أن فى يد الترك مدينة أخرى فى ذلك الاقليم تسمى «أرتاح» ، وتقع فى اقليم اكثر خصبا ويفيض بالنعم الوفيرة ، فاتفق الرأى على ان يخرج فى الحال روبرت كونت فلاندرز اليها على رأس ألف فارس عليهم زرد الحديد ، وصحبهم جماعة من الاشراف ، منهم روبرت دى روزيير ، وجوسيلون ابن كونون كونت مونتاج ، وما كادوا يبلغون تلك الناحية حتى شرع روبرت فى اعداد ترتيبات الحصار ، فغادر الترك المدينة وارتدوا الى القلعة لتقيهم فى منعتها .

وما كاد الأرمن وغيرهم من المؤمنين الصادقين النازلين أرتاح يعلمون أن هؤلاء المحاربين ــ بأسلحتهم البراقة ــ قد جاءوا من الجنس الذى طال انتظارهم اياه وتشوقوا اليه ، حتى انتعش الامل بالحركة فى صدورهم فهبوا الى أسلحتهم وانقلبوا على الترك الذين احتلوهم زمنا طويلا فرضوا عليهم خلاله حكمهم القاسى ، وأعملوا فيهم القتل دون تراخ ، قاذفين برؤوسهم فيما وراء الأسوار ، كما فتحوا الأبواب على مصاريعها ، ودعوا فى اخلاص ذوى القوم الواقفين خارجها الى الدخول ، وسألوهم أن يضربوا خيامهم بها ، أضف الى ذلك أنهم أوفوا بشروط الصداقة ، فوفروا لهؤلاء المحاربين وجيادهم على السواء ما يحتاجونه .

★★★

وتعرف ارتاح أيضا باسم « سالسيس » وهى مثل مرعش التى أشرنا اليها من قبل فى انها تمثل احدى المدن الاسقفية التابعة لكرسى بطركية أنطاكية التى تبعد عنها خمسة عشر ميلا .

ولقد انتشر نبأ هذا الحادث فى كل مكان فحرك ساكن أهل أنطاكية الذين تدافعوا متحمسين لتسليح أنفسهم ، واستعدوا للفتك

بالعراة الدين جعلوا من أنفسهم سادة لارباح بدبحهم مواطنيها ، واد داك تم انتقاء عشرة آلاف ممن تجمعوا فى انطاكية للدفاع عنها ، وجيوهم سراعا الى مدينة أرباح ، فلما صاروا على مقربة منها أرسلوا امامهم ربيئة منهم قوامها ثلاثون فارسا من حملة الأسلحة الخفيفه وراكبى جياد الحرب الخفيفه ، أما بقية القوة فقد كمنت فى ناحيه من الغابه .

وأما الطليعة التى كانت تقوم بحراسة من فى الكمين ، فقد طلب على ظهور جيادها ، تروح وتغدو أمام المدينه حتى ليحسبها الرائى أنهـــا خرجت فى طلب بعض الأســلاب والغــــائم ، فيغرر اد داك المسيحيون ، ويدفعهم الطيش الى مهاجمتها دون تبصر .

ولقد أدت سلاطة هذه الطليعه فى عدوها ورواحها الى أن فقد المؤمنون الذين كانوا داخل الأســوار صبرهم ، فهبــوا سراعــا الى سلاحهم ، وانطلقوا فى أثر العدو دون أن يأخذوا حذرهم ، وأوغلوا وطلعت عليهم الكمائن التى وضعها الأعداء لهم ، وخرجوا من مخابئهم فى الحال ، ووثبوا عليهم وقاموا بمحاولات يائسه لقطع طريق العوده على الصليبيين الذين لو قدر لهم النجاح فى الوصول الى المدينـــه لوجدوا فيها ملجأ يقيهم من القوات الكثيرة التى كانت قادمة فى اعقابهم ، الا أن رجالنا استطاعوا بفضل من الله أن يفسدوا عليهم حيلتهم ، مما مكنهم من الارتداد بمن معهم سالمين .

حينذاك ادرك العدو أن الاستيلاء على المدينه ليس بالامر الهين ، ومن ثم شرع فى حصارها ، وظل يواليها بالرمى على مدى يوم كامل دون أن ينال منها شيئا ، بينما قام المسيحيون الذين بداخلها فى الدفاع المجيد عنها ، ولمـا جاءت الأخبار باقتراب حشدنا الرئيسى أدرك العدو ما وراء استمراره فى البقاء من خطر عليه وأصاخ للنصيحة المثلى ، وعاد الى أنطاكية تاركا طائفة من الجنـد لحراســة الجسر

الموصل بين المدينتين ، وهكذا صان الكونت وأصحابه بيأسهم المدينة التى وهبها الرب لهم ، وحافظوا عليها الى حين وصول الجيش الرئيسى ٠

وفى خلال هذا الوقت مرض « جوسلون » الشاب الموهوب بن كونون كونت موساج الذى تكلمت عنه آنفا مرضا عضالا ٠ أودى بحياته ، فدفن فى ذلك المكان بكل ما يليق به من مظاهر الاحترام ٠

- ٨ -

ما كاد الترك القادمون من أنطاكيه يغادرون أرتاح عند انبلاج النهار ، حتى جاء الخبر بأن الجيش الصليبى قد أصبح على مشارف المدينه ، وأنه قد نصب مخيمه على مقربة منها ، واتصاع زعماء الجيش للنصح فارسلوا خمسة عشر ألف فارس مدججين بالسلاح لمساعدة من فى « أرتاح » من اخوانهم الذين جاءت الأنباء بما يعانونه من أهوال الحصار المفروضة عليهم ، وكانت الأوامر تلخص فى أنه اذا وقع الحصار وأصبح الوصول الى المدينه أمرا ميسورا ، عاد كونت فلاندرز وبقية الكبار الذين بصحبته الى الجيش ، بعد أن يكلوا حراسة المكان الى حامية كافية ، كما صدرت مثل هذه التعليمات الى تانكريد الذى كان قد رجع لتوه من قليقيا ، بعد ان صار الاقليم كله ملك يمينه فعادوا ، وعاد جميع القادة الأخرين الذين كانوا قد خرجوا الى نواح مختلفة حسبما أملت عليهم مصالحهم ، ولم يكن ينقصهم سوى بلدوين الذى كان سلطانه فيما حول الرها يزداد بمشيئة الرب قوة يوما بعد يوم، وهكذا تجمعت فرق الجيش المختلفة، وتماسكت قواته مرة أخرى ، واذ ذاك نودى فى الجميع الا ينفصل أحد ما عن الجيش الرئيسى الا بأمر يصدر اليه ٠

حينئذاك نقصوا خيامهم ، وأخذوا فى الزحف على أنطاكيه من أقصر الطرق الموصله اليها ؛ واعترضهم فى منتصف طريقهم نهـــر أقيم عليه جسر عرف بأنه منيع التحصين ، فرغب القوم فى ازالـة كل عقبة فى هذه الناحية يمكن أن تعرقل الجيش ، فقدموا أمامهـم روبرت كونت نورماندى على رأس رجاله ، وكلفوه بكشف الطريق ، فان توقع أيه صعوبة أفضى بها الى الكتيبه التى خلفه ، وشرح لقادتها الأمر تفصيلا ، وكان على رأس هـــذه الكتيبة الوجيهان افرار دى بويسيه وروجر دى بارنفيل البارعان فى استعمال الســلاح ، وقد نشرا أعلامهما .

ولمــا انفصــل الكونت وأتباعه من الجيش الأصلى تقدموه حتى بلغوا الجسر المشار اليه وكان بناء حجريا شديد الضخامة ، يقوم على كل من طرفيه برج متين الحصانة من نفس الحجر الصلد ، وكان فى كل برج مائة من المحاربين الأقوياء الشجعان البارعين فى الرمى بالنشاب وحسن استعمال الأقواس ، قد وكل اليهم حماية البرجين ومنع أى أحد من الاقتراب منهما عن طريق مخاضـات النهر ، كما وصل من أنطاكيــة سبعمائة فارس رابطوا على الشــاطىء البعيد ، وسيطروا على المخاضات ليحولوا ــ تحت أى ظــرف من الظروف ــ بين رجالنــا وبين عبـــور هذا النهر المسمى بنهر العاص ، ويطلق عليه الناس اسم النهـــر « الفاصى » وهو ينطلق من هذا الجسر وينزل الى البحر مرورا بأنطاكيـــة ، ويظن البعض أنه هو نهـر دمشق المعروف باسم « فرفر » ، ولكن تأكد لدينا بمــا لا يحتمل النقض خطـــأ أصحاب هــذا القول ، ذلك أن نهـرى فرفر والبانة ينبعان من جبال لبنان ، وبعد أن يشقا الاقليـم الذى به مدينـــة دمشق ويجاوزانها ــ ينطلقان بسرعة ناحية الشرق ، حتى ليخيل للمرء أنهما ضاعا فى الصحراء .

أما نهر العاصى فعلى العكس من هذين النهرين ينبع من اقليم

هليوبوليس ، المسمى أيضا ببعلبك ، ويجتاز سيزر وأنطاكية حيث يصب فى البحر الأبيض المتوسط ٠

★★★

ولما بلغ كونت نرمندي بقواته هذا الجسر تكاتف على الحيلولة بينه وبين عبوره حراس برجي الجسر ، والمدافعون الذين وقفوا على الساطىء الآخر من النهر ، وترتب على ذلك قتال شديد الضراوة فى هذه الناحية بين الفريقين ، يزيد من عنفه أن رجالنا كانوا مستميتين فى شق طريق لهم بالقوة وسط وابل هتان من السهام أمطرهم بها العـــدو الذى راح يبـــذل أقصى طاقته لمنعهم من الوصول ، ودفعهم بعيدا عن المخاضات ٠

فى هذه الأثناء التى كان كل من الجانبين فيها يجهد نفســـه غاية الاجهاد من أجل غاينه كان الجيش الرئيسى يدنو شيئا فشيئا ، ذلك لأنه لمـــا شاع أن الكونت وحرس المقدمة قد ردوا على أعقابهـــم من جزاء القتال عند الجسر ، بادر العسكر [الصليبى] الى الاسراع لمساعدة اخوانهم المحاربين ، فلما رأوا ارتداد العدو راودهم الأمـــل فى فتح الطريق ، عسى أن يتمكن الجيش من العبور من غير تأخير ٠

ولمـــا تكامل وصول جميع الكتائب دقت الطبول ، ونودى بحمل السـلاح ، فاستجاب الجند للنــداء بكل مـــا بهم من بأس ، وسيطروا على الجسر بالقوة ، وأرغمـــوا العـــدو على الفـــرار ، أمـــا الصليبيون الذين لم تسعفهم الظروف بوجود موضع لهم على الجسر يحاربون منه ، فقد أبوا أن يظلوا فى أماكنهم بلا قتال ولكنهـــم مضوا فاكتشفوا المخاضة ، وعبروا الى الجانب الآخر ، ونجحوا فى زحزحة الأعـــداء من أماكنهم مما جعلهم لا يصادفون بعـــد ذلك أيـــة مقاومة فى احتلال الضفة الاخرى من النهر ، واذ تم عبور كل الجيش

بعرباته الحربيه ومركباته وما معهم من سمى صنوف المتاع . نصبوا معسكرهم فى مراع فسيحه خضراء على بعد خمسه أو سته أميال من المدينه ، حتى اذا كان اليوم التالى تابعوا زحفهم فى الطريق الرئيسى الكبير الواقع بين النهر والجبال . فلما صاروا على بعد ميل واحد من اسوار المدينه نصبوا خيامهم .

- ٩ -

وأنطاكيه مدينه عظيمة مجيــدة ، تتبوأ المرتبة الثالثه ان لم تكن الثانيه بعد رومه دائما (فثم اختلاف كبير تجاه هذه المسأله) ، وهي تقف على رأس الجميع ، ولها الصداره على كل منطقــة الشرق وكانت تدعى في الأزمنة القديمة «ريبلاتا» وهنا كان قد جيء بصدقيا ملك يهوذا مع أبنائه فى حضرة نابخذ نصر ملك بابل الذى أمر بقتل الابناء أمام ابيهم ، ثم سملت عينا الأب ذاته بعدئذ ، ولمـا مـــات الاسكندر المقدوني خلفه فى حكم جزء من هذا الاقليم « انتيوكس » فاحاط المدينه بأبراج على سور شديد الارتفـــاع ، حتى صـــارت المدينة بفضل « انتيوكس » فى حال أحسن مما كانت عليه من قبل ، وأمـــر أن تسمى بأنطاكية اشتقاقا من اسمه ، واتخذها عاصمـــة لمملكته ، وقرر أن تكون المقر الملكى له ولخلفائه على مدى العصور ، وكان فى هذه المدينه أبرشية كهنوتية لكبير الحواريين الذى كان أول من تبوأ وظيفة الأسقف هناك ، لأن الموقر ثيوفيلوس أحد مواطنى أنطاكية وذوى النفوذ القوى ـ كان قد أقام كنيسه فى بيته ، وهو الذى كتب له لوقا انجيله وأعمال الرسل ، وكان هو الآخر من أهل أنطاكية كما أنه خلف بطرس الطوباوى فى نفس الكنيسه . وكان ترتيبه السابع فى ثبت من تولوا أسقفيتها .

وقد عقد فى هذه المدينه أول مجمع للمؤمنين الذين اصطلح على تسميتهم بالمسيحيين ، اشتقاقا من كلمه المسيح . ولقد رحبت هذه المدينة عن طواعيه وشوق بتعاليم هذا الحوارى واهتدت كلها مره واحده الى العقيدة المسيحية ، وكانت هى أول مدينه راحت تبشر بالاسم الذى كان كالعطر الطيب فاح شذاه فعطر جميع الأرجاء ، ما قرب منهـا وما بعـد ، ومن ثم اختير لها اسـم جديد فسميت « تيبوبوليس » وهكذا فان المدينه التى كان يطلق عليها من قبل اسم رجل شرير كافر عادت فمنحها السيد منحة طيبه هى أهل لها ، وأصبحت تعرف بأنها مدينة وموطن الذى دعاها للايمان ، لانه كان لهذه المدينة فى أيام خطيئتها السالفه السيطره على كثير من الاقاليم الخاضعة لها ، حتى اذا تقدم الزمن عاشت حياه طاهره برة ، متبعه طريق المسيح ، واستبقت نفس الأساقفة .

ويقال انه كان تحت امره بطرك هذه المدينه ـ الحبيبه الى الله ـ عشرون ولاية ، كان لأربع عشرة منها أساقفتها وكهنتها ، أما الست الباقيات فلها أساقفتها المعروفون بالجاثليق ، وكان احدهم يختص بأنى ، والآخر بهيريوبولس أو بغداد ولكل منهم قساوسته . وتندرج كل هذه الولايات تحت اسم واحد هو المشرق الذى ورد فى تقرير مجمع القسطنطينية حيث نقرأ فيه « فليكن لأساقفة المشرق اداره المشرق وحده ، ولكن شرف التقدمة لكنيسة أنطاكيه حسبما هو وارد فى قوانين مجمع نيقية المقدس » .

تمتاز مدينة انطاكية بموقعها الرائع فى ولاية كوليسيريا التى هى جزء من سوريه الكبرى ، وهى تمتد عبر واد فريد فى بهائه وخصب تربته ومزارعه التى تسقى كلها فى الواقع بالروافد والقنوات المائيه ، ويقع هذا الوادى وسط جبال تنحدر ناحيه المغرب كما يمتد قرابه أربعين ميلا طولا ، وأما عرضه فيتراوح بين أربعه وستة اميال حسب الناحيه التى هو بها ، ويوجد فى القسم العلوى منه بحيره تكونت من تدفق المياه من الينابيع المجاوره التى تتجمع كلها هنا ، كما يوجد على مسيرة مثل منهـا النهر الذى يجـرى عبر الوادى ثم يجاور المدينه الى البحر .

وينبثق كذلك من البحيره جدول صغير يصب فى نفس النهر فى انحداره قرب المدينه ، وعلى الرغم من شده ارتفاع الجبال التى تكتنف المدينة من جانبيها ، الا أنه يخرج منها مجرى مـاء عـذب يسير متعرجا ، كمـا أن جوانبها المنحدره حتى القمه صـالحه تماما للزراعة ، ويعرف الجبل الواقع فى الجنوب باسم العاصى (اورنتس) كاسم النهر الذى يشق المدينه . ويقول جيروم ان أنطاكية تقع بين العاصى وبين الجبل الذى يحمل نفس الاسم وينحدر من هذا الجبل الذى يسير على طول البحر ثم يرتفع ارتفاعا شاهقا ويتفرد بتسمية خاصة به ذات دلالة معينه ، اذ يعرف عاده بجبل «بارلييه» ، ويظن بعض الثقات أنه هو جبل «برناسس» المكرس لباخوس وأبولو،ويبدو ان هذه الفكرة قائمة على وجود النبع المعروف بنبع «داقنى» القريب منه ، ويرى البعض أنه هو النبع القسـالى المذكور فى الأسـاطير القديمة ، والذى كان مكرسا لآلهة الفنون والشعر والغناء ، الكثيره الورود فى كتابات الفلاسفة ، ويقال انه يتبع من الناحية التى تعرف بمدرجات بوهيموند قرب المدينة الموجودة فى سفح جبل العاصى ،

غير أن هذه الفكرة بعيدة جدا عن الواقع ، اذ المؤكد ان جبل برناسس يقع فى اقليم بويبيا الذى هو جزء من « ساليا » وقد وصفه «أوفيد» في القسم الأول لمن كتابه « مياموروفبورس » فقال بأن أرض فوكيس نفصل الحقول البويسة عن حقول أيكا . وهى اقليم خصب عندما نجف الأرض ، ولكن حدث أ نندفقت المياه فجأة بغزارة في ذلك الوقت البعيد ، كما يوجد هناك جبل يرتفع الى عنان السماء العالية المعروفة باسم بارناسس والتى تبدو شامخة كأنما تخترق السحاب .

ويسمى سولنوس فى الفصل الحادى والأربعين من كتابه « بولى هستور » التاريخ العام هذا الجبل بجبل كاسيوس حيث يقول « وعلى مقربة من أنطاكية وفى ملاصقة سلوقيا ، يوجد جبل كاسيوس الذى يمكن أن يرى المرء من قمته قرص الشمس حتى الساعة الرابعة من الليل ، فاذا استدار المرء قليلا — حين يبدد الضوء الظلام — أمكنه أن يرى على هذا الجبل الليل ويرى من الجانب الآخر النهار » .

★★★

وحتى لا يقع القارىء فى حيرة من كلمة سلوقيا الغامضة فيجب اخباره انه توجد مدينتان بهذا الاسم أولاهما هى عاصمة ايسوريا ، وتبعد عن أنطاكية مسيرة تزيد على خمسة أميال .

أما الأخرى فمجاورة لها ، ولا تبعد احداهما عن الأخرى أكثر من عشرة أميال ، وهى تقع قرب منبع نهر العاصى ، وتسمى هذه المدينة الآن بميناء القديس سمعان ، أما النبع المذكور آنفا فيعرف باسم « دافن » أو النبع القسطالى ، ويقال انه كان فى هذا المكان قديما معبد لابولو كان أقوام فى عقيدتهم الخرافية يقصدونه لسؤاله فيما استغلق عليهم ادراكه ، وحدث أن استقر هنا فرت

أنطاكية ـ فترة من الوقت ـ المارق جوليـــان بعد انفصاله من المسيح وردته عن تعاليم الدين الحق ، وكان فى أثناء اعداده الحمـلة على الفرس يكثر من التردد على معبد ابولو ، يستشيره فيما هـــو قادم عليه ، ويشير تيودوريس الى هذه الحقيقة فى الفصل الحادى والثلاثين من كتابه « التاريخ الثلاثى » بقوله :

« لما راح جوليان يلتمس جوابا من الهيكل البيبيى فى دافنى حول مدى النجاح المحتمل لحربه ضد الفرس اذا بالكاهن ينهره لأن جثمان الشهيد بابيلاس كان مدفونا على مقربة من هناك واذ ذاك أمر جوليان بنقله » .

ويرد الاشارة الى نفس الحادث ـ ولكن فى تفصيل أكثر ـ فى الكتاب العاشر من التاريخ الدينى حيث جاء فيه ان جوليان قدم دليلا آخر على حماقته ورعونته ، حين راح يسترضى أبولو فى غابة دافنى القريبة من النبع الفستالى بضاحية من ضواحى أنطاكيه ، فــلم يستطع الحصول على رد على سؤاله فتساءل ما الذى يعنيه هذا الصمت، فأجابه كهنة الشيطان ان قبر الشهيد بابيلاس قريب من هنـاك . ومن ثم فانه لا يمكن الاجابه على سؤاله .

★★★

وعلى الرغم من أن هذا النبع معروف بالنبع الفستالى . الا انـه يجب ألا يختلط فى الأذهان بالنبع الفستالى الآخر الذى يسمى أيضا بنبع بيجاسوس ، أو رافد هيبوكرين وأجانيب ، اذ ان هــذا الآخر موجود فى بيوتيا بناء على ما يقوله سولينوس الذى يكتب فيقول .

« ويوجد قرب طيبة جبل هليكون وغابة كثرون ونهر اسمناس، كما يوجد هنا أيضا ينابيع اريثوسا وهيبوديا وسالماس وديرسى ، وان كان أهمها جميعا ينبوع أجانب وهيبوكرين » .

ولما كان ديموس مبدع الحروف هو أول من عثر على هـذه الينابيع أثناء تجواله في المنطقه بحثا عن موضع يستقر فيه فان جمال السعراء الفوى أدى الى ظهور اسطورتين تقول احداهما ان النبع تدفق من حوافر حصانه ، وأن الشرب منه كان ملهمه للفنون » .

★★★

ويوجد في الشمال من أنطاكيه هضبه تعرف عاده باسم « الجبل الأسود » تكثر بها الينابيع وسمى من الروافد ، وكانت ماثره على سكان المنطقه جمة ، ممثله في الغابات والمراعي ، ويقال ان هـذه الناحيه كانت تزخر في قديم الزمن بكثير من الاديره ، بل توفر بها في وقتنا الحاضر أماكن طاهره كثيرة ، مليئة بالمحبه وهي مساكن أولئك الذين وهبوا أنفسهم لخدمه الرب .

★★★

ويجرى وسط هذا الوادى النهر الذى يصب في البحر ، والذى ذكرناه آنفا ، وقد شيدت المدينه على أقرب وأعمق منحدر للجبـــل ناحيه الجنوب بينه وبين النهر ، كما يبدأ السور من قمة المرتفـــع ويسير على طول السفح منحدرا الى النهر ، ويكتنف محيطها أرض شاسعة الاتساع تمتد من جانب الجبل والسهل .

ويوجد وراء السور أيضا قمتان ناطحات السحاب ، وتقـــع قلعة أنطاكية على ذروة أعلى هاتين القمتين ، وهى بناء شديد الحصانة يعدونه موضعا لا يمكن اقتحامه ، ويفصل هاتين القمتين بعضهما عن بعض هوه ضيقة ينحدر عبرها تيار جارف منصب من الجبل ، كمـا يجرى وسط المدينة هذا النهر الذى له أياد جمة على السكان ، كذلك توجد عدة ينابيع أخرى بالمدينة أهمها بالباب الشرقي المعروف بباب

القديس بولس ، أما نبع دافني الذى يبعد حوالى ثلاثة أو اربعة أميال، فقد تم حفره عن طريق اقامة مجرى فوق القناطر ونقبوا فاحتالوا حتى جعلوا الماء يتدفق الى أماكن مختلفة كثيرة فى أوقات معينة ·

وتحيط بالمدينة من أعاليها ومنحدراتها وسهلها أسوار من الحجر الأصم ، الشديد الضخامة ، العظيم الارتفاع ، ويطل على كل هذا كثير من الأبراج التى أعدت للدفاع أحسن اعداد ، وهى على ابعاد متساوية بعضها من بعض . ويجرى النهر الى الغرب فى الناحية السفلى التى هى أحدث جزء من المدينة ، ويقترب مجراه كل الاقتراب من الاسوار ومن الجبل الذى يعتبر تكملة لسور المدينة وبوابتها ويقول بعض الثقات ان المدينة تمتد مسافة ميلين طولا ، ويقول عرضها بل ثلاثة ، وهى تبعد عن البحر مسافة اثنى عشر ميلا ·

- ١١ -

كان حاكم هذه المدينة الذائعة الصيت رجــلا تركى الاصـل يدعى ياغى سيان ، وهو من اتباع عاهل عظيم شديد البأس اسمه ملكشاه هو سلطان فارس الذى أشرنا اليه من قبل ، وقد استطاع الأمير [ملكشاه] بقوة الســلاح أن يضم الى سلطانه جميع هذه الولايات وأن يدخلها تحت حكمه ، ثم رأى أخيرا أن يعود الى وطنه بعد ان دانت له كل الشعوب والقبائل . فعاد ووزع فتوحاته بين أولاد أخيه وأتباعه . اعتمادا منه أنهم كلما تذكروا مآثره الجمة عليهــم اشتد ارتباطهم به واخلاصهم له ، فكانت نيقيــة ومــا جاورها من الولايات . من نصيب قلج ارســلان فى هذا التقسيم ، كما أشرنا آنفــا ·

آما دمسق وما يبعها من المدن التى ندفع لها الجزيه وكذلك الاقليم الذى هو حولها ، فكانت من نصيب ابن أخ آخر له اسمه دقاق .

وخلع ملكساه على هذين العاهلين مرتبة السلطنة ولقبها ، ولما كانت مملكه قلج ارسلان واقعة على حدود اليونان فقد كانت فى نزاع دائم مع امبراطوريه القسطنطينية .

أما دقاق ـ فكان بسبب ماملك ـ فى حروب لا يحمد أوارها مع المصريين ، والذى راح [ملك شاه] ينظر اليهم بعين الريبة الكبرة للزيادة المطرده فى قوتهم وبطشهم .

أما التابع الآخر من اتباع السلطان واسمه آق سنقر ـ وهو والد [عماد الدين] زنكى ، وجد نور الدين [محمود] فكانت حلب السهيرة من نصيبه .

وأغدق ملكساه فيض كرمه أيضا على باغى سيان الذى نتكلم الآن عنه ، فوصله بمثل ما وصل به هذين الرجلين ، اذ اقطعه أنطاكيه مع اقليم صغير ، وقد حمله على هذا ما كان من احتلال خليفه مصر كل البلاد حتى اللادقية بالسام .

★★★

ولما علم ياغى سيان أن جيشا كبيرا بقيادة قادة صليبيين فى طريقه اليه أنفذ كثيرا من الرسائل ـ شفاها وكتابة ـ الى جميع أمراء الشرق كله ، يطلب منهم مساعدته ، لاسيما خليفه بغداد وسلطان فارس العظيم ، وهو أقوى الحكام جميعا الذين استجابوا لطلبه فى يسر ، ولبوا نداءه على عجل ، وكان الحامل لهم على ذلك ما ترامى الى أسماعهم منذ وقت بعيد من خبر تقدمنا ، وما يحمله

هذا الزحف من خطر جسيم عليهم . ولما كان الب ارسلان يعلم بخبرته وكشاهد عيان بما عليه هذه الجيوش الصليبية من كثرة العدد والبطولة التى لا تقهر ، فقد بعث الى هذين العاهلين بتفصيل دقيق عن هذه الجيوش .

وقد أثرت فى هذين السلطانين السماسانه الحاره ودموعه المسكوبة ، فاستجابا له بارسال النجده اليه ، وكان الباعث لأحدهما على هذه النجدة رغبته فى التكفير عن تقصيره ، وأما الآخر فكانت استجابته ناجمه عن رغبته فى ضمان سلامه بلده من غزوات الصليبيين ، وحماية نفسه فى الوقت ذاته من بطشهم .

وتعهد الملكان بارسال القوات المطلوبه اليه ومده بالمساعدة المنشودة ، وقد برهنت النتيجة فيما بعد على انهما صدقا فيما عاهدا ، وأوفيا بما وعدا .

كان القلق الشديد من مجيء الصليبيين مستبدا بباغى سيان . ومن ثم دأب على حشد العسكر من الولايات والمدن المجاورة ، واذ كان يتوقع الحصار بين لحظه وأخرى فانه لم يدخر وسعا فى جمع الكثير من الميرة والسلاح ، وفى تشجيع أهل المدن وحثهم على جلب كل ما يحتاجه صنع الآلات من الحديد والصلب وغير ذلك من المواد الأخرى التى لا غنى عنها فى العادة فى مثل هذه الظروف ، كما ان الأهالى أنفسهم كانوا متحمسين غاية الحماسه فى الحفاظ على سلامة المدينة وأمنها ، وبذلوا كل ما فى طاقتهم لجلب كل ما يعنهم ان هم حوصروا ، فلم يدعوا ناحية من نواحى الاقليم الا جابوها ونهبوا كل ما جاورهم ، وعادوا محملين بالحبوب والنبيذ والزيت وشتى مستلزمات الحياة ، وساقوا أمامهم قطعان الماشية والأغنام ، حتى امتلأت المدينة بكل ما هو ضرورى من الميره ، ومن ثم استطاعوا

ـ بعد بطرهم وبجهودهم الكبرة ـ أن يدعموا مركزهم أمام ضراوه الجيش الصليبي القادم عليهم ٠

أما البلاد التي مر بها الجيش الصليبي فقد هرب منها الى أنطاكيه كثيرون من ذوى المكانه والبأس ، فرارا من وجه قواتنا دون أن يدعوهم أحد لذلك ، وانما فعلوا هذا خوفا على سلامتهم ورأوا في تحصينات مدينة أنطاكية وقوتها ما يستحيل معه اقتحامها . ومن ثم زاد عدد سكانها زيادة عظمى بهؤلاء الوافدين ، ويقال انه كان من بين الأهالي وتجمعات المرتزقه حوالى ستة أو سبعة آلاف فارس ، وأكثر من خمسه عشر ألف أو عشرين الفا من المشاة المدججين بالسلاح تأهبا للحرب ٠

- ١٢ -

حين رأى رجالنا أنهم قد صاروا قاب قوسين أو أدنى من أنطاكية ، اجتمعوا للتشاور فيما بينهم ، واقترح بعض الزعماء ـ نظرا لقرب دخول الشتاء ـ أن يؤجلوا حصار المدينه حتى مطلع الربيع وبرروا هذا التأجيل بأنه سيكون من أصعب الأمور تجميع العسكر قبل ذلك الوقت ، نظرا لتشتت الجند فى الوقت الحالى فى المدن والقلاع المختلفه ، وزادوا على ذلك أنه يجب عليهم انتظار ما اعتزمه امبراطور القسطنطينية من ارسال فرقة كبيرة من قواته ، كما أنه كان فى الطريق اليهم كتائب جديدة قادمة من البلاد الواقعه فيما وراء الألب ، وأن الحكمة تقتضيهم انتظار وصول هذه الجيوش التي سوف تؤدى الى زياده العسكر زيادة هائلة تمكنهم ـ كما قالوا ـ من تحقيق هدفهم المنشود فى يسر أكثر ٠

أما في الفترة التي لا تمارس فيها هذه القوات الحرب فانه يمكن تقسيمها أقساما تذهب كل واحد منها بمفرده دون الآخر لقضاء الشتاء فيما جاوره من المناطق التي هي أقل تعرضا للهجوم ، حتى اذا ما وافى الربيع عاد الجيش وانضم بعضه الى بعض مرة أخرى . وتكون رجاله قد استردوا نشاطهم ، وتأهبوا للقيام بالأعمال التي لابد لهم من القيام بها ، كما أن الخيول ستكون أوفر قوة بسبب العلف وما تنعم به من الراحة أثناء فصل الشتاء .

على أن غيرهم رأوا ان هناك ما هو أجدى من ذلك . ألا وهو الاحداق بالمدينة في الحال في حركة مفاجئة وعلى غير توقع منها . وقالوا انه اذا أتيح للأهالي فترة من التقاط الأنفاس فسوف يتوفر لهم وقت أطول يصرفونه فيه لدعم وسائل دفاعهم . وتجميع الكتائب الكبيرة التي استدعوها لمعونتهم .

ولقد تغلب في هذا الاجتماع التام رأى الفريق القائل بوجوب المبادرة الى حصار المدينة وأن الخطر في ارجاء القتال ، وأن القوات التي ترسل للاستكشاف لا ينبغي ان تنفصل بعضها عن بعض ، وهكذا انعقدت الآراء جميعا على الزحف على المدينة والبدء في عمليات الحصار في الفور واللحظة .

ومن ثم فقد وصلوا جميعهم يوم ١٨ أكتوبر وزحفوا شطر مدينة أنطاكية حتى صاروا أمامها ، وعلى الرغم مما قيل من أن القوات الصليبية التي كانت تحسن استعمال السيف كانت تبلغ ثلاثة آلاف شخص ليس بينهم امرأة ولا طفل . الا أنه كان من المستحيل على الجيش أن يحيط بالمدينة احاطة كاملة . ذلك لأنه بالاضافة الى قمم الجبال التي قلنا انها تقع في منطقة الأسوار والتي لم يبذل أية محاولة لتطويقها ، فان هذا الجزء من المدينة ممتد من

سفح الجبل الى النهر — وهو جزء أكثر انبساطا — لم يكن فى الامكان الاحداق به بحصار مستمر ٠

ولقد صحب وصول الجيش الصليبى والعمل فى اقامة المعسكر كثير من الجلبة ، وكان يخيل للسامع أن نفخ الأبواق ، وصهيل الخيل ، وقعقعة السلاح ، وهى مختلطة بصيحات الرجال ، قد بلغت عنان السماء ، ومع ذلك فقد ساد المدينة صمت مطبق خلال ذلك اليوم بطوله والأيام التالية لوصول جيشنا . ولم يتردد فيها صوت أو يسمع نأمة من أى نوع ، حتى لقد كان يخيل للمرء أن المدينة خلت تماما من كل مدافع عنها ، رغم أنه كان يقوم على حراستها أعداد كبيرة من الحرس ، ولديها الكثير من الميرة والمئونة ٠

- ١٣ -

كان فى هذا القسم من أنطاكية — الواقع فى السهل — خمس بوابات ، واحدة منها فى الموضع الأعلى من الناحية الشرقية — وتعرف الآن ببوابة القديس بولس ، نسبة الى أنه يوجد فى المنحدر الذى فى أعلاها دير مكرس للحوارى المسمى بهذا الاسم ، كما يوجد أمامها مباشرة بوابة أخرى تعرف بالبوابة الغربية ويفصلها عنها منطقة تمتد بطول المدينة ، وهى المعروفة الآن ببوابة القديس جورج والتى هى على مقربة من موضع كنيسة هذا الشهيد ٠

أما من الجانب الشمالى فكانت هناك ثلاثة أبواب تطل جميعها على النهر ، وتعرف العليا منها بباب الكلب ، ويوجد أمامها مباشرة جسر يجتاز الممشى ويكمل السور ، وأما الثانى فيعرف الآن بباب

الدوق ويبعدان قدر ميل عن النهر . ويطلق على الثالث اسم باب الجسر اذ يوجد هنا الجسر الذى يعلو النهر ، وذلك لأن مياه النهر تلطم الأسوار ولا ترتد عن المدينه فيما بين بوابه الدوق المشار اليها حالا الواقعه فى المنتصف ، وبين آخر بوابه فى هذا الجانب ·

ولما كان من المستحيل على الجيش الوصول الى هذه البوابه أو بوابه القديس جورج الا عبر النهر فلم يضرب الحصار على هذين البابين وان أحيط بالأبواب الأخر العلويه ، فقام بوهيموند ومن انضموا الى معسكره منذ البدايه بمحاصرة أعلى هذه البوابات ·

وكان حوله — وان كان اسفل منه — عسكر روبرت دوق نورماندى . وروبرت كونت فلاندرز ، وستيفن كونت بلوا ، وهيج العظيم ، وقد استمر هؤلاء القادة بمن معهم من جماعاتهم النورماندية والفرنجية والبريطانيـــة فى حصـــار الناحية الممتدة من معسكر بوهيمـــوند الى باب الكلب الذى أحـــدق به ريموند كونت تولوز وأسقف بوى وغيرهما من النبلاء الذين ساروا تحت قيادتهم مع حشد كبير من الجاسكونيين والبروفنساليين والبرجنديين ، وكانت جموعهم تشغل كافة المنطقة حتى البوابة التاليه ·

وقد أقام الدوق جودفروى معسكره فى تلك الناحية الأخيرة ، وكان معه أخوه أستاس ، وبلدوين دى هينولت وريتارد دى تول ، وكونون دى مونتاج ، وكلهم من الكونتات والمحاربين ذوى الشهرة المدويه ، بالاضافه الى غيرهم من النبلاء الذين انخرطوا تحت رايه الدوق منذ البداية ، فشغلوا بمن معهم من عساكرهم اللوثارنجيين والفريزيين والسوابيين والسكون والفرنجة والبافاريين كل ما بقى من الناحية تقريبا حتى باب الجسر ، وقد وضعت هذه القوات على هيئة مثلث ، تمتد رءوســه بين المدينـة وبين النهر الذى يغســل

أسوارها ، وبين معسكر الغواد الآخرين ، وكانت توجد في هذه الناحية الأحراج التي اتخذها حشما عن آخرها واتخذ مما حصل عامة منها متاريس تحميه وتحمي خيوله .

★★★

كان أهل البلد يتطلعون من خلال الفتحات الموجودة في الأبراج والاسوار الى العسكر ، فأدهشهم بريق أسلحتهم الذي يخطف الأبصار وأدهلهم نشاطهم في عملهم نشاطا لا يعرف الكلل ، وطريقة اسكانهم من معهم ، وترتيبهم خيام المعسكر ، كما امتلأت نفوسهم خوفا مما شاهدوه من كثرة الجنود وقوتهم ، ولما راحوا يقارنون حاضرهم بماضيهم ، والأخطار التي تهددهم حاليا بما كانوا ينعمون به من استتباب الأمن تملكهم الفزع على نسائهم وأولادهم وبيوتهم التي درجوا فيها ، وعلى حريتهم وهي أعلى ما تملكه الانسان ، ورأوا أن من اختطفهم الموت أسعد حظا منهم لأنهم لم يكابدوا الخطر الشديد الذي يكابدونه هم من وجودهم في غمرة هذه المصائب ، وهكذا باتوا يترقبون بين يوم وآخر سقوط المدينة وهلاك أهلها ، وذلك لاعتقادهم الجازم أن حصارا كهذا الحصار الشديد ، يصحبه مثل هذه الشدة والرجم ، لا يمكن أن تسفر نهايته الا عن دمار المدينة وضياع حريتها .

- ١٤ -

كانت الحاجة الى حصول من في المعسكر على العلف لخيولهم والمئرة اللازمة لأنفسهم حاملة اياهم على القيام بطلعات متعددة وراء النهر ، وقد ذهب بهم السير في بعضها الى مسافات قاصية ، وكانوا

يرجعون بعد كل خروج سالمين غانمين ، بسبب استمرار بناء الاعمال داخل المدينه دون أن يجسروا على التجوال فيما حولها ، حتى آلف العسكر العبور عده مرات فى اليوم الواحد رغم أنه لم يكن من المستطاع القيام بهذا العبور الا سباحه . وسرعان ما تجلت هـذه الحقيقة للمحصورين ، فشرعوا من جانبهم فى عبور النهر من فوق الجسر ، تاره جهرا وتاره خلسه ، مما أدى الى قدرتهم فى أحيان كثيرة الى قتل عدد قليل من رجالنـا . أو اصابتهم بالجراح ، لأنهم اعتادوا التجول هنا وهناك دون ان يأخذوا حذرهم ، وكانوا يخرجون فى أفراد قلائل بحثا عما يحتاجونه ، وقد استفاد العدو فائده قصوى من أن النهر كان يقف حجر عثره كبرى فى طريق عودة الصليبيين ، كما أن هذه الصعوبه ذاتها هى التى كانت تمنع أهل المعسكر من معاونة أصحابهم وهم يرونهم يقعون فى يد العدو ، وأراد القاده التغلب على هذا الموقف فرأوا الخير فى بناء برج من أى مادة تتوفر عندهم . لأنه ان يبن مثل هذا البرج تكن مساعدتهم أكثر فعالية فى القضاء على أحابيل العدو ، كما انه يساعد العسكر على النجاح فى العودة الى مجتمعاتهم ، دون أن يتكبدوا الا خسـائر طفيفة ، يضاف الى ذلك أنه يفتح طريقا آمنا ملائما للمشاه اذا ما دعاهم داع الى الخروج لأمر عاجل ، لاسيما ما يتطلب منهم النزول الى الساحل .

★★★

كان هناك عدد من المراكب راسيا فى النهر وعلى سطح البحيرة التى فوقهم ، فربطوا هذه القوارب بعضها الى بعض ربطا محكما ، ثم بسطوا عليها ألواحا سميكة ، ومواد خشبيه أخرى تصلح لهذا الغرض ، وأحكموا شدها بعضهـا الى بعض احكاما كبيرا بحبال مجدولة من الصفصاف ، وبذلك وجد جسر قوى كاف تماما لأن يتسع

فى المره الواحده عدة أشخاص يعبرونه جيئا الى جيب ، فكان هذا البناء الخشبى ملائما كل الملاءمة لرحالنا ، وكان منصوبا قرب معسكر الدوق فى مواجهة البوابة التى خصصت له للمراقبة ، وعلى مسافه قرب من ميل من الجسر الحجرى المتصل بالمدينه ، ولا نزال هذه البوابة التى ذكرناها حالا تسمى ببوابة الدوق لارتباطه بها . اذ كان معسكره يشغل كل الناحية الواقعه بينها وبين الجسر الحديث البناء ، ولم يكن يشاركه فى هذا الموضع مشارك ٠

لم يكن الخطر يهدد الصليبيين من هذا الجسر وحده أو من ناحيه البوابة المتصلة به فحسب ، بل كانت البوابة العليا التى كانت السالفة فيما وراء ذلك ، والمعروفة اليوم بباب الكلب ، تعد مصدر خطر حسم يهدد قواتنا ، لأنه كان فى هذا الموضع ـ كما قلنا ـ جسر صخرى يمتد فوق مستنقع ويخرج من المدينة ، وقد نكون هذا المستنقع من المياه المتدفقة بلا انقطاع من المنبع الموجود عند البـــوابة السرقـــة ، أو بوابة القـــديس بولس ، وكذلك من المياه الواصلة على الدوام من الروافد الأخرى . وكثيرا ما جاءت عن طريق هذا الجسر غارات جمة فى منتصف الليل ، وأخرى فجائية بالنهار ، وكلها تســـتهدف معسكر كونت تولوز الموكل اليه حراســـة تلك البوابة ، وكان من عادة العدو أن تقتحم البوابه ويصب وابلا من السهام تتهاوى كالمطر الدفاق ، مما يؤدى الى مصرع الكثيرين من رجال الكونت واصابتهم بالجراح ، وكان حل اعتماد الخصم على هذا النوع من الهجوم لأنه يمكنه خير تمكين من النجاة سالما عبر الجسر الى المدينة بعد اتمام غارته ، وقتله من قتل ، بينما لا يستطيع الصليبيون مطاردته الا من هذا الطريق ، ومن ثم فقد كانت الجياد والبغال التى فقدها كونت تولوز وأسقف بوى وغيرهما من النبلاء المرابطين فى تلك الناحية تجاوز كثيرا ما فقده عسكر القادة الآخرين٠

أدت الخسائر التى وقعت فى صفوف المحاربين الناجمة عن هذا الوضع الى استيلاء الهم المقيم على الكونت والأسقف المعظم ، ومن ثم فقد استدعيا رجالهما ، ووجهاهم للحصول على مجنات وآلات حديدية ، وتوحيد جهدهم لتحطيم الجسر ، فلما كان اليوم المحدد لذلك الأمر قدم الفرسان وعليهم زردياتهم ودروعهم ، وقد غطوا رؤوسهم بالمغافر ، وتجمعوا عند الجسر ، وحاولوا هدمه بكل ما فى طوقهم من قدرة لكن هذا البناء الأصم كان أقوى من كل حديد ، فقاومهم واستعصى عليهم . كما راح الأهالى يعرقلون جهد العسكر اذ يرمونهم بالحجارة ويمطرونهم بوابل من السهام والنشاب . فلما رأى الصليبيون فشل أنفسهم فى محاولتهم هذه تحولوا عنها الى أخرى مخلفة لها ، فقرروا اقامة آلة حربية فى مواجهة الجسر مع وضع حراسة مستمرة من رجال مسلحين ، ليس لهم من عمل سوى صد الهجمات التى يسنها المحاصرون . وجمعوا اذ ذاك كل ما تحتاجه هذه الخطة . كما جاءوا بالعمال ، ولم تكد تنقضى غير أيام قلائل حتى كان العمل قد أنجز تماما على أحسن ما يكون الانجاز ، فقد بذل العمال جهدا شاقا ، وواجهوا الأخطار فى جرهم الآلة الى موضعها حتى قامت أمام الجسر كالصرح الممرد ، وعهد بها الى حماية الكونت وملاحظته .

فلما رأى البلديون الآله منصوبه الى الأسوار . لم يحجموا عن المخاطره فصوبوا آلات رميهم اليها ، وحاولوا اضعاف آلتنا التى راحوا يصبون عليها وابلا غير مقطوع من قذائفهم الحجرية الضخمة ، كما شرع الذين فوق الأسوار والأبراج يقوفون نبالهم وسواها من أنواع السهام ، ويرمون بها رميا شديدا يبغون بها من هم حول الآلة لبردوهم عن الجسر .

وهكـذا استمر المدافعون الواقفون على الأسـوار فى سن عاراتهم من كل ناحية . وفى صب وابل من السهام والصخور يأخذ بعضهم بحجر البعض الآخر آمـلا منهم فى رد الصاعدين الى الوراء ولو قليلا ، على حين اندفع غيرهم لفتح البوابة فى كرة عنيفة استـولوا فيها على الجسر عنوة ، وشقوا طريقهم الى الآلة يقاتلون من يعترضهم . وشبوقهم مسرعة فى أيديهم ، ومزحزحين من وكلت اليهم حمايتها ، ثم أشعلوا النار فيها حتى أحالوها رمادا ، حينذاك أدرك رجالنا أنهم لن يقدروا على التقدم ان هم اتبعوا هذه الخطة فى مواجهة المتاعب التى تصادفهم عند البرج ، ولذلك فما كاد اليوم التالى يطلع حتى كانوا قد أقاموا ثلاث آلات ، وراحوا يصبون منها وابلا موصولا من القذائف . مؤملين من وراء ذلك أن يضعفوا على الأقل الأســوار والبوابة ليمنعوا الأهـالى من سن عاراتهم العدوانية ، وحتى لا يجرؤ أحد منهم على الخروج من تلك البوابة طالما أن الآلات مستمرة فى عملها ، ولكن لم تكن هذه العمليات لتهدأ قليلا حتى يعاود المحصورون هجماتهم ، ويسببون كثيرا من الأذى لمن اقترب منهم من أهل المعسكر .

غير أن هذه الخطة برهنت هى الأخرى على عدم جدواها ، فعمد الصليبيون الى ابتاع طريقة اقترحها عليهم واحد منهم ، ألا وهى أخذ الأحجار الكبيرة وجذوع الأشجار الضخمة التى يعجز المائة من الرجال عن زحزحتها الا بشق النفس وراحوا يدحرجونها ناحية البناية . وقام بهـذا العمل ألف فارس مدرعين تحت الجيش بأجمعه . حيث حملوا هذه الأشياء فوق الجسر ، وجعلوها كومة كبيرة أمام البناية ، فباءت اذ ذاك جميع محاولات الأهالى فى دفعها بالفشل الذريع وقضت هذه الخطط على كل هجوم فجائى يشنه العدو من هذه البوابة .

وحدث فى أحد تلك الأيام أن خرجت طائفة من المشاة والفرسان من جيشنا ، تبلغ الثلاثمائة عدا ، وجاوزت الجسر الى ما وراءه التماسا للعلف ، وتفرقوا حربا على عادتهم فى ربوع تلك الناحية بحثا عن الأشياء الضروريه ، وكانت حاجتهم الملحة فى التفتيش عن الطعام تضطرهم الى سلوك هذا الطريق الذى اعتادوه ، وعادوا سالمين من غدواتهم التى خرجوا فيها يبحثون عن الميرة حتى وهم محملون بأحمال ثقال مما يحتاجونه ، ومن ثم اعتقدوا ان الحظ سوف يمشى فى ركابهم على الدوام ، ولم يخطر على بالهم أبدا امكان وقوع حادث لهم ، كتلك الأحداث التى تصاحب الخروج فى طلب العلف زمن الحرب ، فتناسوا الحذر والانتباه الواجبين ٠

فلما رأى المواطنون هذه الجماعة أرسلوا منهم حشدا كبيرا لمناغتها ، حتى اذا ما عبرت الجسر الصخرى انطلقوا بكل ما أوتوا من قوة شطر الصليبيين الذين كانوا يتجولون هناك دون أن يأخذوا حذرهم ، فأغاروا عليهم ، وقتلوا أكثرهم ، وأما من قدرت لهم النجاة فقد لاذوا بأذيال الفرار ٠

هرب الصليبيون الى الجسر المصنوع من القوارب رجاء الوصول الى المعسكر ، ولكن الجسر كان مزدحما بمن سبقوهم اليه ، واذ ذاك حاول أكثرهم عبوره عن طريق المخاضة ، فابتلعهم الموج وكان نصيبهم الموت بعد أن كان يراودهم الأمل فى النجاه ، وأما من سواهم فقد تدافعت حشودهم الكثيفة وتزاحموا فسقطوا من أعلى الجسر فى النهر ، فصرعتهم الأمواج ، وقذفت بهم الى الأعماق التى فغرت لهم فاها وأبت أن تردهم ٠

حين سمع الجيش خبر هذه النكبه هب آلاف من الفرسان الى أسلحتهم وعبروا النهر . فاعترضـــهم العدو وهو عائد بعـــد قتله الصليبيين فرحا بمـــا وقع فى يده من الغنائم ، فهاجمه رجالنا فى الحال ، وراحوا يقصون آثاره فى عزم لا يلين ، حتى بلغوا بوابة المدينـــه ، وكان الخطب جسيما . وحـــين رأى أهل البلد اخوانهم الموطنين فى هذا الخطر الباعث على الأسى وهم يروحون ما بين قتيل وجريح تحركت قلوبهم عطفا عليهم ففتحوا الباب ، وتجمعوا عبر الجسر الحجرى ، فى جموع كثيفه لمد يد المعونه الى أصدقائهم ، وشنوا هجوما شديدا — لم يؤلف منهم من قبل — على قواتنا التى قاومت فى بداية الأمر مقاومه شديدة ، لكن ما لبث ان تغلبت عليها الجموع الكثيفة ، فولوا على أدبارهم هاربين ، وجد الخصوم فى اثرهم حتى بلغوا الجسر المصنوع من القوارب ، ومات فى هذا القتال كثير من مشاتنـــا بحد السيف ، وابتلعت لجة النهر العديد غيرهم ، كمـــا اضـــطربت صفوف الفرســـان وهم يهربون من العدو وراح بعضهم يزاحم بعضا ، فسقطوا هم أيضا فى النهر ، وقد أثقلتهم الدروع والزرديات والخوذات التى عليهم ، فابتلعهم اليم هم وخيولهم ، ولم يعودوا قط للظهور .

وهكذا كابد رجالنا من الحصار أهوالا لا تقل عما كان يكابده من كانوا وراء الأسوار ، ولم يعودوا قادرين على التخفى فى خروجهم الى النواحى التى حولهم بل أصبح أمرهم مكشوفا لأهل البلد الذين بذلوا من جانبهم كل محاولة لصدهم ، وحدث فى نفس الوقت ان أخذت قوات معادية أخرى تتربص بهم فى الغابات وتترصدهم فى الحقول ، وتنصب لتصيدهم الكمائن التى كثيرا ما صادفت النجاح . وترتب على ذلك أن فقد رجالنا الجرأة على الخروج من معسكرهم ، أو الذهاب بعيدا فى طلب الطعام كما لم يعد المعسكر ذاته مكانا

آمنا لأن الجميع صـــاروا فى فرغ من ان ساعيهم على غره القوه الضخمه ـ التى قيل أن العدو قد أخذ فى جمعها من نواح متعدده ٠

هنا قد يتساءل الرجل العاقل : أى الحالين كان أحسن من غيرها ، وأيها كان مبعث فرع « حاله الجيش المحاصر أم أولئك الذين كان المفروض فيهم أن يكونوا محاصرين ؟ » ٠

- ١٧ -

لو حاولت ان أذكر بالتفصيل الاهوال التى كانت تقع غالبا كل يوم فى الأماكن المختلفه بسبب هذا الحصار العنيف الطويل الأمد لكان أمرا يطول شرحه وليس موضعه فى هذا الموجز التاريخى الذى أحاول أن أنجزه بكل الدقه ، فلنتجاوز الأحداث الخاصة ونتابع مجرى الحوادث العامة ٠

حينما دخل الحصار شهره الثالث مع تقلب الحظوظ فى هذه الحرب المستمرة أخذ الطعام فى التناقص فى المعسكر وعانى الجيش الأمرين من قله المئونة ٠

فى البدء كانت هناك وفره بالغه الضخامة فى كل شىء تمس الحاجة اليه من طعام الانسان وعلف الجياد ، وتوهم الناس ـ جريا على عادة الجهال ـ أنهم سوف يظلون ناعمين بهذا الوضع السوى . غير متوقعين أى عناء قد يلم بهم ، ومن ثم لم يحسنوا التصرف فيما بين أيديهم من خيرات ، مما ترتب عليه ان أتوا فى وقت وجيز على ما لديهم من طعام كان المفروض فيه أن تكفيهم أياما طوالا لو أنهم التزموا الاعتدال فى استهلاكه ، لكن لم يكن هناك حد لاسراف

الجند ، ولم يلترموا القصد الذى هو سمه العقلاء ، بل كان تم بدح سفبه فى كل ناحيه ، تعدى ضرورات عيش الانسان الى علف الجياد ودواب النقل ، ولم يعرفوا الوسط فى أى شئ مما نجم عنه أن أصبح الجيش بأجمعه موشكا على الفناء ، ودلك بسبب ما ترتب على انتشار المجاعه من تضاؤل عدد المحاربين ، وحينداك نودى فى الناس بعقد مجلس عام يضمهم جميعا ، وقرروا تقسيم كل الغنائم التى تقع فى أيديهم قسمة عادلة ، وأكدوا قرارهم هـذا باليمين قطعوهـا على أنفسهم ، وكونت لدلك عده كتائب قوام كل منها ثلاثمائة أو أربعمائه رجل ، خرجوا معا وراحوا يذرعون الناحيه بأكملها فى محاوله منهم للحصول على الطعام بأى وسيلة يقدرون عليها ٠

واعتاد هؤلاء الباحثون عن الطعام ان يعودوا وقد فاضت أيديهم بالأسلاب الكثيرة ، والغنائم الوفيرة ، والمئونة الضخمة ، وكان ذلك قبل أن يأخذ أهل البلد أنفسهم بمهاجمه هذه الجماعات ووضع الكمائن لها ، وأيضا ابان الوقت الذى كان فيه الاقليم الدى حولهم لا يزال غاصا بقطعان الماشية والأغنام وأحمال الحبوب والشراب وغير ذلك من الغلات ، وكان هذا هو السبب فيما أشرنا اليه من قبل من وفرة المئونة فى المعسكر ، أما الآن فقد غاضت موارد الأراضى المجاورة ، ونقصت غلاتها ، أضف الى ذلك أن الترك الذين كانت شوكتهم قد ضعفت من جراء ما استولى عليهم من خوف أذل نفوسهم عادوا فاستردوا بأسهم وشجاعتهم فى الدفاع عما يملكون ، وأصبح العلافون يعودون [للمعسكر] صفر الأيدى ، وكثيرا ما كان يحدث أن يقتل الخارجون عن بكرة أبيهم فلا يبقى منهم أحد يحدث عما كان مصيرهم ٠

أخذت الذخائر تقل يوما بعد يوم ، وعمت المجاعة حتى لم يعد من اليسير الحصول بشلنين على الخبز الذى يكفى لوجبة الشخص

فى يوم واحد ، وأصبح ثمن الثمره أو العجله ماركين بعد أن كانت تباع من قبل بخمسة شلنات ، ولا تكاد الثمانية شلنات تكفى لشراء علف وجبة واحده للحصان فى ليله واحده ، وكان الجيش قد جلب معه أكثر من سبعين ألف حصان لم يبق منها فى المعسكر سوى ألفين أو أقل ، أما البقية فقد هلكت بردا ، ونفقت جوعا ، أما مالازال منها حيا فقد أخذ عدده فى التناقص شيئا فشيئا . وأصابها الهزال بسبب الجوع والبرد المهلك ٠

يضاف الى ذلك تسرب الرطوبة والعفن الى الفساطيط والخيم حتى لقد هلك الكثيرون ممن كانت لا تزال عندهم الأطعمه ، لأنهم لم يعودوا قادرين على تحمل البرد الشديد ، وليس عندهم من غطاء يدفع عنهم زمهريره ، وهطلت الأمطار الغزيره فأفسدت الطعام ، وتعفنت الملابس ، ولم يعد ثمة مكان يستطيع الحجاج ان يسندوا رؤوسهم اليه أو يكوموا حاجاتهم فيه ٠

وقد ترتب على هذه الظروف ان تفشى الوباء فى كتائب العسكر ، وكان وباء قاتلا لم يجدوا معه مكانا يوارون فيه جثث موتاهم ، ولم يستطيعوا اقامة الشعائر الجنائزية لهم ٠

أما الذين كانت دلائل الصحة لا تزال باديه عليهم فقد فروا خفية حتى لا يقعوا فريسة لهذا الطاعون المهلك ، فهرب بعضهم الى لورد بلدوين فى الرها ، وبعضهم الآخر الى قيليقيا عند حكام مدنها ، ومضى آخرون عبر هؤلاء وهؤلاء الى النواحي التى كانت قد آلت الى حكم الصليبيين ، ونجم عن رحيل هؤلاء ، وهلاك من قتله الجوع وأفناهم المرض ، ومن قتلوا بالسيف ان تضاءل الجيش الى الحد الذى قل معه عدد الأحياء منهم عن نصف ما كانوا عليه ٠

تدبر قادة الرب المخلصـــون ماران على الناس من الحزن ، وفكروا فيما شاهدوه من الأهوال التى ألمت بهم ، ففاضت نفوسهم حسره ، وتشققت أكبادهم أسى على هذا الجيش المنكوب ٠ فاجتمعوا كدأبهم للتشـــاور فى ايجـــاد علاج يدفع هذه المصـــائب المهلكة واستعرضوا مختلف الاقتراحات ، حتى استقر الرأى بهم أخيرا على خروج أعظم قادتهم بطائفه من الجند لشن حمله على أرض العدو ، يستولون فيهـــا على الماشـــية ، وينهبون ما يقـــدرون عليـــه من الطعـــام اللازم ، على أن تقيم البقيه الباقيـــه من الرجـــال فى المعســـكر أثنـــاء غياب هؤلاء الرجـــال ، وان تبذل هذه البقية الباقيـــه غايه الجهد فى حمـــايه الجيش ، واتفقوا على أن يكلوا مهمـــه جلب المئـــونة الى بوهيمونـــد وكونت فلانـــدرز ، وأن يبقى كونت تولوز وأسقف بوى لحراسة المعسكر ، وكان كونت نورماندى غائبـــا اذ ذاك ، كمـــا كان جـــود فروى دوق اللورين ملازما للفراش لاصابته بمرض شديد ، فاستصحب القائدان معهما طائفة كافية من الفرسان والجنود المشاه بقدر ما استطاع الجيش المنهوك امدادهما به ، ودخلوا أرض العدو ٠

ما كاد المحصورون يعلمون برحيل بوهيموند وكونت فلاندرز ، وبغياب كونت نورماندى ، وبمرض الدوق حتى دبت فيهم الشجاعه على غير عادتهم ، واغتنموا الفرصة لمهاجمة معسكرنا ، يقينا منهم حسبما بأن تغيب هؤلاء القادة انما هو فرصة لا يجوز أن تفلت من أيديهم ، فاستدعوا من المدينة حشدا كثيفا من شتى صنوف الناس واجتمعوا كلهم عند الجسر وكان مدخله مفتوحا ٠ فراح كل واحد منهم يزاحم الآخر ويتدافعون فى اجتياز النهر : البعض منهم عن طريق الجسر ، والبعض الآخر عن طريق المخاضة السفلى فى محاولة

منهم لمهاجمة معسكرنا ، ولكن الكونت تصدى لهم بكتيبة من الفرسان ، فاضطرهم الى الارتداد الى المدينة وقد فقدوا رجلين من رجالهم .

وحدث فى أثناء هذا الخروج أن حاول بعض فرساننا الاستيلاء على جواد كبا براكبه فسقط عنه ، فلما رأى الحشد التعيس ـ الذى لم يعد يحسن التفكير ـ هذا المنظر خيل الوهم لهم أن الفرسان قد فروا خوفا ، ومن ثم فقد لاذوا هم أيضـا بأذيال الفرار ، وزاحم بعضهم بعضا عن كثب ، فكان فى ذلك هلاكهم بأيديهم ، وسرعان ما أدرك المواطنون أن الحجاج يولون الادبار دون أن يدفعهم أحد ، فاندفعوا مرة أخرى فوق الجسر ، وهاجموا الهاربين بسيوفهم ، وتلاحموا واياهم ، ففروا منهم فتعقبوهم من الجسر الصخرى حتى بلغوا جسر المراكب ، وهنا كان الخطب جسيما ، فقد اندفع رجالنا وزاحم بعضهم بعضا حتى سدوا الطريق على أنفسهم ، فهلك منهم خمسة عشر فارسا وعشرون من الجند المشاة ، قد هبرت بعضهم السيوف فماتوا بحدها ، وغرق البعض الآخر فى النهر ، فملأت الفرحة الكبرى قلوب الأعداء بهذا النصر فانكفأوا الى المدينة قد أسكرهم النصر .

- ١٩ -

فى هذه الاثناء خرج بوهيموند وكونت فلاندرز بموافقة الجمع على رأس طائفة من الجند ، فى حملة لجلب الطعام ، مؤملين أن يعودوا بوفرة ضخمة من المئونة حتى يبددوا ما نزل بالمعسكر من الضيق ، وقد أدت غدواتهم الحسنة الطالع فى أرض العدو لتقليل نكباتنا ، لأنهم استولوا على منزل للعدو زاخر تماما بكل ما هو نافع .

وأرسل بوهيموند جماعة من الكشافه الى مختلف النواحى ، لتقصى أخبار الناحيه ، ثم الرجوع اليه بالغنيمة ان تهيأ لها العثور على غنيمة ، فلما رجعوا اليه أنبأه بعضهم أن عددا كبيرا من الأتراك قد نصبوا خيامهم فى تلك الضاحية ، فما كاد يسمع ذلك حتى بادر فأرسل ضدهم كونت فلاندرز مع حرس قوى ، ثم ما لبث أن مضى هو ذاته فى أثرهم على رأس الجيش الأصلى لمساعدتهم ان كانت ثمة حاجة الى مثل هذه المساعده ، ولكن لما كان الكونت رجلا شجاعا ومحاربا عظيما ، فقد استبسل فى مهاجمة الأعداء ، ولم يعد الى بوهيموند حتى كان قد أفنى من الكفار مائة ، فلاذت بقيتهم بأذيال الفرار ، وبينما كان راجعــا الى الجيش الكبير مجللا بالنصر ، جاءه الكشافه الآخرون وأخبروه أن قوة من العدو تزيد عن سابقتها فى لتقصى أخبار الناحية ، ثم الرجوع اليه بالغنيمة ان تهيأ لها العثور على العدد والبأس تتقــدم من ناحية أخرى ، فبعث لصدهم طائفة مع الكونت ، ثم مضى هو ببقية عسكره وراءه ليكون على أهبة لنجــدته ان استلزم الأمر النجده ، وشاءت رحمة الرب التى كانت هــدى لقواتنا ــ أن يتردى العدو فى بعض الشعاب الضيقة فانكفأ راجعا هاربا ، اذ أدرك ان لن تجدى الأقواس ولا السهام نفعا فى هــذا القتال ، ولكن سيكون السيف هو الفيصل فى هذاالصراع وجها لوجه ، وهو نوع من القتال ليس بالمألوف عند العدو الذى ولى حينذاك على ادباره فارا فجد الصليبيون فى تعقبه مسافة ميلين ، وأوردوا الكثيرين من رجاله حتفهم ، ثم عاد رجالنا الى معسكرهم ســالمين غانمين ، وجاءوا معهم ــ كرمز لانتصارهم ــ بالكثير من الجياد والبغال وغيرها من الأسلاب ، ومجمل القول أنهم عادوا بكل ضروب الغنائم التى استولوا عليها من شتى نواحى الاقليم المحيط بهم .

ولقد بث نجاحهم الفرحة العظمى فى نفوس اخوانهم الحجاج ، وأتاح لهم الفرصة للاستجمام وان كانت قصيرة يستريحون فيها من

نعمهم ، على أن الغنيمه — مع هذا كله لم تكن ضخمة جدا — بيد أنها كانت على أنه حال كافية لسد جوعهم ولو لبضعة أيام قلائل ، ومن ثم فانه لم يتهيأ للجيش أن يتخلص تماما من متاعبه ٠

- ٢٠ -

وجاء في هذا الوقت من أرض رومانيا(١) خبر محزن ملؤه الشجو والفزع ، فبث الذعر فى أفئدة الجمع وزاد من قسوة وضعهم الباعث على اليأس ٠

لقد كان الخبر الذى ثبتت صحته كما يلى : —

كان هناك رجل شديد السطوة رفيع المكانة فى قومه يدعى روين (وهو ابن ملك الدنمركين) ، قد جمع الى كرم الحسب حسن الخلق ، وبهاء الطلعة ، لكنه ، كان يتحرق شوقا للقيام بنفس هذا الحج ، فأسرع ليساعد فى حصار أنطاكية على رأس ألف وخمسمائة شاب من نفس الأمه خرجوا وعليهم من السلاح أحسنه ، واذ كانت مغادرته مملكة أبيه بعد فترة من خروج الآخرين فقد راح يسرع الخطى ما وسعه الاسراع ، عساه يمكن هو ومن معه من الانضمام الى الكتائب التى سبقته ، غير أنه انشغل بأمور خاصة به عاقت خطاه وعجز عن مغالبتها ، وكان أمله ان يتغلب عليها فتأخر ، فسار وحده على رأس قواته الخاصة من غير حراسة من أى احد من القاده الآخرين ، واقتفى أثر من سبقوه ، فبلغ القسطنطينية التى رحب

---

(١) لفظ يقصد به جغرافيا آسيا الصغرى ٠

به امبراطورها أعظم ترحيب ، ثم تابع سيره حتى بلغ نيقيه سالما ، ثم أخذ المسير نحو الجيش فدخل أرض آسيا الصغرى فى جميع خاصته ، وعسكر دون أن يأخذ حذره — بين مدينتي «فيليو ميلنام» و «نيرما» ، فخرجت عليه قوه كبيره من الأتراك ليلا وباغتته فجأه ، وأخذته على غره فمملته فى فسطاطه ، واستيقظ جماعتــه للأسف متأخرين على جلبه العدو المقترب ، فهبوا لحمل سلاحهم ولكن كان الوقت قد فات اذ هاجمهم العدو قبل ان يأخذوا أهبتهم تماما لصده وفتك بهم جميعا وان كانوا رغم ذلك قاوموه مقاومه بطوليه طويله ، وأحرز العدو النصر ، ولكنه نصر ملطخ بالدماء ، وبذلك لم يضــع رجال [رفين] بأرواحهم هباء ٠

- ٢١ -

كان الامبراطور كما قلنــا من قبل عين تاتكيوس نائبا عنه ، ومرشدا للحجاج أثنــاء زحفهم ، فظل حتى هذه اللحظة مصاحبــا للعسكر الحجاج ، أما الآن وقد رأى المصاعب المحدقة بهم فقــد ساوره الخوف — لجبن طبع عليه — ألا يستمر القادة فى حجهم ٠

وتوقع يوما يهلك فيه الجيش كله بسيوف الأعداء ، ومن ثم جاء الى مجلس اجتمع فيه القاده ، واجتهد غايه الاجتهاد ليحملهم على التخلي عن الحصار ، وتوجيه الجيش كله الى المدن والقلاع القريبة منهم لأنهم واجدون فيها المئونة بوفرة زائدة كما انهم يستطيعون هنا ان يستمروا فى مضايقة أهل أنطاكية لأن الامبراطور كان قد جمع لمساعدتهم حشودا من أمم شتى بلغت آلافا لا يحصيها العــد وأعدها كي تصلهم مع مطلع الربيع ، وأضاف تاتيكيوس الى ذلك

أنه لما كان قد عزم منذ البداية على أن يشاطرهم متاعبهم ، وأن يكون معهم في السراء والضراء ، وفي العسر واليسر فانه يريد أن يقوم بمهمة أكبر مما عهد القيام بها ، ويستهدف الصالح العام ، فذكر لهم أن قصده هو أن يذهب لخطبه الى الامبراطور لحث الجيش الامبراطورى على الاسراع ، وان يعد المئونه اللازمة من الطعام ليحملها معه من الناحية التى على هذا الجانب من المدينه فلم يعارضه أحد من قادتنا ولم يرفضوا اقتراحه ، رغم أنهم كانوا يدركون منذ الوهلة الأولى مكر تاتيكيوس وخيانته التى حاول سترها بما زعمه لهم من دعوى تحملهم على تصديقه ذلك أنه ترك معسكره وجانبا غير ضئيل من أتباعه لم يستصحبهم معه ، والحق أنه لم يفعل ذلك الا لأنه لم يكن يعبأ بما فيه سلامتهم أو ربما لانه أوعز اليهم سرا أن يرحلوا فى أثره ، وجعل بينه وبينهم موعدا يوما يلقاهم فيه عند مكان حدده لهم .

ورحل تاتيكيوس مدعيا أنه عائد اليهم عن قريب ، لكنه لم يأت بعد ذلك أبدا ، فدل ذلك على لؤم نفسه ، وخبث طويته ، ونكثه لعهده وأنه بذلك يستحق الموت الأبدى .

لقد كان رحيله سابقه مؤذية فلم يعد القادرون على التسلل خلسة من المعسكر يعبأون بما قطعوه على أنفسهم من الأيمان ولا يكترثون بالعهود القوية التى أخذوها على أنفسهم منذ البداية .

وكانت المجاعة فى نفس الوقت تزداد افحاشا وتعسيا ، وعجز القاده عن ايجاد حل بات ينقذهم من هذا الشر المستطير ، فتحيروا من بينهم جماعة اتفقوا على أن يخرج منهم كل اثنين معا مرة بعد الأخرى بقوات كبيره الى أرض العدو ، وغالبا كانوا يعودون الى قومهم منتصرين ، وان لم يغنموا شيئا وليس معهم شىء من الميرة التى كانت حاجتهم اليها ملحة بل يعودون صفر الأيدى ، ذلك أنه كان قد تردد

بين العدو نبأ اعتباد خروج الصليبيين وشنهم الهجمات ، فبادر الأعداء لنقل مقطعاتهم ومواشيهم وغيرها مما يملكون من صنوف الحيوان الى الجبال التي لم يكن ثم سبيل لاقتحامها ، ولم يكن الصليبيون قادرين على التوغل في تلك النوحى البعيدة التي اعتصم خصومهم بها ، وحتى لو قدر لهم أن ينجحوا في الوصول اليها فانه لم يكن من الهين أن يغنموا شيئا ٠

- ٢٢ -

كانت المجاعة اذ ذاك تزداد تفشيا وشدة في الجيش يوما بعد يوم مما نجم عنها انتشــار الطاعون وكثير من الأمراض الأخرى ، ونسب أصحاب السن الكبيرة وأهل الخبرة الواسعة هذه الأهوال الى خطايا الناس ، وان الرب استشاط غضبا منهم ، وحق له أن يغضب ، فصب سوط عــذابه على أطفــاله المارقين لذلك اجتمعوا فيما بينهم للتشاور فيما يفعلون ، وخافوا الله كأنه أمامهم يرونه رؤيا العين ، وشرعوا يتحاورون فيما يجب عليهم ، فرأوا أن يبادروا بالتكفير عن آثامهم واعلان توبتهم الصدوق ، والرجوع عن أخطــاء الماضي ، وتجنب الوقوع في مثلها في المستقبل ، مؤملين من وراء ذلك أن يطفئوا غضب الرب ٠ واذ ذاك قام صاحب الشرع فيهم أسقف بوى نائب الكنيسة الرسولية وسواه من كبار رجال الدين أحباب الرب ، وأجمعوا الرأى على مطالبة الجيش كله وأمرائه العلمانيين بصيام ثلاثة أيام عسى أن يكون تعذيبهم الجسد مؤديا الى شــد عزائمهم ، فلما فعلوا ذلك مخلصين صمموا على تطهير المعسكر من كل عاهرة وامرأة كريهة السمعة ، وجعلوا الاعدام عقوبة للفحشاء والفجور بشتى أنواعه ، وصدر قرار الحرمان على المجان والسكيرين،

ووقع تحت طائلة هذا العقاب شتى أنواع ألعاب القمار والقسم بالأيمان الكاذبة والتطفيف فى الكيل والغش فى المقاييس ، وكل ضروب الاحتيال من سرقة الغير ، ونهبهم ، وسلبهم ٠

ولما تقررت هذه القواعد ووافق عليها بالاجماع عينوا قضاة وكلوا اليهم مراقبة هذه الآثام ، ومنحوهم كل السلطة فى الكشف عن أصحابها ، وانزال العقاب بهم فما لبثوا أن وجدوا بعد قليل جماعة شجبت هذه القوانين ، فلما قامت البينة على هؤلاء الخطاة شهر بهم تشهيرا قاسيا ، وأدانهم القضاة ، وحكموا عليهم بأقصى ما يقضى به القانون تبعا لنوع الجريمة التى ارتكبها الواحد منهم ، فارتدع سواهم وكفوا عن اقتراف جرائم كهذه الجرائم ٠

وهكذا عاد الناس برضوان الله ورحمته يجنون ثمار الحياة الطاهرة وهدأ غضب الرب عليهم ، وتجلى هذا فى أن أحد اللوردات جود فروى — الذى كان وحده أشبه بدعامة الجيش كله — فى النقاهة واسترداد صحته تماما ، وتعافى من وعكته الحادة التى آدته طويلا بسبب الجرح الذى أصابه من الدب فى بسيديا من ضواحى أنطاكية ، وكان شفاؤه عزاء كبير للمحاربين فى محنتهم ٠

— ٢٣ —

ترددت فى هذه الأثناء اشاعات وأخبار رن صداها قويا فى كافة أنحاء المشرق ، وجاورته حتى بلغت ممالك الجنوب والشعوب الأخرى الخارجية مفادها أن قوات كبيرة من الصليبيين زحفت حتى بلغت أبواب أنطاكية وأنهم كانوا يدا واحدة فى حصارهم اياها

فخاف كل حاكم على بلده ، وباروا ، فاندس الجواسيس يسللون الى جيشنا الوافد للوقوف على التفاصيل الدقيقه حول أسلوب هذا مزودين بالتقارير عن أحوال المعسكر الصليبي الى من دسوهم علينا ، ثم يحل سواهم مكانهم لنفس الغرض ، ولم يكن دون أن يتعرف عليهم أحد لأنهم كانوا يتقنون عده لغات ، فزعم البعض منهم أنهم اغريق ويزعم سواهم أنهم سريان ، ويدعى غيرهم أنهم من الأرمن ، ويصطنع جميعهم فى يسر وسهوله ما لهذه الأمم من خصائص فى لهجتها وعاداتها وزيها ٠

لذلك اجتمع القادة للنظر فيما ينبغى عليهم اتخاذه لتأمين السلامة العامة من هذه الناحية ، ولم يكن من اليسر اخراج هؤلاء الجواسيس من المعسكر لأنهم كانوا قل ان يختلفوا ــ الا نادرا ــ عن أهل هذه الأمم التى ذكرناها : لغة وعادات وتقاليد ، فرأى القادة أن يوقعوا ما يرون من عقاب على أفراد قلائل فقط ، حتى يقفوا تماما على الاجراءات التى يتم اتخاذها ضدهم جميعا ٠

كان هناك ما يدعو هؤلاء الزعماء الى التخوف من مغبة معرفه الكثيرين بأخبارنا ، والى ما يتخذونه حيال هؤلاء الناس فيتسامع بما اتخذوا من ينقلونه الى العدو رغبه فى الأضرار بالصليبيين ، واذ بدا للزعماء صعوبة الوصول الى ما يمنع هذه المكائد منعا باتا فقد قام بوهيموند ــ ذو الذهن الثاقب والفكر الوقاد خطيبا فى الزعماء قائلا لهم : ــ

« سادتى وأخوتى : خلوا مسئولية هذا الموضوع كلها على عاتقى ، وكلوها الى فانى بعون الله واجد لها العلاج الناجع » ٠

فوافقوه على ما سألهم وانفض سامرهم ، وعاد كل واحد منهم الى معسكره ، وما كاد الليل يرخى سدوله على المعسكر ويستعدون

لاعداد العشاء ، حتى قام بوهيموند ـ وهو ذاكر ما قطعه على نفسه من عهد ـ وأمر باحضار بعض الأسرى من الترك الى مجلسه هذا ، وأسلمهم الى الجلاد آمرا اياه بشنقهم ، ثم أوقد نارا عظيمة كما لو كان يهيئ العشاء ، وأمر بغسل هذه الاجساد ثم شيها على النار، وألقى بتعليماته الى رجاله أن لو سألهم سائل عن معنى الذى يرون أجابوه بأن الأمراء قرروا من الآن فصاعدا أن تزود موائد القادة بلحوم جميع الأعداء والجواسيس ، بعد طبخها على هذه الصورة •

وانتشرت فى جميع أرجاء الجيش أخبار هذه الاجراءات التى اتخذها بوهيموند فى معسكره فتسابق الجميع الى فسطاطه فى فى دهشة ليشاهدوا هذه الخطة الجديدة . وتملك الفزع من كان بالمعسكر من الجواسيس ، وأيقنوا أن ما ظنوه اشاعة صار واقعا ، وأدركوا ما سوف يؤول اليه مصيرهم فغادروا المعسكر فى لحظتهم هذه ، وعادوا الى بلادهم من حيث أتوا وأخبروا سادتهم الذين كانوا قد بعثوا بهم ان لسن لأمة [الفرنجة] مثيل فى الوحشية بين الأمم بل ولا بين الحيوانات المفترسة ، فهم قوم لا يقنعون باحتلال مدن عدوهم وقلاعه ، ولا يكفيهم أن يغنموا شتى أنواع المتاع والرمى بخصومهم فى السجون أو تعذيبهم أو قتلهم ، بل ان هؤلاء الصليبيين يسعون كذلك لملء بطونهم بلحم عدوهم ، ولعق شحمه •

وانتشرت هذه الشائعات وأمثالها ، وتوغلت حتى أقصى بلاد المشرق ، فدب الذعر فى نفوس جميع الأمم ،يستوى فى ذلك من قرب منها ومن بعد ، كما استولى الخوف على كل مدينة أنطاكية وارتعدت أوصالها فرقا وفزعا من وحشية هذه الاجراءات ، وهكذا أدت اجراءات بوهيموند الى التخلص من شر الجواسيس الذين كانوا طاعونا ، وأصبحت خططنا مصونة قبل أن يعرف العدو شيئا عنها •

يضاف الى ذلك أن خليفة مصر ـ وهو أقوى السلاطين المارقين بسبب كثرة ما لديه من المال والرجال ـ كان قد أرسل رسله الى فانتا ، وتتلخص أسباب بعثته اياهم الى وجود عداوة متأصلة وعميقة الجذور منذ سنوات طويلة بين أهل المشرق والمصريين ، وهى عداوة ناجمة عن اختلاف معتقداتهم الدينية بعضها عن بعض ، ومباينة مذهب الواحد منهم لمذهب الآخر ، وظلت هذه الكراهية دون انقطاع حتى يومنا هذا ، ومن ثم ظلت هاتان المملكتان تحارب كل منهما الأخرى حربا لا هوادة فيها ، وظلت المنافسة بينهما موصولة فكانت كل منهما تسعى الى مد حدودها على حساب الأخرى ، كما بينا ذلك بدقة فى الكتاب الأول من هذا التاريخ ، وتأرجحت السيادة بينهما على مدى الأيام ، فتكون تارة لهذه وتارة لتلك ، وتكون النتيجة أن ما تزداد فى رقعة أملاك واحدة منهما بنقص مثله من أراضى الأخرى.

أما الآن فقد كانت جميع البلاد الممتدة من مصر الى اللاذقية الشام (ونقدر بمسيرة ثلاثين يوما) تحت حكم خليفة مصر ، ولكن حدث قبل ذلك أن قام سلطان فارس ـ كما ذكرنا آنفا ـ واستولى قبل مقدم الصليبيين على أنطاكية المتاخمة لحدود المملكة المصرية ـ كما احتل البلاد الممتدة حتى مضيق البسفور ، وكان حاكم مصر ينظر بعين الريبة الى كل توسع من جانب الفرس أو الترك على السواء ومن ثم كانت فرحته بالغة حين جاءته الأخبار بضياع نيقية من يد قلج أرسلان ، وبهزيمة جيشه فيها ، وأثلج صدره ما علمه من قيام الصليبيين بحصار أنطاكية ، وعد كل خسارة تصيب الأتراك مكسبا له ، ورأى أن المصائب التى تلم بهم تعمل على استقرار أمنه وأمن رعاياه ، وخاف أن تؤدى أهوال طول الحصار الى فتل

رحالنا ، ومن ثم بعث بسفرائه ورجال من حاشيته الى زعمائنا ، يحملون اليهم رجاءه فى أن يستمروا فى حصارهم الذى فرضوه على أنطاكية ، وعهد الى مندوبيه أن يؤكدوا للصليبيين أن مولاهم السلطان سوف يعينهم بالجند والذخيرة . كما حاول هؤلاء السفراء أيضا كسب الزعماء وحملهم على عقد معاهدة صداقة بين الطرفين .

وأطاع الرسل أمر مولاهم طاعة صادقة وركبوا البحر فوصلوا الى المعسكر الصليبى . وهم أحرص ما يكونون على أداء المهمة التى حملوها ، فتلقاهم زعماء جيشنا بما يليق بهم من الحفاوة والتبجيل ، وعقدوا معهم عدة اجتماعات ، ليتيحوا لهم الفرصة لابلاغ رسالتهم .

وأعجب المبعوثون بما رأوه من رجالنا وكثرة عددهم ووفرة سلاحهم وقوة صبرهم على تحمل الشدائد . كما امتلأت قلوبهم حزنا من هذا الجيش ذى القوة المتين . لما أحسوه فى قرارة أنفسهم بما يمكن ان يحدث فى المستقبل مما قد يعرض له مولاهم من تجربة مريرة وهو يحاول سرا نزع قوة واحلال أخرى مكانها .

ومجمل القول أنه بعد أن تمكن الصليبيون بفضل الله القدير من فتح أنطاكية ، وردها الى العقيــدة المسيحيه وحريتهــا الأولى أن تحررت كل البلاد الممتدة من تلك المدينة حتى حدود مصر القريبة من غزة ، وهى بلاد تقدر مساحتها بمسيرة خمسة عشر يوما ، وقد أصبحت الآن فى أيدى الشعب المؤمن .

هنا ينتهى الكتاب الرابع

الكتاب الخامس

حصار أنطاكية واحتلالها

فصول الكتاب الخامس

الشاطئ فيقع بعضـــهم فى كمين من الكمائن فيهلكون .

٥ ـ خطة رائعة للدوق ثأرا لهذه النكبة الفادحة .

٦ ـ العـــدو يعود مكللا بالنصر ولكن ســـيوف الصليبيين تنوشه عند مدخل المديـــنة فيهلك ألفان من رجاله ويوسط الدوق فارسا كافرا .

٧ ـ رجالنـــا يقيمون متراســـا على رأس الجسر ويرسلون الى السفن [الجنوية] ما يدل على انتصــــارهم .

٨ ـ احاطة المدينة بقلعة جديده أقيمت فى مواجهة الباب الغربى .

٩ ـ العسكر الذين كانـوا قد تشردوا هنا وهناك يعودون الى الجيش ، ويرسل بلدوين الهدايا من الرها الى كل واحد من الزعماء .

١٠ ـ عندما ينتشر فى المعســكر خبر اقتراب جيش العدو يدعى سيفن كونت بلوا المرض ويمضى الى الميناء معتزما عدم العودة .

١١ ـ وصف حال أنطاكيــة ، ووصف الصداقه التى قامت بين بوهيموند وبين [فيروز] أحـــد مسيحيى المدينة .

١٢ ـ المؤامرة التى تمت على يد الرسل بين بوهيموند وبين ذلك الرجل الوفى [فيروز] .

١٣ ـ بوهيموند يبذل جهودا سـاقه ليتسلم وحده المدينـه حين استسلامها فيوافق الزعمـاء باستثناء كونت بولور ٠

١٤ ـ الحلفاء [المسلمون] يحاصرون الرها اثـناء زحفهم لنجده أنطاكيـه لكنهـم يضطرون ازاء مقاومة بلدوين الشـديدة الى الارتداد عبر الفلوات دون ان يكتب لهم النجاح ٠

١٥ ـ المسيحيون يشعرون بالفزع الشـديد بسبب اقتراب العدو ويرسلون الكشافة للاستطلاع ٠

١٦ ـ الزعماء يجتمعون لتبادل الرأى فيمـا بينهم وبوهيموند يعلن السر الذى استودعه اياه صديقه فيروز ٠

١٧ ـ الزعماء يتنازلون عن المدينـة لبوهيموند عن طيب خاطر فيقوم هو بمفاوضة صديقه [فيروز] فى السر بشأن تسليمها اليه ٠

١٨ ـ الأهالى يشكون فى فيروز فيعلن براءه ساحته أمام والى المدينة ٠

١٩ ـ وصف ما كان يكابده مسيحيو أنطاكيـة من الارهاب فى القيام بأعمال كثيره يسوء بهـا كاهلهـم وكيف فشلت المذبحة التى دبـرت للقضاء عليهم ٠

٢٠ ـ الجنـود [الصليبيـون] يغـادر معسـكرهم تنفيذا لخطـة فيروز مع عزمهـم على العودة ليـلا ٠

٢١ ـ بوهبموند يوسل الى صديقه كى يتم ما بدأه فيعمد فيروز الى قتل أخيه لمخالفته اياه ويدخل الصليبين الى المدينة بواسطة سلم من الحبال٠

٢٢ ـ المهاجمون يستولون على أحد المداخل ويفتحون الأبواب ، ويندفع العسكر الذين شاركوا فى هذه الخطة الى داخل المدينة ، ويتم الاستيلاء على أنطاكية عنوة ٠

٢٣ ـ الأهالى يرتدون الى القلعة اما ياغى سيان فيلاقى مصرعه خارج الأسوار أثناء محاولته الهرب وهلاك الكثيرين لسقوطهم من الجبل ٠

هنا يبدأ

الكتاب الخامس

حصار أنطاكية واحتلالها

- ١ -

في نفس هذا الوقت كان أهل أنطاكيـــه وواليهم في اقصى حالات الذعر بسبب الظروف التى يعيشون فيها . ولم يفتهم سده ضجر الحجاج من المشقة التى تحملوها . مع صابريهم على ما بيدهم من عمل ، وعدم انصرافهم عن مشروعهم رغم وطأه الظروف القاسية من الجوع والبرد القارس ، بل لقد جرى العكس من ذلك اذ ظل هؤلاء الصليبيون - رغم متاعبهم الجمة - صابرين على السير قدما بعزم ثابت نحو تحقيق الهدف الذى وضعوه نصب أعينهم .

وراح المواطنون - نظرا لما هم فيه من الشـــده - يبعثون بالكتب والرسائل . واحدة تلو الاخرى الى من جاورهم من الأمراء ، يسألونهم المبـــادره الى نجدة اخوانهم . ويدلونهم على أجدى السبل لأداء هذه المساعده ألا وهى أن يدعوا حلفاءهم يتوجهون الى المدينة ويستخفون هم فى كمين حتى تشتبك المواطنون - كعادتهم - فى قتال العدو عند الجسر ثم بتركونهم منصرفين الى القتال فى هـذا المكان ، وحين يكون من بداخل أنطاكية مستغرقين تمـــاما فى تلك المواجهـة . يخرج أهل الكمائن من كمائنهم ويباغتون الصليبيين الذين يكونون من غير حرس يحرسهم ، فيقعون تحت وطأة الهجوم

علبهم مں الأمام والحلف فى آن واحـد ، فلا ينسـى لأحد منهم النحاه من الموت ·

ولبى هده الاسـتغاثه جيش كبيف من أهل حلب وشيزر وحمـاه وحمص ومنبج وغـيرها من المـدن المجاورة ، وخرجـوا فى سكون بالغ وصمت مطبق ـ حسب الأوامر التى صدرت اليهم ـ حتى قاربوا مدينه « حارم » التى لا تبعد عن أنطاكيـة بأكثر من أربعة عشر ميلا وضربوا معسكراتهم أثنـاء انشغالهم بالهجـوم على المدينه ، غير أن المخلصين من سكان الناحية ، والذين طالما ساعدوا شعبنا ، أخبروا القـاده باقتراب هذا العسـكر ، وشرحوا لهم أوضاعه ، فلما بلغهم الندبر اجتمعوا للتشاور فيما يفعلون فى هذا الوضع ، فاتفق الرأى منهم أخيرا على أن يغتنموا فرصة دخول الليل فينطلق سرا كل من بالجيش من الفرسان أصحاب الجياد الصالحة للخدمه · ويرتبون صفوفهم للقتال خلف أعلام قادتهم ، على أن يبقى الرجالة فى الوقت ذاته لحماية المعسكر حتى يعود رؤساؤهم الذين خرجوا امتثالا لأمر الرب ·

- ٣ -

لم يكد الليل يسدل طنبه على الكون حتى غادر الزعماء المدينة حسب الاتفاق ، فساروا على الجسر المصنوع من القوارب ، ومعهم سبعمائة فارس ، حتى صاروا قرب مكان يبعد ميلا من هنا ، وهو واقع بين نهر العاصى والبحيرة التى أشرت اليها فى وصفى المدينة ، فأقام الجند هنا هذه الليلة مستجمين ، دون أن يعلم العدو بخبر تقدمنا هذا ، ولكن رجاله عبروا النهر هم أيضا فى نفس الليلة عن طريق الجسر الأعلى ·

★★★

على أنه لم تكد طلائع نهار اليوم التـــالى تظهر فى الافق حتى أعد الصليبيون أسلحتهم وقسموا كتائبهم ست فرق جعلوا كل واحده منهـا تحت قيـادة رئيس معين كانوا قد اتفقوا عليـه من قبـل . وأما الترك فقد اتخذوا مكانهم فى ناحية من الضاحيه ، لأنهم علموا من كشافتهم أن جماعتنا زاحفه عليهم ، وقد أرسلوا أمامهم فرقتين من العسكر حرسا للجيش الرئيسى الذى كان يتبعهم .

لم يكن مع الصليبيين ـ كما قلنا ـ الا قرابه سبعمائه رجل وشــاءت الاراده الالهية أن يقسم هــؤلاء أنفسهم الى كتائب حسب ما تقتضيه أصول الحرب ، فكان يخيل لرائيهم أنهم آلاف مؤلفة من قوات اضافيه قد بعثتها لهم السماء .

ولما أخذ عسكر العدو فى التقدم والزحف جماعه تلو جماعه ، شرع من كانوا فى الصفوف الأمامــه فى شــن هجوم عنيف على خطوطنا ، وراحوا يرمونها بوابل هتان من السهام ، ثم يرتدون فى الحال . فلم يعبأ جنودنا بهجومهم . بل زحفوا عليهم . واضربوا منهم كل الاقتراب ، وكروا عليهم مشرعين سيوفهم وشجاعتهم ، فشقوا لأنفســهم طريقا الى عــدو عقيدتهم . والسيوف مشرعه فى أيديهم فاضطربت صفوفهم ودافع بعضهم بعضا . واختلط حابلهم بنابلهم وأحيط بهم فى بقعة كانت البحيره فيها على أحد جانبيهم . والنهر على الجانب الآخر ، وفقد الترك حريه التحرك فعجزوا عن استعمال فنونهم المألوفة من الرشــق بالســهام فالارتداد لكنهم تجمعوا خوفا من أن تنوشــهم الســيوف ولم يعودوا قادرين على تحمل الضغط الذى مارسه الصليبيون عليهم . وسرعان ما أيقنوا أن أملهم الوحيد فى السلامه انما تكون فى فرارهم . فانقلبوا على أعقابهم هاربين ، فجد رجالنا فى تعقبهم وقد تملكتهم الحماسه ، حتى بلغوا مدينة « حارم » التى كانت تبعد عن ســـاحة المعــركة عشرة أميال ، واستمر القتل فى العدو أثناء ارتداده .

ولما رأى أهل البلد أن الدائـرة قد دارت على عسكرهم الذى هلك معظمـه بسيوف الصليبيين المنتصرين ، خافوا البقـاء فى القلعة بعد هذه النكبة التى ألمت بأصدقائهم . فأشـعلوا النار فى المكان ، ولاذوا فرارا ٠

غير أن الأرمن سكان هذه المنطقه ، وغيرهم من النصارى الذين كان الكثيرون منهم يقطنون تلك الناحية ، استولوا على المكان ، وأسلموه فى الحال الى قادتنا قبل عودتهم الى المعسكر ٠ ولقد هلك فى هذا اليوم قرابه ألفين من رجال العدو ، وكانت نشوه الصليبيين عظيمه بما جرى ٠ وفرحتهم ظاهرة بما وقع من النصر المزدوج ، الذى بث فيهم الشجاعه ، وحمدوا الله على ما أتاهم من فضـله ، ثم عادوا الى مخيماتهم حاملين معهم خمسمائة رأس من قتلى العدو ، وكميات ضخمة من الأسلاب ، من بينها ألف من الجياد القويه ، كانت ذات جدوى عظيمه لنا ٠

- ٣ -

ظل أهالى أنطاكيه ذلك الليل فى انتظار السـاعة المرتقبة ، وراحوا يستعجلون فى لهفه شروق الفجر تطلعا لهجوم من الخارج يقوم به حلفاؤهم على نصارى المدينه ، فان تم ذلك خرجوا هم من المدينة متلصصين وباغتـوا الصليبين على غفلة منهـم ، وكانـوا يؤملون أن يؤدى عنصر المباغتة التى لم يستعد لها الصليبيون الى دمارهم ٠

وجاءت الساعه الأخيرة من الليل وقد أخذت السـماء تشرق بضـوء دون أن يظهر أى شىء يدل على تقـدم حلفائهم ، ومع ذلك

فقد ذكر كشافهم أن بعض الزعماء الصليبيين خرجوا كما لو كانوا ماضين لمواجهتهم . ومن ثم جمع المواطنون قواتهم . واندفعوا اندفاعا عنيفا من الابواب . وظلوا معظم هذا اليوم فى مصادمات شديدة مع هؤلاء الصليبيين وأخيرا أفادهم حراسهم الذين كانوا فى مواضع عاليه بالمدينة أن هناك جيشا آخر فى الاقتراب ، ومن ثم ارتدوا الى ما وراء الأسوار . ورابطوا فى الأبراج خلف المتاريس فى النواحى المرتفعه من البلد فى انتظار الجماعات القادمه ، لأنهم كانوا لا يدرون ان كان هؤلاء القادمون من الأعداء أم من الحلفاء ، فلما دنا العسكر من المحاصرين رأوا ملابسهم الحربيه وما معهم من الغنائم والاسلاب فعرفوا حقيقتهم . فاشتد بهم الفزع منهم فقد أدركوا أنها القوات الصليبيه عائده بعد انتصارها على الحلفاء الذين كان المحاصرون يترقبون حضورهم فى لهفة ، فأسلموا أنفسهم للبكاء ، فقد تلاشت آمالهم الحسام . وتقدم جندنا من المدينة ، وانطلقوا الى المعسكر ، ثم أمروا بطرح رؤوس مائتين من الأتراك قبل ان الآلات قذفت بها الى داخل المدينه ، لكى تكون شاهدا على ما أحرزوا من نصر ، ولتزيد فى مضاعفة آلام العدو المبرحة .

أما بقية رؤوس القتلى فقد رفعت على ساريات نصبوها أمام المدينة رامين من وراء ذلك أن تكون هذه المناظر المفجعة قذى فى عيون المحصورين فتتضاعف همومهم الثقيلة ، وعرف من روايه الأسرى الدقيقة أن الحلفاء الذين كانوا يزمعون الحضور لمساعدة أنطاكية قاربوا ثمانية وعشرين ألف مقاتل .

وقد جرى هذا الأمر فى اليوم السابع من فبراير عام ١٠٩٧ من مولد السيد المسيح .

فى هذه الأثناء صدق عزم قادتنا على تشييد حصن منيع . أقاموه على رابية مشرفة على معسكر بوهيموند ، راجين من وراء ذلك أن يقف هذا الحصن الحديد سـدا أمام الترك لو راودتهم نفوسهم بالاغارة على قواتنا متى شاءوا . فلما فرغ زعماؤنا من تشييده أقاموا به حامية يقظة تمام اليقظه ، فاطمأنت جوانح العسكر كلهم ، وأحسوا كأنهم داخل مدينة منيعة ، ذات قلعة تكفل أسوارها لهم الحماية ، وتقيهم عادية الهجوم عليهم .

كان هذا المعقل يقع شرقى القلعه التى شيدت منذ أمد قريب.

كذلك كان يوجد الى الجنوب سور يجاوره مستنقع ، على حين كان الى الغرب والشمال النهر الذى يجرى منعرجا حول أنطاكيه .

★★★

وبعد خمسة أشهر من هذا الحصار دخلت مصب النهر من ناحية البحر سفن قادمه من جنـوه ، محملة بالحجاج والمئونه . فلما أرست حيث وصلت أقامت ، ثم بعث جماعة منها الى المعسكر تسأل مجىء بعض الزعمـاء الى الجنـويه لتقودوهم فى أمان الى المعسكر .

وكان العدو يعرف أن قومنا اعتادوا الخروج الى الشاطىء غير حذرين ، كما كان يدرك ما عليه البحارة من لهفه شديدة للذهاب الى المعسكر ، فسد رجاله عليهم جميع الطرق والمسالك ، ونصبوا الكمائن لتصيد السابلة الذين لم يحتاطوا لأنفسهم ، مما أدى الى مصرع الكثيرين منهم ، حتى لم يعد أحد يجرؤ بعدئذ على الذهاب الى المعسكر الا أن يكون فى حراسة مشددة .

وصمم الزعماء فى هدا الوقت ذاته على اقامه حصن عند رأس الجسر . مكان مسجد كان لخصومهم ، راجين أن يسد هدا الحصن الطريق فى وجه العدو بعض الشىء ان أراد الوصول الى الجسر ٠

وحدث أن أعدادا كبيره من الصليبيين كانوا قد نزلوا ناحية الشاطئ لانجاز بعض الأعمال التى كانت لهم هناك ، فلما فرغوا عنها عادوا الى مواضعهم ٠

★★★

وكان الاختيار قد وقع على كل من بوهيموند وكونت تولوز ومعهما لورد ايفراردى بويســيه وكونت جارنييــه دى جراى من الزعماء لمرافقة السفارة المصرية حتى الساحل . على أن يقوموا فى عودتهم بحراسة الحجاج(١) الذين وفدوا منذ قريب ، والحفاظ على من خرجوا من معسكرنا ، فلما علم أهل أنطاكية بنزول هؤلاء السراه من القوم الى الشاطئ بعثوا ضــدهم أربعــة آلاف فارس مدججين بالأسلحه الخفيفه وعهدوا اليهــم بنصــب الكمائن ، فاذا خاطر الصليبيون بالعوده ولم يأخذوا الاحتياطات اللازمة كر عليهم هؤلاء الفرسان كرة ضارية ٠

وحدث فى اليوم الرابع أن كان الحراس عائدين مستصحبين معهم عددا كبيرا من الناس ، وكثيرا من دواب الحمل عليها شتى أنواع الذخيره دون أن يكون معهم سلاح ، فلم يشعروا الا والعدو يباغتهم فى بعض الشــعاب الضيقة ويســدها عليهــم ، وكان كونت تولوز يسير فى المقدمة مع حرس الطليعة ، أما المؤخرة فقد وكلت حمايتها الى لورد بوهيموند ٠

---

(١) المقصود بهؤلاء الحجاج « الحربية » ٠

وعلى الرغم من بساله هؤلاء القاده الجديرين بكل احترام ، الا أنهم لم يستطيعوا ـ كما أرادوا ـ السيطرة على من معهم من جموع راح بعضا يزاحم بعضا ، كما عجزوا عن مد يد المعونة لهم لكن ذلك لم يمنعهم من الصمود طويلا حفاظا على شرفهم وحمايه لرفاقهم ، فلما تبين لهم أخيرا عدم جدوى أى مجهود يبذلونه فى هذا السبيل وأن هلاك أرواحهم انما يكمن فى ابطائهم تخلوا ـ بدافع من حرصهم على سلامتهم ـ عن هذا الصراع الذى هو بين طرفين غير متكافئين ، وانقلبوا الى المعسكر بمن استطاع اللحاق بهم ، واذ ذاك تخلى الناس عن دوابهم ومتاعهم وفروا على وجوههم الى نواح مختلفه ، فانطلق بعضهم الى الغابات ، وهرب البعض الآخر الى التلال أما من لم يسعفهم الفرار فقد تناوشتهم سيوف العدو ، فكانت النكبة التى حلت بقواتنا فى هذا الموضع جسيمة ، وقد وصلتنى معلومات شتى عن عدد من هلكوا فى هذا الحادث ، وان قالت الأغلبية انهم كانوا قرابة ثلاثمائه من الجنسين ومن مختلف الأعمار ·

— ٥ —

فى هذه الاثناء وصل الخبر الى المعسكر بأن القوم الذين كانوا راجعين من ناحية البحر قد وقعوا فى كمين نصبه العدو لهم ، وأنهم قتلوا جميعا عن بكرة أبيهم فى هجمه لم يكونوا يتوقعونها ، ولم يستطع أحد ما أن يخبر عما اذا كان القادة مازلوا أحياء أم أنهم صاروا فى عداد الهلكى ·

واذ كان الدوق جود فروى رجلا جم النشاط ، سريع المبادرة الى حمل السلاح ، فقد تفجرت نفسه عطفا على شعب الرب ،

وتفطر قلبه رحمة بهم حتى لكأنهم أولاد صغار له ، ومن ثم استدعى الزعماء والجند وأمرهم بحمل السلاح فى لحظتهم هذه ، ثم بعث المنادى ينادى فى الناس ألا يغيب أحد عن هذا الموقف الخطير وإلا استحق الموت . بل يتحتم على الجميع ان يتأهبوا لأسلحتهم انتقاما لدماء اخوانهم ، فتجمع كافة الجند وكأنهم رجل واحد ، ولم يتوانوا عن عبور الجسر المصنوع من القوارب ، ثم قسمهم الدوق الى مجموعات . ورأس عليهم جميعا روبرت كوث نورماندى وكونت فلاندرز ، وهيو الكبير ، وأخاه اسطاس . وحدد لكل طائفة مكانا لايشاركها فيه غيرها ، ولا تتعداه هى الى سواه ، وأمر أن تقف كل جماعة بقيادة قائدها .

ثم أخذ الدوق يشرح لهم الوضع باعتبارهم رجالا مدركين لمسئوليتهم ، وأثار حميتهم بكلماته الملهمة اذ قال لهم : « لو صح ما نقل الينا من أن أعداء النصرانية · اسما وعقيدة . قد أظفرهم الرب على سادتنا واخوتنا بسبب آثامنا ، فالرأى عندى أيها الرجال الأمجاد أنه لم يبق لنا الا أن نمحو العار الكبير الذى ألحقوه بسيدنا المسيح ، أو نهلك مع من هلكوا . وصدقونى أن ليست الحياة ولا السلامة أحلى مذاقا من الموت او أى ألم من الآلام ان تذهب دم هؤلاء السادة هدرا فى الثرى . ومحال أن تمر هذه المذبحة المروعة التى جرت على شعب وهب نفسه للرب دون أن تواجه بانتقام عاجل . ويبدو لى أن أعداء الملة سوف يبطرهم انتصارهم فلا يحتاطون لأنفسهم كما جرت عادتهم ، لذلك فانهم لن يترددوا — اعتمادا منهم على بأسهم — فى أن يشقوا طريقهم بين صفوفنا أثناء عودتهم بالاسلاب والغنائم ، واعلموا أن ما نحن فيه من موقف محزن دام حرى بأن يحملنا على مزيد من الحذر . أما التكاسل فيغرى صاحبه بالاهمال .

« فان رأينم الصواب فيما أقول فهيا بنا نستعد لهم ، وطالما كنا على حق فاننا نطمع ان نحرز النصر بواسطة الواحد القوى الذى نؤمن به ، ونحارب فى سبيله ، فاذا تراءى للعدو أن يعود فيقتحم صفوفنا فلنتقابله سطبى سيوفنا ، ولتكن ذكرى ما صبه علينا من المصائب مذكية فينا ما كان عليه آباؤنا من الشجاعة » ٠

★★★

ووقعت خطبة [الدوق جودفروى] هذه موقع الرضا من نفوسهم واستصوبوها كلهم ، وبينما هم يتدارسون كلامه هذا اذا ببوهيموند يطالعهم عائدا من الشاطىء الى معسكره ، وفى اثره الكونت لم يغب دونه الا قليلا ٠

ورحب الناس بزعيميهم ترحيبا صادقا لم يستطيعوا معه أن يحبسوا دموعهم من الانهمار ، اذ أدركوا أنهم كانوا على وشك أن يفقدوا هؤلاء القادة ، ولم يكد الزعماء يعلمون بخطة الدوق حتى وافقوه على فكرته وصرحوا بوجوب تنفيذها ٠

★★★

كان ياغى سيان فى هذه الأثناء – رغم علمه بانتصار قواته – مشغول الخاطر ، قلق البال بشأن سلامة عودتهم ، لاسيما منذ أن عرف أن الجند الذين تركوا المعسكر كانوا أكثر عددا مما جرت العادة به ، ومن ثم نودى فى الناس جميعا أن يخرج فى الحال من فى المدينة من أهل الخبرة بالحرب والقادرين على حمل السلاح ، وأن يجتمعوا عند البوابة القائمة عند الجسر لنجدة أهل البلد العائدين ، ان دعت الضرورة الى مثل هذه النجدة ٠

كما أن قوادنا بعثوا من ناحيتهم كشافة تفقد الطريق الذى يحتمل أن يسلكه العدو فى ايابه ، ايمانا من هؤلاء القواد بأن الرب لابد أن يمنحهم النصر ٠

- ٦ -

لم يتوان الصليبيون لحظة فى تنظيم صفوفهم ورفع أعلامهم ، وبينما هم يرقبون طلائع الجيش التركى اذا برسلهم قد جاءوهم مسرعين ، ينبئونهم بأن العدو قد رابط على مقربة منهم ، فتعالت صرخاتهم المجنونة تحث ناسا على حمل السلاح والزحف لصده ، ومن ثم تقدمت الكتائب ما وسعها التقدم ضارعة الى السماء أن تعينها ، وراح كل واحد منهم يشجع رفيقته ، وقام الصليبيون ــ وفى ذهنهم شهرة بطولتهم ــ يهزون الرماح فى أيديهم ، وكروا على خصمهم كرة رجل واحد وكثفوا ضغطهم عليه ــ كمألوف عادتهم ــ يقابلونه بالسيف وجها لوجه ، دون أن يدعوا له فرصة يلتقط فيها أنفاسه انتقاما للمصائب التى أنزلها بهم والتى لا زالت عالقة بأذهانهم ، فما لبث العدو أن بارحته شجاعته ، وطار قلبه شعاعا ، وأدبر موليا وجهه شطر الجسر المؤدى الى المدينة ، يسابق كل واحد من رجاله الآخر فى الهروب ٠

على أن دوق اللورين كان قد جابه كثيرا من أمثال هذه الأرماث، وكان عسكره قد احتلوا موقعا أمام الجسر تقوم تجاهه ربوة عالية بعض الشيء ، وكان الترك فى فرارهم أمام زعمائنا الموقرين أحد رجلين : اما رجل يتعثر فيسقط وهو يحاول بلوغ الجسر التماسا لملجأ له هناك ، واما رجل لامحيص له من العودة الى موت مؤكد يلقاه فى ساحة المعركة التى كان قد لاذ منها فرارا ٠

واذ كان كونت فلاندرز محاربا صنديدا ، بارعا كل البراعه فى استعمال السلاح ، فقد خرج بعسكره مقتفيا أثر الأعداء فى عزم لايفل شباته ، ففرق صفوفهم ، وأنزل بهم من الأهوال مثل الذى أنزلوه من قبل بعسكرنا ، ولم يكن كونت نورماندى أقل شجاعة من آبائه ، فأبلى البلاء الحسن فى هذه الموقعه .

وكان هنا كونت تولوز المتحمس لربه ، والى جانبه هيج العظيم الفخور بما يجرى فى عروقه من دم ملكى ، والذى لم يشن نسب أسرته العريق بأى شين ، وكذلك كونت اوستاس أخو الدوق ، وبلدوين كونت هينولت ، وهيج كونت سنت بول ، وغيرهم من أهل المكانة ــ فحملوا جميعهم على العدو حملة صدق ، وأظهروا من أعمال البطوله ما أرهق قوة المعاندين ، فذبحوهم ذبح الخراف ، وكان باغى سيان لما أرسل قواته للحرب أمر باغلاق أبواب المدينه من خلفهم ، ليقطع عليهم كل خطة للارتداد ، ساعيا من وراء ذلك الى مضاعفة ضراوتهم ، وحملهم على المزيد من الشدة فى القتال ، معتقدا أنه بذلك يسلك أحسن المسالك وأجداها ، غير أن الخاتمه جاءت على غير ما كان يرجوه ، فقد هلك رجاله الذين لما رأوا احداقنا بهم لم تعد لهم قدرة على صد هجومنا ، أو الفكاك من ضغط رجالنا عليهم ، فالتمسوا خلاصهم فى الفرار الذى لا خلاص لهم سواه ، ولكن خانهم هذا الأمل اذ كان الموت لهم المرصاد ، فتناوشت سيوفنا الفارين منهم ، وفرقتهم شر ممزق .

وتردد فى أنحاء المعسكر قرع الأسلحه ، وقعقعة السيوف البراقة ، وصهيل الخيل ، وصراخ الرجال ، واختلط الحابل بالنابل ، ولولا اختلاف سلاح كل فريق عن الآخر لكانت اتمه غلطة مؤدية الى الخطر الداهم الذى يحمل فى طياته الهلاك .

وتجمع على أسوار انطاكيه وفوق أبراجها ، نساء المدينه وبناتهن وصغارهن وشيوخ البلد ، وكل من ليس عنده قدره على الدفاع عن نفسه ، يشاهدون — من مكانهم الذى يقفون فيه — المذبحه التى تجرى من تحتهم ، وعلا بكاؤهم وراحوا يندبون مصارع أصحابهم ولسان حالهم يقول « ما أسعد من يرفق بهم الموت فتقبض أرواحهم قبل أن تمسهم هذه الخطوب » .

أما الأمهات اللاتى كن يفاخرن بكثره أولادهن ، فقد أصبحن موضع الرثاء وصارت العاقر منهن أسعد من كل ذات ولد » .

ولما رأى ياغى سيان أن الدائره قد دارت على قومه ، وأن البقية الباقية منهم لابد هالكة فى هذه المذبحه التى تجرى على قرب منه ، أمر بسرعة فتح الأبواب حتى يتمكن الباقون من جيشه من دخول المدينة سالمين ، لكنهم تزاحموا على الأبواب التى أزيلت متاريسها تزاحما شديدا . وتعالى ضجيجهم وصراخهم ، ذلك لأن الفارين الذين كان الخصم يتعقبهم حاولوا عبور الجسر ، فتكاثرت جموعهم ، وتدافعوا فزعين يدفع بعضهم بعضا مما أدى الى سقوط الكثيرين منهم فى النهر فغرقوا فى لجته .

ولقد صال دوق اللورين أبدع صوله فى هذا الاشتباك فبرهن على أنه مسعر حرب وخواض غمرات ، وشاهده النساء اذ اقترب وهو يقاتل حول الجسر ، وقد جاء بالدليل البين على بأسه الذى ميزه عن سواه ، وكان ما قام به من العمل أثرا باهرا خالدا ، ومأثرة زادته اجلالا فى نظر الجيش كله ، اذ اندفع بما طبع عليه من جرأه فكان يضرب الضربه الواحده يقطع بها رؤوس أكثر من فارس مدرع ، ثم قص بشجاعة فارسا آخر لم يمنعه ما عليه من زرد الحديد من أن يصيبه بضربة قطعه نصفين ، فتدحرج أعلاهما على الأرض ، وأما أسفلهما فقد دفعوا به الى المدينة

محمولا على فرسه ، فبث هذا المنظر العجيب الخوف والدهشة فى نفوس كل من شاهدوه ، ولم يعد خبر هذا الأمر العجيب خافيا على أحد ما ، وتناقلته الألسن ، فشرق وغرب ٠

ويقال ان خسارة العدو يومذاك قاربت ألفى رجل : ولولا دخـول الليل الذى حسدنا على أمجادنا وانتصارنا لانتهى حصار أنطاكيه من غير شك فى هذا الوقت ، وكانت آثار المذبحة واضحة كل الوضوح حول الجسر والنهر الذى تبدل لون مائه ، وراح يصب فى البحر سيلا جارفا من الدماء ٠ ولقد قيل ان اثنى عشر من الحكام الأتراك لقـوا مصرعهم فى هذا القتـــال ، فكانوا خسارة للمدينة لا تعوض ، وأكد هذا الخبر فيما بعد تأكيدا قاطعا المواطنون المسيحيون الذين قدموا من أنطاكيه الى معسكرنا ٠

- ٧ -

حين طلع النهار على الدنيا عاود القادة اجتماعهم ، شاكرين الله القدير على ما آتاهم من النصر ، ثم عمدوا - فيما بينهم - مجلسا لمناقشـة الوضـع فاتفقوا بلا استثناء على تنفيذ خططهم الأصلية بحذافيرها ، ألا وهى اقامة حصن على رأس الجسر لمنع المواطنين من مغادرة المدينة ، وليتيسر فى الوقت ذاته على رجالنا حركتهم ويزيد من سلامتهم اذا ما رغبوا فى التجوال هنا وهناك ٠

وكان فى ذلك المكان - كما قلنا سابقا - مسجد يؤدى الترك فيه شعائرهم الدينية ، وقد جعلوا ناحية منه موضعا لدفن موتاهم ٠ فلما كانت الليلة السـالفة ، وصدر من اليوم التالى ظلوا ينقلون

جثث موتاهم الى ذلك الموضع ، فلما تأكد رجالنا من صدق هـذا الخبر ، اندفعوا اندفاعا شديدا الى ذلك المكان ، يحدوهم الأمل فى العثور به على غنائم تكون مدفونة مع الموتى ، فنبشوا القبور وأخرجوا الجثث ، ولم يقتصروا على أخـذ ما وجـدوه من الذهب والفضـه والأقمشة الغالية بل امتدت أيديهم حتى الى الجثث ذاتها فعبثوا بها .

ولما فشا هذا الخبر أيقن الجميع مدى ما أصـاب العدو من خسائر كانت في بادىء الأمر موضع شك ، لان القتال استمر طويلا ، فاغتبط الصليبيون بهذا النبأ غبطة جاوزت غبطتهم بالنصر الذى أحرزوه فى يومهم السـابق ، ولقد وجدوا فى تلك المقبرة ألفـا وخمسمائة جثة سوى من ابتلعهم النهر فى مراب كثيرة حاقت فيها الخسارة بهم ، وسوى الذين قبروا فى المدينة اضافة الى من أثقلتهم جراحاتهم القاتلة فصاروا معها على شفا الموت ، وأرسل الصليبيون ما يقرب من ثلاثمائة رأس من رؤوس القتلى الى من كانوا موجودين بالميناء ، فتضاعف سرور رجالنا الذين كانوا قد ذهبوا الى هناك بعد معركة اليوم السالف ، وكان هذا تحذيرا نافعا للسفراء المصريين الذين كانوا لا يزالون فى الميناء ولم يغادروه .

★★★

كان الصليبيون الكثيرون الذين فروا من أخطار اليوم الغابر مختفين فى كهوف الجبـال وأعماق الغـابات ، فلما سمعوا بخبر انتصارنا بادروا فى الحال الى الرجوع الى المعسكر ، وهكذا شاءت ارادة الرب أن يعود الى الجيش كثير من الجند الذين اعتقد الناس أنهم هلكوا فى المعركة ، لكن ها هم الآن يعودون الى الجيش سالمين ، معافين من كل أذى بفضل الرب .

لم يكد يرجع هؤلاء الذين كانوا قد فروا الى مختلف الجهات حتى أقيم على رأس الجسر متراس من الأحجـار التى حملوها من

المقابر ، وأخذ القوم يتبارون فى مساعده بعضهم البعض ومعاونه كل منهم زميله فى تشبيد المعقل الذى حصن بسور قوى وأحيط بخندق عميق ·

ثم أخذ الزعماء بعد ذلك فى التشاور عمن يقوم بحراسة هذا المكان ، ولم يكن أى واحد منهم مستعدا لحمل مسئولية ثقيلة كهذه المسئولية ، وراح كل منهم يقدم هذا العذر أو ذاك ، غير أن كونت بولوز ــ وهو المرضى عنه من الله ــ تطوع لحمل المسئولية ، وتعهد من أجل الصالح العام أن يقوم بحراسة هذا البناء الجديد ، فاستعاد تماما حب كل رجال الحملة له ، وهو حب كان قد فقده مدة عام لوقوعه فريسة لمرض عطله عن الحركة والفعالية على مدى الصيف الماضى وطول الشتاء التالى له ، ففى الوقت الذى كان بقية القادة ابانه يتحملون مسئولية الجيش بعزيمة لا تقهر كان هو دونهم كأنما لا يعنيه من الأمر شيء ، وكانت تنقصه البشاشة ، ولم يظهر الود تجاه كائن من كان ، وتجلى هذا واضحا غاية الوضوح لكل ذى عينين، فعزوا ذلك الى أنه كان أكثر القــوم مالا وأعظمهم ثروة بصــورة يتوقعون معها أن تحمله على بذل الكثير من أجلهم ، ولقد أراد أن يعوض ما كان من تراخيه وعدم اكتراثه فقام من تلقاء ذاته وتحمل عبء هذه المهمة ، وقيل أيضا انه وضع تحت تصرف أسقف بوى وبعض النبلاء الآخرين خمســمائة مارك فضـــة وزنا ، تعويضـا لأصحابها عن الخيل التى هلكت لهم فى هذه المعركة ·

فلما عرف أتباعه أنهم عوضوا خيرا عن جيادهم التى فقدوها أظهروا من ضروب الشجاعة والتفنن فى محاربة العدو ما لم يظهروه من قبل فهدأت حدة الشعور ضد الكونت ، وسماه الجمع بأبى الجيش وراعيه ·

- ٨ -

لقد سدت بوابة الجسر بالقلعة الجديده التى أقام بها الكوس حمسمائة من الرجال الأشداء ، مما حعل مرور المواطنين من خلالها لا يسمى الا بشق النفس وبالتعرض للخطر البالغ ، لكنها من ناحيه أخرى حعلت قومنا أكبر قدره على الخروج من أجل قضاء مصالحهم الضرورية ، أما العدو فلم يعد قادرا على مغادرة أنطاكية الا عن طريق البوابة الغربية الواقعة بين سفح الجبل والنهر ، ويظهر أن تمتع العدو بالقدرة على الخروج من تلك البوابة لم يعرض قواتنا لكبير من الخطر ، اذ كانت جميع خيامنا منصوبة على الجانب الآخر من النهر ، ومع ذلك فقد شعر الكل أن المحصورين كانوا يتمتعون بكثير من الحرية فى التجوال ، لأن حاجات المدينة الضرورية كانت لا تزال تمر بهذا الطريق ، لذلك عقد القاده الشجعان الحالى الذكر مرة أخرى مؤتمرا من بينهم للتداول فى شأن هذه المشكلة التى رأوا مواجهتها باقامة بعض التحصينات فى موضع ملائم على الجانب الآخر من النهر ، وقرروا أن يقوم بها بعض هؤلاء الزعماء ، ليرصدوا العدو ان أراد الخروج منها أو الدخول اليها فيحولون بينه وبين ما يريد ، وعلى الرغم من انعقاد اجماعهم على وجوب تشييد ذلك الحصن ، الا انه لم يتقدم قط أحد منهم فيتطوع وينهض بحراسته ، وترددوا كثيرا تجاه هذه الصعوبة ، ولم يدروا أى سبيل يسلكونه فيها ، وطال ترددهم ، ثم استقر الرأى منهم فى النهاية على اختيار تانكريد الحم النشاط لأداء هذه المهمة ، وكان على وشك الاعتذار عنها لقلة ما بيده من المال ، لولا أن نهض كونت تولوز وقدم اليه مائة مارك من الفضة لتشييد الحصن ، يضاف الى ذلك تخصيص مبلغ مناسب قدره أربعون ماركا شهريا يقتطع من المال العام يدفع للذين سوف يتعاونون مع تانكريد ٠

ولقد ترتب على كل ذلك أن شيد حصن ملاصق لتلك البوابة يقوم على أحد التلال ، حيث كان موضعه فى السابق أحد الأديرة ، وعهد بحراسته الى رهط من أهل الحجى الأشداء فبقى هذا الحصن سليما حتى نهاية الحصار بفضل جهود تانكريد الناجحة .

وكان يوجد على بعد ثلاثة أميال أو أربعة تحت أنطاكيه ، وعلى امتداد نهر العاصى مكان للتعبد ، يتمتع بموقع رائع بين الجبال وبين النهر ، حيث كانت قطعان الأغنام تسرح هناك فى المراعى الخضراء الغنية ، التى كان العدو قد نقل اليها معظم جياده لقلة ما فى المدينة من العلف ، فما كاد الصليبيون يتسمعون هذه الحقيقة حتى جمعوا فى هدوء بضع سرايا من الفرسان الذين أسرعوا الى تلك البقعة ، وسلكوا اليها طرقا مهجورة حتى لا ينكشف أمرهم ، فلما صاروا هناك وثبوا على رهط من الفرسان القوامين بحراســـة الماشية ، وقتلوهم ، واستولوا على ألفى حصان من الخيل الصافنات ، ناهيك عما أخذوه من البغال وأتانها ، وعادوا بكل ذلك الى المعسكر ، ولم يكن ثم غنائم من أى نوع أكثر أهمية من هذه الغنائم عند الصليبيين فى ذلك الحين ، لأن جميع جيادهم كانت قـد هلكت تقريبـا فى المعركة ، أو نفقت من الجوع أو البرد أو غير ذلك من الكوارث .

- ٩ -

أحيط بالمدينة من كل جانب ، وعجـز سـكانها عن مجاوزة أسوارها لمزاولة أعمالهم ، وهكذا أحدقت بهم الصعاب الجمة من كل ناحية ، كما بدأت تهددهم أيضا مشكلات أخرى كنقص الطعام الذى

واجهتهم تجاه وأصبح ممحه بحشهم بصوره تعب الناج السديد فى جلوب المراطنين . كمــا أصبح العلف نادرا ندره بالغة ، فهزلت الخيول ، وعجزت عن القيام بما كانت تقوم به من قبل .

أما رجالنا فقد أصبحوا أكثر حرية فى الذهاب الى شــاطىء البحر ، أو حينما تدعوهم الضروره الملحة ، وزال الى حد بعيــد ما كان يكابده الجيش كله خلال الشتاء من هم مقيم بسبب قلة المئونة ، فقد ولى الشتاء ، وجاء الربيع الطلق ، وهدأ البحر ، ولم يعد الأسطول الراسى بالميناء يلقى مشقة فى الدخول أو الخروج متى شاء ، هذا الى جانب أن الطرق غدت سهلة المسالك بفصل الدفء المتزايد . فاستطاع كل ذى مصلحة أن يخرج لانجاز مصلحته من غير عسر .

كذلك رجع الى الجيش الصليبيون الذين كانوا مضوا لقضاء وقتهم فى القلاع والمدن المجاورة ، فرارا من شظف الحياه وقسوتها فى المعسكر ، وجهزوا أسلحتهم وقويت عزائمهم ، وأعدوا عدتهم للقتـــال .

★★★

على أنه فى هذا الوقت بالذات جاءت الأخبار الى بلدوين — أخى الدوق — بأن الجيش فى صراع مرير ضــد المجاعة ، فتفطر وانبه بالأسى الصادق ، وعزم على امدادهم بضرورات العيش من فائض أمواله الخاصة التى أنعم الله بها عليه ، فكانت عطاياه السخية من الذهب والفضة والأقمشة الحريرية والجياد الصافنات وغير ذلك من كل غال وثمين بلسما داوى ظروف كل زعيم ، ولم يقصر كرمه على كبارهم فحسب ، بل تعداهم الى الكثير من عامة الناس ، مما أكسبه ميل الجميع اليه وحبهم اياه ، وزيادة على ذلك فان سخاءه لم يقل

عن هذا تجاه مولاه وأخيه الأكبر ، فأمر بأن تحول الى جودفروى جميع ما تغله أملاكه الخاصة الواقعة على ذلك الجانب من نهر الفرات حول تل باشر والاقليم المجاور له ، فأمده بالحبوب والشعير والزيت والنبيذ ، الى جانب خمسين ألف قطعة ذهبية وصله بها ٠

★★★

كان هناك عظيم من عظماء الأرمن شديد البأس اسمه « نيكوسيوس » تربطه ببلدوين وشائج المودة الصادقة ، وقد قام من تلقاء ذاته وبدافع من تقديره لبلدوين ، بارسال طائفة من رجاله يحملون الى الدوق فسطاطا كبير الحجم ، بديع الصنع هدية منه اليه ، الا أن باكراد نصب كمينا لاصطياد الخدم الموكل اليهم حراسة هذه الهدية ، وأمر باغتصاب هذا الفسطاط ، وأن يحمل الى بوهيموند ، كأنه هدية منه هو ذاته اليه ، فوصل الى سمع الدوق نبأ هذا الفعل الشنيع مع تفصيل شامل للحادث كما رواه خدم نيكوسيوس ، وحينذاك خرج جودفروى مستصحبا معه كونت فلاندرز الذى تربطه به وشائج الصداقة العميقة طوال الرحلة وذهب الى بوهيموند طالبا اليه أن يرد عليه الهدية التى كانت مرسلة اليه هو ذاته ، ولكنه اغتصبها لنفسه ، غير أن بوهيموند ادعى أنها مهداة اليه هو ذاته من النبيل «باكراد» ، وزعم أن من حقه الشرعى الاحتفاظ لنفسه بما يطلبه منه الدوق ، فلما خيف أخيرا من وقوع شقاق فى صفوف الناس ، أو حدوث نزاع بين القادة ، استجاب [بوهيموند] لالتماسات الزعماء ورد الى [جودفروى] الفسطاط الذى كان مهدى اليه ، ومن ثم عادت المياه الى مجاريها مرة أخرى بين القائدين ، على أحسن ما تكون العلاقات ٠

ويخيل الى أنه من المستغرب جدا أن يصر رجل كالدوق يمتاز برزانة الخلق وحسن الطبع هذا الاصرار الشديد على المطالبة بشىء

تافه غير هام كهذا السيء . ولا أستطيع حيال ذلك الا أن أقول ما جاء في المثل « ومن ذا الذى ترضيك سجاياه كلها » وما جاء فى مثل آخر « لكل جواد كبوه » ، كما ان هناك مثلا عبر هذين يقول « يجوز للمرء فى المهمة الشاقة أن يغفو لحظة » . ذلك لأنه كثيرا ما نرى فى أنفسنا انحرافا عن جادة الصواب تقضى به قوانين الطبيعة البشرية .

– ١٥ –

سرت فى هذه الآونة شائعة عمت كل النواحى تقول أن أحد أمراء الفرس الأقوياء استجاب لمطالب الأنطاكيين الخاصة – ولالحاح قومه المستمر ، فأمر بحشد العسكر من كافة أرجاء مملكته ، وارسالهم بحدة الى المدينة ، وقد أذاع مرسوما قاليا يأمر فيه بزحف جيش تركى قوى على بلاد الشام ، اصطفى لقيادته جماعة خاصة من الأمراء وكل اليهم هذه المهمة ، ولم تسر هذه الشائعة فى العالم الخارجى وحده فحسب ، ولا عرفت هناك فقط ، بل لقد تحدث بها أيضا جميع اللاجئين من المدينة الذين فروا الى معسكرنا وأكدوا صدقها الذى أخذ يزداد يوما بعد يوم ، حتى قيل ان هذا الجيش أصبح على أبواب المدينة ، فاستبد الذعر بجيشنا واستولى عليه الفزع .

فى هذه الأزمة قام ستيفن كونت شارترز ، وهو رجل نبيل واسع النفوذ ، نصبه الزعماء رئيسا لمجالسهم يستشيرونه ، وينزلونه منزلة الوالد لرجاحة عقله التى لا تجارى ، وحسن حكمه على الأمور ، أقول قام هذا الكونت يسأل اخوانه أن يأذنوا له – وقد تعلل بالمرض – أن يفارقهم ليذهب الى الساحل ، مستصحبا معه خدمه وأتباعه وكل ما يملك ، وكان ما أخذه معه شيئا كثيرا للغاية ، أما

عذره الذى قدمه بين أيديهم نهو رغبته فى الاقامة بعض الوقت فى الاسكندرونة حتى يسترد صحته وبثه ناحه نفســـه على العودة اليهم ٠

وتقع الاســكندرونة على شاطىء البحر ، ولا تبعــد كثيرا عن الميناء ، وتعتبر المدخل الى قليقيا ٠

وصحب [ستيفن] فى مغادرته هذه أربعة آلاف رجل كانوا قد جاءوا فى معيته ، فلما بلغ الساحل مضى الى الاسكندرونه فى انتظار ما تتمخض عنه الأحداث ، ورسم خطته على أن يعود الى الجيش ان أحرزت قواتنا النصرالذى تنشده بححة أنه نقه تماما من وعكته، أما ان جرت الأحداث على العكس من ذلك فسوف يرجع الى مقاطعته الخاصة فى السفن التى كان قد جهزها لتكون على أهبة الاستعداد لذلك ، فانطوى هذا المسلك من جانبه على العار المقيم وضياع همته الى الأبد ٠

ولقد أزعج فعله المشين هذا القادة الذين خلفهم فى المعسكر ، ورأوا ــ وكان حقا ما رأوا ــ أن ما فعله ان هو الا سبة لا يمحى عارها ، ولا يذهب شنارها ، وأحسوا فى الوقت ذاته بحزن تنفطر له المرائر على هذا الرجل النابه الذكر ، الذى لطخ بمسلكه هذا شرف بيته وحط من سمعته ، فراحوا يتنافسون ــ وكلهم فزع ــ كيف يواجهون هذا الحادث الذى لم يكن متوقعا قط ، لما يحمل فى طياته من خطر يتمثل فى أن قد يقتفى خطاه سواه ممن لا زالوا معهم فى المعسكر فيجرؤون على القيام بمثل ما قام به ، ومن ثم اتفقوا أخيرا على أمر لم يشذ عنه أحد منهم ألا وهو أن يبعثوا من ينادى بمنع أى شخص كائنا من كان هذا الشخص من مغادرة المدينة ، فان ترك أحد ما المعسكر خلسة من غير اذن الزعماء ، لم تشفع له قط وظيفته الرسمية ، ولا خدماته التى يكون قد أداها ، من أن يصدر ضده قرار

الحرمان ، وأن يحكم عليه بالعار الأبدى ، كما لو كان قد فعل شيئا من غير ذنب ، او أعتقس فدسين مقدسا ، عدا الى جانب انزال أقسى أنواع العقاب به ، ورتب على هذا القرار بما تضمنه من الزجر والخوف من العقوبة أن اصبح الكل بعد ذلك الحين عن ترك المعسكر ، حتى ولو لفترة وجيزة ، وأطاع كل واحد منهم القرار كما لو كان هذا الواحد دبريا يستجيب للأمر طواعية ومن غير معارضة ·

- ١١ -

اعتنقت أنطاكية ــ مدينة الله الحبيبة ــ ملة المسيح زمن الحواريين ، حين بشر بها أميرهم ــ كما قلنا ــ وظلت وفية لها ملتزمة بها حتى وقتنا الحاضر ·

وبينما كانت أقاليم الشرق كله تدخل تحت حكم خلفاء محمد [صلى الله عليه وسلم] ، وتنتشر فيها عقيدتهم ، أبت هذه المدينة أن تسيطر عليها أية أمة تعتنق غير ما تعتنقه هى ، وعلى الرغم من بسط سيطرة [المسلمين] على جميع البلاد الممتدة من الخليج الفارسى حتى البسفور ، ومن الهند الى أرض الأسبان الا أن مدينة أنطاكية هذه انفردت دون غيرها من المدن بالمحافظة على ايمانها سليما غير مغمور ، وحرصت على حريتها وهى تعيش وسط أمم مخالفة لها ·

غير أن ما كابدته [المدينة] من كثرة الحصار على مدى أزمنة طويلة فل فى ساعد مواطنيها الفضلاء ، كما أرهقتهم هجمات العدو التى لم تعد محتملة ، فما لبثوا ــ قبل أربعة عشر عاما من الوقت الذى نتكلم عنه الآن ــ أن تلاشى صمودهم ، واضطروا لتسليم بلدهم

أنطاكيه الى عدوهم ، وحدث أنه لما بلغت جيوشنا أسوارها كان جل سكانها من المؤمنين الصادقين ، ولكن لم يكن لهم أى حول أو قوة فى المـدينة ، وقد احترف معظمهم التجـاره ، واشتغلوا بالحـرف البدويه أجراء عند غيرهم ، ولم يكن مسموحا لهم ولا لأهل الملل الأخرى غـير الترك بمزاولة الأعمـــال الحربية أو شغل الوظائف الهـــامة •

وحرم على الصليبيين احراز السلاح ، أو ممارسة أى شيء يمت بأى صلة لشئون الحرب ، لذلك ما كاد الخبر باقتراب الحجاج القـــادمين من الغرب يصل الى مسمع كبار رجال أنطاكية ، حتى ازدادت ريبتهم فى المؤمنين(١) عن ذى قبل ، ومنعوهم ـ لاسيما بعد حصار المدينة ـ من مغادرة بيوتهم ، فكانوا لا يخرجون منها الا فى ساعات فرضوها لهم •

☆ ☆ ☆

كان بين أهل المدينة بعض أسرات معينة شريفة الأصل كريمة المحتد ، توارثت المجد القديم عن الفضلاء ، وكان من بينها أسرة بارزة بسبب أصلها العريق تدعى بمى «زردة» ، التى تعنى فى اللغةاللاتينية أبناء صناع الزرديات ، ولهذا سمي بنوها بهذا الاسم ، وربما كان ذلك نسبة الى اشتغال جدهم الأكبر بهذه الحرفة ، أو لأنهم هم أنفسهم استمروا فيها ، ومن المحتمل أن بعض رجال من هذه الأسرة كانوا لا يزاولون هذه الصنعة ، ويعملون فى هذا الفن الذى ظل على مدى أجيال متعاقبة وقفا عليهم ، حتى أورثهم هذا اللقب •

---

(١) يعنى المؤلف بهم المسيحيين من سكان أنطاكية •

وكان هناك برج يعرفه الناس ببرج الأخين يقع فى الجانب الغربى من المدينة ، ومجاورا للبوابة التى تعرف اليوم باسم سنت جورج ، وقد خصص هذا البرج لتلك العائلة حتى يمكنهم مزاولة عملهم فى طمأنينة فى هذه الحرفة التى كانت ذات أهمية قصوى لكل من المدينة وواليها ٠

وكان من هذه الأسرة شقيقان يدعى أكبرهما بفيروز ، وهو رجل قوى النفوذ ، عظيم الجاه ، الى جانب أنه كان كبير عشيرته وأسرته ، وكانت تربطه أواصر صداقة متينة العرى بوالى أنطاكيه [باغى سيان المسلم] الذى أغدق عليه نعما كثيرة شرفه بها ، فكان فيروز كاتم السر فى القصر ، الى جانب تقلده غير ذلك من الوظائف السامية ٠

وسمع فيروز بأن « بوهيموند » أمير كبير ذائع الصيت ، وله ضلع بارز فى كل ما هو جار فى الخارج ، ومن ثم ما كاد الحصار يبدأ حتى نجح فيروز فى كسب ود بوهيموند بواسطة الخطابات المترادفة بينهما ، كما ظل فيروز طوال استمرار الحصار حريصا على هذه الصداقة ، فلا ينقضى يوم حتى يوافى بوهيموند بتفصيل ما يجرى بالمدينة ، ويبعث اليه بخطط ياغى سيان ، واذ كان فيروز رجلا داهية ، فطنا ، يقظ الفؤاد ، فقد حرص كل الحرص على أن يظل خبر اتصاله ببوهيموند سرا مكتوما بينهما ، ونجح فى ذلك غاية النجاح ، لانه كان يخاف أن يحدق الخطر الكبير به هو وأسرته من كل جانب ، ان وقف سواهما على هذا السر ٠

وكان بوهيموند هو الآخر شديد الكتمان لما بينه وبين هذا الرجل من صداقة فطواها فى أعماق قلبه ، ولم يعلم أحد بشىء قط عن صلة الواحد منهما بالآخر ، ولا بالرسل المستمرة بينهما ، بل لقد خفى أمر ذلك عن الجميع ، حتى عن خدمهما وأهل بيتهما ٠

استمر التفاهم السرى بين هذين الرجلين ـ والذى استمرا اليه حالا ـ قرابة سبعة أشهر ، زخرت بالاتصال الودى بينهما بشأن الطريقة التى يمكن أن يتم بها اعادة المدينة الى المسيحيين ، وطالما ذكر بوهيموند فيروز بهذه المسأله حتى انتهى الأمر آخيرا بفيروز ـ كما قيل ـ بأن بعث اليه بالرد التالى على يد ولده الذى كان يحمل الرسائل المتبادلة بينهما :

« اعلم يا أحسن الرجال ، ويا من هو أغلى على من الحياة دائما ، أننى قد أحببتك حبا خالصا منذ اللحظه التى شاءت فيها اراده الله أن تقوم بيننا هذه الرابطة من الصداقة المتبادلة ، ودعنى أذكرك أكثر من هذا أننى وجدت فى كلماتك صادق العزم الذى لا يتوفر الا فى الرجل الصالح ، ومن ثم فان حبك آخذ يزداد رسوخا فى فؤادى يوما بعد يوم ويعظم قدرك عندى • أما عن الأمر الذى كثر تذكيرك لى به فقد أمعنت فيه النظر مليا ، وعنيت ببحثه مرارا ، وقلبته على شتى جوانبه ، فأيقنت يقينا جازما أننى اذا استطعت أن أعيد بلدى الى حريته السالفة ، وطردت هذه الكلاب القذرة التى تعانى تحكمها فينا ، وأحللت بدلا منها شعبا يعبد الله ، فانى بضيع أحرى يـوم الحساب ، وسوف أنعم بصحبة القديسـين المباركين الى الأبد •

« ومن ناحية أخرى ، فلو قمت أنا بهذه المهمة الشاقة الخطرة ، ولم يكتب لى النجاح فيها ، فلن يشك أحد فى أن سيكون ذلك نهاية بيتى وانهيار سمعة عشيرتى الطيبة تمام الانهيار ، ولن يجرى على اللسان اسمنا أبدا ، غير أن الأمل فى النصر لا يزال يراود النفس فى القيام بهذه المخاطرة ، ومع ذلك فاننى مستعد للنهوض بهـذا العمل ان وافق رفاقك على أن تؤول اليك أنت وحدك دون سواك

هذه المدينه حين استسلامها بفضل جنودى القويه ، وبعون الرب الذى ربط بيننا برباط الصداقة الوثيق ، وسأقوم بالمهمة مهما كانت صعوبتها ، وسيكون قيامى بها بسبب حنى لصغارى الذين أرجو لهم ولك كل الخير » ·

« وسأسلم اليك من غير عائق هذا البرج الشديد الحصانه ، الذى تعرف أنه فى حوزتى ، وحينذاك نستطيع أنت ومن معك دخول المدينة آمنين سالمين ·

« أما ان رأيت انكم جميعا متساوون فيما بينكم ورأيت أنت أن تقسم واياهم المدينة حين تؤخذ على هذه الصورة فانى لن أرج بنفسى فى هذا المأزق الخطير ، ومن أجل خاطر قوم ليس لى هوى فيهم ·

« وانه لينحتم عليك ـ من أجل الصالح العام وسلامة الجميع ـ أن تبذل قصارى جهدك للحصول على هذه الموافقة من القادة المرتبطين بك ، وكن واثقا كل الثقة أننى حالما أتسلم منك الخبر اليقين بأنكم وفيتم بهذا العهد ، فلن أتوانى فى فتح باب المدينة لكم لتدخلوها ، وهذه هى الغاية التى تلح على من أجلها ·

« وأزيدك علمـا بأنك ان لم تتحـرك بأسرع ما يمكن ، فلن تدخلوها بعد ذلك أبدا ، لان حاكم هذه المدينة تصله الرسائل ، وتتوالى عليه الكتب كل يوم ، مشيرة الى أن الامدادات التى تتجمع من كافة أرجاء الشرق لمساعدته قد عسكرت حول نهر الفرات ، فى قوة بلغت مائتى ألف فارس ، فاذا وجدتكم هذه الجيوش لا تزلتم خارج المدينة فلن تكونوا قادرين بعد ذلك أبدا على مقاومة قوة الأهالى وجيوش حلفائهم القادمة » ·

- ١٣ -

شرع بوهيموند منذ تلك اللحظة في بذل أقصى جهده لاستكناه مشاعر كل شخص من القادة ، ومعرفة ما يدور بفكر كل منهم على حدة ، والوقوف على الخطة المتوقع اتخاذها بشأن المدينة المحاصرة حين يتم الاستيلاء عليها ، وبرع كل البراعة في اخفاء مشروعه . الا عمن اعتقد أنهم موافقوه على رغبانه ، وكان اذا رأى الأمل ضعيفا في نجاحه لدى بعض القادة أرجأ الموضوع الى وقت آخر يكون اكثر ملاءمة . ومع ذلك فقد وافقه على مطالبه كل من دوق جودفروى . وكونت نورماندى ، وكونت فلاندرز ، وهيج العظيم ، وصارحوه بتأييدهم لما يريده ، واستصوبوا سر الرجل النبيل [فيروز] وأثنوا على فطنته ، وكتموا عزمه في صدورهم كتمانهم لأمر لا ينبغي أن يعلم به أحد قط .

أما كونت تولوز فكان الوحيد الذى شذ عنهم فيما يتعلق بهذا الموضوع . وترتب على موقفه هذا ارجاء المسألة ارجاء كاد أن يدمر ما اتفق عليه ، لان صديق بوهيموند الحميم [أعنى فيروز] . كان رافضا كل الرفض أن يقوم بعمل فيه كثير من الخطر عليه من أجل خاطر الآخرين ، كما ان بوهيموند لم يكن بالشخص الذى يجهد نفسه في عمل للصالح العام ان لم يعد عليه بالجدوى ، لكنه استمر مع ذلك في الحفاظ على مودته الصـــــادقة مع فيروز فحافظ على الدوام بهداياه وملاطفاته ، كما ظلت الرسائل موصولة ومترادفة بينهما ، وأخذ كل منهما يرعى ما بينه وبين صاحبه من الصـــداقة وينميها .

- ١٤ -

عاد فى هده الأسماء الى أنطاكيه المبعوثون الدين كان باغى سيان وأهل أنطاكية قد أرسلوهم الى فارس بغية استجداء العون ، وقد نجحوا فى انجاز سفاراتهم ، وتحققت مطالبهم ، ذلك لان أمير فارس العظيم كان قد سمع بما تلقاه أنطاكية من الأهوال فتحرك قلبه عطفا عليها ، وكان من صالحه صد محاولات الصليبيين والعمل على سل قوتهم حتى لا يستطيعوا لفتح بعض أجزاء من مملكته تحت السيف »
ومن ثم بعث الى بلاد الشام حشــودا لا يحصيها العــد من الفرس والترك والأكراد ، بقيادة واحد من أصدقائه المقربين ، كان يستطيع أن يعتمد على شجاعته واخلاصه وهمته كل الاعتماد ، وألقى اليه بالقيــادة ، وجعل تحت امرته أمراء سنين وقوادا وأمراء خمسين وضباطا آخرين دونهم مرتبة ، يطيعون أمره وينفذون كل ما يقضى به ، كما زوده بكتب لها قوة القانون وجهها الى ولاة جميع الأقاليم التابعة له . والخاضعة لسلطانه متضمنة أمره الى كافة الناس والأمم والقبائل والشعوب على اختلاف ألسنتها ، أن يتبعوا ــ من غير تردد ــ ابنه المحبوب «كربوغا» الذى وكل اليه قيادة جيوشه بسبب خدماته، وأمرهم بالامتثال لسلطان هذا الرجل ، وألزمهم بطاعته فى كل ما يأمرهم به ، وأن يكونوا وفق مشيئته فلا يعارضه فيها معارض ٠

رأس كربوغا ــ بأمر مولاه ــ الجيوش التى ذكرناها حالا ، وزادها عددا بمن ضمه اليهم من العسكر الذين جمعهم خلال زحفه فى البلاد ، فدخل العراق بمائتى ألف رجل ، وعسكر فى ناحيــة الرها ، حيث جاءته الأخبار المختلفة وهو بها بوقوع هذه المدينة وكل الاقليم المحيط بها فى قبضة أحد قادة الفرنجة الذى كان زاحفا ضده فأجمع النية اذ ذاك على مهاجمة هذه المدينة ــ قبل عبوره الفرات ــ وعزم على الاستيلاء عليها قسرا ٠

ببد أن بلدوين كان قد علم بتقدم [ياغي سيان] فجلب أناسا شجعانا من كل النواحي التي حول [الرها] لمساعدته ، كما عني بتوفير كل ما تحتاجه مدينته من الطعام والسلاح ، لذلك لم يزعجه كثيرا تهديدات كربوغا الشديده له ، حين أمـر الأخير أن ينادي المنادون بأن الجيوش موشكة أن تغير على الرها ، وأن تضرب الحصار عليها بكل ما أوتيت من قوه ، ولكن المدينة قاومته في عناد . وسرعان ما تجلى للعيان انه لن تجدي كثيرا من هذه المحاوله ، ولن يكون تقدمه فيها ملحوظا ، مما حمل في النهاية جمـاعة من أهـل الحجى على الذهاب الى قائدهم ، وطال بينه وبينهم الجدل ، حتى انتهى به الأمر الى نبذ هذه المحاولة وعدوها محاولة عارضة ، انصرف ياغي سيان اثرها لمتابعة خطته الأصلية ، التي تتلخص في عبور الفرات والاسراع لنجدة أنطاكية ، وهو الهدف الذي جاء من أجله ، وذكر له هؤلاء الرجال أن أخذه الرها وأسره بلدوين لن يستغرق منه أكثر من يوم واحد ، وذلك في طريق عودته من أنطاكية بعد رفعه الحصار عنها .

★★★

ظل كربوغا محاصرا الرها ثلاثه أسابيع (١) ، أضاع فيها وقته سدى وبدد جهوده عبثـــا ، ثم بدا له أن يأمر قواته بعـد ذلك بعبور النهر فأمرها فاجتـــازته فسار خلفها مجدا الخطى في همة كبيرة الى هدفه الذي خرج من أجله ، وكان توقف جيش الأعداء أمام الرها ، هو السبب في عدم استطاعة بلدوين أن يكون حاضرا أثناء حصار أنطاكية ، كما كان السبب في خلاص قومنا الذين كان لابد أن يتحرج موقفهم — كما تنبأ فيروز صديق بوهيموند — لو أن كربوغا زحف مباشرة على أنطاكية ، وأخذها قبل استيلاء الصليبيين عليها ولكن شاءت نعمة الرب أن تقع أنطاكية قبل وصول المارقين ، والا كان من الصعب على الصليبيين أن يقفوا في طريق كربوغا .

---

(١) ذكرت الترجمة الانجليزية أنها من ٤ حتى ٢٥ مايو .

- ١٥ -

عمت الشائعة أرجاء المعسكر في نفس الوقت بتقدم هذه الحشود الكثيفة وأكد الكثيرون صدق هذا الخبر ، فأيقن العسكر أن العدو قد وصل الى اطراف انطاكيه ، فاستبد الذعر بهم استبدادا كبيرا ، واذ ذاك قام القادة فبعثوا في اتجاهات مختلفة رجالا من ذوى الخبرة لا يسك أحد أبدا في اخلاصهم ونشاطهم ، وطلبوا اليهم أن يفانلوا وجها لوجه أناسا لايغمر ولاؤهم حتى يمكن الحكم الصحيح عن مدى صدق ما أذيع من الأنباء ، وقد اختير لهذه المهمة محاربون سجعان من ذوى الرتب العالية هم « دروجو دى سرل » و « كلاريبولد دى فنديل » و « جيرارد دى سيريزى » ، و « رينالد كونت تول » وغيرهم ممن غابت عنا أسماؤهم فانتشروا مع أتباعهم في نواح مختلفة . وبذلوا همهم في التقصي الدقيـق فأرســلوا من قبلهم وبدورهم الكشافة الى النواحي القاصية ، فصارت بين أيديهم بهذه الطريقة أخبار موثوق بها تؤكد تجمع العسكر [الاسلامى] من شتى النواحى وانضمامهم بعضهم الى بعض في جيش واحد ، كأنهم الأنهار تتجمع لتصب في البحر ، فلما فرغ الزعماء من ذلك عادوا مؤكدين للقادة الذين كانوا قد بعثوا بهم أنه لا موضع للشك في الأنباء التي بلغتهم . وبذلك أخذ كبار سادة الجنس الصليبى حذرهم قبـــل سبعة أيام من وصـــول كربوغا بقواته أمام أنطاكية . فأوصوا الحواسس أن يعملوا جهدهم على بقاء هذا الخبر طى الكتمان ، فلا يسمع به أحد من الناس ، خوفا من استيلاء الذعر على جموع العامة التى أضناها الجوع ، وأرهقتها الشدائد التى استمرت طويلا مما قد يدفعها الى تدبير خطة للهرب الذى كان طريقا سلكه في الواقع منذ وقت قريب بعض الزعماء الكبار .

وحينذاك تجمع الزعماء لتبادل الرأى حول الموقف الذى أصبح يكرب الحملة بأجمعها ، ويهدد بمأزق يذهب ريحها ، فسرعوا بروح متواضعة وقلوب خاشعة يتدبرون الاجراءات التى ينبغى عليهم اتخاذها فى مثل هذه الحال الطارئة ، فاقترح بعضهم أن تخرج كل القوة المشتركة فى الحصار ، فتتصدى للجموع القادمة على بعد ميلين أو ثلاثة أميال من المدينة ، وهنـاك - بعد رفعهم أكف الضراعة الى السماء أن تمدهم بالعون - يحاولون مقابلة ذلك القائد المتغطرس ، المتفجرة أوداجه بما تمتلىء معه من الألوف المؤلفة .

على أن فريقا منهم فضلوا أن يخلفوا وراءهم فى المعسكر قسما من الجيش ، لمنع الأهالى من التسلل والانضمام الى العسكر الوافد اليهم ، وأما ذلك القسم من الجيش الصليبى الذى يسأو هؤلاء قوة وكان أخبر منهم بفن الحرب فعليه - حسب الاقتراح الأول - الخروج لصد الكفار على بعد ميلين ، فان رضى الله القدير بما فعلوا فاتلوهم بعون منه .

وبينما كانوا يناقشون هذا الموضوع مناقشة دقيقة ، ويتبادلون الرأى فيما بينهم تبادلا حرا ، تسلل بوهيموند فى هدوء وانتحى جانبا بطائفة من كبار القـادة هم : جودفروى ، وروبرت كونت فلاندرز ، وروبرت كونت نورماندى ، وريموند كونت تولوز ، حتى اذا أصبحوا وحدهم فى ناحية منعزلة ، وعلى مبعـدة من الآخرين خاطبهم قائلا :

« انى أرى أيها الاخوة الأحباء العاملون فى خدمة الرب ، انكم قد انزعجتم فزعا من دنو هذا الزعيم ، والذى يقال انه أصبح قريبا منكم كل القرب ، ولقد كان لكل منكم - أثناء المؤتمر الذى انعقد

مند فليل ـ رأيه الذى يخالف رأى سواه ، والذى يصدر عن رغباته الخاصه . ومع ذلك فلنفترض ان افتراض مثل الموضوع من حدوره . فسواء خرجنا جميعا معا كما افترح بعضكم ، او اقام فريق من الجند فى المعسكر ، فالواضح أن جهودنا الكبيره مهما طال استمرارها ، لن تجدى فتيلا ولن تؤتى ثمرتها . ذلك لأن فى خروجنا جميعا معا نهاية للحصار . وقضاء على أهدافنا ، اذ يعود المواطنون احرارا ليس عليهم رقيب ، وحينذاك قد ينضمون الى العدو أو يدخلون عسكر حلفائهم الى المدينة .

« كما أنه لا محيص من حدوث نفس النتيجة لو بقى قسم من الجنود فى المعسكر ، ذلك لان جميع قواتنا المتحدة حتى الآن لن تكون قادرة على كبح جماح المواطنين رغم ما هم فيه من ضيق يبعث على اليأس ، ورغم أنهم لا يأملون قط فى نجده تأتيهم فتغيثهم ، فكيف ينتسنى اذن لجزء ضئيل من جيشنا أن يلزمهم بالبقاء داخل الأسوار ان وصل حلفاؤهم ؟ ويبدو لى انهم اذ ذاك سيفعلون واحدا من اثنين : اما أن ينضموا الى حلفائهم وحينذاك تشتد شوكة قواتهم المتحده فى الهجوم علينا بأعداد تفوق أعدادنا . واما أن يحاولوا بطريقة أو أخرى لادخال جند الحلفاء المدينة ، مع بذلهم الجهد فى تزويد أنطاكيه بالسلاح والميره مما يشد من ساعدها . وفى هذه الحالة لن يكون عندنا ما يؤكد لنا التغلب على المدينه حتى وإن أعاننا الله فهزمنا العدو خارجها ، لذلك يبدو لى أيها الساده العظام الموقرون أن الواجب يفرض علينا أن نسعى السعى كله للاستيلاء على أنطاكية قبل وصول هذا القائد الكبير ، فان سألتمونى وما وسيلتك الى ذلك ، وكيف يمكن تطبيق خطة كهذه الخطة ، فانى أقرر لكم ـ حتى لا أبدو وكأنى أقترح عليكم مشروعا يستحيل انجازه ـ أننى قادر على أن أفسح لكم طريقا ، نستطيع منه أن نحقق هدفنا المنشود تحققا سريعا وسهلا . ذلك أن لى بأنطاكية صديقا

صدوقا ، عاقلا كل العقل ، بقدر ما يرى عين الانسان العقل ، وأعتقد أنني قد بينت للبعض منكم منذ قليل أن تحت امرة هذا الرجل برجا منيعا شديد الحصانة ، وأنه قد رضى عن طيب خاطر أن يسلمه لى تحت شروط خاصة ، وكنت قد التمست منه مرارا أن يفعل ذلك فاستجاب لى بعد الحاح طويل ، والتزمت له — ردا لهذا الجميل — أن أصله بقدر كبير من المال ، وأن أضمن له ولذريته من بعده أملاكا شاسعة ، وامتيازات شتى مما يكافىء ما قام به ، ان جرت الأمور وفق ما يهوى

« فان رضيتم أيها السادة الأعزاء أن تصبح مدينة أنطاكية تحت حكمي — ان تم الاستيلاء عليها بجهودى الكبيرة — وقبلتم أن تكون وراثة فى بيتى الى الأبد ، فانني مستعد حينذاك أن أخرج الى حيز الوجود ما اتفقت عليه أنا وصديقى (١) هذا ، أما اذا أبيتم ذلك ، فليحاول كل واحد منكم أن يلتمس طريقا أحسن مما ذكرته ، يمكنه من الاستيلاء على المدينة بنفسه ، فان نجح فى ذلك كانت ملكا خالصا له لا يسابقه فيها أحد ولا ينازعه ملكيتها منازع ، وسوف أذعن أنا لما فيه صالحه ، كما أنني مستعد لأن أتنازل له عن أى نصيب يكون لى فى الأمور الحالية » .

- ١٧ -

أصغى الزعماء جميعا لكلمات بوهيموند هذه بقلوب تغمرها الفرحة ، واستجابوا لرجائه ، معترفين بجميله ، ولم يشذ عنهم سوى كونت تولوز ، الذى أعلن فى اصرار أنه لن يتخلى عن نصحه

(١) المقصود به « فيروز » .

كائن من كان ، على حين قطع الآخرون على أنفسهم العهد ان يمنحوا المدينة بملحقاتها لبوهيموند . لتكون وراثة في نسله الى الأبد .
وأقسم كل رجل منهم – وقد سقط بدماه – أن يبقى الأمر سرا مكتوما لا يخبر به احدا قط ، ثم أخذوا كلهم في الوقت ذاته يلحون على الأمير بوهيموند أن يبادر لحسم هذا الموضوع بما عهد فيه من النشـــاط ، حتى لا يؤدى الابطاء الى حدوث خطر ما . ثم انفض الاجتماع ، فقام بوهيموند بما أثر عنه من طبع لا يعرف الابطاء وعن بحرق لتنفيذ مشروعه . فاتصل في لحظته بصديقه فيروز بواسطة الرسول الذى اعتادا أن يكون الواسطة بينهما . واخبره أن الزعماء سمحوا له بكل ما سألهم اياه ، وراح يلح على فيروز ، ويستحلفه بما بينهما من الايمان الصادق ، أن يقوم في الليلة التالية بعون الله بتنفيذ الخطة التي اتفقا عليها . فابلغ ذلك الخبر نفس سامعه الوفي . وغلبت عليه نشوة السرور فوق كل ما يتصور .

★★★

على أنه جرت حادثة قرب هذا الوقت شدت من عزم [فيروز] على السير قدما في المؤامرة التي دبرها ، ذلك أنه بينما كان مشغولا أشـــد الانشغال بأداء ما تفرضـــه عليه واجبـــاته الكبيرة التي يقتضيها وضعه في بيت مولاه . بل وفي البلد كله ، اذا بأمر عاجل لا تدريه يجد أثر ارساله ولده الشاب الى داره ، اذ ما كان الفتى يبلغها حتى طالع منظرا مشينا فاضحا ، حين شاهد أمه بين ذراعي أحد كبار الأتراك في وضع مزر أسخطه غاية السخط . وارتعدت مـــنه أوصاله فزعا . وتمزقت له نفســـه . فانكفأ سريعـــا الى أبيه وأخبره بالفضيحة ، فحنق فيروز حنق الزوج المثلوم في شرفه ، المهان في كرامته ، وقيل انه قال في مرارة ، ألم تكف هذه الكلاب القذرة أنها تفرض علينا رقها الظالم ، وتنهب أملاكنا بما تنتزه منا

يوما بعد يوم حتى تستهين بالتقاليد الأسرية ، وتقطع الروابط الزوجية ؟ .... والله لأضعن – ان عشت – نهاية لهذا الفجور ، ولأجازينهم بعون الرب الجزاء الأوفى الذى هم أهل له » .

قال فيروز هذه الكلمات وقد كتم جوانحه على ما يحسه من شعور بالاهانة التى لحقت به ، ثم أرسل الى بوهيموند – كما جرت العادة – ولده الذى يشاركه أسراره ، والذى كان هذا الاثم الذى نزل بأمه قد استورى غضبه ، وأضرم غيظه ، وأمره أبوه – اذ بعثه الى القائد بوهيموند – أن يطلب اليه أن يستعد لكل شيء يستلزمه العمل الذى بين أيديهم استعدادا دقيقا ، وان يخبره أنه لن يقصر فى شيء من جانبه ، بل انه موف بما عاهده به ، وموعدهما الليلة التالية .

كما أشار عليه أن يغادر الزعماء جميعا المعسكر ووراء كل منهم أتباعه ، وأن تكون مغادرتهم المعسكر قرب الساعة التاسعة ، حتى لتحسبهم الرائى وكأنهم قاصدون الزحف على عدوهم . فاذا قرب موعد الحراسة الليلية الأولى عادوا سرا وفى سكون مطبق ، وتهيأوا قرب منتصف الليل للعمل حسب تعليماته ، فاستصحب بوهيموند هذا الشاب فى السر الى القواد العالمين بخبر المؤامرة ، وذكر لهم كل تفاصيل ما رتب حسبما اتفق عليه مع فيروز بمساعدة ولده ، فتملك العجب نفوسهم جميعا من خطة الرجل وصادق اخلاصه ، وأقروا ما رسمه ، واتفقوا على تنفيذه حسبما رتب .

- ١٨ -

عبر أنه كثيرا ما يجد حدث من الاحداث لم يكن متوقعا فتعترض مشاريع لها مثل هذه الخطوره . اذ ساورت الريبه - التى يغورها البرهان - نفوس مواطنى أنطاكيه لاسيما من يقع على أكتافهم المسئولية المباشرة عن آمن المدينه . واخذ الشك فى نفوسهم اكثر من اليقين بأن هناك مفاوضات تجرى فى الخفاء ترمى الى تسليم أنطاكية ، وما لبث هذا الشك أن أصبح موضوعا عاما تلوكه جميع الألسنة . مما دفع كبار المواطنين للاجتماع . وســـاروا الى الوالى للتشاور معه فى حسم هذا الخالج الذى تضطرب به نفوسهم ، والذى يدى محتملا كل الاحتمال ، وتقوم الدلائل الكبيره على ترجيحه .

وكان بأنطاكيه - كما قلنا - رعيل كبير من المسيحيين تحوم حولهم الريب رغم براءتهم براءة تامة من هذه المؤامرة ، وكان من بينهم ذلك الرجل النبيل الذى نتحدث عنه الآن ، والذى رغم اعتماد ياغى سيان على اخلاصه الصادق اعتمادا كبيرا ، الا أن الرجال البارزين الآخرين كانوا يرتابون فيه أكثر من غيره ريبة لم تجعله موضع ثقتهم .

لذلك عقد اجتماع مثير بشأن هذا الموضوع فى حضره ياغى سيان ، تردد فى أثنائه اسم « فيروز » مع أسماء بضعه أفراد آخرين كانوا مثار التشكك ، وكان هناك على ما يبدو كثير من الأسباب التى تحمل على عدم تصديق ما اتهم به ، لأنه كان رجلا جم النشاط وصاحب نفوذ فى المدينة يفوق نفوذ سواه من المسيحيين . وأخيرا رضخ ياغى سيان لالحاح مستشاريه فأمر باحضار فيروز ، فأحضروه . وتعمد الموجودون اثارة نفس الموضوع فى وجوده ليسمعوا ماذا يكون قوله ، ليكونوا قادرين على أن يقرروا - بناء على ما يقوله - اذا كان ما يثار حوله من شك حقيقة أو مينيا .

ولكن فيروز كان رجلا شديد الذكاء حاضر البديهه فأدرك فى لحظته ان هذا الاجتماع انما عقد من أجله هو وحده ، وانه هو ذاته موضع الاتهام ، ولذلك أخذ يراوغهم فى اخفاء سره ، واظهار براءته أمامهم ، ويقال انه رد على أولئك الذين اجتمعوا لتقصى أمره بقوله « ان تشكككم أيها الرجال المحترمون ، وأنتم كبار رجالات هذه المدينة وسراتها ، لأمر يستحق أعظم الثناء ، ولا يتوفر مثله الا عند ذوى الفطنة ، لأنه من الحكمة الحدس بما يمكن وقوعه ، كما أن شدة الحذر فى الأمر الجليل ليست بضاره ، لذلك يخيل الى انكم قد صدرتم عن واقع ليس بالتافه فى أمر يتعلق بحياتكم وحريتكم ونسائكم وأبنائكم ، ومع ذلك فان قبلتم نصيحتى فان هناك طريقة عادلة عاجلة تؤدى الى العلاج الناجع والشفاء الفعال لهذا البلاء الذى يهددكم ، فالخيانة الملعونة التى يبعثكم بعد نظركم على التخوف منها لا يقدر لها النجاح الا بواسطة الموكول اليهم حراسة الأبراج والأسوار والقوامين على حفظ الأبواب ، فان ظننتم ظن السوء بهؤلاء الناس فاعمدوا الى مداومة استبدالهم بغيرهم ، حتى لا يظل الواحد منهم أمدا طويلا فى مكان واحد ، يمكنه من أن يوثق مع العدو وشائج صداقة مدمرة ، لأنه ليس من السهل اعداد مؤامرة من هذا القبيل فى سرعة ، بل تحتاج فى الواقع الى زمن طويل ، كما أنه لا يتسنى لشخص ما بمفرده أن ينجز عملا خطيرا كهذا العمل الذى لابد ان يساهم فيه معه مواطنون يشغلون مناصب رفيعة قد أفسدتهم الرشوة حتى صاروا شركاء فى الجريمة ، لكن اذا عمدتم الى القيام بتغييرات فجائية لهؤلاء الناس على غير توقع منهم لها تكونون قد قضيتم على كل فرصة لمفاوضات مهلكة من هذا القبيل » ، ثم أمسك فيروز عن الكلام عندما بلغ هذا الحد من القول . وكان لملاحظاته وقعها الطيب فى نفوس الذين سمعوها فاستصوبوها ، واتضح لهم انه قدم الدليل القاطع والبرهان الجلى على براءته ، وأنه قضى الى حد بعيد على ما خامرهم من الشك فى أمره .

وكان من الممكن ان يبادروا فى لحظتهم عده بسعيد ما أوصى به ، لولا أن النهار كان موشكا على الانصرام ، والليل موشكك على الدخول ، مما يستحيل معه القيام – فى ساعه متأخرة كهده الساعة – باجراء مثل هذا التغيير الرئيسى فى حراسة المدينه . لكن الذى استطاعوا عمله هو اصدارهم الأوامر بتشديد الحراسه . تشديدا صارما لحماية البلد ، غير أنهم كانوا جميعا فى جهل بما دبره ذلك الرجل من تدابير فى الخفاء ، واذ كان على بينه من أن الموقف سيتبدل حالا تبدلا كبيرا ، فقد بذل غاية جهده فى السير قدما بمؤامرته . وفى عجلة قبل وقوع أى شىء يحول دون تنفيذها .

- ١٩ -

ما كاد جيشنا يقف أمام أسوار مدينه أنطاكية ، ويفرض عليها الحصار ، حتى ساور الشك الأهالى فى الاغريق والسريان والأرمن وغيرهم من معتنقى المسيحية ، دون النظر الى الجنس الذى ينتمون اليه ، ومن ثم أخرجوا منها جميع العجزة . ومن لا يملكون المواد الضرورية لاعالة أنفسهم وأسرهم الصغيرة ، وقد فعل الأهالى ذلك حتى لا يكون هؤلاء عبئا بثقـــل كاهل المدينه التى لم يؤذن للبقـــاء فيها الا للأثرياء ، ومن املأت مخازنهم بالمئونة ووسائل العيش الكثيرة التى توفر الحياة لهم ولذويهم . وان كان هؤلاء لم يسلموا من ارغامهم على أداء خدمات كثيرة فرضت عليهم فرضا . الى جانب ما يكلفون به من أعمال جرت العاده على تكليفهم بها . وكان ذلك سيئا ثقيلا بدا معه أن المنفيين الذين أخرجوا من المدينه كانوا أسعد طالعا ممن أذن لهم بالبقاء فيها ، فقد ضوعفت عليهم الغرامات النقدية التى أخذت منهم اغتصابا حتى لم يبق فى أيديهم

من المال سوى النزر اليسير الذى لم يسلم هو أيضا من استعمال الشده فى ابتزازه منهم ٠

ولم يكترث أولو الأمر باحتجاجات هؤلاء ، اذ فرضوا عليهم القيام بارذل الأعمال واشقها فى المدينة ، فاذا أريد تشييد الآلات ، أو نقل جذوع الشجر الضخمة الثقيله ، كلفوهم بذلك فى لحظتهم ، كما أجبروا البعض منهم على حمل الحجارة والأسمنت وكل مواد البناء ، وألزموا سواهم بجلب الأحجار الكبيرة التى اعتادوا دائما وضعها وراء الأسوار بالآلات وربطهـا بالحبال التى تسد بها ، وما كان لهؤلاء الناس الا الامتثال وطاعة رؤساء الفعلة الذين لم يكونوا يسمحون لهم بقسط من الراحة ، ثم بلغت هذه الشدة الفظيعة ذروتها حين عقد مضطهدوهم اجتماعا سريا قبل ثمانيـة أيام من الجلسة التى استدعوا اليها فيروز المشكوك فى ولائه وقرروا فى هذا الاجتماع الفتك سرا ــ وتحت جنح الظلام ــ بجميع المسيحيين الذين يعيشون فى أنطاكية ٠ على أنه كان بالمدينة زعيم عاقل قوى النفوذ ، لا يكف عن اظهار صداقته للمسيحيين فى كل الأحوال ، فسعى سعيا حثيثا حتى تمكن ــ بعد لأى ورغم معارضة الآخرين له ــ من أن يؤجل تنفيذ القرار القاضى بقتلهم مدة ثمانية أيام ، ولولا منحهم هذه المهلة لكان من المؤكد ارســال الجلادين لتنفيذ هذا الحكم الفظ ، ولهلك المسيحيون عن بكرة أبيهم بالسيف فى تلك الليلة ذاتها ٠

كان الغرض من السماح بهذه الأيام الثمانية أن يثبت عندهم باليقين الجازم عما اذا كان فى الامكان رفع الحصار عن المدينة ، فان تأكد لديهم عزم رجالنـا على الاستمرار فى الحصــار فتكوا بالمسيحيين ذبحا ، أما ان ثبت عكس ذلك منوا بالحياة على الأهالى الذين سبقوا أن قضوا عليهم بالموت ٠

فلما انتهت فترة تأجيل الحكم ، وجاءت الليلة الأخيرة عنه صدر الأمر سرا بتنفيذ ما قضوا به ، وكانت المذبحة على وشك أن تتم فى نفس الليلة التى حددها زعماؤنا لتنفيذ الخطة التى رسمها بوهيموند وفيروز منذ أمد طويل . والتى تمت بعون الرب . لذلك ففى اللحظة التى شرع الصليبيون فيها فى احتلال المدينة لم تشعر كبارها بالخوف من الصيحة التى سمعوها ، فقد ذهب بهم الظن الى أن ما سمعوه لا يعدو أن يكون الشروع فى تطبيق الأوامر التى قضوا بتنفيذها فى مواطنيهم النصارى .

لذلك فانه حين تم لرجالنا الاستيلاء على المدينة بتلك الطريقة ، عثروا فى دور نصاراها على كثير من خصوم ملتهم الذين كانوا قد جاءوها مأمورين بالفتك بالمؤمنين الصادقين .

- ٢٠ -

ولما كانت الساعة التاسعة سمع صوت المنادى ينادى فى شتى أرجاء المعسكر بخروج جميع كتائب الفرسان فى كامل عدتهم وراء قوادهم ، وألا يتوانوا عن تنفيذ الأوامر التى سوف تلقى اليهم . ولم تكن العامة هى وحدها التى تجهل جهلا تاما بما دبر فى الخفاء ، اذ الواقع أنه لم تكن يعرف السر سوى ثلة ضئيلة من كبار الزعماء .

ومن ثم فانه تبعا لترتيبات فيروز الحكيمة ، غادرت كتائب الفرسان بأجمعها المعسكر ، ومشت كل كتيبة منها وراء علم قائدها وساروا حتى ليظنهم الناظر اليهم أنهم ماضون لجهة بعيدة . لكن

الحقيقة هى أنهم كانوا ينتظرون أن يسدل الليل سدوله على الكون ويظلم الدنيا فيعودون الى المعسكر فى صمت تام .

★★★

كان لفيرور — رجل الرب هذا — الذى أدى للمسيحيين هذه الخدمه الجلى الجليله — أقول كان له أخ يختلف عنه كل الاختلاف ، سواء فى مشاعره أو عرضه . ومن ثم لم يكن فرور يثق فى اخلاص هذا الأخ ولذلك لم يفض اليه بالسر لعدم ائتمانه عليه . بل انه بذل غاية جهده لاخفاء خطته عنه اخفاء تاما .

وحدث فى الساعه التاسعه من نفس ذلك اليوم ، وقد أحدث كتائبنا فى مغادره المعسكر أن وقف الشقيقان معا على احدى شرفات البرج . يطلان على المعسكر ، فشاهدا الجند يغادرونه .

وأراد الأخ الاكبر أن يسبر غور أخيه ، ويعرف ما يدور فى باله ، فخاطبه قائلا . —

« لكم أرثى يا أخى لهذا الشعب الذى يدين بنفس العقيدة التى ندين بها أنا وأنت ، وكم تحزننى الميته التى سوف يلقاها عاجلا . فها هم عسكره يغادرون مخيماتهم فى ثقة وسكينة ، لا يخافون شيئا كأن أوضاعهم آمنه ، لكنهم لو عرفوا ما نصب لهم من الشراك وما ينتظرهم من الدمار الشامل ، فلربما اتخذوا اجراءات أخرى تضمن لهم السلامة » .

فأجابه أخوه : « انه لحمق منك أن تحمّل نفسك هما لا مبرر له، فانه لا محل لعطفك عليهم ، الا ليتهم جميعا هلكوا بسيوف الترك منـذ أول يـوم مست أقدام الترك هـذه الأرض ... اذن لمـا

ازدادت أحوالنا سوءا ، وما كان من المستطاع أن تكافأ الفوائد التى تحنيها من جهودهم مع المشاق التى تحملناها بسببهم » .

★★★

لم يكن فيروز حتى هذه اللحظة قد قرر ما اذا كان يفضى بهدفه الى أخيه أم يكتمه عنه ، غير أنه لما سمع هذه الكلمات التى فاه بها شقيقه ، فزع فزع الشخص من الطاعون ، وراح يلعنه فى سره . ويدبر خطة للقضاء عليه حتى لا تقف أعماله عقبة فى طريق طاعة المسيح ، وهكذا وضع فيروز سلامة المسيحيين فوق عاطفة الاخـوة .

- ٢١ -

فى هذه الأثنـــاء راح بوهيموند يبذل غايته وسـعه لانجاز مشروعه ، وبلوغ غايته التى يسعى اليها سعيا حثيثا ، وكذلك خوفه من أن يؤخرها أى تراخ من جانبه ... أقول دفعه ذلك الى زيارة الزعماء : فردا فردا ، راجيا منهم أن يكونوا متأهبين للعمل .

وكان يحمل فى يده سلما مجدولا على أحسن ما تكون الصنعه من حبـال القنب ليعلقه بأعلى جـدران السور ، وليثبته من أدناه بكلاليب حديدية .

وما كاد الليل يؤذن بالانصراف حتى كان جميع سكان المدينة قد هجعوا للراحة وغطوا فى سبات عميق بسبب سهرهم المستمر ،

ومواصلتهم العمل ، وحينذاك بعث بوهيموند الى فيروز بواحد من أصدقائه من خاصة حاشيته وأخلص الناس اليه ، وعهد الى هذا المترجم أن يستوثق من فيروز تمام الاستيثاق عما اذا كان الوقت ملائما ليتقدم رفاق مولاه .

فلما وصل الرسول الى فيروز وجده يطل من كوة صغيرة في السور ، يرقب منها ما يجرى وراءه ، فأفضى اليه في صوت خافت برسالة سيده ، فقال له فيروز احلس مكانك ساكنا ، ولذ بالصمت حتى يمر من هنا كبير الحراس الذى هو فى جولاته المعتادة وفى صحبته طائفة كبيرة من أتباعه ، وفى أيديهم المشاعل المضيئة .

ذلك أن تقاليد المدينة حرت - بالاضافة الى الحرس الموجودين فى كل برج - أن يدور كبير الحراس كل ليلة ثلاث مرات أو أربعا بالسور ، ويدور معه فى كل دورة ثلة كبيرة من العسس يحملون المشاعل المضيئة ، فان صادف أحدا قد غلبه النوم ، أو متراخيا فى أداء واجبه ، أنزل به القصاص الجدير به .

وسرعان ما وصل الضابط المكلف بهذه المهمه . فألفى فيروز يراقب الأمور ويؤدى واجبه تمام الأداء ، فأثنى على نشاطه ، وانصرف مطمئن البال هادىء الخاطر .

حينذاك رأى فيروز أن قد حلت اللحظة الملائمة للعمل ، فجاء الى رسول بوهيموند الذى كان متواريا حتى الآن حتى لا يراه أحد وقال له : « هيا عجل بالذهاب الى مولاك واطلب اليه الحضور برجاله المختارين على جناح السرعة » ، فانكفأ الرسول عجلان الى سيده ، فوجده على أتم أهبة ، فاستدعى بوهيموند اليه القادة الآخرين سرا ، فاستجابوا له سراعا ، ثم انطلق كل واحد منهم بمن يتبعه من رجاله حسبما اتفقوا عليه ، وما انقضت لحظات قلائل حتى

كانوا جميعا واقفين اسفل البرج وقفة رجل واحد ، دون أن يسمع أحد لقدومهم صوتا ، أو يحدثوا جلبة .

★★★

في خلال تلك الفترة القصيرة كان فيروز قد دخل البرج ، فوجد أخاه يغط في نومه ، ولما كان قد تأكد لديه حقيقة مشاعره وانها ضد المشروع الذى دبره واستعد لتنفيذه ، فقد خشى أن يقوم شقيقه هـذا بما من شأنه عرقلة تحقيقه ، بعد أن أوشك على انجاحه . ومن ثم طعنه بسيفه طعنة نافذة ، فكانت ضربة طيبة ودنيئة في الوقت ذاته . ثم عاد فأطل من الكوة الموجودة بالأسوار ، فطالع تحتها حلفاءه . فحيا كل منهما الآخر تحية فيها الرجاء بسلامة كل جانب ، ثم دلى فيروز حبلا جذب به السلم من أسفل السور .

لكن على الرغم من رفع السلم وتثبيته تثبيتا محكما من ناحيتى القمة والقاع الا أن الجرأة لم تواتِ أحدا على تسلقه ، ولم يوجد من يخاطر بحياته فيتسلقه . نزولا على أمر رئيسه ، أو حتى انصياعا لأمر بوهيموند نفسه الذى لم يكد يتبين ذلك الاحجام منهم حتى بادر وأقدم هو ذاته على ارتقاء السلم غير هياب ولا وجل . فلما بلغ القمة وتعلق بجدار الشرفة امتدت يد فيروز من الداخل وأمسكت باليد المتعلقة بالسور ، فلما عرف فيروز فيها يد بوهيموند نفسه ، قيل انه هتف « عشتِ يدا ، وسلمت » .

وأراد فيروز أن يرفع قدره في نظر بوهيموند وفي عيون المسيحيين الآخرين حين يعلمون بما جرى من اغتياله شقيقه الذى لن يقبل مشاركته في عمل مقدس كهـذا العمل ، فأخـذ بيـد بوهيموند القائد ، وسار به داخل البرج ، وأراه جثة أخيه الهامدة غارقة في دمها ، فما كان من بوهيموند الا أن احتضن

هدا الرجل الصادق فى اخلاصه ، والثابت على عهده ، وقد فاض قلبه بالحب ، ثم عاد الى الشرفة مطلا برأسه قليلا من خلال احدى الفتحات ، ونادى برجاله فى صوت هامس آمرا اياهم بالصعود ، لكنهم كانوا مترددين اد لم يجرؤ أحدهم على تلبية أمره ، لأنهم كانوا لا يزالون فى شك فيما سمعوه من الشرفة ، فلما أدرك بوهيموند ذلك الأمر من أصحابه نزل اليهم عن طريق السلم ، فكان ذلك برهانا لا ريب فيه على سلامته ، وسرعان ما أخذ كل واحد منهم يزاحم رفيقه ويدافعه بغية الوصول الى السور ، حتى اذا تكامل جمعهم لم يستولوا على ذلك البرج وحده ، بل وقعت فى أيديهم أيضا أبراج كثيرة غيره على كلا جانبيه ، ولقد سمعنا أنه كان من بين الذين تسلقوا السور ، كونت فلاندرز ولورد تانكريد . اقتفى غيرهما أثرهما .

- ٢٢ -

لما رأى الزعماء الآخرون وصول الرجال الأشداء الى شرفات الأسوار فى أعداد كبيرة مما أدى الى فتح أكثر من بوابة لهم ، عادوا سراعا الى المعسكر ليستعد أتباعهم لتلبية الاشارة باقتحام المدينه حين يرسلها لهم رفاقهم الموجودون بها ، وأحس الذين تسلقوا الأسوار كأنما سرت فيهم حماسة علوية ، فقادهم فيروز بنفسه الى داخل المدينة ، فاستولوا على عشرة أبراج فى ضواحيها ، بعد أن فتكوا بحراسها ، وقد تم ذلك كله والمدينة يلفها السكون المطبق ، فلم يسمع أحد لهم صوتا .

كان فى ناحيه السور الذى صعد منه الصليبيون باب سرى فنزلوا اليه ، وحطموا قضبانه . وفصوا أقفاله ، وفتحوه وأدخلوا من خلاله العسكر المنتظر فى الخارج ، وازداد عدد المهاجمين خلف الأسوار زياده ضخمه ، واندفع هؤلاء وهؤلاء جميعا الى المكان المعروف بباب الجسر ، وأعملوا الذبح فى الحراس فى هجوم شرس عليهم . ففتحوا هذا المدخل أيضا .

فى هذه الأثنـاء حمل بعض أتبـاع بوهيموند رايته الى تل مشرف على المدينة ، وركزوها فى مكان بارز للعيان على مرتفع قرب القلعة العليا .

ثم تلألأت السماء مؤذنه بطلوع الشمس . فنفخ فى الأبواق لتكون اشاره لرجالنا الذين أحدثوا ضجة صاخبة عند مدخل المدينه وليحملوا الجند الذين لا زالوا فى المعسكر على التحرك . فلما فهم الزعماء معنى هذه الاشارة – التى كان متفقا عليها من قبل – هزوا الى سيوفهم وأسرعوا يأخذون فرقهم كلها ، وانطلقوا على عجل الى المدينة ، واستولوا على منافذها وأبوابها .

وحينذاك تحرك العامة [اللاتين] الذين ظلوا حتى هذه الساعه على جهل بما دبر من خطط فى الخفاء ، فلما أدركوا أن المعسكر شبه خال قد غادره جل من كانوا فيه انطلقوا هم أيضا فى أعقاب الآخرين وشقوا طريقهم – وقد تملكتهم الحماسة – الى داخل المدينه التى استيقظ أهلها على الضجة العالية ، ولم يستطيعوا أن يتبينوا بادىء ذى بدء حقيقة هذا الصياح العالى الذى لم يألفوه من قبل . لكنهم طالعوا منظر الفرسان العجيب وهم فى دروعهم وزردياتهم يندافعون خلال المدينة ، كما شاهدوا آثار الدمار فى كل ركن وناحيه فى الشوارع والميادين ، حينذاك أدركوا حقيقة الأمر ، ففروا من بيوتهم وهاموا على وجوههم ، محاولين الهرب بنسائهم وأبنائهم .

وانطلقوا على غير هدى قد ضل صـــوابهم ، فى محاولات مجنونه للتخلص من عصابات الجند المسلحين ، بحثا عن مكان آمن يلوذون به ، فاندفعوا وهم لا يدرون أين يمضون ووقعوا فى طريق المحاربين الآخرين ٠

أما من كان يسكن المدينه من المسيحيين والسريان والأرمن ومؤمنى الشعوب الأخرى فقد جاوزت فرحتهم كل فرحة لما جرى ، وبادروا الى امتشاق السلاح وانضموا الى الجيش ، واذ كانوا على دراية تامة بكل ركن فى المدينة فقد كانوا نعم المرشدين لغيرهم عبر مسالك البلد المتشابكة المعوجة ، وكانوا اذا وجدوا بوابة لازالت مغلقة وثبوا على حراسها وفتكوا بهم ، وشقوا الطريق بكسر الأقفال ، ثم أدخلوا رفاقهم ، وخيل اليهم أن هـذا التغير المدهش قـد جاء من الرب ٠

★★★

أما أولئك الذين كانوا يقاسون شدة نير الرق من تلك الكلاب النجسة ، والذين كابدوا وطأة ثقل الخدمات والتعذيب دون أن يرحمهم أحد فقد أصبحوا قادرين على أن يصبوا على أعدائهم مثل الذى صبوه عليهم من الأهوال ويعملوا على تدميرهم ٠

فى هذه الأثناء تمكن جيشنا كله من دخول المدينه بعد أن استولى على أبوابها وأبراجها وأسوارها من غير مشقة ولا كلفة ، وأخذت رايات الزعماء ورنوكهم المعروفة للجميع تخفق من أعلى الأماكن رمزا للنصر الذى أحرزوه ، فاينى ألتفت فثم مذبحة وآلام مبرحة وعويل نساء ، وأرباب بيوت يجرى عليهم القتل هم وأهلهم ، وراح الصليبيون يشقون طريقهم الى البيوت ، محطمين كل الأدوات المنزلية ، وصارت جميع حاجات العدو بها مستـباحا لأول من يسعفه حظه أن يصـــل اليها ، وجاس المنتصرون حيثما شاءوا ،

فاقتحموا الاماكن التى كان دخولهم اليها محرما عليهم . وطغى عليهم جنون القتل والنهب فلم يراعوا ذكرا ولا أنثى . ولم يوقروا كبيرا لسنه ثم راحوا يستفسرون من كل عابر لشوارع المدينة وميادينها أين تكون بيوت سراة الأهالى وأين يسكن أثرياهم . وكونوا من بيوتهم المخادع . وتعمل السيوف فى الأمهات وأطفال النبلاء . ثم راحوا يتقاسمون فيما بينهم ما بالبيوت من أثاث وذهب وفضة وثياب غالية .

ويقال انه قتل ذبحا فى هذا اليوم ما يربو على عشره آلاف من الأهالى . واكتظت الشوارع فى كل مكان بجثث القتلى التى لم تجد أحدا يواريها ، فبقيت حيث هى .

- ٢٣ -

حين رأى ناعى سنان أن المدينه قد استسلمت لخصمه الذى تملك جميع أبراجها وحصونها . وحين شاهد الناجين من الهلاك يرتدون الى القلعة على عجل . بدأ الخوف يتسرب الى نفسه من أن يتعقبه المسيحيون الى حيث هو واقف . ويحدقوا به هو أيضا . فاندفع — كأنما قد أصابه مس من الجنون — نحو بوابه حلقه . وهرب وحده من غير رفيق ، ولم يكن يعنيه سوى الابقاء على مهجته . وبينما كان يتخبط هنا وهناك فى حرج قاتل ويهيم على وجهه من غير هدف واضح اذا بطائفه من الأرمن يصادفونه فعرفوه فى لحظتهم ، فاقتربوا منه حتى لكأنهم يهمون بعظمه ، فأذن لهم بالدنو منه وهو جزع ، فلما تبينوه وحده عرفوا أنه هارب ، وأدركوا

فى ساعتهم أن المدينه قد سقطت فوثبوا عليه وطرحوه أرضا فى غلظة ، وأخذوا سيفه وقطعوا به رأسه وحملوها الى المدينة ، وقدموها هدية الى القادة وعلى مرأى من الناس جميعا ٠

ووجدوا أيضا بمدينه أنطاكية جماعه من الأشراف كانوا قد وفدوا اليها من أماكن قاصية لنجدتها ولاظهار جرأتهم ، فلما تبينوا سقوطها فى أيدى المسيحيين أجمعوا العزم على الارتداد الى القلعه العليا دون معرفتهم بالناحيه ، واستبد بهم الذعر والخوف على أنفسهم فانطلقوا هائمين على وجوههم ، لائذين بأذيال الفرار ، لكنهم وجدوا أنفسهم وقد أحدق بهم فى مكان شديد الضيق أعجزهم النزول فيه لشدة انحدار التل تحتهم ، و لايستطيعون الصعود الى أعلى لتكاثر رجالنا عليهم هناك ، وبينما هم يلتمسون فى يأس أى سبيل للنجاة اذا بثلاثمائة واحد منهم على جيادهم يسقطون من أعلى التل ومعهم رنوكهم التى تميز الواحد منهم عن الآخر ، فدقت أعناقهم ، وتهشمت عظامهم ، حتى لم يكد يبقى منهم شئ يدل عليهم ٠

أما الذين يسكنون المدينـة وما جاورهـا ويلمون بدروبها وشعابها فكانوا أسعد حظا من هؤلاء ، اذ ما كادوا يعلمون بخبر سقوط أنطاكية حتى تجمعوا وانطلقوا مع الفجر الوليد هاربين الى التلال من خلال أبواب أنطاكية التى بدأت تغلق من جديد ٠ لكن قواتنـا تعقبتهم ، فردت البعض منهم ، وأمسكت بهم وقيدتهم بالسلاسل ، أما من أسعفتهم جيادهم بالوصول الى التلال فقد اتخذوا من الاجراءات ما حفظ عليهم حياتهم ، وضمن لهم السلامة ٠

واذ بلغت الساعة الخامسة عادت قواتنا المطاردة ، فلما تجمع كل من كانوا قد انتشروا فى المدينه أجرى استقصاء دقيق دل على أنه لم يعد بها شئ من المئونة ، ولم يكن ذلك بالأمر المستغرب لأن الحصار ظل مستمرا بغير انقطاع ما يقرب من تسعة شهور متتالية ٠

علما أنه وجدت كميات ضخمة من الذهب والفضة والجواهر والأواني الثمينة والبسط والأقمشة الحريرية فاستولى عليها الناس ، وفاضت بها أيدي من كانوا حتى الآن جياعا معسولين فاثروا فجأة وصارت لديهم وفرة من كل شيء ·

على أنه لم يوجد في كافة ارجاء المدينة أكثر من خمسمائة حصان من جياد الحرب ، ولكنها كانت خيولا ضامرة هزيلة تكاد تموت جوعا ·

وكان الاستيلاء على مدينة أنطاكية في اليوم الثالث من شهر يونيو من سنة ١٠٩٨ من ميلاد المسيح ·

هنا ينتهي الكتاب الخامس

هنا يبدأ
الكتاب السادس

محاصرة الصليبيين : النصر المعجزة

فصول الكتاب السادس :

١ ـ وصف الجبل المشرف على المدينه والذى لا يزال بعضه فى يد العدو الذى أقام حراسا هنـاك ، وارسال رسل الى الساحل الشامى وتحصين المدينة تحصينا قويا ·

٢ ـ مقـدمة من حشن كربوغا قوامها ثلاثمائة رجـل تخطر أمام المدينة ويخرج لقتالها روجردى بـار نفيل غير أنه يلقى مصرعه مذبوحا ·

٣ ـ الأمير الكبير يتقدم الى الأمام ويضرب معسكره على

المرتفعات المشرفة على القلعة ، والتغلب على العدو عند الباب الشرقي وهلاك مائتين من رجالنا .

٤ ـ الصليبيون يحفرون خندقا داخل المدينة يمتد على طول سفح التل ، وهناك تنشب معركة تدور الدائرة فيها على العدو الذى ينزل قادما من الجبل ويحاصر القسم الأسفل من المدينة .

٥ ـ الصليبيون بأنطاكية يكابدون مرارة الجوع فيتسلل بعض النبلاء خلسة ، وتوضع القيادة العليا فى يد بوهيموند .

٦ ـ كونت فلاندرز يضرم النار من تلقاء ذاته فى الحصن المواجه لباب الجسر حين يجد نفسه عاجزا عن استخلاصه ثم يغادره ، كما أن القائد العام لقوات العدو يبعث الى فارس رهطا من أسراه الصليبيين .

٧ ـ اضطرار الشعب لأكل الطعام القذر ـ وان كان على مضض ـ أمام استفحال المجاعة .

٨ ـ العدو يكاد أن يستولى خلسة على أحد الأبراج ، لكن هنرى دش يقاومه مقاومة باسلة وينجح بعد قتله لكثير من الأتراك ـ فى الاستحواذ على البرج بقوة السلاح .

٩ ـ العدو ينزل الى الساحل ويحرق المراكب ويقتل الكثيرين من رجالنا على طول الطريق .

١٠ ـ سـنيفن كـوت سـارير يرور امبراطـور القسطنطينية ٠

١١ ـ حديث سيفن الكاذب الى الامبراطور مما يعـود بأوخم العواقب على الصليبيين ٠

١٢ ـ الامبراطور يعود الى بلاده ثقه منه فى كلام الكونت ثقة حملته على وقف الحملة التى كان قد أعدها لمساعدتنا ٠

١٣ ـ أنباء انسحاب الامبراطور تشجع العـدو على تكثيف ضغطه على الصليبيين الذين يحملهم اليأس على رفض القيام بواجبهم ، فيضرم بوهيموند النار فى المدينة ليحملهم على الخروج من مخائبهـم ويدبر الزعماء خطة للهرب ، ولكن الدوق يفسد عليهم خطتهم ٠

١٤ ـ الرؤيا التى رآها شخص اسمه بطرس [بارتلميو] والكشف عن حـربة المسيح وعـودة السكينة الى نفوس الناس من جديد ٠

١٥ ـ الزعماء يجمعون الرأى على بعث بطرس الناسك رسـولا من قبلهم الى العـدو فيمضى ويؤدى السفارة بشجاعة ٠

١٦ ـ بطـرس الناسك يعود الى الزعماء ويفصّل لهم الخبر عن وجهـة نظر العدو المتعجرفة ، فتعلن الحـرب ٠

١٧ ـ الصليبيون يغادرون أنطاكيه بعد اعداد صفوفهم للقتال ويتركون كونت تولوز لحراسة المدينة .

١٨ ـ كربوغا يسعد المسح الصليبيين من مغادرة المدينة ، ولكن رجالنا يشقون لهم طريقا بالقوة .

١٩ ـ بينما الصليبيون يتقدمون أخذت السماء تساقط عليهم الندى فنزلت السكينة عليهم جميعا .

٢٠ ـ كربوغا يرتب عسكره للحرب ويشعل القتال فى الأحياء المجاوره ، كما يرسل فلج أرسلان الهجوم على الصليبيين الموجودين فى المؤخرة ويكثف الضغط على صفوف بلدوين فيسرع الزعماء الآخرون لنجدته ويغلبون الترك الذين يضرمون النار لتكوين ستار دخانى .

٢١ ـ قائد قوات العدو يفر ويهلك عسكره ، أما الذين قدرت لهم النجاه فيلوذون بأذيال الفرار .

٢٢ ـ بعد أن يفرغ رجالنا من فتكهم فى العدو يعودون الى المعسكر محملين بكميات وفيرة من الأسلاب .

٢٣ ـ الهدوء والنظام يعودان الى أنطاكية ، ويأخذ الصليبيون فى تنظيف الكنائس وترميمها ، ويعود رجال الدين للاشراف عليها .

هنـــا يبـــدأ
الكتـــاب الســـادس
محاصرة الصليبيين : النصر المعجزه

- ١ -

هدأت الجلبه أخيرا . واستعادت المدينه هدوءها . وكلت سيوف الغالبين التى ارتوت بالدماء من المذابح التى لا نهايه لها . واذ ذاك التقى الزعماء للتشاور فيما بينهم . ادراكا منهم أنه لازال هناك عمل كبير أمامهم حتى يكمل الفتح . لذلك أقاموا حراسا على الابواب والأسوار وعزموا على ارتقاء الجبل ومهاجمه القلعة . وبعثوا المنادى يأمر جميع الفيالق العسكريه بصعود التل المسار اليه . فلما صاروا على المرتفعات اتضح لهم صعوبه اقتحام القلعه بسبب حصانتها ، وانه لا سبيل الى الاستيلاء عليها الا ان اجاعوها . واذ كان هـــذا الأمر يتطلب اياما طويلة فقد أدرك الزعماء ضياع كل ما يبذلونه من الجهود . وأنه لابد لهم من سلوك سبل أخرى غير هذه .

كان الجبل المشرف على المدينه يشقه من وسطه واد عميق . له جانبان شديدا الانحدار . وكان انحداره المواجه للشرق أعمـق المنحدرين ولكنه ينبسط من اعلاه لينتهى الى سهل فسيح زاخــر ببساتين العنب وبالمزارع . وكانت المسافه بين شقى هذا الوادى العميق شديدة الاتساع حتى ليخيل للناظر أن هناك جبلين وليس جبلا واحدا مشطورا الى شطرين .

أما المنحدر المواجه للغرب فكان أعلى من الآخر ، وهو يضرب بقمته فى العلاء حتى تكاد الجوزاء ، كما تقوم القلعة على أعلى نقطة فيه ، وهى محصنه بالأسوار القوية والأبراج الضخمة .

ويمتد من الشرق الى الغرب هوه سحيقه العمق مما يستحيل معها تصور مدى الخطر الذى يتعرض له من يحاول الوصـــول الى القلعة من أحد هذين الجانبين .

كما توجد الى الغرب تل أقل ارتفاعا ، ويفصـــل بينه وبين القلعة واد متوسط الاتساع ، وان كان أميل الى الضيق ، وتحفه منحدرات يسيره ، ويشقه طريق واحد يخرج من القلعة وينحدر الى المدينه ، وهو طريق يمثل فى ذاته خطوره حتى ولو لم يكن هناك من يهاجمها ، ورأى قوادنا أن الحكمة تقتضيهم الاستيلاء على هذا التل ، حتى لا تتاح للعدو فرصه الوصول الى المدينة ان خرج من باب القلعة لمهاجمه قواتنا ، ولذلك تم وضع طائفه من الرجال الشجعان فى ذلك المكان ، وزودوا بما يلزمهم من الطعام والسلاح ، كما تم بناء سور به متاريس حجريه ، ثم نصب فوق هذا كله الآلات وأعدت فى وضع استراتيجى لرد العدو على أعقابه .

ونزل الرؤساء مرة أخرى الى المدينة للتشاور فى أمور أهم مما سبق لهم التشاور فيها ، وعقدوا العزم على الرجوع حالما يفرغـون من بحثها ، وكانوا قد أزمعوا على البقاء جميعا ــ ما عدا الدوق ــ فى هذه الناحية حتى يتم الاستيلاء على القلعه .

كما اتفق اجماعهم على أن يقوم جودفروى بحراسة الباب الشرقى والطابية الواقعة خارج المدينة ، وذلك لما عهدوه فيه من علو الهمة ، وكانت هذه الطابية فى أول انشائها موكولة الى بوهيموند .

وجاءت الاخبــار الى القـاده ان كربوغا الزعيم الكبير المشار اليه سابقا سوف يصل قريبا جدا ، اذ أنه دخل أرض أنطاكيه وبعث بالألوف المؤلفه من عسكره فى البلاد . فكان خير ما يسعى عمله فى هذا الظرف هو ارسال أحد زعمائنا الى جهة الساحل ، لاستدعـاء الاخوه الذين ذهبوا الى هناك لجلب المئونه اللازمه التى يمكن العثور عليها هناك .

وفى خلال اليومين السابقين لوصول جيش كربوغا الكبير ، لم يترك الصليبيون شـبرا من الارض المحيطه بالبـلد الا ذرعوه وفتشوه تفتيشا دقيقا ، ثم عادوا بكل ما صادفهم من طعام وعلف أيا كان مصدره ، وبذلوا جهودا مضنية لتموين المدينه ، كما أن الأهالى والفلاحين الذين يعيشون في ريف البلاد جاءوا بكل ما استطاعوه من طعام حين أدركوا استسلام أنطاكية للصليبيين ، بيد أن كل ما جيء به من شتى النواحى لم يكن شيئا مذكورا ، ان لم يكن شيئا أبدا يكفى ما ترتب على الحصار الطـويل الذى استنزف فى مدى شهوره التسعة المتالية موارد الاقليم بأجمعها ، ولم يخلف شيئا يمكن الاعتداد به لمساعدة رجالنا حتى ولو بضعة أيام .

- ٢ -

فلما كان اليوم التـالى للاستيلاء على أنطاكية وبينمـا كان الصليبيون باذلين غاية الهمه فى حراسه المدينة وتزويدها بالمئونة ، اذا بثلاثمـائة من فارس جيش كربوغا مدججين بالسـلاح من قمه

رؤوسهم الى أخمص أقدامهم قد امتطوا الجياد الصافنات واختفوا فى كمين قريب من المدينه ، وكانوا قد جاءوا طليعة لأمر عاجل عن القبض على أى جماعه من رجالنا تكون قد غادرت موضع حراستها خارج الاسوار ثم بعد بها السير دون أن تتخذ الحيطه لحمايه نفسها . وكان ثلاثون من هؤلاء الثلاثمائة على خيول سريعه الركض قد أخذوا يروحون ويجيئون امام المدينه متظاهرين بعدم الاكتراث بأى خطر يداهمهم ، فلما رآهم المسيحيون الذين وراء الأسوار يجيئون بهذه الصورة تفجر مرجل غضبهم عليهم ، أو لعلهم أحسوا العار الشديد ان هم كفوا عن مهاجمتهم . واذ ذاك تحرك « روجر دى بارنفيل » وهو من أتباع روبرت كونت نورماندى ، وكان محاربا باسلا أنجز كثيرا من الأعمال الباهره فى هذه الحملة ، وأسرع بامتطاء فرسه وخرج من البوابه وانطلق يسعى مهاجمتهم ، واستصحب معه تلك قوامها خمسه عشر رجلا من أتباعه ، وعزم على أن يتخذ — كدابه — عملا من أعمال البطوله . وعدا عدوا سريعا مهاجما هؤلاء القوم بشجاعه عظيمه ، فتظاهروا بالفرار هربا منه ، وظلوا ممعنين فى التراجع حتى بلغوا الموضع الذى يختفى فيه رفاقهم الذين برزوا من مكمنهم . وتزايدت أعدادهم بكثرة ، وانضم بعضهم الى بعض فى مهاجمة « بارنفيل » ورهطه هجوما عنيفا لم يجدوا ازاءه بدا من الهرب . ولم يكن روجر ورجاله فى جمعهم يعادلون العدو فى جمعه وبأسه . لذلك حاولوا الرجوع الى المدينة ، غير أنه حال بينهم وبين ماينشدونه سرعه عدو جياد الخصم الذى رمى روجر بسهم قاتل أصاب قلبه ، وأوقعه من على ظهر جواده وأرداه قتيلا ، فحزن عليه رفاقه أشد الحزن ، لأنه كان قد أخلص النية ، فأنجز أهداف الحجاج الصليبيين .

ونجح رفاقه فى الوصول الى المدينة ، أما هو — وهو الرجل البارز — فقد حز الأعداء رأسه على مرآى جميع من على الأسوار

والأبراج العاجرين ــ واسفاه ــ عن اسعافه ، ورجع العدو لـــم يلحمه آدى ·

لم يكد [المهـاجمون] يعودون من حيث جـاءوا حتى حرج الصليبيون يدرفون الدمع السحين على روجر وبكونه ، وحملـــوا جسمانه الى المدينة فى احتفال يليق به ، ثم آقاموا المراسم الاخيره للميت الراحل فى حضرة القاده والناس أجمعين ، ووسدوه الثرى فى احتفـــال رائع أقيم فى ظلة كنيســـة أمـير الرســل [القديس بطــرس] ·

- ٣ -

ما كاد يطلع فجر اليوم التالى ، وهو الثالث بعد استخلاص المدينه ، ثم ما كادت الشمس تذر قرنهـــا حتى كان اقوى الامراء الذى أسرنا اليه مرارا قد احتل القطر بأجمعه الى آخر ما يمكن أن نراه عن المطل من القسم الأعلى بالمدينه ، واستطاع بجموعه الغفيره ــ التى تربد زيادة آكثر مما تذكره الأخبـــار ــ أن يعبر الجسر العلوى ، ويضرب خيمته فيما بين البحيره والنهر ، وكان كل منهما يبعد عن الآخر مسافة ميل واحد ، وكانت حملته تشغل مساحـه كبيرة وعسكره كبيرين جدا حتى ضاق بهم السهل الفسيح الذى يقع فيه أنطاكية ، فنصبت مخيمات أخرى غطت التلال المجاورة ·
٢١٩
ولمـا كان اليوم الثالث من نصبه معسكره أمام أنطاكية تبين له شدة بعده عن المدينة ، فبحث الأمر مع رجاله ، وبيَّن لهم أنه يريد أن يكون على مقربة ممن يحتلون القلعة ، ليستطيع نجدتهم ان

دعت الضروره الى النجده ، كما أنه أراد أن يدخل قواته الى انطاكيه عبر البوابه الموجوده أسفل القلعه ، ومن ثم فوض معسكره ، وارتقى المرتفعات ، وأحدق بكل الجانب الجنوبي الشرقي للمدينه ، محتـــلا المنطقه الواصلة بين البوابتين الشرقيه والغربيه ·

كانت هناك طابية أقيمت فى البداية لحمـــاية القاعة . وهى واقعه على تل مرتفع بعض الشيء قرب الباب الشرقى ، وقد عهـــد بهذا المكان أولا الى رعايه بوهيموند الذى شرع - بعد أن تم الاستيلاء على أنطاكيه - فى تصريف الاداره العامه للمدينه ، كما عهد بالطابيه المسار اليها والبوابه القريبة منها الى الدوق ليقوم بحراستهـــا . وكان الأعداء قد ضربوا أحد معسكراتهم حول هذه الطابيه ، ودأبوا من هنـــاك على شن هجمـــاتهم الموصـــوله على من بداخلها ، وسرعان ما ضاق الدوق ذرعا بعربدتهم التى استحال عليه تحملها أكثر من ذلك ، ومن ثم كر عليهم برجاله لاسعاف المدافعين عن الحصن ، الذين كانوا على وشك الاستسلام . كما راوده الأمل فى أن يتمكن من التغلب على المعسكر المضروب أمـــام البوابة ، لكنـــه بينمـــا كان ماضيا لنجدة رجاله ، اذا بعسكر من الاتراك يهاجمونه ، وكـــانوا أشد منه بأسا وأكثر عددا ، فأدرك عجزه التام عن الصمود أمامهم . ونجح بعد لأى فى النجاة من سيوفهم ، فانقلب على عقبيه مرتدا الى المدينة ، ومضى الترك فى اثره يطاردونه بعزم كبير ، غير أن الغوغاء من الحجاج الذين لا يعرفون النظام تكاثروا وراح بعضهم يزاحـــم بعضـــا فى هروبهم البائس ، فسُد المدخل وحال كل واحـــد منهم بين صاحبه وبين الدخول ، مما أدى الى سقوط الكثيرين ، فوطأتهم أقدام الآخرين ، وأثخنت بعضهم جراحهم ، وأسر ســـواهم ، وقد قدر عدد القتلى منهم بمائتى قتيل هلكوا عن بكرة أبيهم ·

- ٤ -

كان الأتراك يعدون الدوق الزعيم الأكبر للجيش الصليبي . وقد أدخلت هزيمته الفرحة في قلوبهم حتى انهم طمعوا في القيام بأعمال أكثر جرأة ، لذلك نزلوا الى المدينة عبر باب القلعة الأعلى ، سالكين طرقا خاصة معروفة لهم تمام المعرفة . وباغتوا رجالنا بالهجوم عليهم ، وأدركوهم وليس عندهم حراسة . ففتكوا بالكثيرين منهم ضربا بالسيوف ورميا بالسهام . ومع ذلك فانه لما حاول الصليبيون مطاردتهم ارتدوا سريعا الى النواحي المرتفعة ، واستولوا على القلعة هناك ، لأنه كانت لديهم طرق أكثر من تلك الطرق التي كانت بالتل ، والتي كان رجالنا قد استولوا عليها وأحسنوا تحصينها ٠

وتكرر حصول هذا الأمر ، وهلك الكثيرون من أهل المدينة من جراء هذه المناورات المحيرة ، حتى أدى بالزعماء الى اجماعهم الأمر على وجوب ايجاد علاج لهذا الشر المستطير . فاتفقوا برضاء تام على قيام بوهيموند وكونت تولوز بحفر خندق عميق عظيم الاتساع ، يكون عند سفح التل بأسفل المدينة . مما لابد أن يؤدي الى الحد من غارات الترك المتتالية في نزولهم من أعلى المدينة ، ولقد ترتب على حفر هذا الخندق أن نعم أهل البلد بفترة من الهدوء ٠

كذلك رأى الصليبيون أن يشيدوا هناك أيضا طابية لتزداد فعالية هذا العمل في حماية الأهالي ، وشارك في بناء هذه الطابية جميع القوات مشاركة صادقة مخلصة ، كأنما يقيمونها من أجل سلامتهم هم انفسهم ٠ أما الترك - سواء من كان منهم بالقلعة في تلك الناحية أو من كان منهم يحاصر المدينة من الخارج - فقد استمروا ينزلون من خلال البوابة العليا . عن طريق ممرات سرية ،

واكثروا من هجماتهم على هذا العمل الجديد بغية تدميره ، متخذين من أجل ذلك شتى الوسائل المتاحة لهم .

ثم جاء يوم من الأيام خرجت فيه طائفة من الترك أكبر ممـا جرت العـادة به كل مرة ، وكروا عبر المسالك المعروفة لهم ، ثم اندفعوا نحو هـذه القلعة الحديثـة البنـاء ، وشرعوا يهاجمون من بداخلها هجوما عنيفا ، مما كان لابد ان يؤدى الى وقوع من كانوا فى تلك الطائفة اسرى فى أيدى الترك ، لولا أن هب لنجدتهم القادة الذين كان قد وكل اليهم الدفاع عن نواح أخرى من المدينة الى جانب كل تحصينهم المبعثرين فى انطاكية ، وكان هؤلاء القادة هم . بوهيموند ، وانغرار دى بوتسيه ، ورالف دى فوسى ، ورينـالد كرينون ، وبطرس بن حسنلا ، والبريكوس ، وايفو .

ولقد كر الدوق وكونت فلاندرز وامير نورماندى كره صادقة على تلك الناحية مما أدى الى فشل محاولات العدو ، وهلاك الكثيرين من الاتراك ذبحا ، ووقوع بعضهم فى الاسر ، أما البقية فقد حملهـا فزعها على الهرب ، ليس من الطابية وحدها ، بل من المدينة كلها .

وانقلب هـؤلاء الفارون الى مولاهم وهم معجبـون بشدة بأس الصليبيين ، وألسنتهم تشيد بشجاعتهم العجيبة ، كأنما قد تمت فيهم النبوءة القائلة : « ارجع لكى تصبغ رجلك بالدم . ألسن كلابك من الأعداء تصيبهم » ، لأن الجميع – حتى من اضطهدوهم – كانوا لسان مدح وثناء على هذا الشعب المخلص .

أقام كربوغا أربعـة أيام فى الجبال كما قلنا ، حتى اذا فقد كل أمل له فى النجاح ، وأدرك أيضا أن علف خيوله قـد نفـد أو كاد قوض معسكره ، ونزل الى السهل مرة أخرى بكل جيشــه عابرا بهم النهر من مخاضة عند قناة موجودة هناك ، وعهد الى قواده بجنـده

الذين ربطهم على شكل دائرة وجعلهم على مسافات متساوية ، ثم راح يحاصر أنطاكية .

فلما كان اليوم التالي انفصل بعض الأتراك عن قمة الجبل ، وراحوا ينحدرون زحفاً للقتال ، ويرحلوا عن حيدهم . واستبد حرأيهم في الهجوم على المدافعين الموجودين على السور جراة افضت الى هلاك بعضهم ، ذلك لأن تانكريد قام بهجوم فجائي عند الباب الشرقي وباغت الترك وهم على هذا الوضع الذى لم يستطيعوا معه معاودة امتطاء جيادهم ، فقتل منهم ستة ولاذ الباقون بأذيال الفرار ثم أمر بقطع رءوس ضحاياه وحملها الى المدينة عزاء لأهلها وسلوى لهم ومسحاً للحزن الممض الذى كان يقطع نياط قلوب المؤمنين لمصرع « روجر دى بارنفيل » الذى قتل هناك .

- ✿ -

فى هذه الأثناء كان الشعب الصليبى الذى قام بحصار أنطاكية والاستيلاء عليها عنوة وبقوة السلاح قبل ذلك بوقت قصير ـ قد أصبح الآن يعانى شدة الحصار . وهو يعتبر أكبر الحدوث فى حياة الانسان ، وزيادة على ذلك فقد أنهكت الصعاب الصليبيين انهاكاً لم يعد معه فى مقدورهم احتماله ، كما كابدوا شظف العيش بسبب المجاعة التى جاوزت كل حد ، وهكذا وقعوا بين خطين السيف فى الخارج ، والفزع فى الداخل ، ثم انه كان من الطبيعى أن يستبد بهم الخوف من حشود العسكر الكبيرين المحاصرين للمدينة من الخارج هذا بالاضافة الى أن الأتراك كانوا لايزالون يحكمون قبضتهم على القلعة ، حتى راحوا يشنون منها ـ كما قلنا ـ هجماتهم الآخذ بعضها

بحجز البعض الآخر ، فلم يعد المؤمنون يعرفون معنى للراحه ، ونمالك الناس الكثيرين منهم عمد ما لهم على خطـــاياهم ، حتى أن معظمهم ناسوا مهمتهم والعهود الحمه التى قطعوها على أنفسهم فانفصلوا عن رفاقهم ، ونزلوا خلسه من الأسوار مستعينين بالسلاسل والحبال . منحمعين وحدهم هربا ناحية الساحل ، وسقط بعض هؤلاء فى أيدى العدو فضرب عليهم الرق الدائم ، أما الذين نجحوا فى الوصول الى البحر فقد أرعموا أهل السفن الراسية هناك على قطع حبالها والابحار فى لحظتهم هده ، وصاحوا فيهم « ان هدا الأمير الكبير [يعنى كربوغا] الدى جاء بعسكره الدين لا يحصيهم العد ، قد استولى بالقوه على المدينة التى كانت منذ قليل فى أيدينا ، ولم ينج من فتكه أحد من رجالنا ، وذبح قوادنا ، ولكن شاءت ارادة الرب أن ننجو وحدنـــا دونهم ... فهيا أسرعوا لفك الحبال والابحار قبل أن يبلغنا [كربوغا] ويلحق بنا عند الشاطئ ويصيبكم ما أصاب قومنا » .

ثم اعتلوا سطح السفن مع من كـانوا عليهـا ، ولاذوا بأذيال الفرار المشين ، الذى لم يقتصر على الغوغاء وحدهم ، ولا على طغـام الناس منهم فحسب ، بل كان بين الهاربين رجال بارزون ، من ذوى المراتب الساميه ، واظهرهم « ولـيم دى جراند مسنيل » وهو من وجوه أهل « أبوليا » المعروفين ، زوج أخت بوهيموند ، وأخوه « ألبريكرس » ووليم النجار ، وجى دى تروسيل ، ولا مبرت الفقير وغيرهم ممن لا نذكر اسماءهم التى لا ينبغى أن يتضمنها هذا الكتاب ، منـــذ أن محيت هذه الأسماء من كتاب الحياة .

وكان هناك غير هؤلاء وهؤلاء جماعات قد أزعجها التفكير فى الأخطار الجسيمة ، وعجزت عن تحمل المجاعة والمصائب . فلجـــأت الى العدو ، وكان ذلك من جانبهم أكبر ما ارتكبوه من الموبقات ، لأنهم بذلك أنكروا فى لؤم تعاليم المسيح وعقيدته ، فكان هؤلاء المرتدون

يتقلون الى الترك احوال الجيش الصليبى ، مما أدى الى وضع الصليبيين في أسد المآزق خطوره ، كما أن الكثيرين ممن ظلوا مقيمين بالمدينه كانت تراودهم سرا الآمال فى أن يفروا هم أيضا ، وتوقع أسقف بوى الموقر والقائد العظيم بوهيموند هذه المحاولات من جانب هؤلاء ، ومن ثم حاولوا الى رجال من أهل الثقه الذين دلت التجربة على اخلاصهم ، والموثوق بهم ، وعهد اليهم بحفظ الأبواب ، كما عهد بحراسه الابراج الى زعماء لم يقصروا فى رعايتها بلا كلل : ليلا أو نهارا ، ومن ثم لم يعد أحد ما — تارعا كان أم مراوعا — بقادر على الهرب ، وأراد القوم أن يكون لهؤلاء الحراس — صغيرهم وكبيرهم على السواء — حق ممارسة السلطة الكاملة فجعلوهم يقطعون اليمين على أن يطيعوا أوامر بوهيموند بكل الصدق والوفاء حتى ينتهى حصار أنطاكية ، وحتى تقع المعركه التى كانوا فى انتظارها ، ولما أصبح بوهيموند محاطا بأتباعه وحواسه وأصدقائه ، وكل من له ثقة تامة فيهم أحد غاية الحذر ، فلم يحظ قط — ليلا أو نهارا — بقسط من الراحة ، اذ كان يشغل وقته بالتجول فى الشوارع والميادين ، والتفتيش على الابراج والحصون ، لتطمئن نفسه ويهدأ باله من أنه ليس هناك من أحد متهاونا في مهمته ، وليتأكد من عدم وجود أى فرصة للعدو لدخول المدينه عن طريق الخيانة ·

وكانت هناك أربع قلاع تتطلب حراستها رعايه خاصة تلك هى الطابية العليا التى شيدت فى مواجهة القلعة العليا مباشره ثم تليها ثانية تقع دونها داخل المدينة ووراء الخندق الذى حفر لصد الهجمات التى تأتى من بوابة المعسكر العالى ·

وأما ثالثها فكانت خارج الباب الشرقى ، وكانت قد أقيمت لحماية المعسكر قبل احتلال المدينة ·

وأما رابع هـذه الطوابى فيقع عـلى رأس الجسر وهى التى تمكن الصليبيون بفضلها مند قريب من مهاجمه بوابه الجسر . وقد عهد فى بداية الأمر بحراسة هذا الحصن الأخير الى كونت تولوز . لكنه تخلى عن هذه الحراسة حين تم الاستيلاء على أنطاكيه ، ودخـل المدينة مع الآخرين .

وحدث بعد الاستيلاء على أنطاكية أن قام كونت فلاندرز مع خمسمائه من الأبطال الأشاوس بحراســـه هذه القلعة وكشف من استعداداتها الدفاعيه ، مخـافة الا يستطيع سعينا الرواح والمجىء عن طريق الجسر ان سقطت القلعه فى يد العدو . الأمر الذى لابد أن يؤدى الى وضع أسد سوءا .

- ٦ -

لاحظ كربوغا أن رجالنا أصبحوا الآن أكثر حريه فى القـدره على الخروج والرجوع دون عائق . كما رأى أن الحصـن القائم عنـد الجسر يمثل عقبه كأداء أمام خططه ، لذلك أصدر أمره - فى يـوم من الأيام - الى كتيبة مؤلفة من ألفين من الفرسان المدرعين أن تحمل السلاح وتشن هجوما عنيفا على ذلك الموضع ، فأطاعوه فى لحظتهم ، وتخيروا لأنفسهم مواقع حصينة حول حائط الطابية التى أسرنا اليها حالا ، وقسموا أنفسهم جماعات راحت تتناوب فيما بينها قذف الطابية بسيل لا ينقطع من السهام ، منذ الساعة الأولى من النهـار ، حتى الحاديه عشرة منه ، ولكن الكونت ورجاله استبسلوا فى صدهم ، ولم يدخروا وسعا فى الدفاع عن المكان الذى عهد الى الكونت بحمايته .

ولمـا فاربت الشمس الغروب ، وأخذ الليل يسر علائله على الكون ، تبين للمهاجمين أنهم لم يتقدموا الا قليلا ، فتحلوا عن هجومهم وعادوا الى معسكرهم ، غير أن الكونت حتى أن يعاود الاعداء الكره فى اليوم التالى بقوات أضخم من قواته التى تحت يده الآن ، فلا يعـــود فى استطاعته أبدا حمايه القلعه ضد حشود العـــدو الكثيفه . لذلك قام فى سكون الليل وأضرم النـــار فى هـذا الموضع وتركها ترعى كل ما به ، ثم انكفأ الى المدينة بمن خرجوا معه سعياً وراء هذا الامـــل الضـــائع .

ولمـا أشرق الصبـاح رجع عسـكر الأمس المهاجمون يعاودون هجومهم مرة أخرى ، وقد انضم اليهم ألفان ، فما بلغوا هذه الناحية حتى وجدوها خاوية على عروشها ، وقد تهدم أكثرها . فاضطـروا للعوده من حيث جاءوا دون أن ينجزوا مهمتهم .

وفى خلال هذه الأيام التى كانت قوات العدو فيها تهاجمـــا خلسة ، حدث أن صادفوا بعض الصليبيين من الفقراء المعدمين الذين خرجوا دون أن يأخذوا حذرهم . فأمسكوهم وساروا بهم الى اميرهم ، هدية منهم اليه كأول غنيمه أسفر عنها نجاحهم ، غير أن سلاح الأسرى الضعيف ، وما عليهم من رث الثياب أثار اشمئزاز الأمير ، اذ لـم يكن معهم سوى أقواس خشبية ، وسيوف باليه علاها الصدأ . كما ستر أجسامهم ملابس ممزقه من جراء عملهم الدائم وبسبب قدم هذه الثياب لأنه لم يكن لدى فقراء الحجـــاج ما يتدثرون به غير هذه الأسمال ، ويقـــال انه ما كاد هذا الأمير يتفرسهم حتى صاح قائلا : « أبمثل هؤلاء الناس يدب الذعر فى قلوب الأمم الأجنبيه ؟ وهل يحق لقوم كهؤلاء أن يعتبروا أنفسهم أبرياء وما هم الا كأفقر المرتزقة يجود الناس عليهم بلقمة الخبز ؟ .. ألا فانظروا الى ما ثمين أشراف أهل الشرق من سلاح ... أما هؤلاء فان الضربه من سلاحهم ظل أن

تؤدى عصفورا أو تسقطه على الأرض ، وعليكم أن توثقوا هؤلاء الرجال ، وتسوقوهم مكبلين بالأصفاد ومعهم أسلحتهم هذه ، وعليهم ثيابهم المهلهلة ، وتأخذوهم الى مولاى الذى أرسلنى فيعرف من مظهر هؤلاء الأشقياء أن الغلبة على رجال كهؤلاء الرجال لا تستغرق من الوقت الا قليلا ... ودعوه يفكر : أى صيت لمثل هذا الشعب التعس فى تفاخره بما يفتح !! واطلبوا اليه أن ينام قرير العين ويلقى بالتبعة علىّ أنا وحدى ، لأنه لن يمضى وقت قصير حتى لا يكون ثم وجود لهذه الكلاب القذرة ، ولن يحسب لهم حساب بعد ذلك بين الأمم » .

وأمرهم بهذه الكلمات أن يسلموهم الى رجال عيّنهم لهم ، كى يسوقوهم الى السلطان بفارس ، وأن يقصوا اليه بما قاله هو الآن ، ذلك لأنه كان على ثقة تامة من قدرته فى يسر على قهر رجال هؤلاء الرجال وان لم يجرب بأسهم بعد ، غير عالم بأن هذه الكلمات التى ظن أنه يحط بها من قدر هذا الشعب عند مولاه ، وأنها تجلب له المجد ، سوف تكون فى النهاية سببا لنكبته ، ولأنه حين تحيق به الهزيمة النكراء ، ويغوص فى حمأ الفوضى على يد هذا الشعب الحقير ، فان العار الذى يلحق به اذ ذاك سوف يكون أشنع عار ، ذلك لان القاعدة العامة هى ان الهزيمة تكون أيسر احتمالا ان لقيها المغلوب من رجال شجعان أقوياء ، أما اذا أحرز النصر عليه قوم لا اعتداد بهم ، ولا سطوة لهم فان شنار الهزيمة يكون أبلغ ، وعارها أفدح عليه .

أصبحت المدينة الآن محاصرة من كل جانب ، وقد تفاقم وضع الصليبيين سوءا لأنهم أصبحوا عاجزين عن مبارحتها لقضاء مالهم من أعمال خارجها ، كما سدت المسالك أمامهم في دخولها ، مما ترتب عليه عدم قدرتهم على جلب الطعام اليها ، فعض الجوع بنابه أكثرهم . واختفت المئونة في الساقص وانعدم توفر مطالب الحياة الضرورية مما حمل الجوعى على سلوك سبل محجلة لسد هذا النقص ، ولم يعد ثم مجال لاختيار نوع الطعام حتى عند أكثر القوم تأنقا في أمورهم ، ولم يعودوا يأبهون بنظافة اللحم الذى يجدونه أو قذارته ، ولا كيف جئ به ، سواء أكان مشترى أم مسروقا ، ذلك لأن المعدة الخاوية تصرخ عاليا في طلب أى نوع من الطعام يسد جوعها .

كذلك فارق النبلاء وقارهم ، ولم يتردد الأحرار في فرض أنفسهم على موائد من لا يعرفونهم ، من غير دعوة تكون قد وجهت اليهم ، وتهافتوا على الصدقة يجود غيرهم بها عليهم ، ولا يكفون عن الالحاح في استجدائها من ايدى غرباء لا يعرفونهم ، وكان هذا الفعل أمرا مرفوضا عندهم من قبل .

كما تخلت العقائل عما كن عليه من الحشمة التى كن قد طبعن عليها ، أما العذارى فلم تعدن يأبهن بالخجل الذى كان سمة لهن ، ونسين أنوثتهن ، وطلعن بوجوه عليها غبرة ، وأصوات حزينة تحرك أقسى القلوب ، ورحن يلتمسن الطعام أنى وجدنه لا يمنعهن خوف من أن يراهن أحد .

لكن كان هناك آخرون لم تستطع المجاعة حملهم على التخلى عن وقارهم ، فانكفؤوا بوجوه خامدة الى جهات قاصية ، يمضهم الأسى ،

لأنهم كانوا يؤثرون الموت على المشي بين الناس يسألونهم لقمة تقيم أودهم ٠

أما الرجال الذين كانوا من قبل أشداء العزم ، أصحاء البنية ، ذوي بأس شديد ، والذين لم يكن أحد يجهل قدرهم فقد بدوا وكأنهم أنصاف موتى ، يتوكأون في ضعف على عصيهم ، ويجرون أنفسهم في الشوارع والميادين جرا ، وعلى الرغم من أنهم لم يصرحوا بكلمة الا ان وجوههم المكتئبة كانت تفصح عن أنهم يلتمسون احسانا يجود به عليهم العابرون ٠

كما أن الأطفال الباكين ، والرضع على أثداء أمهاتهم كنت تراهم في كل مكان وفي مفترق الطرق ، يلتمسون اللقمة تسد رمقهم ورمق من جاءوا بهم الى هذه الدنيا ، لكن يعجزهم الحصول على القدر اليسير من الطعام لأنفسهم ولا تقول لأمهاتهم ٠

وفي خضم هذا الزحام الكبير قل أن وُجد أحد عنده من الطعام ما يمكن أن يكفيه هو وحده ، اذ نضبت في الواقع جميع الموارد ، فلم يعد أحد الا وهو يستجدي الآخرين ، واذا شاءت الصدفة أن يكون هناك فرد كان قد بلغ من الثراء مبلغا كبيرا وبقي عنده من هذا المال الخاص شيء ، فما كان لهذا المال أن ينفعه فتيلا ، اذ لم يعد يكفيه لشراء ضرورات الحياة التي لم تعد متوفرة ٠

كما أن الأشخاص الذين كانوا معدودين أسخى الناس يدا وأكرمهم ضيافة ، أصبحوا الآن يلتمسون الأماكن النائية التي قل أن يغشاها أحد فيلتقطون منها ما يقيمون به أودهم ، ويتكالبون في نهم على الطعام ـ أيا كان هذا الطعام ـ الذي استطاعوا الحصول عليه من مصادر مختلفة ، ثم يأبون أن يكون لهم فيه شريك ٠

أترى من الضروري أن أقول أكثر من هذا ؟

لقد أصبح لحم الجمال والحمير والخيل والبغال وغيرها من الحيوانات الدنيا وكأنها أشهى ما تكون ان وجدوها ، وانه لمن المؤسي ان نقول انهم كانوا ينبشون الأرض ويخرجون منها جثث الحيوانات المحروقة أو التي ماتت بالطاعون ويقبلون على التهامها ٠

هكذا كانت أنواع الاطعمة التي راحوا يدرءون بها عن أنفسهم غائلة الجوع الممض ويطيلون حياتهم التعسة قدر طاقتهم ٠

لم تصب هذه الكربة الرهيبة ـ واعني بها المجاعة ـ العامة وصغار الناس وحدهم فحسب ، بل جاوزتهم أهوالها فمست كبار الزعماء الذين عدوها خَطبا لا يُمكنهم احتماله ، اذ كانوا أكثر من سواهم اعالة للكثيرين من الناس ، ولا يستطيعون أن يكفوا رفدهم عمن جاءهم يلتمسه منهم ٠

وان انباء هذه الحقبة من الزمن لا تزال محفورة في اذهان الشيوخ والكهول ونحتاج الى مؤلف خاص يروي ما جرى لكل واحد من هؤلاء الزعماء ، ويضمن أخبار الغمة والصعاب التي عمل فيها هؤلاء القادة الانقياء من أجل خاطر المسيح ، على أنه يمكن القول ان رجالا كهؤلاء الرجال العظام وجيشا كبيرا كهذا الجيش ، انما تحملو ذلك كله صابرين غير متذمرين ٠

ـ ٨ ـ

كان من جـراء ما أبداه كربوغا وتبعيه من حماسة قوية أن أصبحت أنطاكية محاطة من كل نواحيها بصورة لم يستطع الصليبيون المحصورون داخل أسوارها مغادرتها ، كما أعجزت من كان خارجها

عن دخولهـــا والوصول اليهم ، أضـــف الى ذلك ان الاشتباكات الموصوله ـ داخلها وخارجها ـ قد أنهكت قوى الصليبيين انهاكا فاق كل احتمال ، هذا الى جانب أن المصائب الجمة التى نزلت بشعبنا ، وما ابتلى به من شدة المجاعة قد عملت كلها على فل عزيمته ، وأظهر التراخى فى حراسته ٠

أما الذين لم يعد يشغل بالهم سوى البحث عن كسره الخبـر يمسكون بها رمقهم فقد كانوا أكثر تهاونا بالنسبة للأمور الأخرى ، مما نتج عنه نجاح العدو فى دخول المدينة فى أحد الأيام ، وذلـك بسبب عـدم توفر الحراسة لبرج كان مجاورا للبرج الذى اقتحم منه الصليبيون المدينة ٠

وكان بعض الأتراك قد طمعوا فى امتلاك هذا البرج ، معتمين سكون الليل ، فعلقوا السلالم الى الأسوار ، وفكروا فى النزول بعدئذ الى المدينة كما فعلنا من قبل ، فلما بسط الليل طنبه ، وسكنت كل نأمة فى الكون ، أقدم ما يقرب من ثلاثين رجلا وتسلقوا السلم واعتلوا السور ، مستهدفين الاستيلاء على البرج الذى وجدوه خاليا من كل مدافع عنه ، وبينما كانوا منهمكين فى عملهم هذا اذا برئيس العسس يصل الى المكان الذى كانوا يعملون به ، وكان هذا الرجل يقوم اذ ذاك بما اعتاده من المرور حول السور ، فاكتشف المؤامرة ، فأخـذ يصيح محذرا من بالأبراج المجاورة ويعلن اليهم أن العدو قد استولى بالخديعة على البرج ، فأيقظ صياحه جميع الحراس فى تلك الناحية من المدينة ، وكان بينهم الشجاع المرموق « هنرى ديش » فاسرع لتوه الى تلك الجهة مع فارسين آخرين ، همـا « فرانكو ، وزيجمار » ، وكانا من ذوى قرباه ومن أهل البلده المسماة « مالين » الواقعة على نهر « الموز » ، وخاف ثلاثتهم أن تكون الرشـــوة قـد استغوت البعض فاستسلموا للخيانة وغدروا بالمدينة ٠

كذلك هب لمساعدته جماعات من الابراج المجاورة . فهاجم بهم العدو في عنف كدأبه النسط . فأبدى الترك مقاومة شديدة . لكن هنرى دس ما لبث الا قليلا حتى نجح في طردهم من البرج . وقتل منهم أربعة أنفس . أما البقية ــ وكانوا سته وعشرين رجلا ــ فقد ألقى بهم من الاسوار . فسقطوا على أم رءوسهم . فدقت عظامهم وصاروا أشلاء ممزقة .

وكان هؤلاء الرجال الثلاثون الذين صعدوا البرج قد عزموا على ادخال بقية رفاقهم .

ولقد نكب الزعيم البطل [هنرى ديس] في هذا الصدام بفقد صديقه « ريجمار » الذى اخترطته السيوف فهلك . كما اصيب « فرانكو » بجرح قاتل حملوه معه الى داره وهو يكاد يلفظ أنفاسه .

\- ٩ -

تزايدت الحاجة للطعام يوما بعد يوم . وتزايدت معها مصائب المحصورين . كما ضاعفت المجاعة آلام الصليبيين . فضجروا من هذه الامور العسيرة والاهوال التي تنزل بهم كل يوم . فداخلهم اليأس حتى لم يعودوا حريصين على حياتهم وسلامتهم . فانسلوا من المدينة لا يعلم بهم أحد . ولم يكترثوا بما كان يكتنفهم من آلاف الاخطار . فراحوا يشقون طريقهم وسط صفوف العدو كي يتيسر لهم الوصول الى الشاطئ حيث كانت ترسو هناك بعض السفن البونانية واللاتينية . وكانوا يبغون من وراء ذلك شراء الطعام وجلبه الى المدينة غير أن الطمع في النجاة من هذه الاخطار الجسيمة حمل بعضهم على

الرحيل ، عاقدين العزم على الا يرجعوا أبدا ، ولم يتوقعوا أن تسد ربما يحسن موقف من خلفوهم وراءهم ، أو أن تتاح لهم فرصة النجاة من سيوف العدو ·

في هذه الاثناء تكشف للترك أن بعضـــا من رجالنا يخرجون خلسة تحت جنح الظلام الى البحر ، ويتجولون هنا وهناك قــرب المدينة سعيا وراء الطعام ، فبعثوا في الحال بعضا من رجالهم العارفين بدروب تلك النواحي وشعابها لينصبوا الكمـائن لهـؤلاء النـــاس ويقتلوهم كما قتلوا اخوة لهم من قبل ، فحالف النجاح الترك في كثير من هذه المحـــاولات محالفة جرأتهم أخيرا على ارسال ألفين من فرسانهم المختارين ، وكلفوهم بامســاك البحارة والتجـار وحرق السفن ، مؤملين من وراء ذلك استئصال هذا النوع من التجـارة واذ ذاك يحال بين الصليبيين وبين كل أنواع المئونة ويفقدون كل امل في السلامة ·

وصح ما توقعه الترك ، اذ نفذ فرسانهم الأوامر الصادرة اليهم تنفيذا دقيقا ، فأضرموا النار في بعض السفن ، وأمسكوا طائفة من ملاحيها الذين خرجوا من غير حراسة ، ففتكوا بالجانب الأكبر منهم ، مما حمل الباقين على الهروب ·

ولما ذاع خبر النكبة وساء نبؤها وتجاوز هـــذه الناحية الى ما وراءها تبلبلت خواطر التجار الذين كانوا يحضرون الى هنا في رحلات تجارية من قبرص ورودس وغيرهما من الجزر ، كذلك من سلوقية وايسوريا وبامفيلية ، وسواها من الأقطار البحرية ، وتملكهم الفزع من هذه الأحوال السائدة حتى انهم خافوا أن يعودوا الى هنا أو يجلبوا سلعهم ، ولم يجرءوا على الاقتراب من تلك الناحـــة ، وترتب على ذلك أن الم الشلل الكامل بالمتاجرة وتوقف الاستبضاع ، وتدهور موقف الصليبيين تدهورا أخطر مما كان عليه من ذى قبل ·

وعلى الرغم من ضآلة كمية السلع التي أحضرها التجار ضآلة لا تكفي ابدا لسد احتياجات الناس العديدين ، الا أن بقاء الاتصال البحرى موصولا أعطى بصيصا من الانقاذ للصليبيين ·

★★★

ولقد صادف العدو في طريق عودته من ناحية البحر طائفة من المؤمنين عرضهم جميعا على السيف الا شرذمة قليلين غاية القلة تمكنوا من التسلل عبر الغابات ، والأدغال ولجأوا الى الكهوف فاستخفوا بها ·

ولقد ادى خبر هذه الطامة الكبرى والمصيبة الفادحة الى حزن قومنا حزنا لا يقل عما أنزلته بهم المجاعة القاسية ، وبخاصة عندما طرق سمعهم خبر النكبة التي حلت برفاقهم وما يتعرض له أصحابهم كل يوم من هلاك · فتسرب لنفوسهم الناس حتى من الحياة ذاتها ولم يعودوا يتسمون بالحرص عليها ، وقل احتياطهم على أنفسهم ، وتضاءلت طاعتهم لزعمائهم ·

- ١٠ -

في هذه الأثناء وصل الى الاسكندرونة « ولیم دى جراند ميريل » ومن فروا معه ، ووجدوا بها ستيفن كونت شارترز وبلوا الذى كان القادة وكل الناس يرجون عودته بين يوم وآخر ، لكنه كان مقيما هناك متذرعا بالمرض ، فأخبره ذلك الرهط بكل ما جرى بأنطاكية · وحملتهم الرغبة في الا يظهروا أنهم فارقوا رفاقهم جبنا بسبب تافه عن ذى موضوع ، فانهم راحوا يبالغون في وصف الأهوال والشقاء

مسسرين هناك ، والحق أن الموقف كان قد بلغ من السوء حدا يفوق الوصف ، عير أنهم بالغوا أشد المبالغه فأظهروه بصورة أشد اسودادا وقتامه وزادوا فى ذكر الظروف السيئه السائده . ولم يكن «سسفن» فى حاجه الى سماع مزيد من مثل هذا الكلام حتى يضاعف جبنه ، لانه لم يهجر صحابه ولم يفر عنهم الا لنفس هذه الأسباب ، وان ادعى المرض .

وبعد ان قلبوا الأمر فيما بينهم على شتى وجوهه ركبوا السفن التى كانت فى الميناء معده لهم ، وظلوا مبحرين حتى أرسوا اخيرا بعد رحله استغرقت بضعة أيام عند احدى المدن الساحليه ، حيث راحوا يتقصون أين يكون الامبراطور وما ينوى أن يفعله ، وتلقوا عددا من الاخبار عن ذلك الأمر — يختلف بعضها عن بعض فى المضمون والصدق مفادها أنه شد الرحال الى أنطاكيه على رأس طائفه كبيرة من العسكر اللاتين والاغريق لمد يد المعونه الى الصليبيين وفاء منه بانفاقه معهم ، وأنه الآن معسكر بمن معه فى « فيلو مبليوم » .

وكان قد انضم الى الامبراطور ما يقرب من أربعين ألف من اللاتين ، زياده عن الجيوش التى جمعها من شتى الشعوب وكان رأيه أن يخلفهم وراءه فى بلاده مع الكتائب التى عنده ، وما كان تركه اياهم الا لفقرهم المدقع أو لنفسى المرض فيهم ، أو لغير هذا أو ذاك من الأسباب القوية ، اما الآن فقد زال عنهم ما يشكونه من وصب ، واشتدت عزائمهم بحضور الامبراطور وحشوده الكثيفه ، واستردوا ثقتهم فى الزحف ، وأصبحوا يتلهفون قلبا وروحا على الانضمام الى رفاقهم الحجاج .

حين علم كونت ستيفن والذين فى صحبته بأن الامبراطور مرابط فى تلك الناحية فى انتظار امدادات أخرى كثيرة ، وأنه يقوم

بعمل اسعدادات اصافيه للزحف ، أقول انه حين علم بدلك بادر فسلك أقصر الطرق المؤدية الى الجيش الامبراطورى ، فلما وصـــل الى هناك قوبل بأعظم آيات الرحيب المروجه بالدهسة البالعــه . وكان الامبراطور قد عقد اواصر الصداقه مد بداية الحملة مع استيفن حين جاء مع بقيه الزعماء الآخرين ، ولما راح الامبراطور يســتفسر منه استفسارا دقيقا عن احوال القادة الآخرين وسلامتهم وأوضاعهم ، وعما دعاه لتركهم وراءه ، أجابه ستيفن بقوله :

- ١١ -

« أيها الامبراطور الذى يسير الظفر فى ركابه أنى ســار . ان رعاياك المخلصين الدين أذنت لهم بالمرور عبر امبراطوريتك منـد أمد قصير ، وشملتهم بفيض جودك ، قد استولوا ـ أول ما استولوا ـ على نيقيه ، ثم وصلوا بعد مسيرة ناجحة الى مدينة أنطاكيه فحاصروها تسعة أسهر سويا ، حصارا لم يرفعوه عنها حتى أخذوها عنوة بتوفيق من الرب ، ولم يعزّ عليهم سوى قلعتها التى كان اقتحامها ضربا من المحال ، فاستعصت عليهم بسبب وقوعها على جبل شاهق ، وبفضل أبراجها المشرفه على المدينة التى تبدو وكأنها وكر العقاب ، وكان الظن عند شعبنا أن قد انتهى الحصار ، وانهم تخلصوا من كل خطر بعـد استسلام المدينة ، بيد أنه ظهر أنهم قد ترددوا الآن فى خطر أبلـغ هولا من سابقه ، وأنهم وقعوا فى صعوبة تفوق كل صعوبة واجهوها من قبل » .

« ذلك انه لم تكد تنقضى غير ثلاثة أيام بعد احتلال المدينة حتى جاء قائد فارسى شديد المراس اسمه « كربوغا » على رأس جحافل من

السرف يجاوز عدها كل تعدير ، فاحدق بالمديه من كل جانب ، ولم يدع مدحلا من مداخلها أو محرجا من مخارجها الا سده . وحاف المحن بالقادة والعامة على السواء بصورة أيأسهم من كل شيء حتى من حمانهم •

« وقل أن يمكن العقل من تصور ما عليه هذا الجيس المحاصر من كثره هائلة في العدد ، وموجز القول ان عامه عسكرهم غطوا كل ما حول المدينة ، وانتشروا كأسراب الجراد ، حتى ضاقت الأرض بما رحبت فلم تسع كل خيامهم •

« أما رجالنا فكان أمرهم على النقيض من ذلك ، اذ أخـــذوا يتناقصون تناقصا مفزعا بسبب الجـوع الذي نزل بهم ، ومن جراء البرد والحر اللذين قاسوهما ، وبسبب ما ابتلوا به من قتل وموت ، حتى أن كل ما تبقى بعد ذلك من الجيش في أنطاكية لم يعد كافيـا للدفاع عنها •

« أضف الى هذا أن المعونة التي كانت تجلبها لهم السفن من مملكتكم والمراكب القادمه من الجزر والمدن الساحليه قد انقطع ورودها نهائيا ــ كما تعلمون ــ بسبب العسكر الذين أرسلهم العدو ، فلـم يدعوا شبرا من الأرض بين أنطاكيه والبحر الا احتلوه ، كما دمروا الاسطول تدميرا يكاد أن يكون تاما ، وحكموا السيف في البحاره والتجار مما حال بالفعل بين شعبنا وبين كل أمل في شراء الطعام •

« ولقد جاء الخبر بأن الطعام الموجود الآن في أنطاكية لا يكفي الناس الا يوما واحدا فقط ، ومما يضاعف متاعبهم خلو المدينه من مكان أمين يلجأون اليه لكثرة تسلل الترك الى المدينة عبر القلعه التي تشرف عليها ، فيشنون هجماتهم على قلب البلد ، ويهاجمون المسيحيين في الشوارع والميادين ، وهكذا فان ما يقاسيه رجالنا خلف الأسوار لا يقل هولا عما يكابدونه من غارات يواليهم بها العدو من الخارج •

« لدلك فانى ومن معى الآن من القـاده وسراه القوم ـ قد أيقنـا تمام اليقين أن ما يقوم باخواننا انما هو جهد صائع ، وطالما نصدنا اليهم بشأن الامر وسدينا النصح الاخوى للعمل على ما فيه سلامتهم ، وأن لايستبدوا بأمر يستحيل تحقيقه ، لاسيما وقد تخلت عنهم العناية الربانيه ، فلما وجدنا أننا عاجزون عن زحزحتهم عن هدفهم رحنا نلتمس الوسيلة لما فيه نجاتنا حتى لا يؤدى بنا الطيش الى القاء أنفسنا بأيدينا الى التهلكه ، فنفعل مثلما فعلوا .

« والآن فلعل جلالتكم ترون ـ انتم ومن حولكم من النـبلاء المبجلين ـ أن الخير كل الخير فى الرجوع عما كنتم قد اعتزمتموه من الزحف الى أنطاكيه ، حتى لا تحيق نفس الاخطار بمن تقودونهم من عسكركم المظفر ... وان العقل ليناشدكم ان تعودوا من حيث جئتم دون أن تلتحم قواتكم بالقوات الكثيفة التى بعث بها الشرق . وذلك أمر أجدى عليكم من الاندفاع من غير رويه لتجريب قوتكم مع هذه الاعداد الضخمة من العسكر الأشداء مادامت النتيجة غير مؤكـــدة تمـــاما .

« وان هؤلاء الرجال البارزين الموجودين الآن بحضرتكم قد نالهم نفس هذا النصيب ، ويستطيعون أن يؤكدوا لكم صدق ما أقول . كما يعرف ذلك أيضا « تاتيكيوس » الألمعى الحصيف الذى أرسله جلالتكم معنا ، لأنه رأى بعينى رأســـه مدى ضعف رجالنا . فسار على هدى العقل فانسحب من العمل معهم ، وانه لقادر أن يجلى الموقف أمام جلالتكم » .

★★★

وكان فى حشد الامبراطور أخ للورد بوهيمـــوند من أبيه ـ اسمه «جيدو » ، فلما سمع ما قاله « ستيفن كونت شارترز » حزن حزنه ، واستغرق فى البكاء حزنا على مصير أخيه ورفاقه ، ورغب

فى بادىء الامر أن يعارض روايه الكونت ، ورماه بالجبن لتهوره فى الانسحاب من صفوف هؤلاء الزعماء الأجلاء ، ولكن أحدهم واسمه ولتر دى جراند ميرل - وكان شريف المولد لا الخلق - وهو صهر بوهيموند تمكن من اسكات « جيدو » ٠

- ١٢ -

بعد أن سمع الامبراطور هذه الكلمات . استدعى اليه جميع نبلائه للتشاور فيما اذا كان يجب عليه الزحف الى أنطاكية ، أو التوقف والرجوع الى مملكته ، وبعد أن قلبوا الأمر على شتى وجوهه انتهوا الى أن الحكمة تقتضي العوده بالجيش سـالما ، بدلا من اثارة ممالك الشرق كله والتعرض لتقلبات الحرب ٠

★★★

لقد وثق الامبراطور كل الثقه بكلمات سيفهن ، فاعتقد أن كل شيء سيجرى كما قال اعتقادا جعل الخوف يتملك قلبه من كربوغا الذى زعموا أنه دمر قواتنا ، فخشى الكسـوس من قيام كربوغا بمهاجمة الامبراطورية بما تحت يده من الجيوش الكثيفة التى أكدت الأخبار أنه يقودها فى زحفه ، واذ ذاك تصبح من يد الامبراطور مره ثانيه نيقية وجميع سيسيا التى استردتها جهود القادة الصليبيين البسطه ، ورأى - نجتنا منه لهذا الخطر - أن يأمر بحرق ونهب جميع الأراضى الواقعـه على طول خط ارتداده ، سـواء ما كان منها على يمينه أو على يساره ، بدءا من قونيه وانتهاء بنيقية ، وكان يطمع أن تقف هذه الأراضى بعد تخريبها - وقد هجرها أهلها

يتضيب موارد العيش فيها ـ عائقا فى طريق الأعداء ان حملتهم الظروف على التفكير فى توجيه قواتهم ضد مملكته ٠

★★★

ولقد أدى مسلك سيمن هذا الى حرمان الصليبيين من المساعدة التى كانوا فى مسيس الحاجة اليها والتى كان الامبراطور يتأهب لامدادهم بها وفاء بعهده معهم ٠

واذا تمعن المرء تمعنا دقيقا فى كلمه الكونت هذه وفى حقائقها الجوهرية ، تبين له أنها عمل لا يمكن غفرانه أبدا ، وأنه صادر عن نزعة شريرة يأباها الشرف ٠

غير أن رعاية الله القادر ـ ولا قادر سواه ـ والحكيم ولا حكيم غيره ـ قضت الا أن تجنى أحسن الثمار من أكثر الأمور شرا ٠ وأفضت الى ما فيه مجد شعب الله وقادته ، ووفاء نحو أولئك الذين تحملوا حرارة القيظ ، وتركوا نساءهم وأطفالهم ، كى يحاربوا كحجاج للسيد ، رجاء أن تكلل جهودهم بالمجد الدائم مما كان لابد أن يحرموا منه حرمانا تاما لو كان الامبراطور حاضرا ، اذ أن وجوده هو وحده حينذاك فى هذا الموقع كان لابد أن يؤدى ـ بلا مساحة ـ الى أن يصدر أمره برفع الحصار بناء على سلطانه الأعلى وقوانه الضخمة ، ويكون له الشرف كل الشرف له وحده دون غيره ٠

على أنه يجب على المرء أن يؤمن أن السيد نفسه هو الذى جاء بهذا الشرف ، وجاد به على من أخلصوا النية فى العمل وأدوه بأمانة وصمدوا تحت الظروف القاسية التى لا يحصيها العد ، حتى يجنوا ثمار تعبهم ، وتنعقد لهم راية النصر ٠

انطلقت الألسن في هذه الأثناء بشائعة عمت أرجاء المدينة ، تقول برجوع الامبراطور الى بلاده . فضاعف هذا النبأ من فظاعة الأهوال التي يعانيها الصليبيون ، وملأ قلوبهم بأسا وتقززت نفوسهم اشمئزازا من مجرد ذكرهم كونت ستيفن ، ووصموه بالعجز الأبدي . كما راحوا يلعنون ولم ذي جراند منزل وكانا من شاركوا في هذه الخيانة الملعونة ، وراحوا يبتهلون الى الرب أن يزج في النار الأبدية مع يهوذا الخائن كل من انسحبوا من هذه الأهوال الطامة ، والذين خدعوا شعب الرب فحرموه من المساعدة الكبرى التي كان الله قد أعدها لهم .

★★★

ولما علم كربوغا وكبار قواده — عن طريق جواسيسهم — أن الامبراطور زاحف عليهم اشتد اضطرابهم ، وعظم كربهم ، وحق لهم أن يفزعوا من قواته المؤلفة من زهرة المحاربين في امبراطوريته . فلما جاءهم هؤلاء الجواسيس أنفسهم مرة ثانية بخبر تراجع الاغريق عن زحفهم ، أخذت كربوغا العزة بالاثم فازداد عتوا وتعسفا وخيل اليه أنه قد ضمن النصر وجاره ، فبالغ في التضييق على رجالنا مبالغة شرسة ، واشتد في الاحداق بهم مما ترتب عليه أن اكتنفت التعاسة كل المؤمنين الموجودين داخل المدينة ، وخاب كل أمل لهم في النجاة . كما فقدوا الرجاء في أن تصلهم أي نجدة من أي جهة كانت ، ولف اليأس المطلق الناس أجمعين ، وراح الشعور به يزداد يوما بعد يوم .

وألقيت المسئولية العامة لكل الجيش على عاتق بوهيموند . الذي بان له — وهو يدور حول المدينة — أنه يستحيل عليه باللين

او السده ـ ان يحمل ولو فردا واحدا من النـــاس على الخروج من حيث يختبئ ، ولم يعد يوجد ثم رجل واحد يقوم بالحراسه أو بقتال العدو داخل البلد أو خارجه ، على الرغم من أن الجميع كانوا يضجون من الأهوال التى أنزلها بهم الأعداء ٠

ثم جاء يوم عاد فيه المنادون والعمال منهوكى القوى من محاولاتهم هذه الفاشلة فى استدعاء الناس ، فلما شاهد بوهمـــوند ذلك المنظر أيقن الا جدوى من بذل محاولات جديده لارغامهم على الخروج من مخابئهم ، ومن ثم أمر معاونيه باضرام النار فى أماكن متعدده من المدينه ، عسى أن تخيف النيران هؤلاء الذين غلظت قلوبهم ورفضت الامتثال للارادة الربانية ، فتحملهم على البروز الى العراء ، ونجحت مناورته هذه وآتت أكلها ، فبعد أن كان عاجزا عجزا تاما قبل هذه اللحظة عن أن يجمع الرجال للقيام بواجبات الخدمه العامه ، اذا بهم يقبلون زرافات بقلوب ملؤها الحماس الشديد يندفعون لأدائها ٠

ويقال ايضا ان الناس من الحياه دفع بعضا من وجوه الرجال الى عقد اجتماع خاص ، قرروا فيه أن يعتصموا هذه الليلة بالذات للفرار خلسه الى الساطئ ، تاركين وراءهم الشعب وجيش الحجاج بأكمله ، غير أن خبر تدبيرهم هذا بلغ سمع الدوق وأسقف بوى الموقر فاستدعيا اليهما هؤلاء المذنبين وأسرفا فى تأنيبهم التأنيب المر ، وذكراهم أن وصمه العـار الأبدية ستطبعهم هم وذراريهم بميســمها ، ان هم خرجوا على ما يفرضـــه عليهم شرفهم وكريم أصـولهم ، أو اذا انسحبوا من هـــذا الحشد الكبير من المؤمنين بالمسيح ٠

فى وسط هذه الضـائقة كان هناك نقص بيِّن فى الطعام بين شعب الله بسبب أهوال المجاعه المهلكة ، وما يمارسه العدو من

الضغوط ، سواء من الداخل أو الخارج ، حتى لم يعد ثم علاج لما هم فيه ولا أمل لهم في نجـــدة بأبهم من أية ناحيـــة ، وعمت البلوى صغيرهم وكبيرهم على الســـواء ، وعجز كل واحد عن مســاعدة الآخر .

وكانوا اذا تذكروا نساءهم وفكروا في صغارهم الذين خلفوهم في بلادهم ، وأملاكهم الشاسعة التي ورثوها عن أسلافهم ، وكيف هجروها حبا في المسيح ، أسلموهم أنفسهم للتشكوى من عدم مجازاه الرب اياهم ، لأنه لم ينظر بعين الشفقة الى المتاعب التي تحملوها ، ولا الى صدق اخلاصهم ، بل ابتلاهم بدلا من ذلك بالبلايا كما لو كانوا شعبا غريبا عنه فأسلمهم الى أيدي الأعداء .

- ١٤ -

بينما كان شعب الرب يقاسي البلاء على هذه الصورة ، اذا بالسيد يعطف عليهم ويستمع الى أنينهم ويرسل الســـلوى من كرسيه السماوي ، فيقال ان قسيسا اسمه [بارتلميو] من المقاطعة المعروفة باسـم « بروفنس » جـاء الى أسقف بوي وكونت تولوز زاعما لهما أن الحواري المبارك أندروز كان قد ظهر له في المنـــام ثلاث أو أربع مرات متتالية وأمره أن يبادر ما وسعه البدار الى اخبار القادة أن الحربة التي طعن بها سيدنا عيسى المسيح في جنبه مدفونة في كنيسة أمير الحواريين ، وعليهم أن ينشطوا كل النشاط في التفتيش عنها في البقعة التي يبينها له الحواري بعلامات مميزة .

ومن ثم مضى بطرس الى خادمي الرب هذين المحبوبين ، وفصل

ليما الأمر الذى أقسم أنه حمّله . وبين أن الرسول [أندرور]
ارغمه على دلك مبدئا اياه بكثير من المتاعب . بيد أنه رفض أكثر
من مره اداء هده الرسالة ، لأنه لا يريد عن ان يكون رحلا فقيرا
جاهلا ، غير أنه لم يستطع فى النهاية أن يتجنب تنفيذ أمر الرسول
العاجل أكثر من هذا ، حتى ولو تعرضت حياته للخطر .

وتوسلوا بالسرية التامة فى نقل هذا الخبر الى القادة الآخرين ،
الذين جيء أمامهم ببطرس [بارثلميو] ليسمعوا منه حقيقة الأمر
وصورته فصدقوا روايته ، ثم اجتمعوا فى المكان الذى سماه لهم
فى ارباض الكنيسة المشار اليها آنفا . وحفروا الأرض هناك الى
عمق معين . فوجدوا الحربة كما قال بطرس [بارثلميو] تماما .

ولما سمع الناس هذا النبأ اندفعوا الى الكنيسة كأنهم رجل
واحد ، لأنهم شعروا ان السماء أرسلت لهم العزاء . وانهالت
الهدايا والمنح تمجيدا لاكتشاف هذه النعمة العالية ، وطرحوا عنهم
ما كان بهم من الفزع ، وتنفسوا الصعداء ، وأحسوا أن قد عاودهم
بأسهم من جديد لتنفيذ الأوامر المباركة ، وكان هناك البعض الذين
ادعوا أنهم رأوا رؤيا العين اشباح الملائكة والرسل الطوباويين ،
وكان ادعاؤهم هذا تعزيزا لقوة ايمانهم بحلم بطرس فارتفعت
نفسية الناس القانطة الحائرة ارتفاعا عجيبا .

وحينذاك استجاب جميع الزعماء لاقتراح الرجال الموقرين
الذين يخشون الرب وجددوا ايمانهم ، وقطعوا على أنفسهم العهد
بأن يخلص كل منهم النية للآخر ، وتعاهدوا — لئن تداركتهم رحمة
الرب مما هم فيه الآن من وضع حرج . ومنحتهم النصر الذى يرجونه
وظفرا على عدوهم .. ألا يفارق بعضهم بعضا . حتى يستعيدوا بعون
الله المدينة المقدسة والقبر المقدس ، ويردوهما للايمان المسيحى
وحريتهما القديمة .

ظل الناس يقاسون هذه الظروف غير المحتمله ستة وعشرين يوما متتاليه اطمأنت بعدها قلوبهم بعـــد طول وجيب ، وراحوا يشعرون عن سواعدهم في شجاعة لم تكن لديهم من قبل ، وأحسوا بالراحة بعد طول عذاب ، وكأنها أمل جاءهم من السماء ، واتفق الجميع صغيرهم وكبيرهم على أن لابد لكل هذه المساوئ من نهاية ، وأنه لابد لهم من يوم قريب جدا يقاتلون فيه الخصم ويستطيعون صد أعدائهم الذين يعتدون كثيرا بقوتهم الكبيرة ، فتتحرر يومذاك المدينه التي وهبها الله لهم ، ومن ثم راوا الخير في القيام بمحـاوله خوض الحرب مرة اخرى ، بدلا من ان يتركوا أنفسهم نهب الضياع يوما بعد يوم ، وهم في غمره المجاعة التي استمرت طويلا وأنه أجدى عليهم أن يحاولوا القتال بدلا من ان يتركوا أنفسهم للبأس ينـــوء عليهم بكلكله الذي لا نهايه له فيمتصهم ارهاقا .

كانت هذه هي أحاسيس الجميع الذين لم يعد ثم مفر أمامهم من الخروج من المدينة لمقاتلة العدو ، ولم تقتصر هذه الرغبـه على النبلاء وحدهم ، بل كانت تلتهب في نفوس العامة أيضا الذين ابا حملهم على ايهام قادتهم بالتراخي ، وكرهوا كل تريث من جانبهم .

ورأى القادة أن حماسة الناس انما هي أمر علوي ، فاجتمعوا للتشاور ، واتفق اجماعهم على أن يرسلوا وفادة الى القائد العام لعسكر العدو تعرض عليه الأخذ بواحد من اثنين :

اما أن يرحل ويترك المدينة للصليبيين لتكون ملكا لهم الى الأبد ، وهي المدينه التي عادت الآن اليهم بارادة الرب ، واما أن يستعد للقتال ، ويكون السيف هو الحكم بين الفريقين .

واختير لهذه البعثة الرجل الطاهر الذيل ، الذي ورد الكثير

عنه فى الصفحات السابقه ، وأعنى به بطرس الناسك ، وأشركوا معه رفيقه العاقل الفطن « هيرلوين » (١) الذى كان ملمـا ببعض الالمام باللغه الفارسيه وممكنا من لسان البارثيين ، وعهد القوم الى هذين الرجلين بتسليم العدو الافراج الذى ذكرناه . على انهم اضافوا الى ذلك شرطا آخر هو أنه اذا آثر الأمير الحرب فله أن يختـــار : اما المبارزة الفردية مع أحد الزعماء الصليبين ، أو أن يخرج عدد معين من رجاله ضد عدد مساو لهم من رجالنا ، فيبارز بعضـــهم بعضا ، واما أن يلتقى الجيشان وجها لوجه فى معركة عامه .

وتبادل الطرفان هدنه امان لارسال الوفاده ، فانطلق الرجلان اللذان أسرنا اليهما الى معسكر الأمير [كربوغا] مع الحرس الذى خصص لهما ، فوجدا كربوغا محاطا بكبار رجاله ونوابه .

وعلى الرغم من ان بطرس الناسك كان رجلا فقيرا الا انه كان يتمتع بروح عالية ، فأدى المهمة التى وكلت اليه فى صدق وحماسه ، واستطاع بسلوكه الرصين وبما طبع عليـــه من جراءة لا تعرف الخوف ، أن يقترب من البساط الفارسى دون أن يبدى أى خضوع ، وسلم الانذار قائلا :

« لقد أرسلنى مجمع الزعماء المقدس أحباب الله الموحدين فى أنطاكية ، ينهون الى سموكم أن تكف عن مضايقتهم ، وترفع الحصار عن المدينه التى أعادتها الرحمه الالهية الى أيديهم . والتى طهرتها

---

(١) يستفاد من هذا أن « هيرلوين » هـــذا كان يعرف اللســـانين العربى والفارسى الى جانب لغة ذلك العصر وهى اللاتينية ، وربما كان هناك مثله كثيرون اصطنعهم الصليبيون ممن يعرفون لغات هذه البلاد الشرقية وان كان عددهم ضئيلا ، أو كانوا معدودين دون الصليبيين مكانة لأنهم لم يكونوا محاربين ولكن أرغمتهم الأوضاع أن يكونوا فى صفوف المقاتلين . انظر الترجمة الانجليزية ، ص ٢٨٢ ، حاشية رقم ٨ والمراجع الوارده بها .

من الوسه بطرس أمير الحواريين العاقل المكمل لايمـــانـنا ، والذى اهتدت أنطاكيه بهـديه الى دين المسيح ، وصارت حقا لنا بفضــل قوه معجزاته وكلماته الكريمة المطويه على النصح والإرشاد ، ثم قدر أن ان تغتصب منا عدوانا وظلما ، فاعادها الينا السيد القوى ذو البأس الشديد ·

« وعلى ذلك فان القادة الصليبيين يعرضون عليك بما ينفى واحساسهم العميق بالمسئولية الموروثة من آبائنا خـدام المســيح المخلصين ان تختار واحدا من عده اقتراحات نضعها أمامك ، وهى أن ترفع الحصار وتنسحب وتكف عن مضايقه الصليبيين ، فان لم تفعل أندرناك تحرب بعد ثلاثه أيام تكون الحكم فيها للسيف بسكم وبينـ ، وزياده على ذلك فان أردت تجنب الصدام بتقديم عـذر مقبول فانهم يخيرونك بين عدة أمور تختار منها واحدا ، وهى اما أن تلتقى بنفسك وجها لوجه مع واحد من قوادنا فى مبارزه لا يكون فيها سواكما ، فان تغلب فيها عليه ملكت كل شىء ، وان هزمك رحلت وتركتنا آمنـين ، وأما الاقتراح الثانى فهو أن يخرج بضعه من فرسانك يقاتلون بضعة من فرساننا بما تاويهم عددا تحت نفس الشروط والا تقاتل الجيشان بأجمعهما من الجانبين فى معركه تقرر المصير » ·

★★★

لكن الأمير [كربوغا] ازدرى هذه العروض المقدمه اليه ، وقيل انه قال · « ما أظن يا بطرس العزيز أن وضع زعمائك الذين أرسلوك الى يسمح لهم باقتراح اختيارات يعرضونها علىّ ، أو أن يفرضوا علىّ اختيارا معينـا حسب أهوائهم ، ذلك لأن بسالتنا أجبرتهم على أن يكونوا فى حال لا يملكون معها حرية الاختيار ، بل

نعرض عليهم اما أن يغادروا البلاد ، واما أن يتخلوا عن رغباتهم بما يتفق وهواى أنا ٠

« فاذهب الآن الى هؤلاء القادة الأغبياء الذين أوفدوك ، ــ وقد عم عليهم الآن الوضع الذى هم فيه ــ وقل لهم انى سوف أستبقى عندى منهم كل من هم فى زهرة الشباب من الحسنين ليكونوا فى خدمة مولاى [السلطان] ، أما من سواهم فسوف أجعلهم نهب السيوف كأوراق الشجر المتساقطة حتى لا تبقى منهم من يذكر بهم ، ولولا انى آثرت أن أتركهم يلاقون الموت بالجوع القاسى بدلا من قتلهم بالسيف لدككت الأســوار عليهم منــذ زمن بعيد ولاستوليت على المدينة عنوة ، فيجنون ثمرة مسلكهم تحت ضربات السيف المنتقم » ٠

- ١٦ -

بعد أن عرف بطرس غفلة الأمير كربوغا الذى أرسلوه اليه ، وأدرك مدى سلوكه المتغطرس الناجم عن اعتداده بما لديه من ثروات لا تماثلها أية ثروات أخرى ، وكشف عن نيته كثرة جنده ، أقول بعد أن عرف بطرس ذلك كله استأذنه فى الانصراف وعاد الى جماعته ، فلما بلغ المدينة أراد أن يمضى الى الزعماء الذين بعثوه بالرد الذى حمله اليهم ، وكانت الجموع كلها من الكبار والشعب يتلهفون على سماع فحوى الرد ونتيجة السفارة ٠

وعزم بطرس [الناسك] على أن يقدم فى حضرة الناس جميعا تقريرا مفصلا بكل ما جرى خــلال اجتماعه بكربوغا ، وعن مسلك هذا الأمير المتغطرس ، كما قرر أن يسر الى تهــديداته وكبريائه

وعروره ، لكن جودفروى العظيم حاف أثر دلك على العامه ان هم ألمّوا بجميع تفاصيل الموضوع ، ذلك أن العامة وقد أنهكتها الشدائد المستمره ، وضعضع نفسيتها تراكم الأهوال عليها ، وقد يستبد بها الفزع الشديد فتنكب على وجهها خوفا ، لذلك قام [جودفروى] فأطفأ حماسه بطرس ومنعه من الاسترسال وسرد كل ما عنده ، وجذبه بعيدا عن الناس الذين تزاحموا عليه لسماع ما يقـــول ، واقترح عليه ألا يفصل كل ماحدث ، بل عليه أن يقتصر على موجز رد كربوغا ألا وهو تصميم العـــدو على القتـــال ، وأنه ينبغى على الصليبين أن يصرفوا كل اهتمامهم للاستعداد للحرب .

ومن ثم لم يعرف الناس مما حكاه بطرس الا أن العدو يطلب القتال . فاجتاحت الجميع صغيرهم وكبيرهم رغبة عارمة ولهفة ملحة للحرب ، واغتبطوا أشد الغبطة اذ بلغوا هـــذا الخبر ، وكانت عله فرحتهم هى ثقتهم بالنصر ، حتى كان يخيل للنـــاظر اليهم أنهم نسوا تماما ما كانوا فيه من الصراع ضـــد الأهوال التى كانوا يكابدونها ، وأفصحت وجوههم جميعا على اتفاق كلمتهم بأن يكونوا قلبا واحدا وفكرا واحدا ، فنودى فيهم أن المعركة واقعـــة غدا ، فعادوا بجوانح قد ملأتها الفرحة حتى لقد انقضى الليـــل دون أن تغمض لهم عين . شوقا للمعركة ، وجهزوا أســـلحتهم ، وأعدوا جيادهم ، وراحوا ينظفون صـــدرياتهم الحديدية ومغافرهم ، وهيأوا دروعهم ، وشحذوا سيوفهم ، ومن ثم لم يكن عندهم وقت للنـــوم أو الركون الى الراحه ، ونادى المنادى بين الجميع أن يخرج كل ذى سلاح وقادر على القتال عند تباشير الفجر وقبل شروق الشـــمس وينضم الى كتيبته ويقف خلف راية قائده المعين له ، فلما بزغ فجر اليوم التالى أقام القسس ورجال الدين الخدمة الدينيـــة فى كل الكنائس ، وقدموا القرابين ، ثم دعوا الناس الى الاعتراف بنفس ملؤها التواضع والمذلة كالعادة وحضّوهم على التوبة وتحصين أنفسهم

ضد رذائل الدنيا بتناول القربان الذى هو دم المسيح ولحمه ، فلما غفروا لهم خطاياهم وبعضوها الى نفوسهم وغاصت القلوب بمزيد من الحب الصادق ، مضى القوم الى القتال وهم أكثر ثقة من قبل كتلاميذ واتباع القائل (١) : « أنا أعطيكم أن تحبــوا بعضكم بعضا ، كما أحببتكم أنا تحبون انتم أيضا بعضكم بعضا . بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذى ان كان لكم حب بعض لبعض » .

بعــد أن تلقى جميع الكتائب الخدمة الدينية ، وغمر الهدوء القلوب ، انهالت عليهم النعمة من السماء انهيالا عجيبا .

كما ان أولئك الذين كانوا بالأمس واليوم الذى قبله مطروحين كأن قد فارقتهم الحياة ، وقد بلغ الضعف منهم مبلغا عجزوا معه عن أى شىء حتى عن تحريك جفونهم أو رؤوسهم ، وباخت عليهم الفاقة بكلكها ، وأمضهم الجوع ، حتى راحوا يلتمسون الأماكن الخفية عبر عابثين بمكانتهم التى كانوا عليها من قبل ، أقول انهم برزوا فى هذه اللحظة من تلقاء أنفسهم للعيان ، وتخلصوا من كل خوف وامتشقوا أسلحتهم فى بطولة كما لو كانت القوة دبت فى أوصالهم من جديد واستردوا اقدامهم الذى اعتادوه وراحوا يستعدون للحرب وكلهم أمل فى النصر ،وقلّ ان وجد فى هذا الحشد الكثيف شخص أيا كان عمره أو ظروفه لم يهىء نفسه للاضطلاع لكل عمل مجيد ، وحملوا كلهم سلاحهم ، وتنبأ الجمع بانتصار الصليبيين .

وراح القسس يطوفون بين صفوف العسكر ، وحيث يتجمع الناس ، وعليهم ثيابهم الكهنوتية حاملين الصلبان وصور القديسين فى أيديهم ، واعدين القوم بغفران الذنوب ومحو جميع آثام الخطاة ان هم استبسلوا فى القتال فى المعركة كحماة للعقيدة المسيحية التى

---

(١) يوحنا ، ١٣ . ٣٥ .

ورثوها عن آبائهم ، كما قام الأسافقة بارجاء النصح لأمراء الجيش وقواده أفرادا وجماعات ، وحثوهم على النضال ما أسعفتهم البلاغة التى أغدقتها عليهم السماء ، ومنحوا الناس بركاتهم ، واستودعوهم فى رعاية الله ، وكان فى مقدمة هؤلاء الأسافقة خادم المسيح الطوباوى أسقف بوى الذى دأب على اسداء النصح والمداومة على الصوم وملازمة الصلاة ، وبر الجميع كرما فى اخراج الصدقات ، وكان مستعدا على الدوام للتضحية بنفسه من أجل خاطر السيد .

- ١٧ -

تجمع الجميع كأنهم رجل واحد أمام باب الجسر وذلك ساعة اشراق صباح الثامن والعشرين من يونيه ، بعد أن ابتهلوا الى السماء أن تمدهم بالعون ، وأعدوا صفوفهم للمعركة بعد أن نسبوا للفيالق نظام السير وأسلوبه ، وذلك قبل مغادرتهم المدينة ، وتولى هيج العظيم ـ أخو ملك فرنسا ـ أمر الفيلق الأول كقائد له وحامل لرايته ، وجعلوا معه أنسلم دى ريبمونت الجدير بالثناء على كل ما يفعل ، وأشركوا معه أشرافا آخرين نعجز عن ذكر أسمائهم وعددهم .

وعهدوا بالفريق الثانى الى روبرت الملقب بالفريزيانى كونت فلاندرز ، ومعه من ضمهم معسكره من البداية ، أما روبرت دوق نورماندى فقد وكلوا اليه قيادة العسكر الثالث ، وكان معه ابن أخته الفاضل ستيفن كونت أومال وغيره ممن كانوا فى بطانته من النبلاء .

أما المبجل أدىمار أسقف بوى ، دو الذكر الغالى ، فقـــد قاد المجموعة الرابعة التى كانت تشتمل على خاصة أتباعه وأتباع كونت تولوز ، وكان [أديمار] يحمل حربة السيد المسيح ·

وأما رينارد كونت تول فقد كلفوه بأن يقود الفيلقين الرابع والخامس ، وكان معه أخوه بطرس دى ستيناى ، وكونت جارنييه دى جراى ، وهنرى دىس ، ورينولد فون أمرباخ ، وولتر دومدارد

وأمر الزعمـاء أن يكون على الفيلق الســادس رينبالد كونت أورانج ، ولدفيج دى موسنون ، ولامبرت بن كونون دى مونتاج ·

أما جودفروى دوق اللورين ذلك الأمير العظيم المبجل ، وأخوه الموقر لورد استاس ، فكانا على الكتيبة السابعة ، التى رتبهـا وفق النظام الحربى ·

وأما القسم الثامن [من الجيش] فكان بقيـادة تانكريد الفارس المعلم فى نبل خلقه وبراعته فى استعمال السلاح ·

وأما القسم التاسع فكان فيه هيج كونت سنت بول ، وابنه انجراند ، وتوماس دى لافير ، وبلدوين دى بورج ، وروبرت بن جيرادر ، ورينو دى بوفيه ، وجالو دى شومونت ·

وأما الفيلق العاشر فقد عهدوا به الى روبرو كونت بيرش ، وايفرارد دى بويسيه ، ودروجو دى مونسى ورالت ابن جودفروى وكونون روتو ·

وقاد الفيلق الحـادى عشر كل مـن ايزورد كونت ديى ، وريموند ببليه ، وجاسنون دى بزييـه وجيرارد دى روســـيلون ووليم دى مونبلييه ووليم أمانجو ·

أما الفيلق الثانى عشر وهو أكبر الفيالق جميعا فيؤلف مؤخره الجيش ، وقد عهدوا به الى لورد بوهيموند زعيما وقائدا ، ووكلوا اليه أمر هذه المؤخره كى يساعد القوات الأماميه فى اللحظات الحرجه ، كما عهدوا اليــه أن يرعى من قد يشتد عليهم ضغط العدو .

واشتدت وطأة المرض بكونت تولوز فى هذا الوقت ، فخلفوه وراءهم لحماية المدينة ، اذ لازالت قلعتها فى قبضة الترك الذين خيف على المدينة منهم أن يظنوها بلا مدافع بسبب غياب الزعماء ، فيحاولون الاغارة عليها ، ومباغتة من بهـا من الشيوخ العجزة والنساء وغيرهم من أهلها الذين ليس هناك من أحد يحميهم .

ولقد أقام الصليبيون على التل المواجه للقلعة سورا قويا من الأسمنت والحجر ، الى جانب استحكامات اضافية نصبت عليها بعض آلات الرمى ، كما تركوا بها مائتين من الشجعان الأشاوس المدججين بالسلاح للحفاظ عليها .

- ١٨ -

حتى رتبت قواتنا نفســها على هذه الصورة وهيأوا صفوفهم للقتال ، قرر الزعماء باتفاق الآراء أن يسير أمام الجيش بأجمعه ويتقدمه كل من هيج العظيم [أخو ملك فرنسا] . وكونت فلاندرز ودوق نورماندى . أما البقية فعليهم مراعاة الترتيب المتفق عليه ، وجاءت المشاة أولا ومن بعدهم مباشرة الخيالة كحراس لهم ، وأعلن نداء عام يحذر تحذيرا قاطعــا أى شخص من التجرؤ على مد ناظريه الى الغنائم والاسلاب ، بل يكون الاهتمام منصبا على كل ما فيه تحطيم الأعداء ، حتى اذا ما تم النصر للصليبيين ،

ودارت الدائرة على العدو ، امكنهم العودة بنفس راحـــة لجمع الغنيمة .

توقع كربوغا منذ اللحظة الأولى ـ لا سيما بعد زيارة بطرس [الناسك] له ـ أن لابد من قيام الصليبيين بشن غارة فجائية على معسكره ، ومن ثم فانه اتفق مع الأتراك الموجودين في القلعة أنه اذا لاحظ أحـدهم جمـاعة الصليبيين وهم يستعدون للخـروج من أية ساعة من ساعات يومهم فعلى اهل البلد المبادرة بموافاة معسكره باشارة اتفق عليها من قبل .

شرع رجالنا منذ أول ساعة من النهار في تنظيم صفوفهم . فلما لاحظ أتراك القلعة تحركاتهم بادروا فأعطوا الاشارة لمن في معسـكرهم ، فعزم كربوغا على التقـدم والحيلولة دون ما يريده ، وأرسل في الحال نحو ألفي فارس ليصرف نظر قواتنا الموجوده عنـد الجسر ويمنعها من مغادرة المدينة ، ثم ترجّل هؤلاء الرجال ونزلوا عن ظهور جيادهم ليكون هجومهم اشد عنفا . ولكي يجدوا مجالا أوسع لاستعمال أقواسهم ، فأمكنهم الاستيلاء على الطـريق البعيد من الجسر ، وأما الصليبيون فقد رتبوا صفوفهم . ووزعوا رجالهم وفق قواعد علم القتال ، ثم قاموا بعد ذلك بفتح البوابة ، وزحفت قبائلهم واحدا بعد اخر ، وكانت لا تزال مرابطة في مواضعها على نفس المسافات التي تفصل بين بعضها والبعض الآخر .

وبينما كانت كتائب العدو التي قدمت لمنع جماعتنا من الهجوم تجهد نفسها أشد الاجهاد لبلوغ هذه الغـــاية . عمد هيو العظيم الذي يتولى ـ كما قلنا ـ قيادة الفيلق الأول بارســـال كوكبة من المشاة ورماة الأقواس ، فشنت هجوما عنيفا على الترك الذين حاولوا المقاومة في بداية الأمر ، لكنهم ما لبثوا أن عجزوا أخيرا عن صد قواتنا ، واضطروا الى الفرار على غير نظام ، فاقتفى هيو أثرهم في

عنف لم يستطيعوا معه الوصول الى جيادهم وامتطائها الا بعد لأى وجهد ، وبينما كانوا لائذين بأذيال الهرب استبسل فى مهاجمتهم أسبلم دى ريموس الذائع الصيت الذى كان واقفا فى الصف الأول ، وقدم الدليل الناصع على شجاعته ، واندفع غير عابئ بسلامته حتى صار فى وسطهم وقد كشفوه من كل ناحية ولكنه صمد مردبا بعضهم وطاعنا بسيفه ناوب البعض الآخر ، وأبدى فى الفتك بهم كثيرا من البسالة التى دلت على قدرته واستلفتت اليه الأنظار ، وحدث اليه اصحاب جميع المحاربين ، فحف لنجدته جمع العظام ، وروبرت كونت فلاندرز ، وروبرت كونت نورماندى ، وبالدوين كونت هينولت ، واستاس أخو الدوق ، وقد امتلأت نفوسهم اعجابا ببطولته فضموا قواتهم بعضها الى بعض ، وكروا على العدو كره استاصلوا بها شأفة من لازال هناك من عسكره ، ثم تابعوا اقتفاء أثره الى مخيمه وكبدوا المارقين خسارة يعجز اللسان عن وصفها ·

- ١٩ -

بينما كانت قواتنا تغادر المدينة جرى أمر يستحق التسجيل، ذلك أنه فى اللحظة التى أخذوا فيها يتهيأون للعمل ، وقد صاروا بعسكرهم خارج الباب ، اذا ببعض من رجال العدو الذين دبروا أمر منعهم من الخروج يخرون صرعى ، ويلوذ غيرهم بالفرار ، وحدث فى هذه اللحظة بالذات أن أخذت حبيبات الندى اللذيذ تتساقط على الجيش الصليبى ، وكان رذاذا خفيفا لكنه أنعش رجالنا كل الانعاش ، ونزل عليهم بردا وسلاما ، حتى لكأن السيد ذاته هو الذى يمنحهم بركاته وعطفه ·

وما كان هذا الندى الحاوى المعطر نصيب أحد الا وبث الفرحه فى بدنه ، وينسى روحه ، ويسترد قوته تمام الاسترداد ، حتى لكأنه لم يشك قط مشقه ولم يلق صعوبه طوال رحلة الحج . ولم يقتصر ذلك على الرجال وحدهم ، بل ان الجياد دانيا عادت – بقوه الله – الى ما كانت عليه من النشاط ، على الرغم من انها ظلت لبضعة أيام سالفه لهذا الحدث لا تجد علفا تقتات به ، ولم يكن لها من طعام سوى ورق الأشجار ولحائها ، أما اليوم فقد جاوزت سرعتها وصبرها سرعه خيل العدو مع أن علف جياده كان من السعتر والتبن ·

أدى هذا الأمر الى أن بات الأمل فى النصر قويا ، وبعث هذا الندى فى جنودنا قوة احتمال طاغية فكأنه هو المراد بقول القائل(١)

« اللهم عند خروجك ··· الأرض ارتعدت ، السموات ايضا قطرت ··· مطرا غزيرا أنضحت يا الله ··· ميراثك وهو معيى أنت أصلحته »

والواقع أن جنودنا لم يخامرهم أدنى شك فى أن الذى نالهم انما هو رحمة الروح القدس قد نزلت عليهم ·

★★★

ولما أصبحت جميع الكتائب خارج المدينه صمم الزعماء على نشر العسكر حتى الجبال التى تبعد عن أنطاكيه قرابه ميلين ، واحتلال السهل بأكمله مخافة أن يحول العدو – بأعداده الضخمه – خلسه – او عنوة – بين قواتنا وبين المدينه ، فيكون فى ذلك الخطر علينا ، كما أنه يستطيع بهذه الطريقة – كما هى عادته – الاحداق

---

(١) مزامير ، ٦٨ ٩ – ١٠ ·

برجالنا من كل جانب ـ فسقط خط الرجعـــه على المتسللين الى المدينه . واخذ الصليبيون يتقدمون ببطء حتى لا تختلط صفوفهم بعضها ببعض ، او يختل نظامها . وقد شاءت الاراده الالهيه أن الصليبيين الذين كان يخيل لرائيهم ـ وهم وراء الأسوار ـ أنهم دون خصمهم عددا ، أو بقول أدق أنهم لا شيء مطلقا بالنسبة اليه ـ قد صـاروا وهم خارجهـا يوازونه عددا ان لم يكونوا أكثر منه حتما ، وهكذا قال « الواحد الذى بارك الأرغفه الخمسة فزاد فى بقاياها زيادة جمة بعد أن أكل الجميع حتى شبعوا قد جاء بمعجزه ليست دون هذه المعجزه حين زاد عدد هؤلاء الناس ، الذين وهبوا أنفسهم للعمل الصالح فى نظره ، وكان ذلك منه تمجيدا لاسمه » ٠

وكان القسس واللاويون الذين وهبوا أنفسهم للرب يسيرون فى ركب من خرجوا للقتـال متسربلين بمسـوحهم البيضـــاء ، ورافعين بأيديهم الصليب المجيد ، كما ظل بالمدينة طائفة من الكهنه وكانوا كأمثالهم مدثرين بمسوحهم الكهنوتيه ، واعتلوا الاسوار ورفعوا أيديهم الى السماء لا يكلون عن الابتهال الى السيد بدموعهم وصلواتهم أن يخلص شعبه الوفى ولا يأذن لمنكريه أن يرثوه ٠

- ٢٠ -

فهم كربوغا من الاشارة التى ظهرت على القلعه ومن مطالعته الهاربين المهزومين من أنطاكية عند زحف رجالنـــا ان الصليبيين أخذوا فى التقدم ، فدعا الى اجتماع عاجل حضره كبار الرجال فى السن وقواد عسكره ، للتشاور فى الوضع الذى كان ينظر اليه بازدراء ، ولكنه أصبح يشكل أمرا خطيرا حمّله على أن يتخوف

من هؤلاء القوم النافهين ، الدين سحر منه قليل جدا من معدابهم وعددهم الضئيل ، ومن ثم سرع في ترتيب قواته ، وتنظيم صفوفه استعدادا للقتال ونزولا على نصيحة مستشاريه . واحـده تجربه الأنطاكيين بعين الاعتبار واستطاع بكثير من المهاره تنظيم قواته وترتيب صفوفها للقتال ، وأقام حدا فاصلا بارزا بين الفيالق التى يتألف منها حرس مقدمته وبين السائرين خلفهم . وكان من بين تنظيماته الصارمة ما يلي .

هو أنه أرسل ناحيه الساحل كتيبه امتازت بكفاءة رجالهـا وشجاعتهم ، وقد فعل ذلك قبل أن يشغل الصليبيون كل السهل الواصل بين المدينة والجبال ، ويقال ان هذه الكتيبة كانت بقيادة قلج أرسلان أمير نيقية المشهور الذى تردد ذكره كثيرا فيما سبق ، وكان الهدف من هذه المناورة هو أنه اذا دارت الدائرة على شعب الرب ، واضطروا للهروب ، وجدوا أنفسهم وقد سدت سبل النجاه من خلفهم وقدامهم ، سواء كانوا يريدون الفرار الى البحر أو الى المدينة ، وبذلك يقعون بين القوات التى تطـاردهم . وبين الذين يحاولون منعهم من التقدم فتطحنهم رحى القتال بين شقيها .

ثم أقام كربوغا بقية عسكره على اليمين وعلى الشمال ، واضعا كل جماعة تحت قيادة قائدها الخاص . ونادى فى عسكره أنهـم ان أرادوا كسب عطفه عليهم ، فعليهـم أن يتذكروا ما عرفوا به على الدوام من الشجاعة الفائقة ، وأن يحـاربوا خصـومهم حربا لا هوادة فيها ، و لايلقوا بالا الى مجهودات قوم لا يدرون ما الحرب ، ولا يزيدون عن أنهم رعاع أنهكتهم المجاعة ، وأعوزهم السلاح ، وقل فى يدهم المال .

ولما احتلت قواتنا كل السهل احتلالا أمنوا معه أن يحدق بهم أى خطر أمروا بدق الطبول ايذانا بالزحف ، وسرع العسكر فى التقدم شيئا فشيئا نحو صفوف العدو ، يتقدمهم حاملو الرايات ، حتى اذا صاروا قريبين من المارقين قربا أعجز الأخيرين عن رميهم بالسهام ، اندفعت الى الامام فى آن واحد صفوفنا الثلاثة الأولى ، وقاتل رجالها العدو بالسيوف والرماح فى الأحياء القريبة .

أما مشاتنا وهم رماة الأقواس والمنجنيق ، فقد سبقوا كتائب الفرسان ، وراح الجميع ينافس بعضهم بعضا ، وشنوا من الهجوم أعنفه .

ثم جاء الفرسان فى أعقاب المشاة ، باذلين أقصى الجهد لحماية الطليعة ، وبينما كانت الصفوف الأولى تبذل قصارى جهدها فى القتال ، هب لمعاونتهم من كانوا وراءهم مسترسلين فى الهجوم ، فأثاروا الطليعة للقيام بأعمال أكثر شجاعة وأعظم جرأة ، وهجمت جميع القوات الصليبية باستثناء المؤخرة — التى بقيادة بوهيموند — على العدو وحاربته فى بطولة ، وانسحر القتل فى كثير من الترك ، ودبت الفوضى فى صفوف الباقين فركنوا الى الفرار ، وقضى الدوق ووحدته قضاء مبرما على أقرب وحدات العدو اليه ، غير أنه حدث فى هذه اللحظة أن عاد قلج أرسلان بفيلقه الذى كان — كما قلنا من قبل — قد قاده متجها ناحية الشاطئ وكر به كرة عنيفة من الخلف على كتيبة بوهيموند ، وراح يرشقها بوابل من السهام التى راحت تتساقط مدارا حتى غطتهم جميعا ، ثم نحت قوات قلج أرسلان الأقواس جانبا وتجنبت تكتيكاتها المألوفة ، وهاجمت بوهيموند بالهراوات والسيوف وكانت الكرة عليه أضرى ما تكون ، حتى لم تعد صفوفه قادرة على تحمل ضغط هذا الهجوم الشرس ، فدب الاضطراب فى صفوف كتيبته على الرغم من صموده للعدو ،

هو وبلة صئيله من رفاقه ، كما أبدى من البسالة الفائقه ما هو قمين به كقائد ، على أنه فى هذه اللحظة الحرجة اسـتجاب الدوق جودفروى لما نودى عليه ، وأسرع بقواته لمساعدة بوهيموند ، وكان ممن جاء مع الدوق من الرجال تنكريد القائد المقدام ، وترتب على مجىء هؤلاء الرجال خير كبير ، تمثل فى توازن قواتهم مع قوات العدو الذى تلاشى بأسـه مما شجع الصليبيين على ملاحقته ، غير عابئين أن يصـابوا فيجرحـون أو يقتلون ، فلما رأى الخصم أن قوته لبست معادلة لقواتنا ، وأدرك أنه لن يستطيع تحمل بأس خصومه أكثر من هذا عمد عسكره الى حيل أخرى ، وكان منهـا رجوعهم الى مألوف عادتهم ، فأضرموا النار فى الزروع ، فأججت لوجـود كميات وفيره من الحشـائش الجافة وأكوام القش التى سرعان ما أمسكت بها النيران ، وساعدت على اتساع مدى الحريق، وعلى الرغم من أن اللهيب كان بسيطا الا أنه أسفر عن دخان كثيف خانق ، فحالت هذه الغمامة بين جيشنا وبين مطاردته العدو بشده ، ذلك لأن ما أثارته أقدام كثير من الرجـال والجنـود من الغبار والتراب ، أزاغت أبصارهم وكادت ان تعميها ، حتى لم تكد ترى شيئا ، فاغتنم العدو وجود هذا الدخان ، واتخذ منه ستارا استخدمه بمهارة فى تحقيق غرضه ، فهاجم قواتنا وفتك بطائفة من مشاتنا ، غير أن سرعة عدو جياد الفرسان ساعدتهم على تجنب أخطار الدخان الكثيف ، فكروا عائدين الى ساحة المعركة ، وجـاءهم الغوث من السماء ، فاستمروا فى القتال حتى نجحوا آخر الأمر بفضل تجدد نشاطهم ، فى ارغام العدو المارق على الهروب أمام سيوفهم الظامئة للانتقام ، ولم يكفوا عن مطـاردته ، حتى حملوه — وقد اضطربت صفوفه أشد الاضطراب — على الارتداد الى حيث يوجد اخوانهم .

- ٢١ -

كان على مقربه من ساحه المعركه واد صغير ، اذا حل الشتاء غمره السيل المتدفق من قمة الجبل العالية ، وقد تمكن قواتنا من طرد العدو الى ما وراء هذا المجرى المائى ، ولم ينوان رجاله عن بذل أقصى جهدهم فى سبيب أقدامهم فوق تل يعلو هذا السهل قليلا ، وراحوا ينفخون فى الأبواق ، ويدقون الطبول فى محاولة منهم لاستدعاء عساكرهم المشتتة هنا وهناك ، ولكن زعماءنا انطلقوا يتعقبونهم دون أن يتوقفوا ولو لحظة واحدة ، وسرعان ما أدركوهم، وبينما كانت المعركة الكبرى دائـرة اذ أقبل من المؤخـرة الدوق جودفروى وبوهيموند وتانكريد وغيرهم من أشراف الرجـــال ، وقاتلوا كتائب قلج أرسلان واستأصلوا شأفتهم بمعونه الرب •

فى هده الأثنــاء تمكنت الطليعة المؤلفــه من هيج الكبير ، وروبرت كونت فلاندرز ، وروبرت كونت نورماندى مع الكثيرين ممن يستحقون الذكر الأبدى ، من حمل العســكر المعادى لهم على الهرب ، فاجتاز هؤلاء المحاربون الوادى ، وأزاحوا العدو عنوة من على الجبل ، وأرغموه مرة أخرى على الفرار ، وقد ضربت الفوضى أجرانها عليه ، ولم يعد قادرا على احتمال الضغط الذى مارســته القوات الصليبية عليه •

ظل كربوغا منذ بدء القتال بعيدا عن ساحة المعركه مرابطا على تل معين ، وكانت الرسل موصولة الغدو والرواح حاملة له أخبار المعركه ، وبينما كان يترقب فى لهفة نتيجة هذا الصراع العام ، اذا به يطالع ــ فجأة ــ اختلال نظام قواته وتفرقها ، وفرار عسكره على وجوههم فى شتى النواحى على غير هدى ، وتفرقهم أيدى سبأ ، فغمره الحزن الممض حين أدرك مدى النكبة التى حلت بهم فنصحه

أتباعه بالعمل بكل الوسائل على ما فيه سلامه ، فغادر المعسكر على عجل لائذا بأذيال الفرار غير عابئ مطلقا برجاله ، ولا مسطرا احدا منهم ، وأحد يتبدل على الدوام الجياد على طول الطريق لسهل هروبه ، حتى بلغ نهر الفرات ، فعبره وهو في حال من الفزع الشديد ، فلما بلغ شاطئه الآخر لم يصدق أنه بلغه سالما ·

حين ساهدت قوات العدو تخلي قائدها عنها وحرمانهـا من مساعدته اياها ، زايلتها شجاعتها وتلاشى عزمها ، فاستولى رجالها على كل ما عثروا عليه من الحبل ، وحذوا حذو كبيرهم فأمعنوا في الهروب حتى لا يكونوا طعما لسيوف مطارديهم ·

ولم يكف رجالنـا عن مطاردتهم الا لحوفهـم من أن تنفق جيادهم تحتهم من طول المطاردة ، بيد أن تانكريد وشرذمة صغيرة معه قصوهم مسافة ثلاثة أو أربعة أميال ، حتى حانت ساعة الغروب فرجعوا بعد أن أوقعوا الفزع الأكبر في قلوبهم ·

ابتلت القوة الالهية نفوس هؤلاء الفارين بالحوف ، حتى انهم لم يستطيعوا الصمود لهجمات المعتدين عليهـم ولا صـدها ، اذ يخالون العشرة من رجالنا آلافا مؤلفة ، كما أنهم لم يجدوا أحدا يهديهـم ويأخذ بيدهم أثناء هروبهـم أماما ، وتوضـح هذه الحقيقة أنه ظهر صدق المثل القائل (١) ·

« ليس حكمة ولا فطنة ولا مشورة تجاه الرب » ·

وظهر جليا في هذه التجربة ذاتها أن قوما أهل مسغبة تكاد المجاعة تقضي عليهم يصبحون ذوي بأس شديد ، قادرين بمعونة الرب على هزيمة مثل هذا الجيش الكبير من المحاربين الأقوياء وأن

---

(١) أمثال ، ٢١ ، ٢٠ ·

ينحقق لهم في معركة واحده فوق كل ما كانوا يأملون ، اذ ينمكنون من دحر حمبع فوة المسرف الذى لا يعرف الرب ..

- ٢٢ -

حين فرع رحالنا من المعركه ومنحتهم السماء النصر ، انفلنوا الى مخيمات العدو فوجدوها راحرة بكل ما هو ضرورى وما لا غنى لهم عنه ، وعسروا على أحمال كبيره من الأمنعه الشرقيه الغالبه التى بلغت من الصخامه قدرا كان من المستحيل معه عدها وتقديرها ، وهي غنائم من الدهب والفضة والجواهر والحرير والملابس الغاليه، الى جانب الأدوات المىرلية الرائعـه الصنعة ، النفيسـه المادة ، كما وجد هناك أعداد ضحمه من الجياد وقطعان الماشية وأسراب الأغنام ، بالاضافه الى مقادير هائله من الأطعمـة والحبـوب ، وكان ما عنموه شيئا عطيم الوفرة ، حتى لقد نحير من كانوا حتى الآن مملقين أشد الاملاق مادا يأخذون وماذا يىركون ، واستولوا على خيام العدو وفساطيطه التى كانوا فى حاجـة ملحة اليهـا ، لأن ما كان لديهم منهـا من قبل قد قدم العهد به ورث ، وأبلاه هطول المطـر الغزير عليـه ، مما جعله فى الواقع غير صـالح للاستعمال .

ثم عادوا الى أنطاكية وقد فاضت أيديهم بالغنـائم الجمة ، فكان مما عادوا به مما خلفه الأتراك وراءهم حـين فرارهم الاماء والأطفال ، كما استولوا على مخيم القائد العـام ، وهو قطعة من الابداع فى الصنعة قد نسج أغلبه من أحسن أنواع الحرير المتعدد الألوان ، وكان هذا الفسطاط مؤلفـا من حجرات تمتد الى جهات

بعيدة ، ويفصلها بعضها عن بعض الشوارع ، وقيل ان هذه الخيمة كانت تسع لألفين من الرجال لايزاحم الواحد منهم فيها الآخـــر ولا يضايقه ٠

رجع الصليبيون الى المدينة محملين بكل ما أصابوه من الغنائم والأسلاب ، وعدوا يومهم هذا يوم فرحة عامرة بسبب النصر الذى أحرزوه ، وعادوا شاكرين من جادت يده عليهم بالغلبة التى وافتهم بعد طول انتظار ، وبعدما قاسوه من الكوارث ، وما نزل بهـم من المصائب العديدة ٠

أما الترك الذين لازالت القلعة فى أيديهم فقد أدركوا الآن أن قد حاقت الهزيمة بحلفائهم ، ودارت عليهم الدائـرة ، ففقـدوا كل أمل كان يراودهم فى نجدة تأتيهم من أى مصـدر ، وحينذاك أسلموا القلعــة لقادتنا الذين خفقت أعلامهم على شاهق أبراجهـا ، غير أن الترك اشترطوا عليهم أن يأذنوا لهم بالخروج ســالمين ، لايعرض لهم أحد بسوء فى أنفسهم ، ولا فى أولادهم ، ولا فيما ملكت أيديهم ٠

ومن ثم تم نصر الصليبيين ، واستحوذوا على القلعة برحمة الرب الكبيرة الشاملة ، وأصبح من كانوا بالأمس الدابر فى شدة الاملاق والجوع : أغنياء كل الغنى اليوم بما ملكته أيديهم من كل طيب ٠

لقد مرت عليهم أيام عجاف صار فيها أصلب الحجاج عودا من أصحاب الأسماء الرنانة وذوى الصيت الذائع ــ ولا نذكر العامة أقول مرت أيام صار فيها هؤلاء وقد ضاقت بهـم الحيـاة ضـيقا اضطروا معه الى الاستجداء ومد أيديهم بالسؤال ، وحسبنا أن نذكر منهم كونت هارتمان ــ أحد نبلاء المملكة التيوتونية ــ فقد صحا ذات يوم ليجد نفسه فى فقر مدقع ، وأصـبح هذا النبيـل

العظيم يرى المنة الكبرى أن يتصدق عليه الدوق كل يوم بخبز يجود به عليه من مائدته ·

وشابهه أيضا « هنرى ديتس » ، وكان رجلا فاضلا مرموقا ، اذ كاد — من غير مبالغة — أن يهلك جوعا ، لو لم يستضفه الدوق على مائدته ·

وفى أثناء هذا الحصار كابد الدوق ذاته مشقة كبيرة قبل المعركة لعدم وجود خيل لديه ، لكنه استطاع بعد لأى ومشقة ، وبعد ان قدّم ما قدّم من السماسات جمة الى كوت بولور ، أن يحصل منه على جواد واحد يمضى به الى المعركة ، وكان جود فروى وسواه من الزعماء الآخرين قد أنفقوا هم أيضا كل ما كانوا قد جاءوا به من المال ، اذ بذلوه فى أعمال البر والرحمة ، لاسيما ما كان منها متعلقا بالنفقة العامة ·

وهكذا شهدت ساحة المعركة — يوم نشبت المعركة — رجالا أبطالا دوى حسب يمضون الىها مشاة ليس عندهم ظهر يركبونه ، وبعضهم يمتطى الحمير وأمثالها من دواب النقل ، ذلك لأنهم كانوا قد أفنوا كل ما معهم من المال ، وأصبحوا اليوم مملقين ليس لديهم خبـــز ·

غير أن الله كلأهم برحمته قبل غروب شمس ذلك اليوم ، فأنزل الهزيمة بالاعداء ، وأغدق على أتباعه المحتاجين من الثروة فوق الذى يشتهون وفوق ما يتصورون ، ومن الواضح ان هذا كان تكرارا لقصة السامرة القديمة حين بلغ ثمن بيع المكيال من الدقيق الطحين والشعير قطعة واحدة من النقود (١) ، ولكن لم يمس المساء

---

(١) هذه اشارة الى ما جاء فى التوراة من خبر نبوة النبى بالرخص فى السامرة ، اذ ورد فى الملوك الثانى ٧ / ١ « وقال النبى اسمعوا كلام الرب ، هكذا قال الرب فى مثل هذا الوقت · غدا تكون كيلة الدقيق بشاقل ، وكيلتا الشعير بشاقل فى باب السامره » ·

على من لم يكن عنده غير ما يمسك رمقه الا وقد توفر له منه ما زاد عن حاجته وما يكفى أن يقيم أود الكثيرين معه .

ولقد وقعت هذه الوقعة فى اليوم الثامن والعشرين من شهر يونيو ١٠٩٨ من ميلاد المسيح .

- ٢٣ -

لم يكد القادة يعودون من ساحة القتال ويستتب شئ من السلام والنظام حتى انصرفت همة الجميع للعناية بالكنائس . وكان أشد القوم احساسا بالمسئولية تجاه هذا الأهتمام [أديمار دى مونتيل] أسقف بوى المعظّم ، باعتباره راعي الجيش . وعاونه بقيه من فى الجيش من القسس معاونه صادقة مخلصه ، كما أقبل الناس يمدون يد المساعدة عن طيب خاطر ، وبهذا عادت الكنيسة الرئيسة المهداه الى أمير الحواريين وبقيه كنائس أنطاكيـــة الى مكانتها التى كانت عليها فى الأصل ، وأقام فيها القساوسة الذين وهبوا أنفسهم على الدوام للقيام بالخدمات الدينية .

كان الترك قد دنسوا الأماكن الطاهرة وأخرجوا منها من كان بها من أهل التقوى ، واستخدموا الكنائس استخداما شــاذنا . فحولوا بعض هذه الأماكن المقدسه الى اسطبلات للخيل ولغيرهـا من دواب النقل ، ومارسوا فى غيرها أعمالا دنسة ، وطمسوا صور القديسين المبجلين التى كانت على جدران هذه المواضع ، وازالوا الرموز التى كانت تقوم مقام الكتب والقراءة لعباد الرب المستضعفين. وكان ما طمسوه أشياء تبعث التقوى فى نفوس البسطاء ، فصبّ

الترك عصبهم على هذه الاشياء كما لو كانت أحياء يحسون ، فراحوا يسملون عيونهم ، ويجدعون أنوفها ، ويطمسون هذه الصور بالطين. ويلوثونها بالقاذورات ، ويهدمون المذابح ، ويدنسون هيكل الرب بفعالهم المسكرة ، فاتفق الاجماع حينذاك على أن يعود رجال الدين في لحظتهم لممارسة الأعمال التي كانت مناطة بهم من قبل في الكنائس ، وأن يجمع المال ليعوضوا به المحاربين في سبيل الرب ، وأن يؤخذ ما غنموا من ذهب العدو وفضته فيصنعون من ذلك الشمعدانات والصلبان وكؤوس القرابين ، ويرسم عليها صور مستمدة من الكتاب المقدس ، وتستخدم في كل ما هو ضروري ولازم للخدمة في الكنيسة ، كما قدموا الأقمشة الحريرية لصنع الملابس الكهنوتية وأغطية المذابح ٠

وأعيد البطرك «يوحنا» الصادق الايمان الى أبرشيته ، وكان قد كابد من العذاب على أيدي الترك بعد مقدم الصليبيين ما يعجز اللسان عن وصفه ٠

أما المدن المجاورة التي كانت تتمتع بوجود كنائس كندرائية بها فقد نصبوا أساقفة يرعونها ، كما وجدوا — من ناحية أخرى — أنه ليس من اللائق اختيار أو ترسيم بطرك لاتيني في الوقت الذي كان فيه شاغل هذا المكان الموقر لا يزال على قيد الحياة ، وذلك تحاشيا من وجود اثنين يشغلان نفس الكرسي في وقت واحد ، مما يعتبر مخالفة صريحة لقوانين الآباء المقدسين وقراراتهم المنظمة ٠ على أنه قبل انقضاء عامين غادر البطرك يوحنا بمحض ارادته أنطاكية ، ومضى الى القسطنطينية ، وذلك ادراكا منه أنه لن يكون قادرا — كيوناني — على أن يحكم بفعالية على اللاتين ؛ فلما غادرها اجتمع رجال الدين والشعب واختاروا بطركا آخر لهم هو برنارد أسقف « أرتاح » من أهل فالنسيا وهو الذي صاحب أسقف بوى في هذه الحملة كاشين له ٠

ثم امتثل الجميع للعهد الذى قطعوه على أنفسهم فى البدايه الا وهو أن تكون السلطه والحكم فى أنطاكيه لبوهيموند ، ففعلوا ما اتفقوا عليه ، ولم يشذ عنهم سوى كونت تولوز ، الذى احتفظ بالبوابه الملاصقه للجسر وبجميع الأبراج المتصله بها ، وأقام فيها حامية من رجاله تتولى أمر حراستها ٠

على أنه بعد مغادرة الكونت لأنطاكية عمد بوهيموند الى طرد جند [ريموند] من هناك ، وأحل حامية من رجاله محلهم لحراستها ، واستولى على المكان كما سنرى خبر ذلك فيما بعد ٠

ولقد خلع خاصه رجال بوهيموند عليه لقبا تعظيما ألا وهو « الأمـير » ، الذى أصبح منـذ هذه اللحظه لقبا لصاحب أنطاكيه لا يشاركه فيه أحد غيره ٠

هنا ينتهى الكتاب السادس

●● بهذا ينتهى الجزء الأول من الترجمة العربية لكتاب الأعمـال التى تم انجازهـا فيمـا وراء البحار أو تاريخ الحروب الصليبية تأليف وليم الصورى ، ويليه الجزء الثانى متضمنا الكتاب السابع حتى الثانى عشر ٠

الفهرس

● **صدر من هذه السلسلة :**

١ – مصطفى كامل فى محكمة التاريخ

د. عبد العظيم رمضان

٢ – على ماهر

اعداد : رشوان محمود جاب الله

٣ – ثوره يوليو والطبقة العاملة

اعداد : عبد السلام عبد الحليم عامر

٤ – التيارات الفكريه فى مصر المعاصرة

د. محمد نعمان جلال

٥ – غارات أوربا على الشواطىء المصريه فى العصور الوسطى

عليه عبد السميع

٦ – هؤلاء الرجال من مصر ج ١

لمعى المطيعى

٧ – صلاح الدين الأيوبى

د. عبد المنعم ماجد

د. محمد أنيس

٨ – رؤيه الجبرتى لأزمة الحياة الفكرية

د. على بركات

٩ – صفحات مطويه من تاريخ الزعيم مصطفى كامل

١٠ – توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية

محمود فوزى

١١ ـ مائة شخصية مصرية وشخصية

شكري القاضي

١٢ ـ هدى شعراوي وعصر التنوير

د. نبيل راغب

١٣ ـ أكذوبة الاستعمار المصري للسودان

د. عبد العظيم رمضان

١٤ ـ مصر في عصر الولاة

د. سيدة إسماعيل كاشف

١٥ ـ المستشرقون والتاريخ الإسلامي

د. علي حسني الخربوطلي

١٦ ـ فصول من تاريخ حركة الإصلاح الاجتماعي في مصر

د. حلمي أحمد شلبي

١٧ ـ القضاء الشرعي في مصر في العصر العثماني

د. محمد نصر فرحات

١٨ ـ الجواري في مجتمع القاهرة المملوكية

د. علي السيد محمود

١٩ ـ مصر القديمة وقصة توحيد القطرين

د. أحمد محمود صابون

٢٠ ـ المراسلات السرية بين سعد زغلول وعبد الرحمن فهمي

د. محمد أنيس

٢١ ـ التصوف في مصر إبان العصر العثماني ج ١

توفيق الطويل

٢٢ ـ نظرات في تاريخ مصر

جمال بدوي

٢٣ ـ التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى جـ٢
توفيق الطويل

٢٤ ـ الصحافة الوفدية
د. نجوى كامل

٢٥ ـ المجتمع الاسلامى
ترجمة : د. عبد الرحيم مصطفى

٢٦ ـ تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة
د. سعيد اسماعيل على

٢٧ ـ فتح العرب لمصر جـ ١
ترجمة : محمد فريد أبو حديد

٢٨ ـ فتح العرب لمصر جـ ٢
ترجمة : محمد فريد ابو حديد

٢٩ ـ مصر فى عصر الاخشيديين
د . سيدة اسماعيل كاشف

٣٠ ـ الموظفون فى مصر
د. حلمى أحمد شلبى

٣١ ـ خمسون شخصية وشخصية
شكرى القاضى

٣٢ ـ هؤلاء الرجال من مصر جـ٢
لمعى المطيعى

٣٣ ـ مصر وقضايا الجنوب الافريقى
د. خالد الكومى

٣٤ ـ تاريخ العلاقات المصرية المغربية
د. يونان لبيب رزق

٣٥ ـ اعلام الموسيقى المصريه عبر ١٥٠ سنة
عبد الحميد توفيق زكى

٣٦ ـ المجتمع الاسلامى والعرب حـ ٢
ترجمة : د٠ أحمد عبد الرحيم مصطفى

٣٧ ـ النسخ على يوسف
تأليف : د٠ سليمان صالح

٣٨ ـ فصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمانى
د٠ عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم

٣٩ ـ قصة احتلال محمد على لليونان
د ٠ جميل عبيد

٤٠ ـ الأسلحه الفاسدة
د٠ عبد المنعم الدسوقى الجميعى

٤١ ـ محمد فريد الموقف والمأساة
رفعت السعيد

٤٢ ـ تكوين مصر عبر العصور
محمد شفيق غبريال

٤٣ ـ رحلة فى عقول مصرية
ابراهيم عبد العزيز

٤٤ ـ الأوقاف والحياة الاقتصادية فى مصر فى العصر العثمانى
د ٠ محمد عفيفى

هذا الكتاب ، تاريخ الحروب الصليبية ، عمل علمى كبير لوليم الصورى الذى يعرفه طلاب الدراسات التاريخية كاحد اعظم المصادر فى تاريخ هذه الحروب ، وهو يعالج الفترة التى امتدت من عام ١٠٩٤ ـ ١١٨٤ والفترة التى تليها اى على مدى قرن ونصف من الزمان والتى اخذت تتدفق فيها الهجرات الشعبية المسلحة المتسربلة بمسوح الدين والصليب ، وهى التى عرفت باسم الحملات الصليبية .

وهذه الترجمة سوف تصدر فى اربعة مجلدات ـ هذا اولها ـ اثبت فيها الاستاذ الدكتور حسن حبشى مكانته العلمية وتفرد بقدر عظيم من الدقة التى ترسم للجيل الجديد من المؤرخين الطريق للوصول إلى الاستاذية بمعناها الصحيح .

٣٧٥ قرشا